

زَهْرُ الْأَدْبَارِ فِي مِثَرِ الْأَلْبَابِ

لأبي إسحاق إبراهيم بن عليّ الحنبلّي الشيرازي
(المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٦١م)

شَدِيدُ النَّقْطَةِ وَفَرِحَةُ رُوضِ مَهَارِقِهِ
الدكتور صلاح الدين الحواري

المكتبة العصرية
بيروت - لبنان

زَهْرُ الْأَرْبَابِ وَمِثْرُ الْأَلْبَابِ

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م)

قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهرسه
الدكتور صلاح الدين الهواري

المجلد الثالث

المكتبة العصرية
مستيد - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - 2001 م

شركة أبناء شريف الانصاري للطباعة
والدعائم والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار التكنولوجية المطبعة العصرية

سيزوت - ص ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠٥

صيتدا - ص ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٣١٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نبذ من أفاظ بلغاء أهل العصر

تجرى في المدح مجرى الأمثال؛ لحسن استعارتها، وبراعة تشبيهاتها.

فلان مُسْتَرْضِعٌ نَدَى المجد، مُقْتَرَشٌ حَجَرُ الفضل، له صَدْرٌ تَضِيقُ به الدَّهْنَاءُ، وتَفْزَعُ إليه الدَّهْمَاءُ^(١)، له في كل مكربة غُرَّةُ الإِصْبَاحِ^(٢)، وفي كل فضيلة قادمةُ الجَنَاحِ^(٣)، له صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح، ويترقرق فيها ماءُ الكرم، وتقرأ فيها صحيفةُ حُسنِ البشر، تحيا القلوب بلفائه، قبل أن يُيَمِّتَ الْفَقْرَ بعمائه، له خُلُقٌ لو مُرِّجَ به البحرُ لنفى مُلُوحَتَهُ، وكفى كدورته. هو غذاءُ الحياة، ونسيمُ العشق، ومادةُ الفضل؛ أَرَاؤُهُ سكاكين في مفاصل الخُطوب، له هِمَّةٌ تعزل السَّمَاكَ الأعْزَل، وتجَرِّ ذَيْلُهَا على المَجْرَةِ، هو راجعٌ في موازين العقل، سابقٌ في ميادين الفضل، يَفْتَرِعُ^(٤) أَبْكَارَ المكارم، ويرْفَعُ مَنَارَ المحاسن. يتابع الجود تنفجر من أنامله، وربيعُ السماء يَضْحَكُ من قَوَاضِيهِ. هو بيتُ القصيدة، وأولُ الجُرَيْدة، وعَيْنُ الكَتِيبة، واسطةُ القِلَادَةِ، وإنْسَانُ الحَدَقَةِ^(٥)، ودُرَّةُ التاج، ونقشُ الفَصِّ! وهو مِلْحُ الأرض، وِدْرُغُ المِلَّةِ، ولسانُ الشريعة، وحِصْنُ الأمة. هو غُرَّةُ الذَّهْرِ والزمان، وناظرُ الإيمان. له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفضلِ وشيَمَ تَشَامُ منها بَوَارِقُ المَجْدِ^(٦)، أَرَجَ الزمانُ بِفَضْلِهِ، وَعَقِمَ النِّسَاءُ عن الإِتْيَانِ بمثله. الجميلُ لديه مُعْتَادٌ، والفضلُ منه مَبْدُوءٌ ومُعَادٌ، مَالُهُ

(١) الدهماء: الفلاة. الدهماء: ليلة تسع وعشرين من الشهر القمري، سميت بذلك لأنها تكون شديدة السواد.

(٢) الغُرَّةُ من كل شيء: أوله وأكرمه.

(٣) القادمة: إحدى ريشات عشر كبار، أو إحدى أربع في مقدم الجناح.

(٤) يفتري: يفتن.

(٥) إنسان الحدقة: ناظرها، سوادها.

(٦) الشَّيْمُ: جمع شيمة: الخُلُق. وشام البرق والسحاب: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره.

لِلْعَفَاةِ^(١) مُبَاحٌ، وَفَعَالُهُ فِي ظِلْمَةِ الدَّهْرِ مِصْبَاحٌ، كَانَ قَلْبُهُ عَيْنَ، وَكَأَن جِسْمَهُ سَمْعٌ، يَرَى بِأَوَّلِ رَأْيِهِ آخَرَ الْأَمْرِ، جَوْهَرٌ مِنْ جَوَاهِرِ الشَّرَفِ لَا مِنْ جَوَاهِرِ الصَّدْفِ، وَيَاقُوتَةٌ مِنْ يَوَاقِيتِ الْأَحْزَارِ لَا يَوَاقِيتِ الْأَحْجَارِ، طَلَعَتْهُ لِلْبِشَاشَةِ عَلَيْهَا دِيْبَاجَةٌ خُسْرَوَانِيَّةٌ، وَفِيهَا لِلطَّلَاقَةِ رَوْصَةٌ رَيْبِيْعِيَّةٌ. وَجَهَةٌ كَأَن بَشَرَتَهُ نَشْرُ الْبَشَرِ، وَمَوَاجِهُتُهُ أَمَانٌ مِنَ الدَّهْرِ. يَصِلُ بِبِشْرِهِ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ بِبِرِّهِ، قَدْ لَحِظْتَ مِنْ وَجْهِهِ الْأَنْوَارَ، وَمِنْ بَنَانِهِ النُّوَارَ. أَنَا مِنْ كَرَمِ عَشْرَتِهِ، وَطَلَاقَةِ أُسْرَتِهِ، فِي رَوْضِيَّةٍ وَغَدِيرٍ، وَجَنَّةٍ وَحَرِيرٍ، وَهُوَ بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ مَمْدُودٌ بِسَبْعَةِ أَبْحَرٍ، وَيَوْمُهُ مِنْ يَوْمِ الْأَدَبِ كَعَمْرِ سَبْعَةِ أَثْنَرٍ. الْعِلْمُ حَشْوُ ثِيَابِهِ، وَالْأَدَبُ مِلْءُ إِهَابِهِ^(٢). هُوَ شَخْصُ الْأَدَبِ مَائِلًا، وَلِسَانُ الْعِلْمِ قَائِلًا. شَجَرَةٌ فَضْلٌ عُودُهَا أَدَبٌ، وَأَغْصَانُهَا عِلْمٌ، وَثَمَرَتُهَا عَقْلٌ، وَعُرُوقُهَا سُرُورٌ، تَسْقِيهَا سَمَاءُ الْحَرِيَّةِ، وَتَغْذِيهَا أَرْضُ الْمَرْوَةِ. هُمْ مِلْحُ الْأَرْضِ إِذَا فَسَدَتْ، وَعِمَارَةُ الْأَرْضِ إِذَا خَرِبَتْ، وَمَعْرُضُ الْأَيَّامِ إِذَا احْتَشَدَتْ؛ وَهُمْ جَمَالُ الْأَيَّامِ، وَخَوَاصُّ الْأَنَامِ، وَفِرْسَانُ الْكَلَامِ، وَفَلَاسِفَةُ الْإِسْلَامِ. فَلَانُ غُضُنٌ طَبِيعُهُ نَضِيرٌ، لَيْسَ لَهُ فِي مَجْدِهِ نَظِيرٌ، قَدْ جَمَعَ الْحِفْظُ الْغَزِيرَ، وَالْفَهْمُ الصَّحِيحَ، وَالْأَدَبُ الْقَوِي الْقَوِيمَ، وَمَا يُؤْنِسُهُ مِنَ الْوَحْشَةِ إِلَّا الدَّفَاتِرَ، وَلَا يَضْحَكُهُ فِي الْوَحْدَةِ إِلَّا الْمَحَابِرَ. فَلَانُ يَحُلُّ دَقَائِقَ الْأَشْكَالِ، وَيُزِيلُ مَعْتَرِضَ الْإِشْكَالِ. لَهُ خُلُقٌ كَنَسِيمِ الْأَشْحَارِ، عَلَى صَفْحَاتِ الْأَنْوَارِ. كَالْمَاءِ صَفَاءً، وَالْمَسْكُ ذِكَاءً. أَخْلَاقٌ قَدْ جَمَعَتْ الْمَرْوَةَ أَطْرَافَهَا، وَحَرَمَتْ الْحَرِيَّةَ أَكْنَافَهَا^(٣). أَخْلَاقٌ تَجْمَعُ الْأَهْوَاءَ الْمُتَفَرِّقَةَ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَتَوَلِّفُ الْآرَاءَ الْمُتَشَتِّتَةَ عَلَى مَوَدَّتِهِ. أَخْلَاقٌ أُعْذِبُ مِنْ مَاءِ الْغَمَامِ، وَأَحْلَى مِنْ رِيْقِ النَّحْلِ، وَأَطْيَبُ مِنْ زَمَانِ الْوَرْدِ. أَخْلَاقٌ أَحْسَنُ مِنَ الدَّرِّ وَالْعَقِيَّانِ، فِي نَحْوِ الْحِسَانِ، وَأَذْكَى مِنْ حَرَكَاتِ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ. فَلَانُ يَسْتَحِطُّ الْقَمَرَ^(٤) بِطَرَفِهِ، وَيَسْتَنْزِلُ النَّجْمَ بِلُطْفِهِ^(٥). هُوَ حُلُوُّ الْمَذَاقِ، سَهْلُ الْمَسَاغِ. أَجْمَلُ النَّاسِ فِي جَدٍّ، وَأَحْلَاهُمْ فِي هَزَلٍ. يَتَصَرَّفُ مَعَ الْقُلُوبِ، كَتَصَرَّفِ السَّحَابِ مَعَ الْجَنُوبِ. ذُو جِدٍّ كَعَلَوِ الْجِدِّ^(٦)، وَهَزَلٍ كَحَدِيقَةِ

(١) الْعَفَاةُ: طَالِبُو الْمَعْرُوفِ، مَفْرَدُهَا عَافٍ.

(٢) الْإِهَابُ: الْجِلْدُ.

(٣) الْأَكْنَافُ: النُّوَاحِي وَالْأَرْجَاءُ.

(٤) اسْتَحِطَّ الشَّيْءُ: نَقَصَهُ، وَحَطَّهُ: وَضَعَهُ، وَأَنْزَلَهُ، وَأَلْقَاهُ.

(٥) اللَّطْفُ: الرِّقَّةُ، وَاللُّطْفُ: الرَّفْقُ. وَقَدْ تَلَطَّفَ لِلْأَمْرِ، وَفِيهِ، وَبِهِ: تَرَفَّقَ، وَاللُّطْفُ مِنْ غِبْلِ اللَّهِ

تَعَالَى: التَّوْفِيقُ وَالْعَصْمَةُ.

(٦) الْجِدُّ (بِالْفَتْحِ): أَبُو الْأَبِ، وَأَبُو الْأُمِّ، وَالْحِطُّ، وَالْمَكَانَةُ وَالْمَنْزِلَةُ عِنْدَ النَّاسِ. وَالْجِدُّ (بِالْكَسْرِ):

وَجْهُ الْأَرْضِ، وَيُقَالُ: هَذَا خَطَرٌ جَدٌّ عَظِيمٌ، أَيْ: عَظِيمٌ جَدًّا. وَالْجِدُّ (بِالضَّمِّ): جَانِبُ الشَّيْءِ.

الْوَرْدُ. لَهُ عِشْرَةُ مَأْوَاهَا يَقْطُرُ، وَصَحْوُهَا مِنَ الْغَضَارَةِ يَمْطُرُ^(١). هُوَ رَيْحَانَةٌ عَلَى الْقَدَحِ، وَذَرِيعَةٌ إِلَى الْفَرْحِ. عِشْرَتُهُ أَلْطَفُ مِنْ نَسِيمِ الشَّمَالِ، عَلَى أَدِيمِ الزَّلَالِ، وَأَلْصَقُ بِالْقَلْبِ، مِنْ عِلَاقِ الْحَبِّ. إِذَا أُرِدْتَ فَهُوَ سُبْحَةٌ نَاسِكٌ، أَوْ أَحْبَبْتَ فَهُوَ تَفَاحَةٌ فَاتِكٌ، أَوْ اقْتَرَحْتَ فَهُوَ مَدْرَعَةٌ رَاهِبٌ، أَوْ آثَرْتَ فَهُوَ نَخْبَةٌ شَارِبٌ. أَخْبَارُهُ زَكِيَّةٌ، وَأَثَارُهُ ذَكِيَّةٌ. أَخْبَارُهُ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِالْمِسْكِ رِيَّاهُ، وَنَمَّ عَلَى الصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ^(٢). قَدْ انْتَشَرَ مِنْ طِيبِ أَخْبَارِهِ مَا زَادَ عَلَى الْمِسْكِ الْفَتِيقَ، وَأَوْفَى عَلَى الزَّهْرِ الْأَتِيقَ. مَنَاقِبُ تَشْدُخُ^(٣) فِي جَيْبِنَهَا غُرَّةُ الصَّبَاحِ، وَتَتَهَادَى أَنْبَاءُهَا وَفُودُ الرِّيَّاحِ. فَلَانِ أَخْبَارُهُ أَثَارُهُ، وَعَيْنُهُ فَرَارُهُ، وَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ حَمِيدِ الذِّكْرِ، وَجَمِيلِ الشُّرِّ، مَا لَا تَزَالُ الرِّوَاةُ تَدْرُسُهُ، وَالتَّوَارِيخُ تَحْرُسُهُ. سَأَلْتُ عَنْ أَخْبَارِهِ فَكَأَنِّي حَرَكْتُ الْمِسْكَ فَتِفَقَّأَ^(٤)، أَوْ صَبَحْتُ الرُّوْضَ أَنْيَقًا. أَخْبَارُهُ مَتَضَوِّعَةٌ كَتَضَوِّعِ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ^(٥)، وَمُشْرِقَةٌ إِشْرَاقُ الْفَجْرِ الْأَنْوَرِ. أَحَبُّهُ بِالْخَبَرِ، قَبْلَ الْأَثَرِ، وَبِالْوَصْفِ قَبْلَ الْكَشْفِ. هُوَ مِمَّنْ يَنْقَلُ مِيزَانُ وَدَّهِ، وَيُحْصَفُ مِثْقَالُ عَهْدِهِ. هُوَ كَرِيمُ الْعَهْدِ، صَحِيحُ الْعَقْدِ، سَلِيمُ الصَّدْرِ فِي الْوَدِّ، حَمِيدُ الْوَرْدِ فِيهِ وَالصَّدْرِ. هُوَ لِإِخْوَانِهِ عُدَّةٌ تَشْدَهُمْ وَتَقْوِيهِمْ، وَنُورٌ يَسْمُو بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. هُوَ رُكْنُ الْإِخَاءِ، صَافِي شَرْبِ الْوَفَاءِ، حَافِظُ عَلَى الْغَيْبِ مَا يَحْفَظُهُ عَلَى الْلِقَاءِ. هُوَ مِمَّنْ لَا تَدُومُ الْمُدَاهَنَةُ فِي عَرَصَاتِ قَلْبِهِ^(٦)، وَلَا تَحُومُ الْمَوَارِبَةُ عَلَى جَنَابَاتِ صَدْرِهِ. هُوَ يَسْرِي إِلَى كَرَمِ الْعَهْدِ، فِي ضِيَاءِ مِنَ الرَّشْدِ. عَهْدُهُ نَقْشٌ فِي صَخْرٍ، وَوَدَّهِ نَسَبٌ مِلَّانٍ مِنْ فَخْرِ. يَقْبَلُ مِنْ إِخْوَانِهِ الْعَفْوَ، كَمَا يُولِيهِمْ مِنْ إِحْسَانِهِ الصَّفْوَ. فِي وَدَّهِ غِنًى لِلطَّلَبِ، وَكَفَايَةٌ لِلرَّغْبِ، وَمَرَادٌ لِلصَّحْبِ، وَزَادَ لِلرُّكْبِ. هُوَ فِي حَبْلِ الْوَفَاءِ حَاطِبٌ، وَعَلَى فِرَاسِ الْإِخَاءِ مَوَاطِبُ. الشُّجْعُ^(٧) مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِي آرَائِهِ، وَالْيُمْنُ مَعْتَادٌ فِي مَذَاهِبِ أَنْحَائِهِ. لَهُ الرَّأْيُ الثَّاقِبُ الَّذِي تَخْفَى مَكَايِدُهُ، وَتُظْهِرُ عَوَائِدُهُ، وَالتَّدْبِيرُ الْنَافِذُ الَّذِي تَنْجَعُ مَبَادِيهِ، وَتَبْهَجُ تَوَالِيهِ. رَأْيٌ كَالسَّهْمِ أَصَابَ غُرَّةَ الْهَدَفِ، وَدِهَاءٌ كَالْبَحْرِ فِي بُعْدِ الْغَوْرِ وَقُرْبِ الْمُغْتَرَفِ، لَا يَضَعُ رَأْيَهُ إِلَّا مَوَاضِعَ الْأَصَالَةِ، وَلَا يَصْرِفُ تَدْبِيرَهُ إِلَّا عَلَى مَوَاقِعِ السَّدَادِ وَالْإِصَابَةِ. يَعْرِفُ مِنْ مَبَادِيءِ الْأَقْوَالِ

(١) الغضارة: السعة والنعمة.

(٢) نَمَّ الحديثُ: ظَهَرَ، وَنَمَّ الشَّيْءُ: انْتَشَرَتْ رَائِحَتُهُ، وَنَمَّ الْحَدِيثُ: سَعَى بِهِ لِيُوقَعَ فِتْنَةٌ بَيْنَ النَّاسِ.

(٣) شَدَخَ الشَّيْءُ شَدْخًا: شَجَّهَ.

(٤) فَتَقَ الْمِسْكَ: خَلَطَ بِهِ مَا يُذَكِّيهِ.

(٥) مِسْكٌ أَذْفَرُ: جَدِيدٌ إِلَى الْغَايَةِ، وَقَدْ ذَفِرَ الْمِسْكَ وَغَيْرُهُ: اشْتَدَّتْ رَائِحَتُهُ.

(٦) الْعَرَصَاتُ: جَمْعُ عَرَصَةٍ، وَهِيَ سَاحَةُ الدَّارِ.

(٧) الشُّجْعُ: النِّجَاحُ: الْفَوْزُ وَالظَّفَرُ.

خواتِمَ الأفعال، ومن صدور الأمور أعجاز ما في الصدور. رُؤيته رَأْيٌ صَلِيَتْ^(١)، وبيدته قَدْرٌ مَصِيب. يسافرُ رَأْيُهُ وهو دَانٍ لم يبرح، ويسير تدييره وهو ثَاوٍ^(٢) لم يتزعج. له رَأْيٌ لا يخطيء شَاكِلَةَ الصَّوَابِ، [ولا يخشى بادرة العثار. فلان يخمر الرأْيَ ويُحيله، ويجيد الفكر ويحيله، حتى يحصل على لب الصواب]، ومحض الرأْي. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلامَ الأمر، هو قطب صَوَابٍ تَدَوَّرُ به الأمور، ومستنبط صلاح يَرُدُّ إليه التدبير. يرى العواقبَ في مِرَاةِ عقله، وبصيرة ذكائه وفضله. وله رَأْيٌ يَرُدُّ الخُطْبَ مُصَلِّمًا^(٣)، والرمح مُقْلَمًا. [أراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب]، كأنه ينظرُ إلى الغيب من وراء سِتْرِ رقيق، ويطالعه بِعَيْنِ السَّدَادِ والتوفيق. يستنبط حقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب. قد سَرَيْنَا من مشورته في ضياء ساطع، ومن رأيه الصائب في حُكْم قاطع.

نبذ من مفردات الأبيات في فرائد المده

أبو نواس:^(٤)

وَكَلَّتْ بِالسَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ نَائِمَةٍ مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

الطائي:^(٥)

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ

البحري:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيَّتْ لِي اللَّهُ سَائِلُهُ

وله:^(٦)

وَلَمْ أَرْ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوَتُوا لَدَى الْمَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

كشاجم:

عَرَفَ الْفَاضِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعَدِّ سَمِ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالتَّقْلِيدِ

(١) صليت: واضح، بارز، وقد أصلت الشيء: أبرزه، وأصلت السيف: جرده من غمده.

(٢) ثاو: مقيم.

(٣) سلم الشيء: قطعه واستأصله.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٤٥٧. وفيه: «عينا غير غائلة»، و«من جود كفك». وتأسو: تداوي.

(٥) أبو تمام، الديوان: ٤٠٦/١. والبيت من قصيدة مدح بها مهدي بن أصرم.

(٦) البحري، الديوان: ٦٤/١. والبيت من قصيدة يمدح بها الفتح بن خافان وابنه.

المتني: (١)

شَخَصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بِعَيْبِ وَاحِدٍ

وله: (٢)

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ تَبَقُّتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدٌ (٣)

وله أيضاً: (٤)

إِنْ خَوَّطُوا أَوْ لُقُّوا أَوْ كُتِبُوا وَجِدُوا فِي اللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْهَيْجَاءِ فُرْسَانًا (٥)

وله أيضاً: (٦)

ذَكَرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتُ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ فِي أَيْبَاتِهَا (٧)

أبو العباس الناشيء:

خُلِفْتُ كَمَا أَرَادْتُكَ الْمَعَالِي فَأَنْتَ لِمَنْ رَجَاكَ كَمَا يُرِيدُ

المأموني:

وَخَلَّائِقُ الْخَمْرِ دُونَ فَعَالِهِ حَبَبٌ لَهُنَّ وَمَا لَهُنَّ خُمَارٌ (٨)

[في مجالس الخلفاء والملوك والحكماء والأمرء]

بين الموصلي والهادي

وقال إبراهيم الموصلي لموسى الهادي، وهو نديمه، وقد غناه صوتاً فأعجبه: إِنَّ مَنْ

- (١) لم نجد هذا البيت في ديوانه (شرح البازجي).
- (٢) المتني، الديوان: ٧٨/٢. والبيت من قصيدة قالها في سيف الدولة، وقد أراد قصد خرشنة فعافه الثلج عن ذلك.
- (٣) يقول: لما رأيت الناس دونه في المنزل تبقئت أن الدهر ناقد لهم، يعطي كل إنساناً على قدر ما يستحقه.
- (٤) المتني، الديوان: ٣٣٦/١. والبيت من قصيدة مدح بها أبا سهل سعيد بن عبيد الله بن الحسن الأنطاكي.
- (٥) يقول: إذا كاتبهم أحد، أو حاضروهم، أو نازلهم في الحرب، وجدهم في جميع ذلك فرسان مجالهم. والبيت مرتب على الطي والنشر.
- (٦) المتني، الديوان: ٣٤٣/١.
- (٧) الأنام: الخلق. والبديع: صفة لمحفوف، أي البيت البديع، وهو المبتكر. أي كنت من الناس بمنزلة البيت المبتكر من القصيدة.
- (٨) الحَبَبُ: الحَبَابُ: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح، والفقايع على وجه الماء. الخُمَار: ما خالط الإنسان من سُكْرِ الخمر، أو ما يصيب شاربها من ألم وصداع.

كان محلّه من أمير المؤمنين محلّي في الانبساط وتقدّم النّدام جرأه البسّط على الطلب، وبعثته المنادمة على الرجاء، وقد نصّب لي أمير المؤمنين يقربي منه مّشارع الرغبة إليه، وحشي محلّي عنده على الكروع في المنهل بين يديه. فقال: سلّ شفاها؛ فإني جاعلٌ فعلي عن إجابتك إليه حاضراً؛ فسأله ما قيمته خمسون ألف درهم؛ فأمر له بمائة ألف درهم.

بين الإسكندر ودارا بن دارا

ولما ظفر الإسكندر بدارا بن دارا قال له: بَمَ أجترأ عليك صاحبُ شُرطتك؟ قال: بتركي ترهيبه وقت إساءته وتفريطه، وإعطائه وقت الإحسان اليسير من فعله نهاية رغبته. فقال الإسكندر: نعم العون على استصلاح القلوب الموقرة الترغيب بالأموال، وأصلح منه عاجلاً الترهيب وقت الحاجة إليه.

حكيم يصف أحزم الملوك

وقال الحسن بن سهل: خرج بعض ملوك الفرس مُتَزَهِّجاً، فلقي بعض الحكماء، فسأله عن أحزم الملوك، فقال: من ملك جدّه هزله، وقهر لبّه هواه، وأعرب لسانه عن ضميره، ولم يخذعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن صدقه. فقال الملك: لا، بل أحزم الملوك من إذا جاع أكل، وإذا عطش شرب، وإذا تعب استراح. فقال الحكيم: أيها الملك، قد أجذت الفطنة، هذا العلم مستفاد أم غريزي؟ قال: كان عندنا معلّم من حكماء الهند، وكان هذا نقش خاتمه. قال: فهل علّمك غير هذا؟ قال: ومن أين يوجد مثل هذا عند رجل واحد؟ ثم قال له الملك: علّمني من حكمتك أيّها الحكيم. قال: نعم، احفظ عني ثلاث كلمات. قال: ما هنّ؟ قال: صقلك السيف ليس له جوهر من سِنْخه^(١) خطأ، وصبك الحب في الأرض السبخة^(٢) ترجو نباته جهل، وحملك المِسَن على الرياضة عناء.

قال أبو تمام الطائي: (٣)

وَالسِّيفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صِقْلٌ مِنْ سِنْخِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالٍ^(٤)

(١) السّخ: الأصل من كل شيء.

(٢) سَبَخَتِ الأرض سَبَخاً: كانت ذات نَرٍّ وملح، فهي سَبَخَةٌ.

(٣) أبو تمام، الديوان: ٧٠/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها المعتصم، ويذكر فتح الحرّمية.

(٤) في الديوان: «من طبعه». يقول: السيف إذا لم تكن فيه جودة حديد تتحمل الصقال، لم ينتفع بصقاله، وكذلك غزوة المعتصم لو لم يكن فيها جودة تدبيره، لم ينتفع فيها بتدبير سواء من الوزراء والمستشارين.

وقيل لبعض الحكماء: ما الدليل الناصح؟ قال: غريزة الطبع. قيل: ما القائد المشفق؟ قال: حسن المنطق. قيل: فما العناء المعنى؟ قال: تطيعك ما لا طبع له.

أنوشروان يبين سياسة الدولة

وكان أنوشروان يقول: الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث سياسات: [طبقة من خاصة الأحرار تسوسهم بالعطف واللين والإحسان، و] طبقة من خاصة الأشرار تسوسهم بالغلظة والعنف والشدّة، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدّة، لئلا تُخرجهم الشدّة، ولا يُطرحهم^(١) اللين.

واصل بن عطاء يصف أخلاق السفلة

وقال واصل بن عطاء: ألا قاتل الله هذه السفلة! تَوَادُّ مِنْ حَادِّ اللَّهِ^(٢) وَنَبِيَّهِ، وَتَحَادُّ مِنْ وَادِّ اللَّهِ وَنَبِيَّهِ، وَتَذَمُّ مِنْ مَدْحِهِ اللَّهُ، وَتَمْدَحُ مِنْ ذَمِّهِ اللَّهُ؛ عَلَى أَنَّهُ بِهِمْ عِلْمُ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ، وَبِهِمْ أُعْطِيتِ الْأَوْسَاطُ حَقًّا مِنَ التَّبَلِّ.

ما يبلغ أقصى درجات الفضل

وقيل لبعض الملوك، [وقد بلغ في القدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه]: ما الذي بلغ بك هذه المترلة؟ قال: عَفْوِي عند قدرتي، وَلِينِي عند شِدَّتِي، وَيَذَلِّي الْإِنْصَافَ وَلَوْ مِنْ نَفْسِي، وَإِبْقَائِي فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ مَكَانًا لِمَوْضِعِ الْإِسْتِبْدَالِ.

أحزم الرأي

وقال الإسكندر لأحد الحكماء، وأراد سفراً: أَرَشِدْنِي لِأَحْزَمِ أَمْرِي. قال: لا تملأَنَّ قلبك من محبة الشيء، وَلَا يَسْتَوِلِينَ عَلَيْكَ بَغْضُهُ، وَاجْعَلْهُمَا قَصْدًا^(٣)؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ كَاسِمِهِ يَنْزِعُ وَيَرْجِعُ، وَاجْعَلْ وَزِيرَكَ الثَّبْتَ، وَسَمِيرَكَ التَّقَيُّظَ، وَلَا تُقَدِّمِ إِلَّا بَعْدَ الْمَشُورَةِ؛ فَإِنَّهَا نِعَمُ الدَّلِيلِ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ مَلَكَتْ قُلُوبَ رَعِيَّتِكَ.

(١) بَطَرَ فَلَان: غلا في المرح والزهو، وبطر النعمة: استخفها فكفرها، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾. (سورة القصص، آية ٥٨).

(٢) حَادَّ اللَّهُ: غاضبه وعصاه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِّدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾. (سورة التوبة، آية ٦٣).

(٣) قصداً: أي بغير إفراط ولا تفريط، وقصد فلان في الأمر: توسّط فلم يُفرط أو يُقرط.

حكيم يصف خلال الفضل

وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: سوء الظن. قيل: فما الصواب؟ قال: حكيم يصف المشورة. قيل: فما الرأي الذي يجمع القلوب على المودة؟ قال: كفٌّ بَدُول، وبشر جميل. قيل: فما الاحتياط؟ قال: الاقتصاد في الحبِّ والبغض.

بزرجمهر يصف

وسُئل بزرجمهر: ما المروءة؟ قال: تَرُكُ ما لا يعني. قيل: فما الحزم؟ قال: انتهازُ الفرصة. قيل: فما الحلم؟ قال: العفو عند المقدرة. قيل: فما الشدة؟ قال: ملك الغضب. قيل: فما الخُرق^(١)؟ قال: حب مُفْرِق؛ وبغض مُقْرِط.

وصية معاوية لزياد

قال معاوية رضي الله عنه لزياد حين ولّاه العراق: يا زياد؛ ليكن حبُّك وبغضك قَصْدًا؛ فإن العثرة فيهما كامنة، واجعل للتزوع^(٢) والرجوع بقية من قلبك، واحذر صَوْلَةَ الانهماك^(٣)، فإنها تؤدي إلى الهلاك.

ومن كلام بلغاء أهل العصر في ذكر السلطان

للساحب

أبو القاسم الساحب: مَرْضَاة السلطان، لا تغلو بشيء من الأئمان، ولا يبدل الروح والجَنَان^(٤). تهيب السلطان فَرَضٌ وَكِيد^(٥)، وَحَتَمٌ على مَنْ ألقى السمع وهو شهيد.

للساببي

أبو إسحاق الصابي: المَلِكُ أَحَقُّ باصطفاءِ رجاله منه باصطفاءِ أمواله؛ لأنه مع اتساع الأمر وجلالة القدر لا يكفني بالوَحْدَةِ، ولا يستغني عن الكثرة؛ ومثله في ذلك مثلُ المسافر في الطريق البعيد الذي يجب أن تكون عنايته بفرسه المَجْنُوبِ، كعنايته بفرسه المَرْكُوبِ.

(١) الخُرق: الجهل، والحمق، وفي الحديث: «الرَّقِيقُ يُنْزَعُ والخُرقُ شُوْمٌ».

(٢) التزوع: يقال: نَزَعَ عن الأمر: كفَّ وانتهى، ونَزَعَ إلى أهله: حَنَّ واشتاق.

(٣) الصَوْلَةُ: السطوة في الحرب ونحوها.

(٤) الجَنَان: القلب.

(٥) الوكيد: الوثيق، المُحْكَم، يقال: وكد العقد: أوثقه وأحكمه، ووكد الأمر: مارسه وقصده.

فصل للصايي: الملك بمن غلط من أتباعه فاتعظ أشد انتفاعاً منه بمن لم يغلط ولم يتعظ؛ فالأول كالقارح^(١) الذي أدبته الغرة^(٢)، وأصلحته الفدامة^(٣)، والثاني كالجدع^(٤) المتهوك^(٥) الذي هو راكب للغرة وراكن إلى السلامة.

وقيل: إن العظم إذا جبر من كسره عاد صاحبه أشد بطشاً وأقوى أيداً.

للخوارزمي

أبو بكر الخوارزمي: لا صغير مع الولاية والعمالة، كما لا كبير مع العطلة والبطالة؛ وإنما الولاية أنى تصغر وتكبر بوليها، ومطية تحسن وتقبح بمُمتطيها، والصدر لمن يليه، والدست لمن جلس فيه، والأعمال بالعمال، كما أن النساء بالرجال.

فصل له: إن ولاية المرء ثوبه؛ فإن قصر عري منه، وإن طال عثر فيه. قليل السلطان كثير، ومُدَارَاتُهُ حَزْمٌ وتديير، ومكاشفته غُرُورٌ وتغريب.

للبيستي

أبو الفتح البيستي: أجهل الناس من كان على السلطان مُدْلاً، وللإخوان مُدْلاً.

لابن العميد

أبو الفضل ابن العميد: الإبقاء على حشم السلطان وعُملاله عدلُ الإبقاء^(٥) على ماله، والإشفاق [على حاشيته وحشمه مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه].

وله من رسالة طويلة، جواب لأبي شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صَنَرُ كتاب ألفه أبو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة.

أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جدّه، على ما وهب لنا معاشر عبيده وخدمه خاصة،

(١) القارح: الذي تمت قوته واستحكمت شدته، وأصله في ذي الحافر، يقال: قرح ذو الحافر: استسم الخامسة، وسقطت يته التي تلي الرابعة، ونبت مكانها ناب.

(٢) الغرة: الغفلة. والغرة (بالضم): بياض الأسنان وأولها، وبياض في جبهة الفرس.

(٣) الفدامة: الفدأ: ما يوضع على الفم سداً له.

(٤) الجدع (بالتحريك): الحدث. والجدع من الإبل: ما استكمل أربعة أعوام ودخل في السنة

الخامسة، ومن الخيل والبقر: ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة. المتهوك: يقال: تهوك فلان: سقط في هوة الردى، وهوك هوكاً: حَمَقَ وفيه بقية من عقل.

(٥) يقال: هذا عدل هذا: أي مساويه ومكافئه.

بل لرعاياه عامة، بل لأهل الأرض كافة، من عظيم النعمة بمكانه، وجسيم الموهبة بإففاق أعمارنا في زمانه، حتى شاركناه في أسباب السعادة التي لم تزل مذكورة عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه في مواد الفضيلة التي لم تزل محفوظة له حتى اتصّلت به؛ فإن المرء أشبه شيء بزمانه، وصفات كل زمانٍ مُتَسَخِّة من سجايا سُلْطَانِهِ؛ فإن فَضْلَ شَاعِ الفضل في الزمان وأهله، وتحلّى الدَّهْرُ بأفضل حُلِيَّتِهِ، وتجلّى للعيون والقلوب بأحسن زِينَتِهِ، وكسا بَيْتَهُ والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِهِ، وأورثهم نَيْلَ فضلِهِ، وعزَّ العِلْمَ وأهله، وعرف لمقتبسه قُدْرَهُ، وتوجَّهت الأذهان نحوه، وتعلّقت الخواطرُ به، وصرفت الفكر فيه، ونشدت ضوَّالَهُ، ونظم أَشْتَاتَهُ، وجمعت أَفْرَادَهُ، وَوَقَّعت نفوسُ الساعين في استفادته بِحُسْنِ عائدته، فحرصت عليه، وَصَرَفَتْ نظرَها إليه، وأيقنت في بضاعتها بالتَّفَاق، وفي تجارتها بالإِرْفَاق؛ فصار ذلك إلى نَمَاءِ العلوم وزيادتها داعية، ولتكاثر قليلها وأيضاح مجهولها سبباً وعلّة، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلاً، وإلى تقييد شواردها بِعُقْلٍ^(١) التاليف طريقاً. وإن رَدَّلَ السلطان أَتْبَعَت الرذيلةُ أَتْبَاعاً، وذَهَبَت الفضائلُ ضَيَاعاً، وبطلت الأقدارُ والقيم، وَسُلِبَت الأخطارُ والهِمَم، وزال العلمُ والتعلم، وَكُدرَ الفَهمُ والفَهم، وَضُرِبَ الجهلُ بِجِرَانِهِ^(٢)، ووطيء بمنسمه، واستعلَى الخمولُ على النباهة، واستولى الباطلُ على الحق، وصارُ الأدبُ وِيالاً على صاحبه، والعلمُ نَكَالاً على حامله. وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صِفَتُهُ، والبلوى مَعَ مَنْ هذه صورته، تَعَظُمُ بِمُلْكِ سلطانِ عالم، كالأمير الجليل عضد الدولة، أَطَالَ اللهُ تعالى بقاءَهُ، وأدام قُدْرَتَهُ، الذي أَحَلَّهُ اللهُ عزَّ وجل من الفضائل بملئى طُرُقِهَا وَمُجْتَمِعِ فِرْقِهَا، فهي نَوَادٍ ممن لاقت حتى تَصِيرَ إليه، وشوارِدُ نَوَازِعٍ حيث حَلَّتْ حتى تَقَعَ عليه، تَلَفَتْ تَلَفَتِ الرَامِقُ، وَتَشَوَّفُ إليه تشوَّفُ الصَّبِّ العاشقِ^(٣)، قد ملكها أَنَّى توجهت وحشة المضاع وخيرة المرتاع.

فَإِنْ تَعَشَّرَ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ تَزَرَّهُمْ فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهَا مِنَ الْأَكْسِ الْمَحْلُ
حتى إذا قابلته أسرع إلى إسراع السيل ينصب في الحدود، والطير ينقض إلى
الوكور.

(١) العُقْلُ: جمع عقال، وهو في الأصل: ما تُرَبِّط به الدابة.

(٢) الجِرَانُ: باطن العنق من البعير وغيره، يقال: ألقى فلان على هذا الأمر جِرَانَهُ: وَطَّنَ نفسه عليه، وضرب الجهل بِجِرَانِهِ: ثبت واستقر.

(٣) تَشَوَّفُ له وإليه: تَطَلَّعَ، واشتاقه: تَتَبَّعَهُ بنظره.

أبي الطيب المتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي: (١)

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ وَأِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ، وَمَا
تُقْلِحُ غُرْبُ مُلُوكُهَا عَجَمُ لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَبَبُ
وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا أُمَمُ
تُرْعَى بِعَبْدٍ كَانَتْهَا غَنَمُ يَسْتَحْشِنُ الْخَرَّ حِينَ يَلْمِسُهُ
وَكَانَ يُبْصِرُ بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ (٢)

بين ابن ميادة وعبد الواحد بن سليمان

وقال الزبير بن بكار: قَدِمَ ابْنُ مِيَادَةَ، واسمه الرَّقَّاحُ بن أبرد^(٥)، زائراً لعبد الواحد بن سليمان، وهو أمير المدينة، فكان عنده ليلةً في سَمَارِهِ؛ فقال عبد الواحد لأصحابه: إني لأهم أن أتزوج فابغوني أيماً، قال ابن ميادة: أنا - أصلحك الله - أدلك، قال: على مَنْ يا أبا بشر نَمِيلُ؟ قال: قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فلما قدمت أَلْفَيْتُ الْمَسْجِدَ وإذا أشبه شيء به وبمن فيه الجنة وَمَنْ فِيهَا، فبينا أنا أمشي إذ قادتني رَاحَةُ رَجُلٍ عَطَّرَ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فلما وقع بصري عليه اسْتَلْهَى حُسْنُهُ نَظْرِي، فما أَقْلَعْتُ نَظْرِي حَتَّى تَكَلَّمَ فَمَا زَالَ يَتَكَلَّمُ كَأَنَّمَا يَبْشُرُ دُرّاً، وَيَتَلَوُّ زَبُوراً، ويدرس إنجيلاً، وَيَقْرَأُ فُرْقَاناً، حَتَّى سَكَتَ، فَلَوْلَا مَعْرِفَتِي بِالْأَمِيرِ مَا شَكَكْتُ أَنَّهُ هُوَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مُصَلَّاهُ إِلَى دَارِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ مِنَ الْحَسَنِ بِمَكَانَةٍ، وَأَنَّهُ لِلْخُلَفَاءِ، وَأَنَّهُ قَالَ نَالَتْهُ وَلَادَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَاطِعٌ مِنْ غُرَّتِهِ؛ فَإِنْ اجْتَمَعَتْ أَنْتَ وَهُوَ عَلَى وَلَدٍ سَادَ الْعِبَادَ، وَجَابَ ذِكْرُهُ الْبِلَادَ.

(١) المتنبي، الديوان: ٢١٧/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها علياً بن إبراهيم التنوخي.

(٢) أَحَقُّ: بمعنى: أولى وأجدر. العافي: الدارس. وَالْقِدَمُ: ضد الحُدُوث.

(٣) تُرْعَى بعبد: المراد عبيد الخلفاء من الأتراك.

(٤) الْخَرُّ: ضرب من الشباب الحريية.

(٥) هو أبو شرحبيل، وأبو حرملة، الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقه الذيباني الغطفاني المضري:

شاعر رقيق هجاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. اشتهر بنسبه إلى أمه ميادة، وهي امرأة صقلبية من أهل الأندلس، وعُرفَ بسلامة الطبع، وفصاحة الإعراب. توفي سنة ١٤٩ هـ/

٧٦٦ م.

(ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٦٥٥؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٠٥).

فلما قضى ابنُ ميادةَ كلامه قال عبد الواحد ومن حضر: ذلك محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان رضي الله تعالى عنه لفاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم. وقال ابن ميادة:

لَهُمْ سِيرَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ وَكُلُّ قَضَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مُقَسَّمٌ

لعوف القوافي يمدح طلحة الزهري

هذا في تقابل نسبه، وكمال منصبه، كقول عوفٍ القوافي^(١) في طلحة بن عبد الله الزهري:

يُصَمُّ رِجَالٌ حِينَ يُدْعَوْنَ لِلنَدَى وَيَدْعَوْنَ ابْنَ عَوْفٍ لِلنَدَى فَيَجِيبُ
وَذَاكَ امْرُؤٌ مِنْ أَيِّ عِطْفِيهِ يَلْتَقِثُ إِلَى الْمَجْدِ يَحْوِي الْمَجْدَ وَهُوَ قَرِيبُ

للقطامي يمدح عبد الواحد بن سليمان

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامي:

أَقُولُ لِلْحَرْفِ لِمَا أَنْ شَكْتُ أَصْلًا طُولَ السَّفَارِ وَأَفْنَى نَيْهَا الرَّحْلُ^(٢)
إِنْ تَرْجِعِي مِنْ أَبِي عُثْمَانَ مُنْجَحَةً فَقَدْ يَهُونُ عَلَى الْمُسْتَجِيعِ الْعَمَلُ^(٣)
أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَا يَحْزَنُكَ شَأْنُهُمْ إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الْأَجَلُ

ومن قول القطامي: «إن ترجعي من أبي عثمان منجحة» أخذ الآخر قوله:

إِذَا مَا تَعَنَّى الْمَرْءُ فِي إِثْرِ حَاجَةٍ فَأَنْجَحَ لَمْ يَثْقُلْ عَلَيْهِ عَنَاؤُهُ^(٤)

(١) هو عوف بن معاوية، من بني حذيفة بن بدر الفزاري: شاعر أموي، من البيوتات المقدمة في العرب، ومن ساكني الكوفة. سُمِّي «عوف القوافي» لبيت شعر قاله ردًا على من عيّره بقلته شعره. مدح عددًا من خلفاء بني أمية، وأصدق مدحه في طلحة بن عبد الله الزهري الذي أغدق عليه مالا كثيرا قبل أن يمدحه أو يعرفه.

توفي سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م. (الجاحظ، البيان والتبيين: ٣٧٤/١؛ المرزباني، معجم الشعراء: ١٢٧؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٢٦٧).

(٢) الحرف: الناقة الضامرة الصلبة. ونَيْهَا: شحمها.

(٣) مُنْجَحَةٌ: يقال: أنجح الله طلبه: أظفره بها، وأنجحت الحاجة: قُضيت، وأنجح فلان: صار ذا نَجَحٍ، وهو النجاح والظفر.

(٤) تَعَنَّى المرء: تعب.

نسب عبد الواحد

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، قال الكلبي: هو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والأول قول ابن السكيت. والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجود قوله^(١)، وفيها يقول مما يتمثل به: والعيش لا عيش إلا ما تقرُّ به عَيْنٌ ولا حال إلا سوف يتَّقى^(٢) والناس من يلقَ خيراً فائلون له ما يشتهي ولأَمِّ المُخْطِئِ الهل^(٣) قد يُدركُ المُتأنِّي بغض حاجته وقد يكون مع المُستعجل الزل^(٤) قوله: «والناس من يلقَ خيراً فائلون له» مأخوذ من قول المرقش: ^(٥) ومن يلقَ خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يقدّم على الغي لأئما

منزلة شعر القطامي

وقال عمرو بن سعيد للأخطل: أيسرك أن لك بشعرك شعراً؟ قال: لا، ما يسرني أن لي بقولي مقولاً من مقاول العرب، غير أن رجلاً من قومي قال أبياتاً حسدته عليها، وايم الله، إنه لمُعْدِفُ القناع، ضيقُ الذراع، قليل السماع، قال: ومن هو؟ قال: القطامي، قال: وما هذه الأبيات؟ فأشده له يصفُ إيلاً من هذه القصيدة: يَمْشِينَ رَهْواً فلا الأعْجَازُ خاذِلَةٌ ولا الصدورُ على الأعْجَازِ تَشْكِلُ^(٦)

(١) القصيدة في جمهرة أشعار العرب: ٢٨٤-٢٩٤، وقد عدّها أبو زيد من القصائد السبع المشوبات.

(٢) تقرُّ به: تنعم. تنقل: تتغير.

(٣) الهل: الشكل. يقول: من يلق خيراً فالناس فائلون له ما يشتهي، ومن أخطأ قيل لأمه الشكل.

(٤) زلت الدراهم: نقصت في وزنها، ويقال: زل في منطقته وفي فعله زللاً: أخطأ، وزلت قدمه: زلقت.

(٥) هو عوف، وقيل عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة، من بني بكر بن وائل، والمرقش لقب غلب عليه لقوله:

الدَّارُ وَخَشٌّ وَالرُّمُومُ كَمَا رَقَّشَ فسي ظَهَرَ الأديمُ قَلَمٌ

وهو شاعر جاهلي، ولد باليمن، ونشأ بالعراق، واتصل بالحارث الغساني، وهو أحد المتيمين المشهورين، أحب ابنة عمه أسماء، فزوجت غيره، فضني ومرض، وقال فيها شعراً كثيراً. توفي سنة ٥٥٠ م. (الأمدي، المؤلفات والمختلف: ٢٨١؛ شيخو، شعراء النصرانية: ٢٨٢/١).

(٦) تمشي رهواً: أي على رسلها، والرهو: الير السهل، ويقال: جاءت الإبل رهواً: أي يتبع بعضها بعضاً.

فَهْنٌ مُعْتَرِضَاتٌ وَالْحَصَى رَمِضٌ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ وَالظِّلُّ مُعْتَدِلٌ^(١)
يَتَبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا مَجْنُونَةً أَوْ تَرَى مَا لَا تَرَى الْإِبِلُ^(٢)

[نغم الألفاظ ونغم الألحان]

بين مخارق وأبي العتاهية

قال أبو العتاهية لمخارق: أنت بنغم ألفاظك دون نغم ألحانك، تطرب إذا تكلمت، فكيف إذا ترنمت!
وقال له يوماً: يا حكيم هذه الأقاليم؛ أصبب في هذه الأذان من جيد تلك الألحان، فأقسِم لو كان الكلام طعاماً، لكان غناؤك له إداماً.

إسحاق الموصلي يصف جارية للمعتصم

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: دخلت على المعتصم يوماً وقد خلا، وعنده جارية تغني، وكان معجباً بها، فلما جلست قال لي: يا أبا إسحاق، كيف تراها؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أراها تقهره بحذق، وتختله برقيق^(٣)، ولا تخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، وفي حلقها شذور نغم أحسن من دوام النعم، قال: يا إسحاق؛ هن غايات الأمل، ومُتَسِيَّات الأجل، والسقم الداخل، والشغل الشاغل، وإن صفتك هذه لو سمعها من لم يرها لفقد لبه^(٤)، وقضى نجه^(٥).

ويصف المجيد من المغنين

وسئل إسحاق عن المجيد من المغنين، فقال: من لطف في اختلاسه، وتمكن من

- (١) يقول: هن معترضات من النشاط وقت الهاجرة، أي الوقت الذي تكل فيه الإبل وتسدر، وقوله: رمض: أي يشتد عليه حر الشمس. وقوله: والظل معتدل: أي صار ظل كل شيء تحته في انتصاف النهار.
- (٢) في الجمهرة: «يتبعن مائة العينين». يقول: يتبعن ناقة مرتفعة العينين ترى من بعيد. وقوله: تحسبها مجنونة: أي لشدة نشاطها، ولأنها ترى شيئاً يفزعها لا تراه الإبل التي معها.
- (٣) تختله: تخدعه.
- (٤) اللب: العقل.
- (٥) قضى نجه: مات.

أنفاسه، وتفرَّع في أجناسه، يكادُ يَعْرِفُ ضُمَائِرَ مُجَالِسِيهِ، وشهواتِ مُعَاشِرِيهِ، يَقَرُّعُ مَسْمَع كُلِّ واحدٍ منهم بالنحو الذي يُوَافِقُ هواه، وَيُطَابِقُ معناه.

من ترجمة إسحاق الموصلي

وكان إسحاقُ بن إبراهيم قد جمع إلى حِذْقِهِ بصنَاعَتِهِ حُسْنَ التصرف في العلوم، وجَوْدَةَ الصنعة للشعر، و حَدَّثَ عن نفسه فقال: كنت أيام الرشيد أُبَكِّرُ إلى هُشَيْمٍ ووَكيعٍ فأَسْمَعُ منهما، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شهيد؛ فَتَطَارِحُنِي صوتين، ثم أَصِيرُ إلى زلزل الضارب فأخذُ منه طريقين، ثم أسير إلى منزلي فأبعث إلى أبي عبيدة والأصمعي، فلا يَرَا لَانَ عِنْدِي إلى الظهر، ثم أذهبُ إلى الخليفة.

ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فَنَسِبَ إليها، وهو مولى خزيمة بن خازم التميمي، وفي ذلك يقول إسحاق: ^(١)

إِذَا مُضِرُّ الْحَمْرَاءِ كَانَتْ أُرُومَتِي وَقَامَ بِتَصْرِي خَازِمٍ وَابْنُ خَازِمٍ ^(٢)
عَطَسْتُ بِأَنْفِي شَامِخاً وَتَنَاوَلْتُ بَنَانِي الثَّرِيّاً قَاعِداً غَيْرَ قَائِمٍ ^(٣)

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجاني يرثيه:

عَلَى الْجَدَثِ الشَّرِيقِيِّ عُوْجَا فَسَلَمَا بِنْعْدَادٍ لَمَّا صَدَّ عَنْهُ عَوَائِدُهُ ^(٤)
أَلْسِنَا حَقٌّ لَا تَبْعُدُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَمَى بِكَ الْمَوْتُ مَرَمَى لَيْسَ يَصْدُرُ وَارِدُهُ
مَتَى تَأْتِيهِ يَوْمًا تَحَاوُلُ مُنْفَسَا مِنَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا فَإِنَّكَ وَاجِدُهُ
إِذَا هَزَلَ اخْضَرَّتْ فُرُوعُ حَدِيثِهِ وَرَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَطَابَتْ مَشَاهِدُهُ ^(٥)
وَإِنْ جَدَّ كَانَ الْقَوْلُ جِدًّا وَأَقْسَمْتُ مَخَارِجُهُ أَلَّا تَلِينَ شَدَائِدُهُ

ومن جَيِّدِ شعر إسحاق قصيدته في إسحاق بن إبراهيم المصعبي بعد إيقاعه بالخرمية:

- (١) البيتان في العمدة: ١٤٦/٢، وقد نسبهما ابن رشيقي لإبراهيم الموصلي والد إسحاق المذكور أعلاه، وعدهما من أفخر ما قاله المولدون في الفخر.
- (٢) الأروم والأرومة: أصل الشجرة، واستعملت للحسب، يقال: هو طيب الأرومة: كريم الأصل. وفي العمدة: «وقام بمجدي».
- (٣) في العمدة: «وتناولت يداي الثريا».
- (٤) الجدث: القبر.
- (٥) رَقَّتْ حَوَاشِيهِ: لَطَفَتْ صَحْبَهُ وَسَهَّلَتْ وَلَانَتْ.

تَقَضَّيْتُ لِبَانَاتٍ وَجَدَّ رَحِيلُ
وَمُدَّتْ أَكُفٌّ لِلودَاعِ فَصَافَحَتْ
وَلَا بُدَّ لِلْأَلْفِ مِنْ قَبْضِ عَبْرَةٍ
فَكَمْ مِنْ دَمٍ قَدْ طُلَّ يَوْمَ تَحَمَّلَتْ
غَدَاةً جَعَلْتُ الصَّبْرَ شَيْئاً نَسِيتُهُ
وَلَمْ أَنْسَ مِنْهَا نَظْرَةً هَاجَ لِي بِهَا
كَمَا نَظَرْتُ حَوْرَاءَ فِي ظِلِّ سِدْرَةٍ
فَلَا وَضَلَ إِلَّا أَنْ تَلَفَاهُ أَيْتُقُ
إِذَا قَلَبْتُ أَجْفَانَهَا بِتَنُوفَةٍ
تَفَرَّدَ إِسْحَاقُ بِتَضْحِجِ أَمِيرِهِ
يُفَرِّجُ عَنْهُ الشُّكَّ صِدْقُ عَزِيمَةٍ
أَغْرَ نَجِيبُ الْوَالِدِينَ كَأَنَّهُ
بَنِي مُضْعَبٍ لِلْمَجْدِ فِيكُمْ إِذَا بَدَتْ
كَرُمَتُهُمْ فَمَا فِيكُمْ جَبَانٌ لَدَى الْوَعَى
غَلَبْتُمْ عَلَى حُسْنِ التَّنَاءِ فَرَأَفْتُكُمْ
وَلَمْ يُخَفَّ مِنْ أَهْلِ الصَّفَاءِ غَلِيلُ^(١)
وَفَاضَتْ عُيُونٌ لِلْفِرَاقِ تَسِيلُ
إِذَا مَا خَلِيلٌ بَانَ عَنْهُ خَلِيلُ^(٢)
أَوَانِسُ لَا يُودَى لَهُنَّ قَيْسِلُ^(٣)
وَأَعُولْتُ لَوْ أَجَدَى عَلَيَّ عَوِيلُ^(٤)
هَوَى مِنْهُ بِإِدِّ ظَاهِرٍ وَدَخِيلُ
دَعَاها إِلَى ظِلِّ الْكِنَاسِ مَقِيلُ^(٥)
عِتَاقُ نَمَاهَا شَذَقَمَ وَجَدِيلُ^(٦)
طَوَى الْبُعْدَ مِنْهَا هِزَّةً وَذَمِيلُ^(٧)
فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ عَدِيلُ^(٨)
وَلُبَّ بِهِ يَغْلُو الرِّجَالُ أَصِيلُ
حُسَامٌ جَلَّتْ عَنْهُ الْعُيُونُ صَقِيلُ^(٩)
وَجُوهُكُمْ لِلنَّاطِرِينَ دَلِيلُ
وَلَا مِنْكُمْ عِنْدَ الْعَطَاءِ بَخِيلُ
تَنَاءٌ بِأَفْوَاهِ الرِّجَالِ جَمِيلُ

- (١) لبانات: جمع لبانة: الحاجة، الوطر.
- (٢) الألف: المحبون يألف بعضهم بعضاً، ومفرده: ألف. وبان عنه: فارقه. والخليل: الصديق.
- (٣) طُلَّ الدَّمُ: أُهْمِر. والأوانس: جمع آنسة، وهي الفتاة الجميلة التي يؤنس بها. وَلَا يُودَى قَتِيلُهُنَّ: لَا تُعْطَى دِيَّتُهُ.
- (٤) أَعُولْتُ: بكيت.
- (٥) حوراء: بيضاء، والحدور في العين شدة بياض بياضها مع شدة سواد سوادها. السدرة: الشجر، وهو شجر النبق. والكناس: مولج في الشجر بأوي إليه الظلي ليستتر. المقييل: النوم في القائلة (وسط النهار).
- (٦) أَيْتُقُ: جمع ناقة. والعتاق: الكرائم. وشذقم وجديل: فحلان من فحولة الإبل المعروفة، كانا للنعمان بن المنذر.
- (٧) التنوفة: الصحراء المترامية الأطراف. والذميل: ضرب من السير السريع.
- (٨) العديل: المثل والنظير.
- (٩) أَغْرَ: أبيض، واضح الجبين. النجيب: الفاضل على مثله، النفيس في نوعه.

إِذَا اسْتَكْثَرَ الْأَعْدَاءُ مَا قُلْتُ فِيكُمْ فَإِنَّ الَّذِي يَسْتَكْثِرُونَ قَلِيلٌ

وهذا نمط الحُذَاقِ الفُحول، وقال:

وَمَنْ رَجَا لِّلرَّيْحِ غَبْرَاءَ لَمْ يَكُنْ
يَقِلُّ بِهَا السَّارِي وَإِنْ كَانَ هَادِيًا
تَعَسَّفْتُ أَبْرِي جَوْرَهَا بِسِمْلَةٍ
كَأَنَّ شَرَارَ الْمَرُوءِ مِنْ تَبْذِئِهَا بِهِ
إِذَا ضَمَّهَا وَالسَّفَرُ لَيْلٌ فَعَيَّيْتُ
تَادَوْا فَصَارُوا تَحْتَ أَكْنَافٍ رَحِلَهَا

وقال:

وَلَمَّا رَأَيْنَ الْبَيْنَ قَدْ جَدَّ جِدَّهُ
دَتَوْنَا فَلَمْنَا سَلَامًا مُخَالِسًا
تَصُدُّ بِلَا بُغْضٍ وَتَخْلُسُ لَمَحَةً
نُذَادُ إِذَا حُمْنَا لِنَشْفِي غَلَةً

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشئ في هذا المعنى:

وَلَمَّا رَأَيْنَ الْبَيْنَ زُمْتُ رِكَابُهُ
طَلَبْنَا عَلَى الرِّكَبِ الْمُجِدِّينَ عِلَّةً
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا كَتَبْنَا بِأَعْيُنٍ
لَنَا كُتِبَ أَعْجَمْنَاهَا بِالْحَوَاجِبِ

- (١) مدرجة الريح: مكان هبوبها، وأراد الصحراء. جَشِمَ الأمر: تكلفه على مشقة، وتَجَشَّمَ الأرض: قصد إليها. والزملة: الضعيف الجبان الرذل.
- (٢) تَعَسَّفْتُ: قطعت. والجور: من كل شيء: وسطه. والسملة: الناقة الخفيفة السريعة. والمحازم: جمع محزم: الحزام: ما حُزم به من جبل ونحوه.
- (٣) المرو: حجارة يبيض براقه توري النار إذا قلحت.
- (٤) السفر: المسافرون.
- (٥) البين: الفرقة والهجر. وبان منه، وعنه بيناً وبيوناً وبينونة: بعد وانفصل.
- (٦) خلس الشيء خلساً: استلبه في نُهْزَةٍ ومخاتلة.
- (٧) نُذَادُ: نَمْنَعُ، نُذَفَعُ. حُمْنَا: طَفَعْنَا.

فَلَمَّا قَرَأْنَاهُنَّ سِرًّا طَوَيْتُهَا حِذَارِ الْأَعَادِي بِأَزْوَرَارِ الْمَنَاكِبِ^(١)
وَقَالَ إِسْحَاقُ:

أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يَزَالُ رَمِيَّةً لِلْمَحَةِ طَرْفٍ أَوْ لِكَسْرَةِ حَاجِبٍ
وَلِلْخُمُرِ اللَّاتِي تَسَاقَطَ لَوْنُهَا فَتُورِ الْخَطَا عَنْ وَارِدَاتِ الذَّوَائِبِ^(٢)

[استطراد في ذكر جمال الذوائب]

لابن المعتز

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز:
سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ شَعْرِهَا شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ وَالْدُّجَى وَخَمْرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَخَدٍّ حَبِيبٍ

لابن النطاح

وقال بكر بن النطاح:
بَيْضَاءُ تَحَبُّ مِنْ قِيَامِ شَعْرِهَا وَتَغِيبُ فِيهِ وَهْوُ جَثْلٍ أَسْحَمٍ^(٣)
فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مُبْصِرٌ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمٌ

للمتنبي

وقال المتنبي:^(٤)
نَشَرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرْتُ لِيَالِي أَرْبَعًا^(٥)

- (١) ازوَرَّ عنه: مال وانحرف.
- (٢) الْخُمُرُ: جمع خِمَار، وهو ثوب تغطي به المرأة رأسها، والخمار: العِمَامَةُ. ولوث الخمار: التفاف بعضه على بعض، يقال: لاث العِمَامَةُ: لَفَّهَا وعصبها، ولاث الشجر لوثاً: لبس بعضه بعضاً والتَفَّ بعضه ببعض. والوارد من الشعر: الطويل المسترسل يرد الكفل لطوله.
- (٣) الْجَثْلُ: الكثير أو الكثيف، يقال: جثل الشجر والنبات والشعر جثالةً وَجُثُولَةً: طال وغلظ والتَفَّ، فهو جَثِلٌ وَجَثْلٌ. والأسحم: الأسود.
- (٤) المتنبي، الديوان: ٢/٢٤٩. والبيتان من قصيدة يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب.
- (٥) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي الخصلة من الشعر. يقول: صارت تلك الليلة بذوائبها الثلاث أربع ليالٍ، لأن كل ذؤابة منها كأنها ليلة لسوادها.

وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرْتَنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَفْتٍ مَعَا

لابن الرومي

وقال ابن الرومي: ^(١)

وَفَاحِجٍ وَارِدٍ يُقْبَلُ مَمَّ أَقْبَلَ كَاللَّيْلِ فِي مَقَارِقِهِ
حَتَّى تَنَاهَى إِلَى مَوَاطِنِهِ كَأَنَّهُ عَاشِقٌ دَنَا شَغَفًا
يُغْشِي غَوَاشِي قُرُونِهِ قَدَمًا مِثْلُ الثَّرِيَّا إِذَا بَدَتْ سَحَرًا
شَاهَ إِذَا اخْتَالَ مُثْبَلًا غُدْرَهُ ^(٢)
مُنْحَدِرًا لَا يُرَامُ مُنْحَدَرَهُ ^(٣)
يَلْتُمُ مِنْ كُلِّ مَوَاطِيءٍ عَفْرَهُ
حَتَّى قَضَى مِنْ حَبِيْبِهِ وَطَرَهُ ^(٤)
بَيَضَاءَ لِلنَّاضِرِينَ مُقْتَدِرَهُ ^(٥)
بَعْدَ غَمَامٍ وَحَاسِرٍ حَسَرَهُ

لمحمد بن مطران

أخذه بعض أهل العصر - وهو محمد بن مطران - فقال:

ظَبَاءٌ أَعَارَتْهَا الظَّبَا حُسْنَ مَشِيهَا كَمَا قَدْ أَعَارَتْهَا الْعُيُونُ الْجَاذِرَ ^(٦)
فَمِنْ حُسْنِ ذَاكَ الْمَشْيِ قَامَتْ فَقَبِلْتُ مَوَاطِيءٍ مِنْ أَقْدَامِهِنَّ الْغَدَائِرُ

وقال مسلم بن الوليد:

أَجْدَكَ هَلْ تَدْرِيْنَ أَنَّ رَبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُثَرُّ
نَضَبْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَفُرَّةٍ يَحْيِي حِينَ يُذَكِّرُ جَعْفَرُ ^(٧)

- (١) ابن الرومي، الديوان: ٤١/٣ - ٤٢. والأبيات من قصيدة قالها في سالم بن عبد الله بن عمر.
- (٢) الفاحم: الشديد السواد. الغُدْرُ: جمع غديرة، وهي الذؤابة. وفي الديوان: «مُثْبَلًا غُدْرَهُ»، والغُدْرُ: جمع عذرة، وهي الخصلة من الشعر، وقيل: الغُدْرُ: شعرات ما بين القفا إلى وسط العنق، واحدتها عذرة.
- (٣) في الديوان: «من مقارقة»، و«لَا تَدْنُمُ مُنْحَدَرَهُ». والمنحدر: الانحدار.
- (٤) الوطر: الحاجة.
- (٥) في الديوان: «تغشى غواشي قرونه».
- (٦) الجاذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية.
- (٧) نصب: سَوَّى حيلةً، ونصب عليه: احتال، ومنه: نصب الأمر فلاناً: أتعبه وأعياه. الغُرَّةُ من الرجل: وجهه، ومن الفرس: بياض في جبهته، والغُرَّةُ من كل شيء: أَوَّلُهُ وأكرمه.

[وَحْدَةُ الْقَصِيدَةِ وَتَسَاقُهَا]

قال الحاتمي: مَثَلُ الْقَصِيدَةِ مَثَلُ الْإِنْسَانِ فِي اتِّصَالِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ بِبَعْضٍ؛ فَتَمَيَّزَ انْفِصَالُ وَاحِدٍ عَنِ الْآخَرِ وَبَيَانُهُ فِي صِحَّةِ التَّرْكِيبِ، غَادِرَ الْجَسَمِ ذَا عَاهَةٍ تَتَخَوَّنُ^(١) مُحَاسِنَتَهُ، وَتَعْقِي مَعَالِمَهُ؛ وَقَدْ وَجَدْتَ حُذَاقَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَرْبَابَ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ يَحْتَرِسُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ احْتِرَاسًا يُجَنِّبُهُمْ شَوَائِبَ النِّقْصَانِ، وَيَقْفُ بِهِمْ عَلَى مَحَجَّةِ الْإِحْسَانِ، حَتَّى يَقَعَ الْإِتِّصَالُ، وَيُؤَمِّنَ الْإِنْفِصَالَ، وَتَأْتِي الْقَصِيدَةُ فِي تَنَاسُبِ صُدُورِهَا وَأَعْجَازِهَا وَانْتِظَامِ نَسِيبِهَا بِمَدِيحِهَا كَالرَّسَالَةِ الْبَلِيغَةِ، وَالْخُطْبَةِ الْمَوْجِزَةِ، لَا يَفْضَلُ جُزْءٌ مِنْهَا عَنْ جُزْءٍ، وَهَذَا مَذْهَبُ اخْتِصَافِ الْمُحَدِّثِينَ؛ لِتَوْقِدِ خَوَاطِرِهِمْ، وَلُطْفِ أَفْكَارِهِمْ، وَاعْتِمَادِهِمُ الْبَدِيعَ وَأَفَانِيَتَهُ فِي أَشْعَارِهِمْ، وَكَأَنَّهُ مَذْهَبُ سَهْلَوَا حَزَنَهُ^(٢)، وَنَهَجُوا رِسْمَهُ؛ فَأَمَّا الْفُحُولُ الْأَوَائِلُ، وَمَنْ تَلَاهَهُمْ مِنَ الْمَخْضَرِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ فَمَذْهَبُهُمُ الْمُتَعَالِمُ «عَدَّ عَنْ كَذَا إِلَى كَذَا»^(٣) وَقُصَّارَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَصِفَ نَاقَتِهِ بِالْعِتْقِ، وَالتَّجَابَةِ وَالنَّجَاءِ^(٤)، وَأَنَّهُ امْتَنَظَّاهَا؛ فَادَّرَعَ عَلَيْهَا جِلْبَابَ اللَّيْلِ؛ وَرَبَّمَا اتَّفَقَ لِأَحَدِهِمْ مَعْنَى لَطِيفٍ يَتَخَلَّصُ بِهِ إِلَى غَرَضٍ لَمْ يَتَعَمَّده إِلَّا أَنْ طَبَعَهُ السَّلِيمُ، وَصِرَاطُهُ فِي الشَّعْرِ الْمُسْتَقِيمِ، نَضَبًا مَنَازَرَهُ، وَأَوْقَدَا بِالْيَفَاعِ نَارَهُ^(٥)؛ فَمِنْ أَحْسَنِ تَخَلُّصِ شَاعِرٍ إِلَى مَعْتَمِدِهِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِيَّةِ^(٦):

فَكَفَّكَفْتُ مَنِّي عَبْرَةً فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّخْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ^(٧)

(١) تَتَخَوَّنُ مُحَاسِنَتَهُ: تَنْقُصُهَا.

(٢) الْحَزَنُ: ضِدُّ السَّهْلِ.

(٣) مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زَهْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى يَتَخَلَّصُ مِنَ النَّسِيبِ إِلَى الْمَدْحِ، فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا هَرَمَ بْنَ سَنَانَ:

دَعَّ ذَا وَعَدَّ الْقَسُولَ فِي هَرَمٍ خَيْرِ الْبُسْدَاءِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
(ديوانه: ص ٢٧).

(٤) الْعِتْقُ: النِّجَابَةُ وَالْكَرَمُ. وَالنَّجَابَةُ: النِّبَاهَةُ وَظُهُورُ الْفَضْلِ عَلَى الْمَثَلِ، وَنَجَائِبُ الْإِبِلِ: خِيَارُهَا. وَالنَّجَاءُ: السَّرْعَةُ، وَالتَّاجِيَةُ مِنَ الْإِبِلِ: السَّرِيعَةُ.

(٥) الْيَفَاعُ: الْمَرْتَفَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، يَكُونُ فِي الْمَشْرِفِ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْجِبِلِ، وَالرَّمْلِ، وَغَيْرِهَا.

(٦) النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِيَّةُ، الْدِيَوَانُ: ص ٧٩، وَالْأَيَّاتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا النُّعْمَانُ بْنُ الْمَنْزَرِ، وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، وَيَهْجُو مَرَّةً بِنِ رُبِيعِ بْنِ قُرَيْعٍ.

(٧) كَفَّكَفَ الدَّمْعُ: مَسَحَهُ. الْعَبْرَةُ: الدَّمْعَةُ. الْمُسْتَهْلُ: السَّائِلُ الْمُنْصَبُ. الدَّامِعُ: الَّذِي يَرِافِقُ الدَّمْعَةَ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْعَيْنِ.

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبَا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصَحَّ وَالشَّيْبُ وَازْعُ^(١)
 وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْنِيهِ الْأَصَابِعُ^(٢)
 وَعَيْدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ^(٣)
 وهذا كلام متناسخ^(٤) تقتضي أوائله أوآخره، ولا يتميز منه شيء عن شيء:

أَتَانِي، أَيَّتَ اللّٰعِنِ، أَنْكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ^(٥)
 مَقَالَةٌ أَنَّ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَالُهُ وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ^(٦)

ولو توصل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني، وفتحوا أبوابَ البديع، واجتنوا ثمرَ الآداب، وفتحوا زهرَ الكلام لكان معجزاً عجياً، فكيف بجاهلٍ بدويٍ إنما يغترف من قلب قلبه، ويستمدُّ عفوَ هاجسه.

وقال عليّ بن هارون المنجم عن أبيه: لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول ابن وهيب:

مَا زَالَ يُلْمُنِي مَرَاشِفُهُ وَيُعْلِنِي الْإِبْرِيْقُ وَالْقَدَحُ^(٧)
 حَتَّى اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ خُلْعَتَهُ وَبَدَا خِلَالَ سَوَادِهِ وَضَحُ^(٨)
 وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَهُ الْخَلِيفَةُ حِينَ يُمْتَدِّحُ

وقال عليّ بن الجهم:

وَلَيْلَةٍ كَحَلَّتْ بِالنَّفْسِ مُقْلَتَهَا أَلَقْتُ فِتْنَاعَ الدُّجَى فِي كُلِّ أُخْدُودٍ^(٩)

(١) صحا: أفاق. الوازع: الكاف الزاجر عن اللّٰهُ.

(٢) الشغاف: حجاب القلب.

(٣) كُنْهُهُ: حقيقته، وفي غير كنهه: أي على غير ذنب مني. راكس: واد. الضواجع: منحني الوادي.

(٤) لعله أراد: «متناسق».

(٥) تستك: تضيق. يقول: أتني عنك ملامة تمنيت أن أكون أصم ولا أسمعها.

(٦) الرائع: المفزع المخيف.

(٧) المراشف: جمع مرشف: موضع الرشف: الثغر أو الشفاه. والعَلَلُ: الشرب الثاني، يقال: شرب عللاً بعد نهل.

(٨) الوضع: البياض.

(٩) النَّفْسُ: المداد. الأخدود: الشقُّ المستطيل في الأرض.

قَدْ كَادَ يُغْرِقُنِي أَمْوَاجُ ظُلْمَتِهَا لَوْلَا اقْتِبَاسِي سَنَا وَجْهِ ابْنِ دَاوُدَ^(١)

قوله: «كَحَلَّتْ بِالنُّقْسِ مَقْلَتَهَا» مأخوذ من قول أعرابي: «والليل قد صَبَغَ الحَصَى بِمِدَادٍ».

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال: (٢)

أَبْنُ لِي كَيْفَ صِرْتَ إِلَى حَرِيمِي وَجَفَنُ اللَّيْلِ مُكْتَحِلُ بَقَارِ^(٣)

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال: (٤)

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ قَدْ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِئْمِدِ^(٥)

وقد أخذ لفظ الأعرابي المتقدم أبو نواس فقال:

قَدْ أَغْتَدَيْ وَاللَّيْلُ كَالْمِدَادِ وَالصَّبْحُ يُنْفِيهِ عَنِ الْبِلَادِ

طَرَدُ الْمَشِيبِ حَالِكَ السَّوَادِ

وإنما نظرَ في هذا إلى قول الأعرابي: (٦)

أَقُولُ وَاللَّيْلُ قَدْ مَالَتْ أَوَاخِرُهُ إِلَى الْغُرُوبِ: تَأَمَّلْ نَظْرَةَ حَارِ^(٧)

الْمَحَّةِ مِنْ سَنَا بَرَقٍ رَأَى بَصْرِي أَمْ وَجْهٌ نَعْمَ بَدَا لِي أَمْ سَنَا نَارِ^(٨)

بَلْ وَجْهٌ نَعْمَ بَدَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاحَ مَا بَيْنَ حُجَابٍ وَأَسْتَارِ^(٩)

(١) قيس النار: طلبها، وقبس العلم: استفاده. وَقَبَسَ الرَّجُلُ عِلْمًا أَوْ نُورًا: أفاده إياه، ويقال: جئت لأقبس من أنوارك، وفي التزليل العزيز: «انْظُرُونَا نَقْتِسَ مِنْ نُورِكُمْ» (سورة الحديد، آية ١٣).
وَالسَّنَا: الضوء الساطع، وضوء البرق، وضوء القمر، وفي التزليل العزيز: «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ». (سورة النور، آية ٤٣).

(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٧٧.

(٣) الفار: الزفت.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢٥٣/١. والبيت من قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي.

(٥) الإئتمد: حجر الكحل.

(٦) الأبيات للناطقة الذبياني، أنظر ديوانه: ص ٥٠، والجمهرة لأبي زيد القرشي: ٢١١/١.

(٧) يا حار: أراد يا حارث فرخم الثاء. وفي الديوان: «تَبَيَّنَتْ نَظْرَةُ حَارٍ»، وفي الجمهرة: «تَبَيَّنَ نَظْرَةً»، وفيهما: «إلى المغيب».

(٨) سنا البرق: لمعانه، وسنا النار: ضوءها.

(٩) في الديوان والجمهرة: «فَلَاحَ مِنْ بَيْنِ أَثْوَابٍ وَأَسْتَارٍ».

ومن بديع الخروج قول علي بن الجهم وذكر سحابة:

وَسَارِيَةٍ تَزْدَارُ أَرْضاً بِجُودِهَا شَغَلْتُ بِهَا عَيْنًا طَوِيلًا هُجُودُهَا^(١)
أَتَنَّا بِهَا رِيحَ الصَّبَا فَكَأَنَّهَا فَتَاءُ تُرْجِيهَا عَجُوزٌ تَقُودُهَا
فَمَا بَرَحْتُ بَغْدَادَ حَتَّى تَفْجَرَتْ بِأَوْدِيَةٍ مَا تَسْتَفِيقُ مُدُودُهَا^(٢)
فَلَمَّا قَضَتْ حَقَّ الْعِرَاقِ وَأَهْلَهُ أَتَاهَا مِنَ الرِّيحِ الشَّمَالِ بَرِيدُهَا
فَمَرَّتْ تَفُوتُ الطَّيْرَ سَبْقًا كَأَنَّهَا جُنُودٌ عُبِيدُ اللَّهِ وَلَّتْ بُؤُودُهَا^(٣)

يريد انصراف أصحاب عبيدالله بن خاقان عن الجعفري إلى سر من رأى عند قتل المتوكل. وقد أخذ هذا التشبيه معكوساً من قول أبي العتاهية:

وَرَايَاتٍ يَحُلُّ النُّصْرُ فِيهَا تَمُرُّ كَأَنَّهَا قِطْعُ السَّحَابِ
وقال ديك الجن: ^(٤)

وَعَرِيرٍ يَقْضِي بِحُكْمَيْنِ: فِي الرَّأْيِ حَاجَ يَجُورُ، وَفِي الْهَوَى بِمُحَالٍ^(٥)
لِلنَّقَا رِدْفُهُ، وَلِلْخُوطِ مَا حُ مَلَّ لِنَاءً، وَجَيْدُهُ لِلْغَزَالِ^(٦)
فَعَلَلْتُ مُقَلَّتَاهُ بِالصَّبِّ مَا تَفَدَّ عِلَّ جَدَوَى يَدَيْكَ بِالْأَمْوَالِ^(٧)

ومن بارع الخروج قول المتنبي: ^(٨)

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيئِهَا فَقُلْتُ لَهَا: مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا^(٩)

(١) السارية: السحابة المائية. تزدار: تطلب الزيارة. الجود: المطر. الهجود: النوم.

(٢) المدود: جمع مد: السيل.

(٣) البود: الأعلام والرايات.

(٤) هو أبو محمد، عبد السلام بن رغيان، الملقب بديك الجن: شاعر ماجن خليع، ولد بخص، وشعره متفاوت في الجودة. توفي سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٤٩/١٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٨٤/٣).

(٥) العرير: الشاب لا تجربة له.

(٦) النقا: كتيب الرمل. والخوط (بالضم): الغصن الناعم الرقيق.

(٧) الجدوى: العطية.

(٨) المتنبي، الديوان: ٢٢٣/١. والبيتان من قصيدة مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي.

(٩) الترب: المساوي لغيره في العمر، يستعمل للمذكر والمؤنث. والشادن: الغزال الذي قوي واستغنى عن أمه، يريد به المحبوبة.

فَاسْتَضَحَّكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمَغِيثِ يَرَى لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجَلٍ إِذَا انْسَبَا^(١)
واشتهار شعره، يمنعني من ذكره.

[السر في الابتداء بالنسيب]

قال ابن قتيبة: ^(٢) «سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدِّمَنِ والآثار؛ فبكى وشكا، وخاطبَ الربع، واستوقفَ الرفيق؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهله الظاعنين؛ إذ كانت نازلةُ العمد في الحلول والظُّلَم على خلاف ما عليه نازلةُ المَكرِ^(٣)؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقطُ الغيث حيث كان؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فبكى شدةَ الوجد، وألم الصباة والشوق؛ لِيُمِيلَ نحوه القلوب، ويَصْرِفَ إليه الوجوه، ويستدعي إصغاءَ الأسماع؛ لأن النسيب قريبٌ من النفوس، لا يُط بالقلوب^(٤)، لما جعل الله تعالى في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارياً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له؛ عَقَّبَ بإيجاب الحقوق؛ فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسهرة، وسُرَى الليل [وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعر، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمام التأمل]، وقرَّرَ عنده ما ناله من المكارة في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وفَضَّلَه على الأشباه، وصَغَّرَ في قدره الجزيل، وهزَّه لفعل الجميل؛ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر، ولم يطل فَيُمِيلَ السامعين، ولم يقطع وفي النفوس ظمناً إلى المزيد^(٥).

(١) استضحكت: بمعنى ضحكت. المغيث: اسم الممدوح، والليث: الأسود. والشرى: موضع تكثر فيه الأسود. وعجل: قبيلة الممدوح.

(٢) هو أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة، والنحو، وغريب القرآن، والشعر، والأخبار، وغير ذلك. سكن بغداد وحدث بها، وولي قضاء دينور. من آثاره: «الشعر والشعراء»، و«عيون الأخبار»، و«أدب الكاتب»، وغيرها. توفي سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م. (كحالة، معجم المؤلفين: ١٥٠/٦).

(٣) نازلة العمد: البدو (سكان الخيام). المَكرُ: سكان البيوت المبنية.

(٤) لا يُط بالقلوب: لا يصق بها.

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢٠/١ - ٢١.

[موازنة بين أبي تمام والبحتري]

ويتعلق بهذه القطعة ما حدث به الحاتمي عن نفسه، وإن كانت الحكاية طويلة فهي غير مملولة؛ لما لبسته من حُلل الآداب، وتَزَيَّت به من حُلَى الألباب، قال: جمعتني ورجلاً من مشايخ البصرة ممن يؤمُّ إليه في علم الشعر مجلسٌ بعض الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصيَّته للبحثري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأتُ قولاً أنحيْتُ فيه على البحتري إنحاءً أسرفتُ فيه^(١)، واقتدَحْتُ زنادَ الرجل، فتكلَّم وتكلَّمْتُ، وخُضْنَا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوْتُ في جميعها غلوّاً شهده جميع من حضر المجلس، وكانوا جلةَ الوقت، وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام بيتي، ولا يخرج، ولا يختم، ولو لم يكن للبحتري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءته، ولطفُ خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليمُ له، فكيف بأوابده^(٢) التي تزدادُ على التكرار غَضارةً وجدةً ثم أقبل عليّ، فقال: أين يذهب بك عن ابتدائه: ^(٣)

عَارَضْنَا أَصْلاً قَقْلُنَا الرَّرْبَ حَتَّى أَضَاءَ الْأَفْحَوَانُ الْأَشْنَبُ^(٤)
وَاخْضَرَ مَوْشِيَّ الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَا مِنْهُنَّ دِيْبَاجُ الْخُدُودِ الْمُنْذَهَبِ
وَأَتَى لِأَبِي تَمَامٍ مِثْلَ خُرُوجِهِ حَيْثُ يَقُولُ:^(٥)

أَدَارَهُمُ الْأُولَى بِدَارَةِ جُدُجِلٍ سَقَاكَ الْحَيَا رَوْحَانُهُ وَبَوَاكِرُهُ^(٦)
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَاءَهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال: ^(٧)

- (١) نحا إلى الشيء: مال إليه، وأنحى عليه: أقبل، يقال: أنحى عليه ضرباً، وأنحى عليه باللوم.
- (٢) أوابد الكلام: عجائبه وغرائبه.
- (٣) البحتري، الديوان: ٣١٧/٢. والبيتان مطلع قصيدة مدح بها إسحاق بن إبراهيم.
- (٤) الأصل: جمع الأصل: الوقت بعد العصر إلى المغرب. البربر: القطيع من بقر الوحش. الأفحوان: زهر أبيض مفلج تشبه به الأسنان. الأشنب: من الشنب: الرقة والعدوبة في الأسنان.
- (٥) البحتري، الديوان: ٢٨٣/١، والبيتان من قصيدة مدح بها يوسف بن محمد.
- (٦) الحيا: المطر. روحاته: دفعاته المسائية، وبواكره: ما يسقط منه أول النهار (في الصباح الباكر).
- (٧) البحتري، الديوان: ١٣١/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا صالح.

تَنْصَبَ الْبَرْقُ مُخْتَالًا فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ جُدْتَ جُودَ بَنِي يَزْدَانَ لَمْ تَزِدْ

ومن ذا الذي لَطْفٌ لَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ وَصْفِ رَوْضٍ إِلَى مَدْحٍ، فَقَالَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ:
كَأَنَّ سَنَاهَا بِالْعَشِيِّ لِصَحْبِهَا تَبْلُجُ عَيْسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ^(١)

وَأَتَى لِأَبِي تَمَامٍ مِثْلُ حَسَنِ انْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ^(٢)

إِلَيْكَ الْقَوَافِي نَازِعَاتٍ شَوَارِدَا يُسَيِّرُ ضَاحِي وَشَيْهَا وَيُتَمِّمُ
وَمُشْرِقَةٍ فِي النِّظَمِ غَرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَنْهَا لَكَ تُنْظِمُ

وقوله في هذا المعنى: ^(٣)

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدِ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
ثَنَاءً تَخَالُ الرُّوضُ فِيهِ مُنَوَّرَا ضُحَى، وَتَخَالُ الْوُشْيُ فِيهِ مُنَمَّمَا^(٤)

ولقد تقدم البحرني الناس كلهم في قوله: ^(٥)

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَشْيِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُبَرَّرُ

قال أبو علي: وكنت ساكناً إلى أن استتم كلامه، فكان الجماعة أعجبهم ذلك، عصبية علي لا على أبي تمام؛ لأنني كنت كالشجى معترضاً في لهواتهم، وأسر كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئ به إلى استيلاء الرجل علي؛ فلما استتم كلامه وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعِّعُ له بالشَّانِ، ولا يُفَرِّعُ له بالعصا، لا إله إلا الله! استنّت الفصائل حتى القرعى! هل هذه المعاني إلا عونٌ مُفْتَرَعَةٌ^(٦)، قد تقدم أبو تمام إلى سبكِ نُضَارِهَا، وافتضاض أباكراها، وجرى البحرني على وتيرته في انتزاع أمثالها واتباعها، فأما قوله: «عَارَضْنَا أَصْلًا فَقَلْنَا الرِّبَّ»، فمن قول أبي جُوَيْرِيَةَ العبدى:

سَلَّمْنَا نَحْوِي لِلدَّوَادِ بِمُقْلَةٍ فَكَأَنَّمَا نَظَرَتْ إِلَيْنَا الرَّبُّ

(١) سناها: ضوءها. وتبلجها: إشراق وجهه.

(٢) البحرني، الديوان: ١١٣/١. والبيتان من قصيدة مدح بها الفتح بن خاقان.

(٣) البحرني، الديوان: ١٠٩/١. والبيتان من قصيدة مدح بها الفتح بن خاقان وعاتبه.

(٤) المنور: المزهر. وفي الديوان: «وكان الوشي فيه مُنَمَّمًا»، والمسهم: المخطط بخطوط كالسهام.

(٥) البحرني، الديوان: ٢٤/١. والبيت من قصيدة مدح بها المتوكل العباسي.

(٦) العون من النساء: غير البكر. وافتزع البكر: انتضها.

وَقَرَأَنَ بِالْحَدَقِ الْمِرَاضِ تَحِيَةً كَادَتْ تُكَلِّمُنَا وَإِن لَّمْ تَعْرِبْ
 وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي صِفَةِ الْغَيْثِ مُخَاطَبًا لِلدَّارِ: «وَجَاءَكَ يَحْكِي يَوْسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ»
 وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى: «الْوَجَدْتُ جُودَ بَنِي يَزْدَانَ لَمْ تَزِدْ» فَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ: (١)
 وَلِنُؤْيِيهَا فِي الْقَلْبِ نُؤْيٍ شَقَهُ وَلَهُ بِطَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ (٢)
 وَكَأَنَّمَا اسْتَنْقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ مِنْ سَوْمِهِنَّ مِنَ الْحَيَا فِي زُخْرَفِ (٣)
 وَمِنْ قَوْلِهِ الَّذِي تَقْدِمُ فِيهِ كُلَّ أَحَدٍ لَفْظًا رَشِيقًا وَمَعْنَى رَقِيقًا (٤).

دِيمَةً سَمَحَةً الْقِيَادِ سَكُوبٌ مُسْتَعِثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ (٥)
 لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نَعْمَى لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيدُ
 وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْبَحْرِيُّ: «لَسَعَى إِلَيْكَ الْمَنْبَرُ».

[أَيُّهَا الْغَيْثُ حَيٍّ أَهْلًا بِمَعْدَا لَكَ وَعِنْدَ الثَّرَى وَحِينَ تَوْوُبُ (٦)
 لَأَبِي جَعْفَرٍ خَلَاتِقُ تَحْكِي هُنَّ قَدْ يُشْبِهُ التَّجِيبَ النَّجِيبُ (٧)
 أَنْتَ فِينَا فِي ذَا الْأَوَانِ غَرِيبٌ وَهُوَ فِينَا فِي كُلِّ وَقْتٍ غَرِيبٌ]
 وَأَمَّا قَوْلُهُ:

كَأَنَّ سَنَاهَا بِالْعَشِيِّ لِصَحْبِهَا تَبْلُجُ عَيْسَى حِينَ يَلْقُظُ بِالْوَعْدِ
 فَإِنَّمَا نَظَرَ فِيهِ إِلَى قَوْلِ دِعْبِلَ بْنِ عَلِيٍّ: فَإِنَّمَا نَظَرَ فِيهِ إِلَى قَوْلِ دِعْبِلَ بْنِ عَلِيٍّ:
 وَمِثْلَاءَ خَضِرَاءَ زُرِّيَّةَ بِهَا الثُّورُ يَلْمَعُ فِي كُلِّ فَنٍ (٨)

- (١) أبو تمام، الديوان: ٤٣١/١. والبيتان من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.
- (٢) التوي: الحفير حول الخيمة يمنع السيل. شَقَّهُ: زاده حرقاً. الْوَلَةُ: الولوع، شدة الحب. الظاعن: المفارق. المتخلف: الباقي.
- (٣) في الديوان: «فَرُسُوهُنَّ مِنَ الْحَيَا فِي زُخْرَفٍ». الحيا: المطر. زخرف: نقوش وزينة لكثرة الأزهار فيها.
- (٤) أبو تمام، الديوان: ١٧٩/١. والبيتان من قصيدة مدح بها محمد بن الهيثم بن شُبَّانَة.
- (٥) الديمة: السحابة الممطرة. سمحة القياد: أراد: تسمح بمطرها في سهولة. سكوب: كثيرة السكب، وسكب الماء: صَبَّ. المكروب: المهموم.
- (٦) مَعْدَاكَ: مجيئك غدوة. الثرى: السير في الليل.
- (٧) خلّاتق: طبائع، الواحدة خليفة. تحكيهن: تشبههن. النجيب: السخي الكريم، الكريم الحسب.
- (٨) الميثاء: الأرض السهلة اللينة، وزرية: اخضر نبتها واصفر واحمر.

ضَحُوكاً إِذَا لَاعَبَتْهُ الرِّيحُ تَأَوَّدَ كَالشَّارِبِ الْمُرْجَحِنِ^(١)
 فَشَبَّهَ صَحْبِي سَنَا نَوْرِهَا بِدِيَاكِ كِسْرَى وَعَضْبِ الْبَمْنِ
 فَقُلْتُ: بَعْدْتُكُمْ، وَلَكِنِّي أَشْبَهُهُ بِجَنَابِ الْحَسَنِ
 فَتَى لَا يَرَى الْمَالَ إِلَّا الْعَطَاءَ وَلَا الْكَنْزَ إِلَّا اعْتِقَادَ الْمَنِّ

وأما قوله في صفة الغواني «يُسِرُّ ضَاحِي وَشِيهَا وَيُثْمِنُ» وقوله في وصفها: «وتخال الرشي فيه منمنماً» فمن قول أبي تمام:^(٢)

حَلَّوْا بِهَا عَقْدَ النِّسَبِ، وَتَمَنَّمُوا مِنْ وَشِيهَا نَثْرًا لَهَا وَقَصِيدًا^(٣)
 وَمِنْ قَوْلِهِ الَّذِي أَبْدَعَ فِيهِ:^(٤)
 وَوَاللَّهِ لَا أَنْفَكَ أَهْدِي شَوَارِدًا إِلَيْكَ تَحْمَلُنَ الشَّاءَ الْمُخْلَا^(٥)
 تَخَالُ بِهِ بُرْدًا عَلَيْكَ مُجَبَّرًا وَتَحْبِبُهُ عَقْدًا عَلَيْكَ مُفْصَلًا^(٦)
 أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبُ نَفْحَةً مِنْ الْمِسْكِ مَقْشُوقًا وَأَيْسَرُ مَحْمَلًا
 أَخَفَّ عَلَى قَلْبِي وَأَثْقَلُ قِيَمَةً وَأَقْصَرَ فِي قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأَطْوَلًا
 وقول البحري:

هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عنه كلَّ تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول:^(٧)

أَصِخَّ تَسْتَمِعُ حُرَّ الْقَوَافِي؛ فَإِنَّهَا كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّهُنَّ سَعُودُ
 وَلَا تُمْكِنُ الْإِخْلَاقُ مِنْهَا فَإِنَّمَا يَلْدُ لِبَاسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدُ^(٨)

(١) اَزْجَحَنَ: ثَقُلَ وَمَالَ وَاهْتَزَّ.

(٢) أبو تمام، الديوان: ٢٢٨/١. والبيت من قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني.

(٣) تمنموا: نقشوا، زخرفوا. وفي الديوان: «مِنْ وَشِيهَا حُلًّا لَهَا وَقَصِيدًا».

(٤) أبو تمام، الديوان: ٥١/٢. والآيات من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

(٥) الشوارد: القصائد السَّيَّارَةُ. الْمُخْلَلُ: المُنْتَخَبُ. وفي الديوان: «يُحْمَلُنَ».

(٦) الْبُرْدُ الْمُجَبَّرُ: الثوب المنقوش.

(٧) أبو تمام، الديوان: ٢٢٥/١.

(٨) لباس البرد: لبسه، استعار الاسم للمصدر.

فهذه خصال صاحبك فيما عدده من محاسنه التي هتكت بها ستور عواره، ونشرت مطوى أسرارهِ، حتى استوضحت الجماعة أنَّ إحسانه فيها عارية مُرتجعة، ووديعه مُتَزَعَة، فاسمع ما قال أبو تمام في نحو أبياتك التي أوجبت الفضل لصاحبك حين قال مبتدئاً: ^(١)

لَا أَنْتِ أَنْتِ، وَلَا الدِّيارُ ديارُ خَفَّ الهوى، وَتَقَضَّتِ الأوطارُ ^(٢)
كَانَتْ مُجاورةُ الطلولِ وأهلها زَمناً عَذَابَ الوِردِ فَهِيَ بِحَارُ ^(٣)
وقوله: ^(٤)

رَقَّتْ حَوَاشِي الدهرِ فَهِيَ تَمَرَّمُرُ وَغدا الثرى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ ^(٥)
وقوله: ^(٦)

أَرَأَيْتَ أَيَّ سِوَالِفٍ وَخُدودِ عَنَّتْ لَنَا يَينَ اللوى وَزُرودِ ^(٧)
وهل يستطيع أحد أن يتبدى بمثل ابتدائه: ^(٨)

طَلَّ الجميعَ لَقَدْ عَفَوَتْ حَميدا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيداً ^(٩)
دَمَنْ كَانَ الْيَينَ أَصْبَحَ طالِباً دِمْناً لَدَى آرامِها وَحَقوداً ^(١٠)

- (١) أبو تمام، الديوان: ٣٢١/١. والبيتان من قصيدة مدح بها أبا سعيد الثغري.
- (٢) تولت: ذهبت. الأوطار: الحاجات، مفردها وطر. يقول: لست أنت بالمرأة التي أعرفها، ولا هذه الديار التي أعهدا، فقد ارتحل الهوى وذهبت الأوطار.
- (٣) أي: لما كان أهل الطلول فيها، كانت مجاورتها عذاباً لنا، فلما رحلوا عنها، صارت مجاور الطلول يعدم بحاراً، أي مالهة.
- (٤) أبو تمام، الديوان: ٣٣٣/١. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.
- (٥) الحواشي: جمع حاشية، وهي طرف كل شيء؛ ورقَّت حواشي الدهر: أي صار الدهر رغداً. تمرمر: تهتئ وتتمايل ليلاً ونعماً. الحلي: الزينة. يتكسر: يثنى. وقوله: «وغدا الثرى يتكسر»: أي نباته يتمايل لطراوته.
- (٦) أبو تمام، الديوان: ٢١٨/١. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها أبا عبدالله أحمد بن أبي دؤاد.
- (٧) السوالف: جمع سالفة، وهي صفحة العنق. عَنَّتْ: عرضت. اللوى وزرود: موضعان.
- (٨) أبو تمام، الديوان: ٢٢٧/١. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني.
- (٩) عفوت: درست. حميداً: أي محموداً لما كُتِبَ نجده فيك من المساعدة. يقول: كفى على مصابي شاهداً أنَّ آثارك انصحت بعد أن فارقك أهلك.
- (١٠) الدمن (الأولى): آثار الدار، مفردها دمنة، والدمن (الثانية): الأحقاد. الآرام: الغزلان، استعارها للنساء، ومفردها رثم. يقول: كان الفراق طلب ثاراً عند طباء هذه الدمن.

أو مثل قوله مبتدئاً: (١)

يا دارُ دَرٍّ عليك إرهامُ النَّدى وَاهْتَزَّ رَوْضُكَ لِلشَّرَى فَتَرَادَا (٢)
وَكُسِيتِ مِنْ خِلَعِ الْحَيَا مُتَّاسِدَا أَنْفَا يُعَادِرُ وَحْشُهُ مُتَّاسِدَا (٣)

أو مثل قوله مبتدئاً: (٤)

غَدَّتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ وَعَادَ قَتَادَا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدٍ (٥)
فَأَذْرَى لَهَا الْإِشْفَا قُ دَمْعاً مُورِّدَا مِنْ الدَّمِ يَجْرِي فَوْقَ خَدِّ مُورِدٍ (٦)

ولقد أحسن حين ابتداء فقال: (٧)

نَوَارٌ فِي صَوَاحِبِهَا نَوَارٌ كَمَا فَاجَاكَ مِرْبُ أَوْ صَوَارٌ (٨)
تَكْذِبُ حَاسِدٌ فَنَاتٌ قُلُوبٌ أَطَاعَتْ وَاشِيَاءٌ وَنَاتٌ دِيَارٌ (٩)

وحيث يقول: (١٠)

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ (١١)

(١) أبو تمام، الديوان: ٢٨٤/١. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أحمد بن عبد الكريم الطائي الحمصي.

(٢) الإرهام: المطر الضعيف الدائم. تراد: تمايل.

(٣) المستأسد (الأولى): النبات الطويل المتشعب، والثانية: الذي صار مثل الأسد. الروضة الأنثى: التي لم تُزَع.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢٤٨/١. والبيتان من قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي.

(٥) في الديوان: «سَرَّتْ». والفتاد: الشوك.

(٦) في الديوان: «فَأَجْرَى». والإشفاق: الخوف. أي: إن خوفها عليه من السفر، جعلها تبكي دماً.

(٧) أبو تمام، الديوان: ٣١٥/١. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبَّانة.

(٨) نوار (الأولى): نفور، والثانية: اسم المرأة. فاجاك: فاجأك. السرب: القطعة من الظباء. الصوار: القطيع من بقر الوحش.

(٩) تَكْذِبُ: تكلف الكذب. نَاتٌ: بَعْدَتْ.

(١٠) أبو تمام، الديوان: ٣٦٦/١. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.

(١١) الباس: مخفقة من البأس: الضرر. والذمام: العهد. الأربع: الديار، مفردها ربع. الأدراس: المَمْحُورَةُ، البالية، مفردها درس.

وأصله قول امرئ القيس: ^(١)

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تُشَدُّه صَلِيلُ زُيُوفٍ يُتَّقَدْنَ بِعَبَقَرَا ^(٢)

وقال أبو الفتح كشاجم:

لَوْ لَمْ تُحَرِّكْهُ أَنْامِلُهَا كَانَ الْهَوَاءُ يُعِيدُهُ نُطْقًا

جَسَتْهُ عَالِمَةٌ بِحَالَتِهِ جَسَتْهُ عَالِمَةٌ بِحَالَتِهِ

غَنَّتْ فَخِلْتُ أَظُنُّنِي طَرِبًا غَنَّتْ فَخِلْتُ أَظُنُّنِي طَرِبًا

وَحَسِبْتُ يُنْهَاهَا تُحَرِّكُهَا وَحَسِبْتُ يُنْهَاهَا تُحَرِّكُهَا

وأشدد الحاتمي لأبي بكر الصولي:

وَعَنَاءُ أَرْقٍ مِنْ دَمْعَةِ الصَّدِّ وَشَكْوَى الْمُتِمِّمِ الْمَهْجُورِ

فَهَوَ يُضْغِي بِظَاهِرٍ وَضَمِيرٍ فَهَوَ يُضْغِي بِظَاهِرٍ وَضَمِيرٍ

وَأَذَاقَ النَّفُوسَ طَعْمَ السَّرُورِ وَأَذَاقَ النَّفُوسَ طَعْمَ السَّرُورِ

رَاضٍ نَعْمًا وَلَا الشَّيْعَ الْجَهِيرِ ^(٤) رَاضٍ نَعْمًا وَلَا الشَّيْعَ الْجَهِيرِ

وقال أبو نؤاس: ^(٥)

وَأَهْيَفَ مِثْلَ طَاقَةِ يَاسَمِينَ لَهُ حَظَّانٍ مِنْ دُنْيَا وَدِينٍ

يُحَرِّكُ حِينَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ فَتَبْعَتْ الطَّبَائِعُ لِلْسُكُونِ

وهذا مليح، يريد حركة الجوانح للغناء، وسكون الجوارح للاستماع. وقال الحمدوني

يصف عوداً:

وَنَاطِقِي بِلِسَانٍ لَا ضَمِيرَ لَهُ كَأَنَّهُ فَخَذٌ نِيَطَتْ إِلَى قَدَمِ

(١) امرؤ القيس، الديوان: ص ٩٤. والبيت من قصيدة قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً على بني أمد.

(٢) الصليل: الصوت. المرء: حجارة بيض براقه. وعبر: بلد ينسب العرب إليها كل ما يتعاضمون صناعته، وزعموا أنها مقر الجن. وتشده: تنحيه، تطيره. والزيوف: الدراهم القسية.

(٣) المدنف: الذي براه المرض أو الحب، وأشفى على الموت.

(٤) الجهير: يقال: وجه جهير: ظاهر الوضاعة، ورجل جهير للمعروف: خليف له. والشيع: القبيح الكريه.

(٥) لم نجد هذين البيتين في ديوانه (تحقيق الغزالي).

يُثِدِّي ضَمِيرَ سِوَاهُ لِلْقُلُوبِ كَمَا يُثِدِّي ضَمِيرَ سِوَاهُ مُنْطِقُ الْقَلَمِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تَجُودَ بِدَمْعِهَا وَالْدَّمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي^(١)

وحيث يقول: ^(٢)

مَا عَهِدْنَا كَذَا نَحِيبَ الْمَشُوقِ كَيْفَ وَالْدَمْعُ آيَةُ الْمَعْشُوقِ^(٣)

وحيث يقول: ^(٤)

دِمْنُ أَلَمٍ بِهَا فَقَالَ: سَلَامٌ كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلَامُ؟^(٥)
نُحِرْتُ رِكَابُ الرُّكْبِ حَتَّى يَغْبُرُوا رَجُلًا، وَقَدْ عَنُقُوا عَلَيَّ وَلَا مُوَا^(٦)

وحيث يقول: ^(٧)

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرَنَ مَا سَلَفَا فَلَا تُكْفَنَنَّ عَنْ شَأْنِكَ أَوْ يَكْفَا^(٨)
لَا عُدْرَ لِلصَّبِّ أَنْ يَقْنَى السُّلُوَ وَلَا لِلدَّمْعِ بَعْدَ مِضِيِّ الْحَيِّ أَنْ يَقْنَا^(٩)

ومن اقتضاباته البعيدة قوله: ^(١٠)

(١) في الديوان: «فلعل عينك أن تعين بمائها». الخاذل: التارك المساعدة. المواسي: المعين، المساعد.

(٢) أبو تمام، الديوان: ٤٤٦/١. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف.

(٣) الآية: العلامة. ينكر على نفسه النحيب، ثم يقول: كيف لا أنحب والمعشوق ييكي، والبكاء من علامات عشقه.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٧٤/٢. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المأمون.

(٥) الدمن: آثار الديار.

(٦) يقف الشاعر على آثار الديار فيفقد صبره وييكي، لكن رفاقه في السفر يعنفونه، ويتشددون في لومه، فيدعو عليهم بأن تنحر ركبهم، حتى يمضوا راجلين. وقال المرزوقي (في شرح الحماسة): «وإنما دعا عليهم بنحر ركبهم ليقوا في الديار، فيقضي وطره من التسليم، ويكون نحرها جزاء لهم على لومهم إياه».

(٧) أبو تمام، الديوان: ٤١٦/١. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي.

(٨) الرسوم: آثار الديار. ما سلف: ما مضى. شأنك: مفردها شأن: أي مجرى الدمع. «أو يكفا»: أي إلى أن يكف، أي يسيل قليلاً قليلاً.

(٩) يقنى السلو: يذخره ويمسكه. وفي الديوان: «يقنى الحياء».

(١٠) أبو تمام، الديوان: ٤٧/٢. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ فَتَقْضِلَا^(١)
 وقوله أيضاً مقتضياً: ^(٢)

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسَّيْفُ عَوَارِي فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ^(٣)
 ومما تقدم فيه كل واحد في حسن التخلص إلى المدح قوله: ^(٤)
 إِسَاءَةُ الْحَادِثَاتِ اسْتَبْطَنِي نُفْقَا فَقَدْ أَظْلَمْتُكَ إِحْسَانُ ابْنِ حَسَّانٍ^(٥)
 وقوله: ^(٦)

إِذَا الْعَيْسُ لَاقَتْ بِي أَبَا دُلْفٍ فَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ^(٧)
 وقوله: ^(٨)

لَمْ يَجْمَعْ قَطُّ فِي مِصْرٍ وَلَا طَرْفٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مَرْوَانَ وَالثُّوبُ
 وقوله المنقطع دونه كل قول في هذا المعنى: ^(٩)

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا أَقْوَاتَهَا لِتَصْرِفِ الْأَحْرَاسِ^(١٠)
 فالأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرِّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ^(١١)

(١) اللام في «لهان» واقعة في جواب قسم محذوف تقديره: والله لهان. يقول: يهون علينا أن نُسأل بالقول، فتعطي أنت بالفعل، ثم نمدحك ببعض فضائلك فتتهال علينا أفضالك.

(٢) أبو تمام، الديوان: ٣٣٧/١. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم، وذكر إحراق الأفشين وصلبه.

(٣) أبلج واضح. عوار: أي عارية من أعمادها لنصرة الحق. حذار: احذروا. وأسد العرين: المعتصم.

(٤) أبو تمام، الديوان: ١٦١/٢. والبيت من قصيدة مدح بها محمد بن حسن الضبي.

(٥) استبطني: ادخلي في باطن. النفق: حفير تحت الأرض. أي يا إساءة الحادثات، تواري خجلاً وخوفاً من إحسان الممدوح.

(٦) أبو تمام، الديوان: ١٤٨/١. والبيت من قصيدة مدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي.

(٧) العيس: الإبل.

(٨) أبو تمام، الديوان: ١٦١/١. والبيت من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

(٩) أبو تمام، الديوان: ٣٦٧/١. والآيات من قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.

(١٠) الأحراس: جمع حرس: الدهر. يقول: إن الله تعالى خلق الخلائق، وقدر لهم أقواتهم على كل حال وكل زمان.

(١١) القرى: الضيافة. يقول: بنو العباس للناس مثل المطر للأرض.

الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ فِيهِمْ، وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي^(١)
وقوله: (٢)

عَامِي وَعَامُ الْعَيْسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتُؤَفِّقُ صَيْهُودَ^(٣)
حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عَيْدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ^(٤)
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاحَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ^(٥)
بِمُعْرَسِ الْعَرَبِ الَّذِي وَجَدَتْ بِهِ أَمَّنَ الْمَرْوَعِ وَنَجْدَةَ الْمَنْجُودِ^(٦)
ومن أبدع ابتدائه قوله: (٧)

سَقَى دِيَارَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمٍ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمٍ^(٨)
جَادَتْ مَعَاهِدَهُمْ عَهَادُ سَحَابَةٍ مَا عَهْدُهَا عِنْدَ الدِّيَارِ ذَمِيمٍ^(٩)
ثم تخلص إلى المدح فقال وأحسن كل الإحسان:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ^(١٠)
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوَدَادِ وَلَا غَدْتُ نَفْسِي عَلَى إِلْفِ سِوَاكَ تَحُومٌ^(١١)
ثم عاد إلى المدح، فقال:

- (١) أراد بالقوم: بني العباس. وفي رواية: «أسكن ظله فيهم».
- (٢) أبو تمام، الديوان: ٢١٩/١. والأبيات من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد.
- (٣) الوديقة: شدة الحر. المسجورة: الموقدة، أو المملوءة بالمساب. التؤفة: الفلاة البعيدة الأطراف. والصيهود: الفلاة التي لا ينال ماؤها. وفي الديوان: «صيخود»، وهو من صخذته الهاجرة: إذا ألمت دماغه.
- (٤) عيداً: يريد شيئاً نعتاده. بنات العيد: النوق، قيل إنها منسوبة إلى قبيلة من مهرة، وقيل إلى فحل من فحول الإبل اسمه العيد. والمراد أنه يترك الطير نعتاد أكل لحوم النباقي التي يغادرها في الفلا.
- (٥) منها: أي من ناقته. يريد أنها لا تصل إلى روضة محمودية حتى تنأخ بأحمد المحمود.
- (٦) نجدة: قوة. المنجود: المكروب. ومعرس العرب: محط رحالهم. أي عنده نجدة لمن استنجد، وأمن لمن خاف.
- (٧) أبو تمام، الديوان: ١٥١/٢. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة.
- (٨) في الديوان: «أَسْقَى طُلُوقَهُمْ». الأجش: الخشن الصوت، وأراد به الرعد. والهزيم: صوت الرعد.
- (٩) المعاهد: المنازل. العهد: الأمطار بعد الأمطار.
- (١٠) في الديوان: «أَنَّ النَّوَى صَبْرٌ»، والصبر: عصارة شجر مُرٌّ، يريد أن النوى مُرٌّ.
- (١١) زلت: تحولت. السَّنُّ: الطريق.

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شُبَّانَةَ مَجْدٌ إِلَى حَيْثُ السَّمَاءِ مُقِيمٌ
مَلِكٌ إِذَا نَسِبَ النَّدَى مِنْ مُلْتَقَى طَرَفِهِ فَهُوَ أَخٌ لَهُ وَحَمِيمٌ

وأبو تمام الذي وصف القوافي بما لم يستطع وصفها به أحد فقال: (١)

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاغِرًا عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّي غَيْرُ حَامِدٍ (٢)
بِسِيَّاحَةٍ تَسْأَلُ مِنْ غَيْرِ سَائِلِي وَتَقْدَادُ فِي الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ قَائِدٍ (٣)
مُحِبَّةٌ مَا إِنْ تَزَالُ تَرَى لَهَا إِلَى كُلِّ أَفْقٍ وَاحِدًا غَيْرَ وَافِدٍ (٤)
مُخْلَقَةٌ لَمَّا تَرِدُ أُذُنَ سَامِعٍ فَتَصْدُرُ إِلَّا عَنْ يَمِينٍ وَشَاهِدٍ (٥)
والذي قال أيضاً في صفتها: (٦)

جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ سِمْطَانٍ فِيهَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ (٧)
إِنْسِيَّةٌ وَخَشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِهَا حَرَكَاتُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سُكُونُ (٨)
حَدِيثِ حِذَاءِ الْحَضْرَمِيَّةِ أَرْهَفَتْ وَأَجَادَهَا التَّخْصِيرُ وَالتَّلْسِينُ (٩)
يَبْنُوغُهَا خَضِلٌ، وَحَلِي قَرِيضُهَا حَلِي الْهَدْيِ، وَنَسِجُهَا مَوْضُونُ (١٠)

- (١) أبو تمام، الديوان: ٢٧٦/١. والأبيات من قصيدة مدح بها محمد بن الهيثم بن شُبَّانَةَ الخراساني.
- (٢) يريد: أن عدوك في رغبته برواية هذه القصيدة الرائعة، وأنا غائب، ينوب عني في حمدك صاغراً، لأنه يحمد من يعاديه إعجاباً بهذا الشعر.
- (٣) سياحة: أي قصيدة تسبح (تذهب في الأرض).
- (٤) في الديوان: «وافداً غير وافد»: أي إن هذه القصائد مقيمة، وهي في الوقت نفسه سائرة في الآفاق برواية الناس لها.
- (٥) في الديوان: «مُخْلَقَةٌ». أي تجعل الرجل يحلف بأنها قصيدة رائعة، ويشهد لها بذلك.
- (٦) أبو تمام، الديوان: ١٧١/٢. والأبيات من قصيدة يمدح بها الخليفة الواثق بالله العباسي.
- (٧) سمطان: خيطان. المكنون: المستور، من كنه: إذا ستره.
- (٨) إنسية: تأنس بها القلوب، وتحب أن ترويه، أو هي من إنشاء الإنس. وخشية: ترود البلاد كما الوحوش، أو أنها لا تصاد، أو هي غريبة مثيرة للدهشة والعجب.
- (٩) الحضرمية: النعال المنسوبة إلى حضرموت. التخصير: يقال نعل مُخَصَّرٌ: إذا كان لها خصران، والنعال المخصرة كانت من لبس السادات. والملسنة: التي تستدق من طرفها الذي يلي الأصابع. والمعنى: أن هذه الأبيات يشبه بعضها بعضاً كالنعال المحذوة، كل واحدة تشاكل أختها.
- (١٠) يبنوعها: لعله أراد به قلبه أو لسانه. خضل: مبتل. الهدى: العروس. الموضون: المنسوج نسجاً متقارباً كنسج الدروع، والموضون: الذي نني بعضه فوق بعض.

أَحْذَاكَهَا صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمُدُّهُ حَسَبَ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامُ مَعِينَ^(١)
 أَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ أَبْكَارُ إِذَا نُصَّتْ، وَلَكِنَّ الْقَوَافِي عُونُ^(٢)
 وقد أبدع في وصفها فقال: ^(٣)

لَمْ أَبْقِ حَلِيَّةَ مَنْطِقِي إِلَّا وَقَدْ سَبَقَتْ سَوَابِقَهَا إِلَيْكَ جِيَادِي^(٤)
 أَبْقَيْنَ فِي أَعْنَاقِ جُودِكَ جَوْهَرًا أَبْقَى مِنَ الْأَطَوَاقِ فِي الْأَجْيَادِ^(٥)

هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أو شيئاً منه إلى السَّرَقِ والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري، أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله؟ فعَيَّ عن الجواب قُصُوراً، وأحجم عن المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقَهْر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المُحَدِّثِينَ، وكان يوماً مشهوداً.

[أثر الغناء والجمال]

وقال ثُمَامَةُ بن أَشْرَس: ^(٦) كُنْتُ عِنْدَ الْمَأْمُونِ يَوْمًا، فَاسْتَأْذَنَ الْغَلَامَ لِعَمِيرِ الْمَأْمُونِي فَكَرِهَتْ ذَلِكَ، وَرَأَى الْمَأْمُونُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: يَا ثُمَامَةُ، مَا بَكَ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا غَنَّا عَمِيرَ ذَكَرْتَ مَوَاطِنَ الْإِبِلِ، وَكُتُبَانَ الرَّمْلِ، وَإِذَا غَنَّا فَلَانَةَ أَنْبَسْتَ أَمْلِي، وَقَوِي جَذَلِي، وَانْشَرَحَ صَدْرِي، وَذَكَرْتَ الْجَنَانَ وَالْوُلْدَانَ، كَمْ بَيْنَ أَنْ تَغْنِيكَ جَارِيَةً غَادَةً كَأَنَّهَا غَصْنُ بَانَ، تَرْنُو بِمَقْلَةٍ وَسَنَانٍ؛ كَأَنَّمَا خُلِقْتُ مِنْ يَاقُوتَةٍ، أَوْ خَرُطْتُ مِنْ فَضَّةٍ، بِشَعْرِ عَكَاشَةِ الْعَمِيٍّ حَيْثُ يَقُولُ: ^(٧)

- (١) في الديوان: «صنع اللسان». أحذاكها: ألبك إياها. صنع اللسان، وصنع الضمير: ماهر، حاذق. وفي الديوان: «يمده جَفْرٌ»، والجفر: البئر الواسعة الضم. المعين: الماء الذي يجري على وجه الأرض.
- (٢) أي: إنه إذا أحسن يستقل لك إحسانه مهما كثر.
- (٣) أبو تمام، الديوان: ٣٠٠/١. والبيتان من قصيدة يمدح بها أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي.
- (٤) في الديوان: «حَلِيَّةٌ مَنْطِقِي». والحلبة: الميدان، استعارها للمنطق. الجياد: الخيل، وأراد بها قصائده المدهية. أي: ما من مقام للفصاحة إلا سبقت إليه جياد قصائدي.
- (٥) الأجياد: الأعناق، الواحد جيد.
- (٦) ثُمَامَةُ بن أَشْرَس: أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء، وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغيره. (البغداد، تاريخ بغداد: ١٤٥/٧).
- (٧) البيتان في الأغاني: ٢٥٥/٣، ضمن أبيات قالها عكاشة العمي في «نعيمة».

مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَانَ بَنَانَهَا مِنْ فِضَّةٍ قَدْ طُرِفَتْ عُنَابَا^(١)
وَكَانَ يُمْنَاهَا إِذَا ضَرَبَتْ بِهَا تُلْقِي عَلَى الْكَفِّ الشَّمَالِ حِسَابَا^(٢)

وبين أن يغنيك رجل كُتَّ اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول:

رَأَيْتُ زُهَيْرًا تَحْتَ كُلِّ خَالِدٍ فَأَقْبَلْتُ أَسْعَى كَالْعَجُولِ أُبَادِرُهُ^(٣)

وَكَمْ بَيْنَ أَنْ يَحْضُرَكَ مَنْ تَشْتَهِي النَّظَرَ إِلَيْهِ، وبين من لا يقفُ طَرْفَكَ عليه؟ فتبسم المأمون، وقال: الفرق بينهما واضح، والمنهج فسيح؛ يا غلام، لا تأذن له، وأحضر أطيّب قَبَانَتَهُ، فظَلَلْنَا فِي أَمْتَعِ يَوْمٍ.

عكاشة بن عبد الصمد البصري

وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصري، نقيّ الدباجة، ظريف الشعر، وكان شاعراً مجيداً^(٤). وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشيء، وزاد فيه، فقال:

وَإِذَا بَصُرْتَ بِكَفِّهَا الْيُسْرَى حَكَتْ يَدَ حَاسِبٍ تُلْقِي عَلَيْكَ صُنُوفَا
فَكَأَنَّمَا الْمِضْرَابُ فِي أَوْتَارِهِ قَلَمٌ يُمَجِّجُ فِي الْكِتَابِ حُرُوفَا^(٥)
وَيَجُشُّهُ إِنْهَاؤُهَا فَكَأَنَّمَا فِي التَّقْرِ تَنْفِي بِهِرَجَاءَ وَزُيُوفَا^(٦)

أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلمي وذكر ناقته:

تَطِيرُ عَنْهَا حَصَى الظَّرَانِ مِنْ بَلَدٍ كَمَا تُتَوَقَّدُ عِنْدَ الْجَهْبَذِ الْوَرَقُ^(٧)

(١) في الأغاني: «قَمَعَتْ عُنَابَا».

(٢) في الأغاني: «إِذَا نَطَقَتْ بِهِ» و«تُلْقِي عَلَى يَدَيْهَا الشَّمَال».

(٣) الكلْكُلُ: الصدر. والعجول: الشكلى والواله من الإبل والنساء.

(٤) أنظر ترجمته بالتفصيل في الأغاني: ٢٥٢/٢ - ٢٦٠.

(٥) مجمع الكتاب: خلطه وأفسده بقلم، ومنه: مجمع في خبره: لم يُبَيِّنْهُ.

(٦) جَسَّ الشَّيْءُ يَدَهُ: مَكَّهُ. الْبَهْرَجُ: الْبَاطِل. وَزَاغَتِ التَّقُودُ زَيْفًا، وَزُيُوفًا، وَزُيُوفَةٌ: ظَهَرَ فِيهَا غِشٌّ وَرَدَاءَةٌ.

(٧) الظَّرَانُ: جَمْعُ ظَرٍّ، وَهُوَ الْحَجَرُ الْمَضْرُوسُ لَهُ حَدٌّ كَحَدِّ السَّكِينِ. وَالْجَهْبَذُ: الْخَبِيرُ. وَالْوَرَقُ: الْقِصَّةُ.

[من وصف القيان]

لابن الرومي

ومن أحسن ما قيل في صفة القيان قولُ ابن الرومي: ^(١)
 وَقِيَانٍ كَأَنَّهَا أُمَّهَاتٌ عَاطِفَاتٌ عَلَى بَيْتِهَا حَوَانِي ^(٢)
 مُطْفِئَاتٌ وَمَا حَمَلْنَ جَنِيناً مُرْضِعَاتٌ وَلَسْنَ ذَاتَ لَبَانٍ ^(٣)
 مُلْقِمَاتٌ أَطْفَالَهُنَّ ثُدِيّاً نَاهِدَاتٌ كَأَحْسَنِ الرُّمَانِ ^(٤)
 مُفْعِمَاتٌ كَأَنَّهَا حَافِلَاتٌ وَهِيَ صِفْرٌ مِنْ دِرَّةِ الْأَلْبَانِ ^(٥)
 كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَّى بَيْنَ عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانٍ ^(٦)
 أُمُّهُ دَهْرَهَا تُتْرَجِّمُ عَنْهُ وَهُوَ بَادِي الْغَنَى عَنِ التَّرْجَمَانِ ^(٧)

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:
 جَاءَتْ بِعُودٍ كَأَنَّ نَعْمَتَهُ صَوْتُ فَتَاةٍ تَشْكُو فِرَاقَ فَتَى
 مُحَقَّقٌ حَقَّتِ الْعَيُونُ بِهِ كَأَنَّما الزَّهْرُ حَوْلَهُ نَبَاً ^(٨)
 دَارَتْ مَلَاوِيهِ فِيهِ فَاخْتَلَفَتْ مِثْلَ اخْتِلَافِ الْعَيُونِ مُذَبَّحاً ^(٩)
 لَوْ حَرَّكَتَهُ وَرَاءَ مِنْهُمْ زِمَ عَلَى بَرِيدٍ لَعَاجَ وَالتَّفَكَّأَ
 وقال:

- (١) ابن الرومي، الديوان: ٢٤٣/٦. والأبيات من قصيدة يهنيء بها عيد الله بن عبد الله بالمهرجان.
- (٢) القيان: الجواري اللواتي يجدن الغناء، مفردها: قينة.
- (٣) المطفل: ذات الطفل. يريد أنهن يحملن ويرضعن آلاتهن الموسيقية.
- (٤) نهد الثدي: برز وارتفع. يشبه استدارة ثديهن باستدارة الرمان.
- (٥) مُفْعِمَات: ممتلات، يقال: فَعِمَ الإناءُ فَعَامَةً وَفُعُومَةً: امتلأ، ومنه: جارية فعمة: ممتلئة الأعضاء. وحفل الماء واللبن حُفُولاً: اجتمع، وحفل فلان اللبن في الضرع: جمعه.
- (٦) العود والمزهر والكران: آلات موسيقية يعزف عليها.
- (٧) تترجم عنه: تتحدث.
- (٨) حَفَّتْ الشَّيْءَ حَقّاً وَحِفَافاً: استدار حوله وأحْدق به.
- (٩) الملاوي: قطع من الخشب لربط الأوتار، الواحد مَلْوَى.

يَقُولُونَ تَبُّ وَالكَأْسُ فِي كَفِّ أَغْيَدٍ
فَقُلْتُ لَهُمْ لَوْ كُنْتُ أَزْمَعْتُ تَوْبَةً

وقال:

أَفْدِي الَّتِي كَلَّفَ الْفَوَادُ مِنْ أَجْلِهَا
تَاهَتْ بِجَمْعِ صِنَاعَتَيْنِ، وَأَظْهَرْتُ
قَالَتْ: فَضْلُكَ بِالْغِنَاءِ وَأَنْتَ لَا
فَعْنِيَتْ بِالْأَوْتَارِ حَتَّى لَمْ أَدْعُ
وَأَلْفَتْهَا فَأَغَارَ ذَاكَ عَلَى يَدِي
فَجَعَلْتُ لِلْقُرْطَاسِ جَانِبَ صَدْرِهِ

وقال:

جَاءَتْ بِعُودٍ كَأَنَّ الْحَبَّ أَنْحَلَهُ
فَحَرَكْنَهُ وَغَنَّتْ بِالثَّقِيلِ لَنَا
بَيْضَاءُ يَحْضُرُ طَيْبُ اللّهُوِّ مَا حَضَرَتْ
كُلَّ اللَّبَاسِ عَلَيْهَا مَعْرِضٌ حَسَنٌ

هذا من قول ابن المعتز:

وَوَغَنَّتْ فَأَغْنَتْ عَنِ الْمِصْبَعِ
مَحَاسِنُهَا نُزْهَةً لِلْعَيْنِ

وقال أيضاً: (٣)

أَشْتَهِي فِي الْغِنَاءِ بُحَّةَ حَلْقِي
كَأَنِّيِنَ الْمَحَبِّ أَضْعَفُهُ الشُّوُّ

وَصَوْتُ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِثِ عَالِي
وَشَاهَدْتُ هَذَا فِي الْمَنَامِ بَدَا لِي (١)

بِالْعُودِ حَتَّى شَفَنِي إِطْرَابَا
كِبَرًا بِذَلِكَ، وَأَعْجَبْتُ إِعْجَابَا
تَشْدُو، وَكُنَّا مِثْلَكُمْ كُتَابَا
نَغْمًا وَلَمْ أَغْفِلْ لَهُنَّ حِسَابَا
قَلَمِي وَعَاتِبَهَا عَلَيْهِ عِتَابَا
وَجَعَلْتُ جَانِبَ عَجْزِهِ مِضْرَابَا

فَمَا يُرَى فِيهِ إِلَّا الْوَهْمُ وَالشَّبَحُ
صَوْتًا بِهِ الشُّوقُ فِي الْأَحْشَاءِ يَتَفَدَّحُ
فَإِنْ نَأَتْ عَنْكَ غَابَ اللّهُوُّ وَالْفَرْحُ (٢)
وَكُلُّ مَا تَغْنَى فَهُوَ مُقْتَرَحُ

مِنْ وَارْتَجَّ بِالطَّرِبِ الْمَجْلِسُ
وَمَعْرِضُهَا كُلُّ مَا تَلْبِسُ

نَاغِمِ الصَّوْتِ مُتَعَبٍ مَكْدُودِ (٤)
قُ فَضَاهَى بِهِ أَيْنَ الْعُودِ (٥)

(١) أزمعت: اعتزمت.

(٢) «ما» في قوله «ما حضرت» هي المصدرية الظرفية: أي مدة حضورها.

(٣) هذا القائل هو أبو الفتح كشاجم.

(٤) المكدود: المتعب، المرهق، المغلوب.

(٥) ضاهاه: شابهه، وفعل مثل فعله.

لَا أَحِبُّ الْأَوْتَارَ تَعْلُو كَمَا لَا
وَأَحِبُّ الْمَجْنَبَاتِ كَحُبِّي
كَهَيُوبِ الصَّبَا تَوَسَّطَ حَالًا
بَيْنَ حَالَيْنِ شِدَّةَ وَرُكُودِ

وَقَالَ:

أَهْ مِنْ بُحَّةٍ بِغَيْرِ انْقِطَاعِ
أَتَعَبْتُ صَوْتَهَا وَقَدْ يُجَنِّتُنِي مِنْ
فَنَدْتُ تُكْثِرُ الشَّجَاحَ وَحَطَّتْ
كَأَيْنِ الْمُحِبِّ خَفَضَ مِنْهُ

لِفَتَاةٍ مَوْصُولَةٍ الْإِبْقَاعِ
تَعْبِ الصَّوْتِ رَاحَةُ الْأَسْمَاعِ
طَبَقَاتِ الْأَوْتَارِ بَعْدَ ارْتِفَاعِ^(١)
صَوْتِ شَكْوَاهُ شِدَّةُ الْأَوْجَاعِ

لأبي الحسن بن يونس

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَصْرِ، وَهُوَ أَبُو الْحَسَنِ بْنِ يُونُسَ:

عَنَّتْ فَأَخْفَتْ صَوْتَهَا فِي عُودِهَا
غَيْدَاءَ نَأْمَرُ عُودَهَا فِي طَبْعِهَا
أَنْدَى مِنَ الثَّوَارِ صُبْحاً صَوْتَهَا
فَكَأَنَّمَا الصَّوْنَانِ حِينَ تَمَازَجَا

فَكَأَنَّمَا الصَّوْنَانِ صَوْتُ الْعُودِ
أَبْدَأَ، وَتَبَعُهَا اتِّبَاعُ وَدُودِ^(٢)
وَأَرْقُ مِنْ نَشْرِ الثَّنَا الْمَعْهُودِ
مَاءُ الْغَمَامَةِ وَابْنَةُ الْعُقُودِ

من ترجمة أبي الحسن بن يونس

وَأَبُو الْحَسَنِ هَذَا هُوَ: عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى صَاحِبَ
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ وَهَبِ الْفَقِيهِ، وَكَانَ لِأَبِي الْحَسَنِ فِي الشَّعْرِ مَذْهَبٌ حَسَنٌ، وَطَبِيعٌ صَحِيحٌ، وَحَوْكٌ
مَلِيحٌ، وَكَانَ عَالِمًا بِالنُّجُومِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ عُلُومِ الْأَوَائِلِ وَهُوَ الْفَائِلُ:

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ اللَّوَى كُلَّمَا سَفَى
إِذَا نَشَرْتُ رِيحَ جُفْمَانَ سَحَابَةٍ

بِضَرْبٍ مِنَ الْمُزْنِ الْكَنْهَوْرِ هَامِلِ^(٣)
غَدَا وَهُوَ حَلِيٌّ لِلرِّيَاضِ الْعَوَاطِلِ

(١) فِي رِوَايَةٍ: «تَكْثُرُ الْبَحَاحُ».

(٢) الْغَيْدَاءُ: الْفَتَاةُ الَّتِي تَتَمَائِلُ وَتَتَنَتَّنِي فِي لَبْنٍ وَنَعُومَةٍ.

(٣) الْأَكْنَافُ: النُّوَاحِي. الْكَنْهَوْرُ: الْمَتْرَاكُمُ مِنَ الْحَبَابِ.

بِهِ وَجَدُ رَعْدٍ لَيْسَ بَيْنَ جَوَانِحِ وَوَسْوَاسٍ وَذَقِي لَيْسَ بَيْنَ مَفَاصِلِ^(١)
 إِذَا كَانَ خَدُّ الْبَرْقِ يَلْمِسُ بَيْتَهُ تَلَقَّاهُ دُرُّ النَّوْرِ فَوْقَ الْخَمَائِلِ
 وَقَالَ، وَذَكَرَ غَلَامًا:

يَجْرِي النِّسِيمُ عَلَى غَلَائِلِ خَدِّهِ وَأَرْقُ مِنْهُ مَا يُمُرُّ عَلَيْهِ
 نَاولَتْهُ الْمَرَاةُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فَكَسَتْهُ فِتْنَةٌ نَاطِرِيهِ إِلَيْهِ

لابن المعتز في المرأة

تَيَّنَنِي لِي كُلَّمَا رُمْتُ نَظْرَةً وَنَاصِحَتِي مِنْ دُونِ كُلِّ صَدِيقِ
 يُقَابِلُنِي مِنْكَ الَّذِي لَا عَدِمَتْهُ بِلُجَّةِ مَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ غَرِيقِ

لكشاجم يصف امرأة

وقال أبو الفتح كشاجم يصف امرأة أهداها:

أُحِثُّ شَمْسَ الصَّفَاءِ فِي الْحَسَنِ وَالْإِثْمِ رَاقٍ غَيْرَ الْإِعْشَاءِ لِلْأَجْفَانِ^(٢)
 ذَاتُ طَوِّقٍ مُشْرِفٍ مِنْ لُجَيْنِ أُجْرِيَتْ فِيهِ صُفْرَةُ الْعُقَيَّانِ
 فَهَوَ كَالْهَالَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْبَدِ رِلِسَتْ مَضِيئًا بَعْدَ ثَمَانِ
 وَعَلَى ظَهْرِهَا فَوَارِسٌ تَلْهُو بِبُرْزَةِ تَعْدُو عَلَى غَزْلَانِ
 [لَكَ فِيهَا إِذَا تَأَمَّلْتَ فَأَلَّ حَسَنٌ مُخْبِرٌ بِبَيْلِ الْأَمَانِ]
 لَمْ يَكُنْ قَبْلَهَا مِنَ الْمَاءِ جُرْمٌ حَاصِرٌ تَقْسَهُ بَغِيرِ أَوَانِ
 عَدَلَتْ عَكْسَهَا الشَّعَاعُ فَمُبْدَا هُ إِلَيْهَا وَرَجَعُهُ سَيَّانِ
 وَهِيَ شَمْسٌ وَإِنْ مِثَالُكَ يَوْمًا لَاحَ فِيهَا فَإِنَّهَا شَمْسَانِ
 أَيْنَمَا قَابَلْتُ مِثَالَكَ مِنْ أَر ضٍ فِيهَا تَقَابِلُ النَّيِّرَانِ
 فَأَلْقَهَا مِنْكَ بِالَّذِي مَارَاهُ خَائِفٌ فَأَنْشَنِي بَغِيرِ أَمَانِ

(١) الودق: المطر شديده وهينه.

(٢) الإعشاء: من أعشاء إذا جعله أعشى، أي ضعيف البصر.

ومن ألفاظ أهل العصر في مدح الغناء

غِنَاؤُهُ كَالْغِنَى بعد الفقر، وهو جَبْرٌ للكسر^(١). [غِنَاؤُهُ] يَسِطُ أَسْرَةً الْوَجْهِ، ويرفعُ حجابَ الإذن، ويأخذُ بمجامعِ القلب، ويحركُ النفوس، ويرقصُ الرؤوس. فلان طيب القلوب والأسماع، ومحبي مَوَاتِ الخواطر والطباع، يُطْعِمُ الآذَانَ سروراً، ويقدم في القلوب نوراً. القلوبُ من غِنائه على خطر؛ فكيف الجيوب؟! السكر على صوته شهادة. كل ما يغنيه مُقْتَرَح. لغِنائه في القلب، موقع القطر في الجذب. نغمة نغمته تطرب، وضروب ضربه لا تضطرب. وقيل: السماع مُتَعَةُ الأسماع، وإدام المدام.

[الأقلام]

من أخ إلى أخيه وقد أهداه أقلاماً

أهدى بعضُ الكتاب إلى أخ له أقلاماً وكتب إليه: - أطال الله بقاءك! - لما كانت الكتابة قِوَامَ الخلافة، وقربة الرياسة، وعمود المملَكة، وأعظم الأمور الجليلة قدراً، وأعلاها خطراً، أحبت أن أتخفك من آلتها بما يخفف عليك مَحْمَلُهُ، وتثقل قيمته، ويكثر نفعه؛ فبعثت إليك أقلاماً من القصب النابت في الأعذاء^(٢)، المغذو بماء السماء، كاللآلي المكنونة في الصلدف، والأنوار المحجوبة بالسندف، تنبؤ عن تأثير الأسنان، ولا يشيها غمُرُ التبان، قد كسّتها طباعها جوهراً كاللّوشي المحبّر، وفرند الديباج المنير، فهي كما قال الكميت: ^(٣)

وَبَيْضُ رِقَاقٍ صِحَاحِ الْمُتَو نِ تَسْمَعُ لِلْبَيْضِ فِيهَا صَرِيرًا
مُهَيَّئَةً مِنْ عَتَادِ الْمُلُوكِ يَكَادُ سَنَاهُنَّ يُعْشِي الْبَصِيرَا^(٤)

وكقبح النبل في ثقل أوزانها، وقُضِبَ الْخَيْرُ رَانَ فِي اعتدالها، وشيخ الخط في

(١) في رواية: «وهو عذر للسكر».

(٢) الأعذاء: جمع عذى، وهو الزرع الذي لا يبقى بغير ماء المطر.

(٣) هو أبو المستهل، الكميت بن زيد بن الأخنس الأسدي: شاعر مقدم، وخطيب مفوه، وفارس شجاع. عاش في أيام بني أمية، وتشيع لبني هاشم، وقصائده الهاشميات من جيد شعره. قُتِل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٤٨٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٠١/ ٢١).

(٤) مهينة: مصنوعة في الهند.

أطرافها، تمرّ في القراطيس كالبرق اللائح، وتجري في الصحف كالماء السائح، أحسن من العقيان، في نحر القيان.

من عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يُوجّه إليه بأقلام قصية: أما بعد، فإنّا على طول الممارسة لهذه الصناعة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوشم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب - وجدنا الأقلام القصية أسرع في الكواغيد، وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، وألّين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها، والتعلق بما ينبو من شظاياها. ونحن في بلاد قليلة القصب، رديء ما يوجد بها منه؛ فأحببت أن تتقدّم في اختيار أقلام قصية، وتتأنق في انتقائها قبلك، وطلبها في منابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيّم باختيارك منها الشديدة المجس، الصلبة المعص، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب، الضيقة الأجواف، الرزينة الوزن، فإنها أبقى على الكتاب، وأبعد من الحفّاء، وأن تقصد بانتقائك منها للرفاق القصبان، اللطاف المنظر، المقوّمات الأود، الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت؛ وضّم الصافية القشور، الخفية الأبن^(١)، الحسنة الاستدارة، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعلاها، لاستواء أصولها برؤوسها، المستكملة يساً، القائمة على سوقها، قد تشربت الماء في لحائها، وانتهت في الضجّ منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها، وإبان يُنعها^(٢)، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها؛ من خصر الشتاء^(٣)، وعفن الأنداء، فإذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رفيقاً تنحزّز معه أن تشعب رؤوسها، أو تنشق أطرافها، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية، وعليها الخيوط الوثيقة، وجّهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وإيصالها؛ إذ كان مثلها يتوانى فيه، لقلّة خطرهما عند من لا يعرف فضل جوهرها؛ واكتب معه بعدتها وأصنافها وأجنامها وصفاتها، على الاستقصاء، من غير تأخير ولا إبطاء.

(١) الابن: جمع أبنة، وهي العقدة في العود.

(٢) ينّع الشمر ينعاً وينعاً وينوعاً: أدرك وطاب وحان قطافه.

(٣) خصر الشتاء: برده.

جواب إسحاق ابن إبراهيم

فأجابه ووجه إليه مع الأنابيب: أتاني كتاب الأمير - أعزه الله! - بما أمر به ولخصه، من البعث بما شاكل نعته، وضاهى صفته، من أجناس الأقلام، فتممت بُغْيَتُهُ قاصداً لها، وانتهجتُ معالمَ سُبُلِهِ آخذاً بها، فَأَنْفَذْتُ إِلَيْهِ حِزْماً أَنْشِئْتُ بِلَطِيفِ التَّقْيَا، وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَالْبُقْيَا، لَمْ تَعْمَلْ بِإِخْرَاجِهَا، وَلَا بُودِرَتْ قَبْلَ إِدْرَاكِهَا؛ فَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ الْأَنْبِيبِ مُعْتَدِلَتُهَا، مُثَقَّفَةُ الْكَعُوبِ مَقُومَتُهَا؛ لَا يُرَى فِيهَا أُمْتُ زَوْرٍ^(١)، وَلَا صَمٌ صَغَرٌ وَلَا عَوَجٌ، وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ يَجِدَهَا الْأَمِيرُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ وَحَسَبَ بُغْيَتِهِ.

لمنصور بن عمار يصف القلم

ومن كلام منصور بن عمار في صفة القلم، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب: أو ليس من عجائب الله في خلقه، وإنعامه على عباده، تعليمه إياهم الكتاب المفيد للباقيين حكم الماضين، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، بمعان مفترقة معقودة، وأحرف مقلوبة، من ألف وتاء، وجيم وباء، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، ونتاجها التأليف، تخرس مفردة، وتنطق مزدوجة، بلا أصوات مسموعة، ولا ألْسُنٍ محدودة، ولا حركات ظاهرة، بل قلم حَرَفَ بَارِيهِ قَطْعُهُ^(٢)، ليعلق المدادُ به، وأزهف جانيبه ليرد ما انتشر عنه إليه، وشق في رأسه ليحتبس الاستعداد عليه، ورفع من شعبته لتجتمع حواشي تصويره؛ فهناك روى القلم في شِقِّهِ، وقذف المادة إلى صدره، فإذا علقته العيوب حَكَّتْهَا الْأَلْسُنُ، فالقُلوْبُ حِينْتِذَ رَاعِيَةٍ، وَالْأَذَانُ وَاِعِيَةٍ، لكلام سَدَّاهُ الْعَقْلُ، وَالْحَمَةُ اللِّسَانُ، وَأَذَنُ اللَّهْوَاتِ، وَلَفْظَتُهُ الشَّفَاهُ، ووعته الأسماع، على اختلاف أنحاء، من صفات وأسماء؛ فتبارك الله أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ.

للنجيرمي في وصف القلم

حمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، في القلم إلى أبي عمران بن رباح:

إنه لما كان القلم مطيعة الفكر والبيان، ومُخْرِجَ الضمير إلى العيان، ومستبظاً ما تُواريه

(١) الْأُمْتُ: الضعف والوهن، والعيب، والعوج.

(٢) قَطَّ الْقَلَمُ: قطعه عرضاً، وسواه.

ظلمُ الجَنَانِ^(١) إلى نُورِ البيان، ومُريحَ الفِطَنِ العواذب، وجالبَ الفِكْرِ الغرائب [ولسان الغائب، ويز الكاتب، ومكتبَ الكُتَّاب]، ومُفرقَ الجلائب، وعمادَ السَّلَم، وزناد الحرب، ويدَ الحدثان، وخليفةَ اللسان، ورأسَ الأدوات التي خصَّ الله بها الإنسان، وشرفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة قد تقدَّمتْ كلُّ آلة، وحِكْمَةٍ سبقَتْ في الإنسان كلَّ حكمة، وقَوَّاماً لهندسة عقلية، ومصدراً لِعَقْلِ العاقل، وجهل الجاهل. الناقل إلينا حِكْمَ الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين، الحافظ علينا أَمْرَ الدنيا والدين، أول شيء خلقه الله بأمره وَسَبَّحَهُ، وَمَجَّدَهُ وَحَمِدَهُ وسجَّدَ له، فكان له فرسانٌ خُلِقَ لهم، وَكُنْتُ عميدَهم، وأقرانٌ قُصِرَ عليهم، وأنتَ صنديدهم^(٢)، وميدان كنت زِينَتُهُ، ومضمار كنت عَيْنُهُ، وحِلْيَةُ كنت سابقها ومعجزها، وغاية كنت مَالِكُهَا ومُحَرِّزُهَا، ورمت بي الأيام إلى معدنه الذي كلفت به وعنيت بطلبه، فانفردت منه بقدر فذَّ أَوْحَد، فَرَدَّ في منبته، قد ساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، مُخْتَلِفٌ يُؤَلِّفُهُ أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها، وتؤيده بقواها وجواهرها، حتى غَدَّتْهُ عِرْقاً في الثرى معرقاً، وأرضعته ناجماً، وسقته مكعباً، وأروته مقصباً، وأظمأته مكتهاً، ولوحته مستحصداً^(٣)، وجللته بهاءها، وألقت عليه عنوانها، وأودعته أعراقها وأوراقها وأخلاقها، حتى إذا شق بازله، ورقَّت شمائله، وابتم من غشائه، ونادى من لِحَائِهِ، وتعرى عن خز المصيف، بانقضاء الخريف، وانكشف عن لون البيض المكنون، والصدف المخزون، ودر البحار، وقُتات الجمار، دعا منه نَفَقَ العَاج بنقبة الدياج، وقميص الدرر بطراز النساج، فاجتمعت له زينة الأيدي البشرية، إلى الأيدي العلوية، والأنساب الأرضية، إلى الأنساب السماوية، فلما قاده السعادة إليَّ، ورأيت نسيجَ وَحْدِهِ في الأقلام، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْدِهِ في الأنام، فأثرتك به مُؤَثِّراً للصنعة؛ عالماً أن زين الجياد فرسانها، وزين السيوف أقرانها، وزين بزة لابسها، وزين أداة مُمَارَسِهَا، فالآن أعطيت القوس باريها، وزناد المكارم مُورِها، والصمصامة^(٤) مُضَلِّتها، والقناة مُعَلِّمها، وحلَّة المَعْجِدِ لابسها.

(١) الجنان: القلب.

(٢) الصُّنْدِيدُ من الناس: الشريف الشجاع الشديد.

(٣) أَحْصَدَ الزرع: حان حصاده، واستحصد الشيء: اشتد واستحكم.

(٤) الصمصامة: السيف الصارم لا يشني.

من أخبار النجيري

وكان النجيري جَيِّدَ الروية والبديهة في نظمه ونثره، حلو التصريف، مليح التأليف، وكان يوماً عند أبي المسك كافور الإخشيدي، فدخل عليه أبو الفضل بن عياش فقال: أدام الله أيام سيدنا الأستاذ - بالحَفْض - فنبسّم كافور إلى أبي إسحاق، فقال ارتجالاً:

لا غَرُّوْا إِنْ لَحَنَ الدَّاعِي لِسَيِّدِنَا	وَعُصَّ مِنْ هَيْبَةٍ بِالرِّبْقِ وَالْبَهْرِ ^(١)
فَمِثْلُ سَيِّدِنَا حَالَتْ مَهَابَتُهُ	بَيْنَ الْبَلِيغِ وَبَيْنَ الْقَوْلِ بِالْحَصْرِ ^(٢)
فَإِنْ يَكُنْ خَفَضَ الْأَيَّامَ مِنْ دَهْشٍ	مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ لَا مِنْ قِلَّةِ الْبَصْرِ
فَقَدْ تَفَاءَلَتْ فِي هَذَا لِسَيِّدِنَا	وَالْفَالُ مَأْتَرَةً عَنْ سَيِّدِ الْبَشْرِ
بِأَنَّ أَيْامَهُ خَفَضَ بِلَا نَصَبٍ	وَأَنَّ دَوْلَتَهُ صَفُوْا بِلَا كَدَرٍ

فأمر له بثلثمائة دينار، ولابن عياش بمائتين.

لحمدان الدمشقي يصف قلماً

وقال حمدان الدمشقي يصف قلماً:

لِلْأَيْمِ بَعْثَتُهُ وَشَقُّ لِسَانِهِ	وَلَهُ إِذَا لَمْ تُجْزِهِ إِطْرَاقُهُ ^(٣)
كَالْحَيَّةِ النَّضَّاضِ إِلَّا أَنَّهُ	مَنْ حَبِثُ يَجْرِي سُمُّهُ تَرْيَاقُهُ ^(٤)

وصف القلم الصالح للكتابة

قال العتابي: سألتني الأصمعي فقال لي: أي الأنابيب أَصْلَحُ للكتابة وعليها أَصْبَرُ؟ فقلت: ما نَشِفَ بالهجير ماؤُهُ، وستره عن تلويحِهِ غِشَاؤُهُ، من البَرِّيةِ القشور الدرية الظهور، الفضية الكسور، قال: فأَيُّ نوع من البرِّي أَكْتُبُ وَأُصُوبُ؟ قلت: البرية المستوية القط، عن يمين سِتِّهَا، برية تَأْمَنُ معها المَجَّةُ عند المط^(٥)، الهواء في مَشَقِّهَا فتيق، والريح في جوفِهَا

(١) البهر: تابع النَّس من الإعياء. ويقال: بهر الشيء فلاناً: أدهشه وحيره.

(٢) الحَصْر: العَمِي في المنطق، والعجز عن الكلام.

(٣) الأَيْم: الحية الذكور. والنضاض من الحيات: الذي لا يثبت في مكانه لِشَرَّتِهِ ونشاطه، أو الذي يخرج لسانه بضمضه (يحركه).

(٤) التَّرياق والتَّرياق: ما يستعمل لدفع السموم من الأدوية والمعاجين.

(٥) المَط: المَد، يقال: مَطَّ الحَرْفَ، ومَطَّ خَطَّهُ. وفي رواية: «عند الخط».

خريق، والمِدَاد في خرطومها رقيق، قال: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يُحِيرُ مسألة ولا جواباً.

[من ترجمة العتابي وأدبه وأخباره]

والعتابي: هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي، يُكْنَى أبا عمرو، قال أبو عثمان الجاحظ: كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة، والبيان، والشعر الجيد، والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحذوه يقول في البديع جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين كنعو منصور الثمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأشباههما، وكان العتابي يَحْتَذِي حَذُو بَشَار في البديع، ولم يكن في المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هرمة.

والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد، ولذلك قال:

إني امرؤُ هَدَمَ الإقْتَارُ مَأْثَرَتِي وَاجْتَنَحَ مَا أَبَدَتْ الْأَيَّامُ مِنْ خَطَرِي^(١)
أنا ابنُ عمرو بن كلثوم يُسَوِّدُهُ حَيَارِيْعَةٌ وَالْأَحْيَاءُ مِنْ مُضَرٍ
أرومةٌ عَطَّلَتْنِي مِنْ مَكَارِمِهَا كَالْقَوْسِ عَطَّلَهَا الرَّامِي مِنَ الْوَتَرِ^(٢)

وكان صاحب بديهة في المنظوم والمثور، حسن العقل والتمييز، والعرب تقول: من تَمَنَّى رجلاً حَسَنَ الْعَقْلِ، حَسَنَ الْبَيَانِ، حَسَنَ الْعِلْمِ، تَمَنَّى شَيْئاً عَسِيراً. وقد اجتمع ذلك كله للعتابي.

وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يُيَالِي أَي ثَوْبِهِ ابْتَدَلَ! فقال: أَبْعَدَ اللَّهُ رجلاً مُهْمَّتُهُ أَنْ يَكُونَ جَمَالُهُ فِي لِبَاسِهِ وَعَطْرِهِ. إنما ذلك حَظُّ النِّسَاءِ، وَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ، حَتَّى يَرْفَعَهُ أَكْبَرَاهُ: هِمَّتُهُ، وَلَبَتُهُ، وَيَعْلُو بِهِ مَعْظَمَاهُ: لِسَانُهُ، وَقَلْبُهُ.

ودخل على الرشيد فقال: تَكَلَّمْ يَا عَتَّابِي! فقال: الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْإِبْسَاسِ، لَا يُمْدَحُ الْمَرْءُ بِأَوَّلِ صَوَابِهِ، وَلَا يُذَمُّ بِأَوَّلِ خَطِئِهِ؛ لِأَنَّهُ بَيْنَ كَلَامٍ زَوَّرَهُ، أَوْ عِيٍّ حَصَرَهُ.

وذكر أبو هفان أَنَّ الرَّشِيدَ لَقِيَهُ بَعْدَ قَتْلِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَزَوَالِ نِعَمَتِهِ، فَقَالَ: مَا أَحَدَّثْتَ بَعْدُ يَا عَتَّابِي؟ فَأَنْشَدَهُ ارْتِجَالاً:

(١) الإقتار: ضيق العيش، وقد قتر فلان على عياله: بخل وضيق عليهم في النفقة، وأقتر فلان: ضاق عيشه. والخطر: العظم وارتفاع القدر.

(٢) الأرومة: الأصل، يقال: هو طيب الأرومة: كريم الأصل.

تَلُومٌ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بِاهِلِيَّةٍ طَوَى الدَّهْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرْفٍ وَتَالِدٍ
رَأَتْ حَوْلَهَا النَّسْوَانَ يَرْفُلْنَ فِي الْكُسا مُنْظَمَةً أَجْيَادُهَا بِالْقَلَائِدِ^(١)
أَسْرَكَ أَنِي نِلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرٌ مِنْ الْمَلِكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي مَغْصَهُمَا بِالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ^(٢)
فَإِنَّ رَفِيعَاتِ الْمَعَالِي مَشُوبَةٌ بِمُسْتَوْدَعَاتٍ فِي بُطُونِ الْأَسَاوِدِ^(٣)

وكان متحرِّفاً عن البرامكة، وفيهم يقول:

إِنَّ الْبَرَامِكَ لَا تَنْفُكُ أَنْجِيَةٌ بِصَفْحَةِ الَّذِينَ مِنْ نَجْوَاهُمْ نَدَبٌ^(٤)
تَجَرَّمْتُ حِجْجٌ مِنْهُمْ وَمُتَّصِلُهُمْ مُضْرَجٌ بِدَمِ الْإِسْلَامِ مُخْتَضِبٌ^(٥)

واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقعة بمنزل العتّابي، فقال: أليس هذا منزل كلثوم بن عمرو؟ قيل: نعم، فَشَنَى رَجُلُهُ، ودخل إليه، فَأَلْفَاهُ جَالِساً فِي بَيْتِ كَتَبِهِ، فَحَادَّثَهُ وَذَاكَرَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّ الْأَمِيرَ لَمْ يَقْصِدْهُ، وَإِنَّمَا اجْتَازَ بِهِ فَأَخْطَرَ ذَلِكَ الزِّيَارَةَ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ:

يَا مَنْ أَفَادَتْ نَبِيَّ زِيَارَتُهُ بَعْدَ الْخُمُولِ نَبَاهَةَ الذِّكْرِ
قَالُوا الزِّيَارَةُ خَطَرَةٌ خَطَرْتُ وَمَجَازُ خَطَرِكَ لَيْسَ بِالْخَطَرِ^(٦)
فَادْفَعْ مَقَالَتَهُمْ بِثَالِثَةٍ تَسْتَفِيدُ الْمَجْهُودَ مِنْ شُكْرِي
لَا تَجْعَلَنَّ الْوِثَرَ وَاحِدَةً إِنَّ الثَّلَاثَ تَتِمُّهُ السُّوْتَرُ

- (١) رَفَلٌ فِي ثَوْبِهِ: أَطَالَهُ وَجَرَّهُ مَبْخَرَةً، فَهُوَ رَافِلٌ، وَهِيَ رَافِلَةٌ. وَالْأَجْيَادُ: الْأَعْنَاقُ، مَفْرَدُهَا: جِيدٌ.
- (٢) الْمُرْهَفَاتُ: السُّيُوفُ الْمُرْقُفَةُ الْمُحَدَّدَةُ، يُقَالُ: رَهَفَ سَيْفُهُ رَهْفًا رَقِيقًا وَحَدَّدَهُ، وَيُقَالُ: سَيْفٌ رَهِيْفٌ، وَحِجٌّ رَهِيْفٌ وَمُرْهَفٌ: لَطِيْفٌ.
- (٣) الْأَسَاوِدُ: جَمْعُ أَسْوَدَةٍ، وَهِيَ الْحَبَّةُ الْعَظِيمَةُ فِيهَا سَوَادٌ، وَقِيلَ: الْأَسْوَدُ مِنَ الْحَيَاتِ: أَخْبَثُهَا وَأَنْكَاهَا.
- (٤) النَّدَبُ: أَثَرُ الْجَرَحِ، الْجَمْعُ: نُدُوبٌ وَأَنْدَابٌ.
- (٥) تَجَرَّمٌ: تَمَّ وَانْقَضَى، يُقَالُ: تَجَرَّمَتِ السَّنَةُ، وَتَجَرَّمُ اللَّيْلُ. وَالْحِجْجُ: السَّنُونُ. وَالْمُتَّصِلُ: السَّيْفُ، الْجَمْعُ: مَنَاصِلُ.
- (٦) الْخَطَرَةُ: مَا يَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ، وَيُقَالُ: مَا أَلْفَاهُ إِلَّا خَطَرَةً بَعْدَ خَطَرَةٍ: إِلَّا حِينًا بَعْدَ حِينٍ. وَالْخَطَرُ (بِتَسْكِينِ الْوَسْطِ): الْعَارِضُ مِنَ السَّحَابِ، وَالْخَطَرُ (بِتَحْرِيكِ الْوَسْطِ): الْإِشْرَافُ عَلَى الْهَلَاكِ.

فبعثته الأبياتُ إلى أَنْ زَارَهُ ثَلَاثًا.

وكان يميل إلى المأمون، فلما خرج المأمون إلى خراسان شيعه حتى وصل معه إلى سندان كسرى، فقال له المأمون: سألتك بالله يا عتابي إلا عملتَ على زيارتنا إن صار لنا من هذا الأمر شيء، فلما ولي المأمون الخلافة، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين نوصل إليه العتابي، فلم يمكنه الوصول، فقال للقاضي يحيى بن أكثم: إن رأيتَ أن تُعلمَ أميرَ المؤمنين بمكاني! فقال: لستُ بحاجة! قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل مِعْوَان! فقال: سلكتُ بي غير طريقي! قال: إن الله تعالى ألحقك بجاهٍ ونعمة، وهما بقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، والتغيير إن كفرت، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك؛ أَدْعُوكَ لما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبى ذلك؛ ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاهِ بذلُّه للمستعين، فدخل يحيى على المأمون فقال: أجزني من لسان العتابي، فلها عنه، ولم يأذن له، فلما طال عليه كتب إليه:

مَا عَلَى ذَلِكَ افْتَرَقْنَا بِسُنْدَا نَ وَلَا هَكَذَا عَهْدُنَا الْإِخَاءَ
لَمْ أَكُنْ أَحْسِبُ الْخِلَافَةَ يَزْدَا دُ بِهَا ذُو الصَّفَاءِ إِلَّا صَفَاءَ
تَضْرِبُ النَّاسَ بِالْمُتَّقَةِ السُّم رِ عَلَى غَدْرِهِمْ وَتَنْسَى الْوَفَاءَ^(١)

يُعرضُ بِقَتْلِهِ لِأَخِيهِ عَلَى غَدْرِهِ، وَنَكَثِهِ لِمَا عَقَدَ الرَّشِيدُ؛ فَلَمَّا قَرَأَ الْمَأْمُونُ الْآيَاتِ أَمَرَ أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَلِمَ قَالَ: يَا عَتَابِي، بَلَّغْتَنِي وَفَاتُكَ فَسَرَّتْنِي، وَفَدَ كَانَتْ بَلَّغْتَنِي وَفَاتُكَ فَسَاءَتْنِي، وَإِنِّي لَحَرِيٍّ بِالْغَمِّ لِيُعْدِكَ، وَالسُّرُورَ بِقَرِيكَ! فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَوْ قَسَمَ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوْسَعَهُمْ عَدْلًا وَأَعْجَزَهُمْ شُكْرًا، وَإِنْ رِضَاكَ لَغَايَةِ الْمُنَى؛ لِأَنَّهُ لَا دِينَ إِلَّا بِكَ وَلَا دُنْيَا إِلَّا مَعَكَ، قَالَ: سَلَّنِي، قَالَ: يَذُكَ بِالْعَطِيَةِ أَطْلُقُ مِنْ لِسَانِي بِالْمَسْأَلَةِ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفًا.

وَقَالَ الْعَتَابِيُّ وَودَّعَ جَارِيَةً لَهُ:

مَا غَنَاءُ الْجِدَارِ وَالْإِشْفَاقِ وَشَايِبَ دَمْعِكَ الْمِهْرَاقِ^(٢)
لَيْسَ يَقْوَى الْفَوَادُ مِنْكَ عَلَى الصَّدِّ لَدَّ وَلَا مُقْلَتَا طَلِيحِ الْمَاقِي^(٣)
غَلَدَاتُ الْأَيَّامِ مُتَنَزِعَاتٌ مَا غَنِمْنَا مِنْ طُولِ هَذَا الْعِنَاقِ

(١) الْمُتَّقَةِ السُّم: الرِّمَاحُ الْمُقَوِّمَةُ الْمُسَوَّاةُ.

(٢) الْغَنَاءُ: النِّفْعُ وَالْكَفَايَةُ، يُقَالُ: هَذَا الشَّيْءُ لَا غَنَاءَ فِيهِ. الشَّايِبُ: جَمْعُ شُوَيْبٍ: الدَّفْعَةُ مِنَ الْمَطَرِ.

(٣) الطَّلِيحُ: الْمُعْصِي، الْمَهْزُولُ وَالْمَجْهُودُ.

إِن قَضَى اللَّهُ أَنْ يَكُونَ تَلَاقٍ بَعْدَ مَا قَسَدَ تَرِينَ كَانَ تَلَاقٍ
 هَوْنِي مَا عَلَيْكَ وَاقْنِي حَيَاءً لَسْتُ تَبْقِينَ لِي وَلَسْتُ بِبَاقٍ ^(١)
 أَيْنَا قَدَمْتُ صُرُوفُ الْمَنَايَا فَالَّذِي أَخْرَجْتُ سَرِيعُ اللَّحَاقِ
 وَبَدُ الْحَادِثَاتِ رَهْنٌ بِمُرَا بِتِ مِنَ الْعَيْشِ مُصْبِرَاتِ الْمَذَاقِ ^(٢)
 غَرَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ يَقُوتَ الْمَنَايَا وَغُرَاهَا قَلَانْدُ الْأَعْنَاقِ
 كَمْ صَفِيَّيْنِ مُتَعَا بِاتِّفَاقٍ ثُمَّ صَارَا لِغُرْبَةٍ وَافْتِرَاقٍ
 قُلْتُ لِلْفَرَقْدِينَ وَاللَّيْلُ مُلْتِي سُودَ أَكْنَافِهِ عَلَى الْآفَاقِ
 أَبْقِيَا مَا بَقِيَتْمَا سَوْفَ يُرْمَى بَيْنَ شَخَصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ
 بَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي غَضَارَةِ عَيْشٍ وَصَلَاحٍ مِنْ أَمْرِهِ وَاتِّفَاقٍ
 عَطَفْتُ شِدَّةَ الزَّمَانِ فَأَذَنُ لَهُ إِلَى فَاقَةٍ وَضِيقِ خِنَاقٍ
 لَا يَدُومُ الْبَقَاءُ لِلْخَلْقِ لَكَ مِنْ دَوَامِ الْبَقَاءِ لِلْخَلْقِ

وقال في الرشيد:

إِمَامٌ لَهُ كَفْتُ تَضُمُّ بَنَانُهَا عَصَا الدِّينِ مَمْنُوعًا مِنَ الْبَرِّي عَوْدُهَا
 وَعَيْنٌ مُحِيطٌ بِالْبَرِّيَّةِ طَرْفُهَا سَوَاءٌ عَلَيْهَا قُرْبُهَا وَبَعِيدُهَا

وقال فيه:

رَعَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ فَهُوَ إِمَامُهَا وَأَدَّى إِلَيْهَا الْحَقَّ فَهُوَ أَمِينُهَا
 مُقِيمٌ بِمُسْتَنَ الْفَلَاحِ حَيْثُ تَلْتَقِي طَوَارِقُ أَبْكَارِ الْخُطُوبِ وَعَوْنُهَا ^(٣)

وكان منصور النمري سعى به إلى الرشيد فخافه، فهرب إلى بلد الروم. وله قصائد يعتذر فيها جيدة مختارة، وهو مشبه في حسن الاعتذار بالنابغة الذبياني، ومن جيد اعتذاره قوله للرشيد، ويقال: بل قالها على لسان عيسى بن موسى الهاشمي يخاطب الرشيد:

جُعِلَتْ رَجَاءُ الْعَفْوِ عُدْرًا وَشُبُّهُ بِهَيَّةِ إِمَّا غَافِرٍ أَوْ مُعَاتِبِ

(١) قنا الحياء فلاناً أن يفعل كذا: رَدَّه ووعظه، وقَتَّى الحياء: لزمه.

(٢) مصبرات المذاق: مُرَّة المذاق كالصُّبَّار، وهو نبات صحراوي عصارته شديدة المرارة.

(٣) العون: جمع عونان: المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر من النساء والبهائم.

وَكُنْتُ إِذَا مَا خِفْتُ حَدِيثَ نَبْوَةٍ
فَأَنْزَلَ بِي هِجْرَانُكَ الْيَأْسَ بَعْدَمَا
أَظْلَمَ وَمَرْعَايَ الْجَدِيدُ مَكَانَهُ
وَلَمْ يَكُنْ عَنْ نَفْسِي الرَّدَى غَيْرَ أَنَّهَا
هِيَ النَّفْسُ مَحْبُوسٌ عَلَيْكَ رَجَاؤُهَا
وَتَحْتَ ثِيَابِ الصَّبْرِ مِنِّي ابْنُ لَوْعَةٍ
فَتَى ظَفَرْتُ مِنْهُ اللَّيَالِي بِزَلَّةٍ
حَنَانِكَ إِنِّي لَمْ أَكُنْ بِعُتْ عِزَّةٍ
فَقَدْ سُمِّتَنِي الْهَجْرَانُ حَتَّى أَذْقَتَنِي
فَهَا أَنَا مُقْصَى فِي رِضَاكَ، وَقَابِضٌ
وَمُتَنَزِعٌ عَمَّا كَرِهْتَ وَجَاعِلٌ
جَعَلْتُكَ حِصْنًا مِنْ حِذَارِ النَّوَائِبِ
حَلَلْتُ بِوَادٍ مِنْكَ رَحْبَ الْمَشَارِبِ
وَأَوَيْ إِلَى حَافَاتِ أَكْدَرِ نَاصِبٍ
تَنَوُّ بِبَاقٍ مِنْ رَجَائِكَ ثَائِبٍ^(١)
مُقَيَّدَةُ الْأَمَالِ دُونَ الْمَطَالِبِ
يَقْطُلُ وَيُمْسِي مُسْتَلِينَ الْجَوَانِبِ
فَأَقْلَعْنَ عَنْهُ دَامِيَاتِ الْمَخَالِبِ
بِذَلٍّ، وَأَحْرَزْتُ الْمَنَى بِالْمَوَاهِبِ^(٢)
عُقُوبَةَ زَلَاتِي وَسُوءَ مَنَاقِبِ^(٣)
عَلَى حَدِّ مَصْفُولِ الذَّمَامِينَ قَاضِبِ^(٤)
هَوَاكَ مَثَالًا بَيْنَ عَيْنِي وَحَاجِبِي

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة:

وَأَشْعَثُ مُشْتَقٍ رَمَى فِي جُفُونِهِ
سَحَبْتُ لَهُ ذَيْلَ الشَّرَى وَهُوَ لَا يَسُ
وَمَنْ فَوْقِ أَكْوَارِ الْمَهَارِي لُبَانَةٌ
وَكُلُّ فَتَى عَادَاتُهُ قَصْرُ شَوْفِهِ
غَرِيبَ الْكَرَى بَيْنَ الْفِجَاجِ السَّبَاسِ^(٥)
دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى مَجَّ ضَوْءَ الْكَوَاكِبِ^(٦)
أَحِلَّ لَهَا أَكْلُ الذَّرَى وَالْغَوَارِبِ^(٧)
وَطِيَّ الْحَشَى دُونَ الْهَمُومِ الْعَوَارِبِ^(٨)

(١) تنوء به: يثقل عليها. والثائب: الراجع.

(٢) حنانيك: أي تحننًا بعد تحنن، والتثنية فيه للمبالغة لا لحقيقة التثنية.

(٣) سامه الأمر: كلفه إياه وألزمه به.

(٤) القاضب: القاطع.

(٥) الأشعث: الذي تغبر شعره وتلبد، أو الذي اتسخ شعره ويدنه من طول السفر. الفجاج: جمع

فَج: الطريق الواسع البعيد. والسباسب: جمع سَبَسَب: المفازة.

(٦) الشرى: السير ليلاً. ومج الشيء: لفظه.

(٧) الأكوار: جمع كور، وهو الرجل، وقيل: هو الرجل بأدائه. والمهاري: جمع المهريّة: نجائب

تسبق الخيل، منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان. اللبانة: الحاجة، الوطر. والغوارب: جمع غارب،

وهو من البعير: ما بين السنام والعنق، وهو الذي يلقي عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء.

(٨) العوارب: جمع عازب: بعيد.

يُسِرَّ الْهَوَى لِمِ يُمِدِّهِ نَعْتَ فِرْقَةٍ
إِذَا أَدْرَعَ اللَّيْلُ أَنْجَلَى وَكَأَنَّهُ
بِرَكْبٍ تَرَى كَسَرَ الْكَرَى فِي جُفُونِهِمْ
وَعَهْدَ اللَّيَالِي فِي وُجُوهِ مَشَاحِبِ^(٢)

وقال أيضاً:

لَوْ رَأَيْتَنِي بِبُذِي الْمَحَارَةِ فَرْدًا
أُطْفِئُ الْحُزْنَ بِالْدموعِ إِذَا مَا
خَاشِعَ الطَّرْفِ قَدْ تَوَشَّحَنِي الضَّرَّ
تَرَبُّبُ بُوْسِ أَخَا هُمُومٍ كَانَ أَلْ
وَكَأَنِّي اسْتَشْعَرْتُ مَا لَفَظَ النَّا
أَتَصَلَّى الرَّدَى وَأَدْرَعَ اللَّيْلِ
حَظَّ عَيْنِي مِنَ الْكَرَى خَفَقَاتٍ
أَوْحَشَ النَّاسُ جَانِبِي فَمَا آ
قَدْ رَدَدْتُ الَّذِي بِهِ أَتَقِي النَّا
فَاسْتَهَلَّتْ عَلَيَّ تُمَطِّرُنِي الشُّو

وقال:

أَمَّا رَاعَ قَلْبَ الْعَامِرِيَةِ أَنَّنِي
غَدَوْتُ وَمَرَجُوعُ السَّقَامِ قَرِينِي

وقال:

أَكَاثِمُ لَوَعَاتِ الْهَوَى وَيُبَيِّنُهَا
تَخَلَّلُ مَاءِ الشُّوقِ بَيْنَ جُفُونِي
وَمَطْرُوفَةِ الْإِنْسَانِ فِي كُلِّ لَوْعَةٍ
لَهَا نَظْرَةٌ مَوْصُولَةٌ بِحَيْنِ^(٦)

(١) أَدْرَعَ اللَّيْلُ: دخل في ظلمته، كأنه تَدَرَّعَهَا واستتر بها.

(٢) شَحَبَ جِسْمَهُ وَوَجْهَهُ: تَغَيَّرَ وَهَزَلَ.

(٣) النَّاتِرَاتُ: يقال: نَأَرَتْ نَائِرَةً فِي النَّاسِ نَأَرًا: هَاجَتْ هَائِجَةً.

(٤) الْهُوجَاءُ مِنَ النَّوَقِ: الْمُرْعَةُ كَأَنَّ بِهَا هُوجَاءً، وَالْهُوجُ: الْحُمُقُ وَالطَّيْشُ. الْأَقْتَادُ: جَمْعُ قَتَدٍ، وَهُوَ خَشَبُ الرَّحْلِ.

(٥) الْمَزْنَةُ: السَّحَابَةُ الْمَمْطُورَةُ. مَرْعَادُ: ذَاتُ رَعْدٍ.

(٦) طَرَفُ الْبَصَرِ: تَحَرُّكُ جَفَنَاهُ، وَطَرَفٌ إِلَيْهِ: نَظَرٌ، وَطَرَفُ الشَّيْءِ: نَظَرُهُ، وَطَرَفُ عَيْنِهِ: أَصَابُهَا، وَيُقَالُ: طَرَفَ عَيْنَهُ الْحُزْنَ. وَإِنْسَانُ الْعَيْنِ: سَوَادُهَا.

[من آداب آل وهب]

وقال الحسن بن وهب بن سعيد:

أَبْكَ فَمِنْ أَحْسَنَ مَا فِي الْبُكْيِ أَنْ الْبُكْيُ لِلْوَجْدِ تَحْلِيلُ
وَهُوَ إِذَا أَنْتَ تَأَمَّلْتَهُ حُزْنٌ عَلَى الْخَذِينَ مَحْلُولُ

وفد أعرق بنو وهب في الكتابة وأنجبوا، ولهم في هذا الكتاب ما يشهد لهم بما نسب إليهم، وفيهم يقول الطائي: ^(١)

كُلَّ شِعْبٍ كُتِّمَ بِهِ آلٌ وَهَبٍ فَهَوَ شِعْبِي وَشِعْبُ كُلِّ أَدِيبٍ ^(٢)
إِنْ قَلْبِي لَكُمْ لَكَا لَكَبِدِ الْحَا رَرَى وَقَلْبِي لِغَيْرِكُمْ كَالْقُلُوبِ ^(٣)

وفي هذه القصيدة يقول في مدح سليمان بن وهب:

مَا عَلَى الْوُسْجِ الرِّوَاتِكِ مِنْ عَيْ سٍ إِذَا مَا أَتَتْ أَبَا أَيُّوبٍ ^(٤)
حَوْلٌ لَا فِعَالَهُ مَرَّتَعُ الدَّمِّ وَلَا عَرْضُهُ مُنَاخُ الْعَيُوبِ ^(٥)
وَاجِدٌ بِالصَّدِيقِ مِنْ بُرَحَاءِ الشَّ وَقِ وَجَدَانِ غَيْرِهِ بِالْحَيِّبِ ^(٦)

أخذ سليمان منه معنى هذا البيت الأخير، فقال في رسالة لبعض إخوانه:

ظرفُ الصداقة، أرقُّ من ظرف العلاقة، والنفس بالصدق، آس منها بالعشيق. فقال له أبو تمام: كلامك هذا أرق من شعري.

والحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة، جيد اللسان، حلو البيان، وكان يحب بنان جارية محمد بن حماد، وله فيها شعر جيد، ولها يقول:

أَقْبُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْيِيلَ كَفِّهَا وَيِي رَغْدَةً أَهْنَزُ مِنْهَا وَأَسْكُنُ
لَيْهَنِكَ أَتِي أَشْجَعُ النَّاسِ كُلَّهُم لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا أَنِّي عَنْكَ أَجْبُنُ

(١) أبو تمام، الديوان: ١٢١/١.

(٢) الشَّعْبُ هنا بمعنى الناحية والمكان.

(٣) يقول: إن قلبي لشدة محبتكم، وشوقي إليكم ككبد العاشق، وقلبي لغيركم كقلوب سائر الناس.

(٤) في الديوان: «من عَيْ». الْوُسْجُ: مفرداها وسج، وهو السائر وسيجا، وهو ضرب من سير الإبل. الرواتك: التي تسير الرنك، وهو ضرب من سير الإبل أيضاً. أبو أيوب: هو الممدوح سليمان بن وهب. يقول: لا عيب على التوق السريعة أن تقصد أبا أيوب.

(٥) في الديوان: «مَرَاخُ العيوب». الْحَوْلُ: البصير بتحويل الأمور. والمراخ: المأوى.

(٦) في الديوان: «وَاجِلٌ بِالْخَلِيلِ». ویرحاء الشوق: شدته.

وحضرت مجلسه وبين يديه نار فأمرت بإزالتها، فقال:

بأبي كُرِهَتْ النَّارُ حَتَّى أُبْعِدَتْ فَعَلِمْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِعَادِهَا
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ فِي التَّمَاعِ ضِيَائِهَا وَهُبُوبِ نَفْحَتِهَا لَدَى إِيقَادِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ فِي الْقُلُوبِ صَنِيعِهَا بِسِيَالِهَا وَأَرَكَهَا وَعَرَادِهَا^(١)
شَرَكْتُكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِفَعْلِهَا وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا

وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعز:

مَا هَجَرْتُ الْمُدَامَ وَالْوَرْدَ وَالْبَد رَ بَطْنُوعٍ، لَكِنْ بِرَغَمٍ وَكُرْهِ
مَنْعَتِي مِنَ الثَّلَاثَةِ مَنْ لَوْ قَتَلْتَنِي لَمْ أَحْكُ وَاللَّهِ مَنْ هِيَ
قَالَتِ الْوَرْدُ وَالْمُدَامَةُ وَالْبَد رُ ضِيَائِي وَلَوْ خَدَيَّ وَوَجْهِي
قُلْتُ بُخْلًا بِكُلِّ شَيْءٍ فَقَالَتْ لَا وَلَكِنْ بَخَلْتُ بِي وَبِشَبْهِي
قُلْتُ يَا لَيْتَنِي شَبَّهَكَ قَالَتْ إِنَّمَا يَقْتُلُ الْمُحِبُّ الشَّهْبِي

ولما مات الحسن بن وهب - وكان موته بالشام - عَزَى عنه أخوه سليمان، فجاء أبو العيناء، فقال: أنشدني أبو سعيد الأصبغي:

لَعَمْرِي لِنَعَمِ الْمَرْءِ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ بِحُورَانَ أَمْسَى أَعْلَقَتْهُ الْجَبَائِلُ^(٢)
لَقَدْ فَقَدُوا عَزْماً وَحِزْماً وَسُودَداً وَعِلْماً أَصِيلاً خَالَفَتْهُ الْمَجَاهِلُ
فَإِنْ عِشْتَ لَمْ أَمْلَأْ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ فَمَا فِي حَيَاتِي بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ

فقال سليمان: أحسن الله جزاءك، ووصل إخاءك، إن هذا لمن أحسن الشعر، وقد تمثل به قتيبة حين بلغه موث الحجاج، ولكني أقول كما قال كعب بن سعد الغنوي^(٣) يرثي أخاه أبا المغوار^(٤):

- (١) السيل: شجر سبط الأغصان. والأراك: الشجر الذي تتخذ من أغصانه المساويك. والعراد: شجر صلب، واحده: عرادة.
- (٢) الجبال: جمع جبالة: المصيدة، وجبال الموت: أسبابه.
- (٣) هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي، من بني غني بن أعصر: شاعر جاهلي مجيد، من الطبقة الثانية، وشعره من النقي الحر، يستشهد به أهل اللغة. قُتل أخوه أبو المغوار في حرب «ذي قار» بعد أن أبلى فيها بلاءً حسناً، فرثاه كعب بقصيدة هي من أشهر مراثي العرب. توفي نحو ١٠ ق.هـ/ نحو ٦١٢ م. (المرزباني، معجم الشعراء: ٢٣٠؛ شيخو، شعراء النصرانية: ٧٤٦/١).
- (٤) القصيدة كاملة في شعراء النصرانية: ٧٤٦/١ - ٧٤٩.

أَخِي مَا أَخِي لَا فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وَلَا وَرِعٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبٌ^(١)
 حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقَتْ حَيَّ الشَّيْبِ، لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غَلُوبٌ
 حَبِيبٌ إِلَى الزُّوَارِ غَشِيَانُ بَيْتِهِ جَمِيلُ الْمُحْيَا شَبٌّ وَهُوَ أَرِيبٌ^(٢)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ الْعَوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبٌ^(٣)

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان، وحسن جوابه، وصحة تمثله.

والآيات التي أنشدها الأصمعي للحطيئة، واسمه جرول بن أوس بن جؤبة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيفة بن عبس بن بغيض، يقولها في علقمة بن علاثة^(٤) وفيها يقول:

فَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا وَيَسْنَ الْغَنَى إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ

قال سليمان بن وهب: لما جار علينا بالنكبة السلطان، وجفاناً من أجلها الإخوان، أنصفنا ابن أبي دؤاد بتطوُّله، وكفانا الحاجة إليهم بتفضله، فكنا وإياه كما قال الحطيئة:

جَاوَرْتُ آلَ مُقْلَدٍ فَحَمِدْتُهُمْ إِذَا لَا يَكَادُ أَخُو جَوَارٍ يُحْمَدُ
 أَيَّامَ مَنْ يُرَدُّ الصَّنِيعَةُ يَصْطَنِعُ فِينَا، وَمَنْ يُرَدِّ الزَّهَادَةَ يَزْهَدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه:

لَكَ أَنْ تَعْتَبَ، وَشَبِيهَكَ أَنْ يَعْذَرَ؛ فَهَبْ أَقْلَ الْأَمْرَيْنِ لِأَكْثَرِهِمَا، وَقَدِّمْ فَضْلَكَ عَلَى حَقِّكَ، وَيَقِينِكَ عَلَى شُكِّكَ.

ووصف رجلاً بليغاً فقال: كَانَ وَاللَّهِ وَاسِعَ الْمَنْطِقِ، جَزَلَ الْأَلْفَاظِ، لَيْسَ بِالْهَذِيرِ فِي لَفْظِهِ، [وَلَا الْمَظْلَمَ فِي مَقْصَدِهِ؛ مَعْنَاهُ إِلَى الْقَلَمِ أَسْرَعَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى السَّمْعِ].

(١) في شعراء النصرانية: «فاحشٌ عند بَيْتِهِ».

(٢) شَبٌّ شَبَاباً: أدرك طور الشباب. والأريب: الفطن.

(٣) في شعراء النصرانية:

إِذَا مَا تَرَاهُ لِلرِّجَالِ رَأْيُهُ فَلَمْ يَنْطَقُوا بِالْغَوَاءِ وَهُوَ قَرِيبٌ

(٤) هو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص، وكان من حكام الجاهلية، وكانت منافرته لعامر بن الطفيل أشهر منافرة في الجاهلية. وكان علقمة قد أسلم، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام. (الجاحظ، الحيوان: ٢٢٤/٦، الحاشية رقم ٩).

وهذا ضدّ قول محمد بن عبد الملك الزيات في عبيد الله بن يحيى بن خاقان: هو مهزول الألفاظ، غليظ المعاني، سخيّف العقل، ضعيف العقدة، واهي العزم، مأفون الرأي^(١).

ألفاظ لأهل العصر في ذم الكتاب والكتاب والنثر والشعر

الخرس أحسن من كلامه، والعيّ أبلغ من بيانه، خاطره يتّو، وقلمه يكتّو، ويسهو ويغلط، ويخطيء ويُسقط. هو قصير باع الكتابة، قاصر سعي الخطابة، وكتبه مضطربة الألفاظ، متفاوتة الأبعاض، منتشرة الأوضاع، متباينة الأغراض. الجلم^(٢) أولى بكفه من القلم، والطّاس أليق بها من القرطاس. كلام تنبو عن قبوله الطباع، وتتجافى عن استماعه الأسماع. ألفاظ تنبو عنها الآذان فتمجّجها، وتنكرها الطباع فتزجّجها. كلام لا يرفع الطبع له حجاباً، ولا يفتح السمع له باباً. كلام يصدّي الريان^(٣)، ويصدى الأفهام والأذهان. كلام قد تعمّل فيه حتى نبذل، وتكلّف حتى نعسف. طبع جاس^(٤)، ولفظ قاس، لا مساع له في سَمع، ولا وصول له مع خلو ذرع^(٥). كلام لا الروية ضربت فيه بسهم، ولا الفكرة جالت فيه بقدح. كلام تتعثر في حزونه^(٦)، وتتحير الأفهام من وعورته. كلمات ضعيفة الإتقان، قليلة الأعيان، مُضْمَحَلّة على الامتحان. ألفاظ تُستمار من الدياجي، ومعانٍ تقدّر من الأثافي^(٧). كلام يمثله يتسلّى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه، أثقل من الجندل، وأمر من الحنظل، هو هذيان المحموم، وسوداء الهموم. كلام رث، ومعنى غث، لا طائل فيهما، ولا طلاوة عليهما. أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه، ولا من أحجال الكلام وغرّره. شعر ضعيف الصنعة رديء الصيغة بغض الصفة [وفد جمع بين إقواء وإبطاء^(٨)،

(١) مأفون الرأي: فاسده، يقال: أفن الرجل أفناً: نقص عقله، فهو مأفون وأفين.

(٢) الجلم: ما يُجزّ به، وقد جلم الشيء قطعه، وجلم الشعر والصوف: جزّه بالجلم.

(٣) الصدى: العطش، وأصداه: أعطشه. والريان: الممتلىء رياً.

(٤) طبع جاس: خشن، غليظ.

(٥) الذرع: المقدار، أو الطاقة والوسع.

(٦) الحزن من الأرض: ما غلظ، ومن الناس: من خشنت معاملته.

(٧) الأثافي: حجارة الموقد، مفردها أثفية.

(٨) الإقواء والإبطاء: ضربان من عيوب القافية، فالإقواء: هو تغيير حركات الروي، والإبطاء: إعادة كلمة الروي لفظاً ومعنى.

وإبطاء وإخطاء. ما قطع في شعره شَعْرَةً] ولا سقى قطرة. لو شعر بالنقص ما شعر. لا يميز بين خبيث القول وطيبه، ولا يَفَرِّق بين بَكْرِهِ وَثَبِّهِ. هو باردُ العبارة، ثقیل الاستعارة. هو من بين الشعراء منبوذ بالعراء. لم يلبس شعره حلةً الطلاوة. له شعر لا يطيب دَرَسُهُ، ولا يخف سرده، وخطُّ مضطرب الحُرُوف، متضاعف التضعيف والتحريف. خطُّ يَقْذِي العين ويُشْجِي الصدر. خط منحط، كأنه أرجل البط، وأنامل السرطان، على الحيطان. قلمه لا يستجيب بريه، ومداده لا يساعد جَرِيه. قلمه كالولد العاق، والأخ المشاق، إذا أَدْرَتْهُ استطال، وإذا قَوَّمْتَهُ مال، وإذا بَعَثْتَهُ وقف، وإذا وقفته انحرف. قلم مائل الشق، مضطرب المشق، متفاوت [البري، معدوم الجري، محرف القط. قلم لم يَقْلَمْ ظفره فهو] يخدش القرطاس، وينقش الأنفاس^(١)، ويأخذ بالأنفاس. قلم لا يَبْعَثُ إذا بعثته، ولا يقف إذا وقفته. وقد وقف اضطراب [بريه، دون استمرار] جَرِيه، واقتطع تفاوت قطه، عن تجويد خطه.

[وصف الكلام]

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سفيان

ذكر عتبة بن أبي سفيان^(٢) كلام العرب فقال: إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فُسرَت بغيرها عَطِلَتْ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت؛ فسهولة ألفاظهم تُوهِمُك أنها ممكنة إذا سُمِعَتْ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلِيَتْ. هم اللطيف فهمهم، النافع علمهم، بَلَّغَتْهُمْ نزل القرآن، وبها يُدْرِكُ البيان، وكلُّ نوع من معناه مُبَالِغٌ لما سواه، والناس إلى قولهم يصيرون، ويهداهم يأتون، أكثر الناس أحلاماً، وأكرمهم أخلاقاً.

وكان يقال: خير الكلام المُطْمَع الممتنع.

وأُتِشِدَ إبراهيم بنُ العباس الصُّوليُّ لخاله العباس بن الأحنف:

(١) الأنفاس: جمع نَفَس، وهو المِداؤ (الجبر).

(٢) هو عتبة بن أبي سفيان صخرين حرب بن أمية بن عبد شمس: أمير مصر، وليها من قبل أخيه معاوية، فقدمها سنة ٤٣ هـ/ ثم خرج إلى الإسكندرية مرابطاً، فابتنى داراً في حصنها القديم، وتوفي فيها سنة ٥٤٤ هـ/ ٦٦٤ م. اشتهر عتبة بالفصاحة ورجاحة العقل والمهابة. قال الأصمعي: الخطباء من بني أمية: عتبة بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٢٢/١؛ الزركلي، الأعلام: ٢/٢٠٠).

إِلَيْكَ أَشْكُورَبَ مَا حَلَّ بِي مِنْ صَدِّ هَذَا الْعَاتِبِ الْمُذْنِبِ
إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِنْ سِيلَ لَمْ يَذُنْ، وَإِنْ عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبِ
صَبَّ بِمَعْصِيَانِي، وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، الصعب الممتع، العزيز النظير، القليل الشبيه، البعيد مع قرينه، الحزن مع سهولته، فجعل الناس يقولون: هذا الكلام أحسن من الشعر.

الناشيء يصف شعره

وقال أبو العباس الناشيء يصف شعره:

يَحْتَجِرُ الشُّعْرَاءُ إِنْ سَمِعُوا بِهِ فِي حُسْنِ صَنَعَتِهِ وَفِي تَأْلِيفِهِ
فَكَأَنَّهُ فِي قُرْبِهِ مِنْ فَهْمِهِمْ وَنُكُولِهِمْ فِي الْعَجْزِ عَنْ تَرْصِيفِهِ^(١)
شَجَرٌ بَدَا لِلْعَيْنِ حُسْنُ نَبَاتِهِ وَنَأَى عَنِ الْأَيْدِي جَنَى مَقْطُوفِهِ
فَإِذَا قَرْنَتْ أَيْيَهُ بِمُطِيعِهِ وَقَرْنَتْهُ بِغَرِيبِهِ وَطَرِيفِهِ
أَلْفَيْتَ مَعْنَاهُ يُطَابِقُ لَفْظُهُ وَالنَّظْمُ مِنْهُ جَلِيلُهُ بِلَطِيفِهِ
فَأَتَاهُ مُتَسِقاً عَلَى إِحْسَانِهِ قَسْدٌ نِيْطُ مِنْهُ رَزِيْنُهُ بِخَفِيفِهِ
هَذَّبْتُهُ فَجَعَلْتُهُ لَكَ بَاقِياً وَمَنْعْتُ صَرْفَ الدَّهْرِ عَنْ تَصْرِيفِهِ

للناشيء في الشعر

وقال الناشيء في فصل من كتابه في الشعر: الشعر قَيْدُ الْكَلَامِ، وعقل الآداب، وسور البلاغة، ومعدن البراعة، ومجال الجنان، ومسرح البيان، وذريعة المتوسل، ووسيلة المتوصل، وذمام الغريب، وحرمة الأديب، وعِصْمَةُ الْهَارِبِ، وعدة الراهب، ورحلة الداني، ودوحة المتمثل، وروحة المتحمل، وحاكم الإعراب، وشاهد الصواب.

وقال في هذا الكتاب: الشعر ما كان سهل المطالع، فصل المقاطع فحل المديح، جزل الافتخار، شجي النسب، فكة الغزل، سائر المثل، سليم الزلل، عديم الخلل، رائع

(١) نكل عن الأمر نُكُولاً: جَبَنَ ونكص. ورصف الشيء: رَصَّه، ورصف الحجارة في البناء: ضَمَّ بعضها إلى بعض.

الهجاء، موجب المعذرة، مُحَبَّ المعتبة، مُطْمَع المسالك، فانت المذارك، قريب البيان، بعيد المعاني، نائي الأغوار، ضاحي القرار، نقي المستشف، قد هُرِيقَ فيه ماءُ الفصاحة، وأضاء له نور الرجاحة، فانهلَّ في صادي الفهم، وأضاء في بهيم الرأي. لمتأمله ترقق، ولمستشفه تألق، يروق المتوسم، يسر المترسم؛ قد أبدت صدوره مُتُونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديه، وطابقت [الفاظه معانيه، وخالفت أجناسه مبانيه، فاطرد لمتصفحه، وأنار] لمستوضحه، وأشبه الروض في وشي ألوانه، وتعمم أفنانه، وإشراق نواره، وابتهاج أنجاده بأغواره؛ وأشبه الوشي في اتفاق رُقُومِه، واتساق رُسُومِه، وتسطير كفوفه، وتجير فُوفِه؛ وحكى العقد في الثام فُصولِه، وانتظام وُصولِه، وازديان ياقوته بذرِه، وفريده بشدرِه، فلو اكتنف الإيجاز موارده، وصقلت مداوس الدربة مناصله، وشحذت مدارس الأدب قِياصِله، جاء سليماً من المعايب، مهذباً من الأدناس، تتحاشاه الأبن، وتتحاماه الهجن، مُهْدياً إلى الأسماع بهجته، وإلى العقول حكّمته.

للمؤلف في الشعر

وقد قلت في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائليه، وأسلوباً لسالكيه، وهو:

الشعرُ ما قَوِّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ	وَشَدَدْتَ بِالْتِهْذِيبِ أَسْرَ مُتُونِهِ ^(١)
وَرَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ	وَقَتَحْتَ بِالْإِيجَازِ غَوْرَ عُيُونِهِ ^(٢)
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ	وَوَصَلْتَ بَيْنَ مَجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ ^(٣)
وَعَقَدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِي	شَبْهًا بِهِ فَقَرَنْتَهُ بِقَرِينِهِ
فَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيارَ وَأَهْلَهَا	أَجْرَيْتَ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَوَكَّلْتَهُ بِهُمُومِهِ وَغُمُومِهِ	دَهْرًا فَلَمْ يَسِرِ الْكَرَى بِجُفُونِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جِوَادًا مَاجِدًا	وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ بِنَفْسِهِ وَرَصِينِهِ	وَمَنْحَتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزَلًا فِي اتِّفَاقِ صُنُوفِهِ	وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّسَاقِ فُنُونِهِ

(١) الأسر: شدة الخلق.

(٢) الإطناب (في علم المعاني): أن يزيد اللفظ على المعنى لفائدة، وهو يقابل الإيجاز، وتوسطهما المساواة.

(٣) المَجْمَعُ: مُتَقَرُّ الماء.

وَإِذَا أُرِدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيَّةٍ بَايَأْتُ بَيْنَ ظَهْوَرِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ بَيَّانِهِ وَظُنُونَهُ يَقِينِهِ
وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ أَدْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لِينِهِ
فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْنِسًا لِدِمَائِهِ مُسْتَيْسًا لَوُغُوثِهِ وَحُزُونِهِ^(١)
وَإِذَا نَبَذْتَ إِلَى التِّي عُلِقَتْهَا إِنْ صَارَ مَتَكَ بِفَاتِنَاتِ شُونِهِ
تَيَّمَّتْهَا بِلَطِيفِهِ وَرَقِيقِهِ وَشَغَفَتْهَا بِخَفِيِّهِ وَكَمِينِهِ
وَإِذَا اعْتَذَرْتَ إِلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ وَاشْكَيْتَ بَيْنَ مُجِيلِهِ وَمُيْنِهِ
فِيَحُورُ ذَنْبِكَ عِنْدَ مَنْ يَعْتَدُهُ عَتَبَا عَلَيْكَ مُطَالِبًا بِيَمِينِهِ
وَالْقَوْلُ يَحْسُنُ مِنْهُ فِي مَثْوَرِهِ مَا لَيْسَ يَحْسُنُ مِنْهُ فِي مَوْزُونِهِ

للخليل بن أحمد في الشعراء

وقال الخليل بن أحمد: الشعراء أمراء الكلام، يصرفونه أنى شاءوا؛ وجائزٌ لهم ما لا يجوزٌ لغيرهم: من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومدّ مقصوره، وقصرٍ ممدوده، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته.

وقال: الشعرُ حِلْيَةُ اللسان، ومَرْجَّةُ البیان، ونظامُ الكلام، مقسومٌ غيرُ محظور، ومُشتركٌ غيرُ محصور، إلا أنه في العرب جَوْهَرِيٌّ، وفي العجم صناعيٌّ.

بين أعرابي وفارسي

قال أعرابي لشاعر من أبناء الفرس: الشعرُ للعرب، فكلُّ مَنْ يَقُولُ الشعرَ منكم فإنما نَزَا على أُمِّه رجلٌ منا! فقال الفارسي: وكذلك من لا يَقُولُ الشعرَ منكم، فإنما نَزَا على أُمِّه رجلٌ منا!

لعمارة بن عقيل وللجاحظ

وقال عمارة بن عقيل: أجود الشعر ما كان أَمْلَسَ المتون، كثيرَ العيون، لا يميِّجُه السمع، ولا يستأذِنُ على القلب. وأنشد الجاحظ شعرَ أبي العتاهية فلم يَرْضَه، وقال: هو أَمْلَسُ المتون، ليس له عيون. كأنه وعُمارَة تجاذبا كلاماً واحداً.

(١) الرَّغْتُ: المكان السهل تغيب فيه الأقدام، والطريق الخشن الغليظ العير. وقد أوعث المتكلم: عجز عن الكلام.

وقال ابن عقيل: الشعرُ بضاعةٌ من بضائع العرب، ودليل من أدلة الأدب، وأثارة من أثارات الحساب. ولن يهز الشعرُ إلا الكريمَ المَحْتَد، الكثير السؤدد، الكليلَ بِذِكْرِ اليومِ والغَد.

لبشار وقد مدح المهدي فلم يجزه

ومدح بشار المهدي فلم يُعطه شيئاً، فقيل له: لم تُجِدْ في مَدْحِهِ. فقال: لا والله، لقد مَدَحْتُهُ بشعرٍ لو قلت مثله في الدهر لما خيف صَرْفُهُ على حُرٍّ، ولكني أَكْذَبُ في العمل، فَأَكْذَبُ في الأمل.

نظمه الناجم فقال:

وَلِي فِي أَحْمَدٍ أَمَلٌ بَعِيدٌ وَمَدْحٌ حِينَ أَنْشَدُهُ طَرِيفُ
مَدَائِحَ لَوْ مَدَحْتُ بِهَا اللَّيَالِي لَمَا دَارَتْ عَلَيَّ لَهَا صُرُوفُ

خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صِفْ لي جريراً والفرزدق والأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما أعظمهم فَخْرًا، وأبعدهم ذِكْرًا، وأحسنهم عُذْرًا، وأَسْرِيَهُمْ مَثَلًا، وأقلهم غَزَلًا، وأحلامهم عِلَلًا، البحر الطامي إذا زَخَرَ، والهامي إذا ذَعَرَ، والسامي إذا خَطَرَ، [الذي] إذا هَدَرَ جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق. وأما أحسنهم نَعْتًا، وأمدحهم بيتًا، وأقلهم قُوْتًا، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رَفَعَ، فالأخطل. وأما أَغَزَرُهُمْ بحرا، وأرقهم شعرا، وأكثرهم ذِكْرًا، الأغرّ الأبلق، الذي إن طَلَبَ لم يُسَبِّحْ، وإن طُلِبَ لم يُلْحَقْ، فجريرو. وكلُّهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العمام، واري الزناد.

قال مسلمة بن عبد الملك، وكان حاضراً: ما سمعنا بمثلك يا بن صفوان في الأولين ولا في الآخرين، أشهد أنك أحسنهم وصفاً، وألْيَنُهُمْ عِطْفاً، وأخفهم مقالا، وأكرمهم فعلا. فقال خالد: أتم الله عليك نِعْمَةً، وأجزل لك قِسْمَةً. أنت والله أيها الأمير - ما علمت - كريمُ الغِراس، عالمٌ بالناس، جوادٌ في المَحَلِّ، بَسَامٌ عند البَدَلِ، حلِيمٌ عند الطَّيْشِ، في الذُّرَّةِ من قَرِيش، من أشرف عبد شمس، ويومك خيرٌ من الأَمَس.

فضحك هشام وقال: ما رأيت مثلك يا بن صفوان لتخلصك في مَدْحِ هؤلاء، ووصفهم، حتى أرضيتهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم.

بين العجاج وعبد الملك بن مروان

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تحسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأبنية، أمكنه خرابُ الأخبية، قال: ما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظَلِّمَ، وحِلْمًا يمنعنا من أن نُظَلِّمَ، قال: لَكِلِمَاتُكَ أحسنُ من شعرك! فما العِزُّ الذي يمنعك أن تُظَلِّمَ؟ قال: الأدب [البارع، والفهم الناصع]. قال: فما الحِلْمُ الذي يمنعك من أن تُظَلِّمَ؟ قال: الأدب [المستطرف، والطبع الثَّالِد، قال: لقد أصبحت حكيماً. قال: وما يمنعني من ذلك وأنا نَجِيٌّ أمير المؤمنين؟

قال أبو إسحاق: وليس كما قال العجاج، بل لكثير من الشعراء طباع تنبؤ عن الهجاء كالطائي وأضرابه، وأصحاب المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع، إذ كان الهجو كالناردة التي إذا جَرَتْ على سَجِيَّةٍ قائلها، وَقَرُبَتْ من يَدٍ تناولها، وكان واسع العطن^(١)، كثير الفطن، قريب القلب من اللسان، التهبت بنار الإحسان.

المقامة القريضية من مقامات البديع يصف الشعراء

ومما يَنُحُو هذا النحو من مقامات أبي الفتح الإسكندري إنشاء بديع الزمان قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: طرَحَتْنِي النوى مطارِحها، حتى إذا وَطِئْتُ جُرْجَانِ الْأَقْصَى، فَاسْتَظْهَرْتُ على الأيام بضياء أَجَلْتُ فيها يَدَ العِمَارَةِ، وأموالٍ وقفنها على التجارة، وحانوتٍ جعلته مَثَابَةً^(٢)، ورُفْقَةٍ اتَّخَذْتَهُمْ صَحَابَةً، وجعلتُ للدار حاشِيَتِي النهار، والحانوتِ ما بينهما؛ فجلسنا يوماً نذاكرُ الشعر والشعراء، وتلقأنا شاب قد جلس غيرَ بعيد، يُنْصِتُ وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلامُ بنا مِيلَةً، وجَرَّ الجَدْلُ فينا ذِيلَهُ. قال: أصبتم عُدْبِقَهُ^(٣)، ووافيتم جُذِيلَهُ، ولو شِئْتُ للفظت [فأَفْضُتْ]، ولو أردت لسردت، ولجأت الحق في معرض بيان يُسْمَعُ الصم، ويُزَلُّ العُصم. فقلت: يا فاضل، أدنُ فقد مَنَيْتُ، وهات فقد أثبتت، فدنا وقال: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، واستمعوا أُعْجِبْكُمْ.

قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول مَنْ وَقَفَ بالديار وعَرَصَاتِهَا^(٤)،

(١) واسع العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي كثير المال.

(٢) الحانوت: دكان الخمار. مَثَابَةً: مكان يرجع إليه كلما أراد.

(٣) عُدْبِقَةً: تصغير عَذَق، وأصله النخلة بحملها

(٤) العرصات: جمع عرصة: ساحة الدار أو الحي.

وَأَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا^(١)، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعرَ كاسِبا، ولم يُجِدِ القولَ راعباً، فَفَضَّلَ مَنْ تَفَقَّحَ لِلْحِيلَةِ لِسَانَهُ، وَاتَّجَعَ لِلرَّغْبَةِ بِنَانَهُ.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عَشِقَ، وَيَثْلُبُ إذا حَنِقَ، ويمدح إذا رَغِبَ، ويعتذر إذا رَهَبَ، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا: فما تقول في طَرْفَةٍ؟ قال: هو ماءُ الأشعار وطيتها، وكثر القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرارُ دفائنه، ولم تطلق عِتَاقُ خزائنه.

قلنا: فما تقول [في زهير؟] قال: يُذِيبُ الشعرَ والشعرُ يذِيبه، ويدعو القولَ والسَّحْرُ يُجِيبه.

قلنا: فما تقول [في جرير والفرزدق؟] وأيهما أَسْبَقَ؟ قال: جرير أرق شعرًا، وأَغْزَرَ غزراً، والفرزدق أَمَنُّ صخرًا، وأكثر فخرًا، وجرير أَوْجَعَ هَجْوًا، وأشرف يومًا، والفرزدق أكثر رُومًا، وأكثر قومًا، وجرير إذا نَسَبَ أشجى، وإذا ثَلَبَ أزدى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجزى، وإذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول في المُحَدِّثِينَ من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر في المعاني حظًا، والمتأخرون أَلْطَفُ صُنْعًا، وأرقُّ نَسْجًا.

قلنا: فلو أَرَيْتَ من أشعارك، وَرَوَيْتَ من أخبارك، قال: خُذْهُمَا في معرض واحد، وأنشد:

أَمَّا تَرَوْنِي أَتَغَشَى طُمْرًا	مُلْتَحِفًا فِي الضَّرِّ أَمْرًا إِمْرًا ^(٢)
مُنْطَوِيَا عَلَى اللَّيَالِي غُمْرًا	مَلَايَا مِنْهَا صُرُوفًا حُمْرًا
أَقْصَى أَمَانِي طُلُوعُ الشُّعْرَى	فَقَدْ عُنَيْنَا بِالْأَمَانِي دَهْرًا
وَكَانَ هَذَا الْحُرُّ أَعْلَى قَدْرًا	وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَعْلَى سِعْرًا
ضَرِبْتُ لِلْسَّرْوِ قَبَاسًا خُضْرًا	فِي دَارِ دَارًا وَإِوَانَ كِسْرَى
فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنِ ظَهْرًا	وَعَادَ عَرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نُكْرًا

(١) الوكنت: جمع وكنة: عُنْ الطائر حيث كان.

(٢) الطمر: الثوب المخلق البالي. وَأَمْرٌ إِمْرٌ: عَجِيبٌ مُتَكَرِّرٌ

لَمْ يَبْقَ مِنْ وَفَرِي إِلَّا ذِكْرًا ثُمَّ إِلَى الْيَوْمِ هَلُمَّ جَرًا^(١)
لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بَسْرٌ مِّنْ رَّا وَأَفْرَحُ دُونَ جِبَالِ بَصْرِي
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ شَرًّا قَتَلْتُ يَا سَادَةَ نَفْسِي صَبْرًا!

قال عيسى بن هشام: فَنَلْتُهُ مَا تَأَخَّ^(٢)، وأعرض عَنَّا فراحَ، وجعلتُ أنفبه وأثبته، وأنكره وكأني أعرفه، ثم دَلَّتْني عليه ثنياه، فقلت: الإسكندري والله؛ فلقد كان فارقتنا خشفًا، ووافانا جلفًا^(٣)، ونهضتُ على إثره، ثم قبضتُ على خصره، وقلت: أَلَسْتَ أَبَا الفتح؟ أَلَمْ تَكُنْ فِينَا وَلِيدًا، ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سَنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بَسْرٌ مِّنْ رَأْيٍ؟ فضحك وقال:

وَيَحَاكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورٌ فَلَا يُعَرِّتُكَ الْغُرُورُ
غَرَّقَ وَبَرَّقَ وَكَلَّ وَطَرَّقَ وَأَسْرِقَ وَطَلَبِقَ لِمَنْ تَزُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَكِنْ دُرٌّ لِلْيَالِي كَمَا تَدُورُ

المقامة الغيلانية من مقامات البديع

ومن إنشائه مقامة ولدها على لسان عَصْمَةَ وذِي الرِّمَّة قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا نحن في مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلٌ العرب حِفْظًا وِرْوَاية عَصْمَةَ بن بَدْر الْفَزَارِي، فَأَمَضَى الْكَلَامُ إِلَى ذِكْرِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ خَصْمِهِ حِلْمًا، أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ خَصْمُهُ احتقارًا، حتى ذكر الصَّلَتَانِ الْعَبْدِي^(٤) واللَّعِينِ الْمُنْقَرِي^(٥)، وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما. فقال عصمة: سأحدثكم بما شاهدته عيني، ولا أحدثكم عن غيري: بينا أنا أسيرُ في بلاد تميم

(١) الْوَفْرُ: الْغِنَى، التَّامُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُقَالُ: مَالٌ وَفْرٌ، وَمَتَاعٌ وَفْرٌ: كَثِيرٌ وَاسِعٌ.

(٢) نَلْتُهُ: أَعْطَيْتُهُ. مَا تَأَخَّ: مَا تَهَيَّأَ وَكَانَ حَاضِرًا عِنْدِي.

(٣) الْخَشْفُ: وَلَدُ الظَّيْفَةِ. وَالْجَلْفُ: الْغَلِيظُ الْجَانِفِي.

(٤) هُوَ قُتَيْبُ بْنُ خَبِيبَةَ، مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ. اجْتَمَعَ إِلَيْهِ فِي الْحَكَمِ بَيْنَ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ، فَلَمْ يَرْضَهُمَا، وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ فِي ذَلِكَ: أَمَّا الشَّرَفُ فَقَدْ عَرَفَهُ، وَأَمَّا الشَّعْرُ فَمَا لِلْبَحْرَانِي وَالشَّعْرِ. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٤٠٨/١).

(٥) هُوَ مَنَازِلُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَقِيلَ: بْنُ زَمْعَةَ، مِنْ بَنِي مُنْقَرٍ كَعْبُ بْنُ سَعْدٍ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو أَكِيدِرٍ: شَاعِرٌ إِسْلَامِي أَمَوِي هَجَاءَ سَلِيطَ، تَعَرَّضَ لِلْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ فَلَمْ يَلْتَفِتْا إِلَيْهِ، وَأَكْثَرَ هَجَاءَهُ فِي الْأَصْيَافِ. لَقَّبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابُ بِـ«الْلعين» لِأَنَّهُ سَمِعَهُ يَنْشُدُ شَعْرًا وَالنَّاسُ يَصْلُونُ. تُوُفِيَ سَنَةَ ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٤٠٧/١، الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٣٠٥).

مرتجلاً نجية، وقائداً جنية، عن لي راكبٍ على أورقٍ جعد اللغام^(١)، فاجتاز بي رافعاً صوته بالسّلام. فقلت: من الراكب الجهير الكلام، المحيّي بتحيّة الإسلام؟ فقال: أنا غيلان ابن عقيب. فقلت: مرحباً بالكريم حسبه، الشهير نسبه، السائر منطقته. فقال: رَحْبَ وإدبك، وعزّ ناديك، فمن أنت؟ قلت: عصمة بن بدر الغزاري. فقال: حياك الله، نعم الصديق، والصاحب والرفيق. وسرنا فلما هجرنا قال: ألا نُغَوِّرُ^(٢) يا عصمة فقد صهرتنا الشمس؟ فقلت: أنتَ وذاك، فملنا إلى شجرات ألاء^(٣) كأنهن عذارى متبرجات، قد نثرن الغدائر، وسرحن الضفائر؛ لأثلاثٍ متناوحت؛ فحططنا رحالنا، ونلنا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيد الأكل. وزال كلُّ منا إلى ظل أثلة يريد القائلة، واضطجع ذو الرمة وأردت أن أصنع صنيعه، فوليتُ ظهري الأرض، وعيناي لا يملكها غمض، فنظرتُ غير بعيدٍ إلى ناقةٍ كَوْماء، ضحيّتْ وغيّطها مُلْقَى^(٤)، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عسيّف أو أسيف^(٥)، فلهيتُ عنهما، وما أنا والسؤال عما لا يعنيني! ونام ذو الرمة غرّاراً، ثم انتبه، وكان ذلك في أيام مُهاجراته لذلك المريّ، فرفع عقيرته يشد فيه:

أَمِنْ مَيَّةَ الطَّلَلِ الدَّارِسُ	أَلْظَ بِهِ الْعَاصِفُ الرَّامِسُ ^(٦)
فَلَمْ يَنْقُ إِلَّا شَجِيجَ الْقَذَالِ	وَمُسْتَوْقَدْ مَالَهُ قَابِسُ ^(٧)
وَحَوْضُ تَلَمَّ مِنْ جَانِبِيهِ	وَمُحْتَمَلٌ دَائِرُ طَامِسُ ^(٨)
وَعَهْدِي بِهِ وَبِهِ سَكْنُهُ	وَمَيَّةٌ وَالْإِنْسُ وَالْآنَسُ
سَتَأْتِي أَمْرًا الْقَيْسَ مَأْثُورَةً	يُعْنَى بِهَا الْعَابِرَ الْجَالِسُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ قَدْ	أَلْظَ بِهِ دَاوُدُ النَّسَاجِسُ

(١) أراد أنه يمتطي جملاً. والأورق: الذي لونه الورقة، وهي بياض وسواد. وجعد اللغام: كثير الزيد.

(٢) نُغَوِّرُ: نُقِيل.

(٣) الألاء: شجر عظيم الظل.

(٤) الكوماء من النوق: العظيم سنامها. وضحيّت: أصابتها الشمس بحرّها.

(٥) العسيّف: الأجير، والأسيف: العبد المملوك.

(٦) أَلْظَ به: لزمه ولم يفارقه. والرامس: الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار.

(٧) الشجيج: أثر الشجرة في الجبين ونحوه. القذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق

القفا. القابس: اسم فاعل من قَبَسَ النار قَبْساً: أوقدها، وظلّها.

(٨) تَلَمَّ: تَكَثَّر.

هُمُ الْقَوْمُ لَا يَأْلَمُونَ الْهَجَاءَ وَهَلْ يَأْلَمُ الْحَجَرُ الْيَاسِرُ؟
فَمَا لَهُمْ فِي الْفَلَا رَاكِبٌ وَلَا لَهُمْ فِي الْوَعَى فَارِسُ
إِذَا طَمَحَ النَّاسُ لِلْمَكْرَمَاتِ فَطَرَفُهُمُ الْمُطَرِقُ النَّاعِسُ
تَعَاثُ الْكَارِمُ إِصْهَارُهُمْ فَكُلُّ نِسَائِهِمْ عَسَانِسُ

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائم يمسح عينيه ويقول: أذو الرُّمَيْمَةِ يمنعني النوم بشعرٍ غيرِ مثقَّف ولا سائر. فقلت: يا غيلان، مَنْ هذا؟ فقال: الفرزدق، يعني الفرزدق، وحمي ذو الرمة:

وَأَمَّا مُجَاشِعُ الْأَزْدَلُونَ فَلَمْ يَسْقِ مَيْتَهُمْ رَاجِسُ
سَيَقْلُهُمْ عَنْ مَسَاعِي الْكَرَامِ عِقَالٌ، وَيَحْبِسُهُمْ حَابِسُ^(١)

فقلت: الآن [يُشْرِقُ فَيُثَوِّرُ، و] يعمُ الفرزدقُ هذا وقبيله بالهجاء. فوالله ما زاد على أن قال: قبحاً لك يا ذا الرُّمَيْمَةِ! أتعريضٌ لمثلي بِمَقَالٍ مُتَّحِلٍ! ثم عاد في نومه كأن لم يَسْمَعْ شيئاً، وسار ذو الرمة وسرَّت، وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا.

قوله فيما ولد على الفرزدق «بمقال مُتَّحِلٍ»، يريد أن البيت الأخير منقول من قول جرير:^(٢)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَخْزَى مَجَاشِعاً إِذَا مَا أَفَاضَتْ فِي الْحَدِيثِ الْمَجَالِسُ
وَمَا زَالِ مَعْقُولاً عِقَالٌ عَنِ النَّدَى وَمَا زَالَ مَحْبُوساً عَنِ الْمَجْدِ حَابِسُ

عقال: ابن محمد بن [سعيد بن] مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وهو جد الفرزدق. وحابس: ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو أبو الأقرع بن حابس أحد المؤلفة قلوبهم.

(١) عَقَلُ فُلَانًا عَنْ حَاجَتِهِ: حَسِبَهُ عَنْهَا، وَعَقَلَ الْبَعِيرُ: ضَمَّ رُشْعَ يَدِهِ إِلَى عَضْدِهِ، وَرَبِطَهُمَا مَعاً بِالْعِقَالِ لِيَقَى بَارِكاً. وَالْعِقَالُ: الْحَبْلُ الَّذِي يُعْقَلُ بِهِ الْبَعِيرُ.

(٢) لم يرد البيت الأول في رواية الديوان، وجاء البيت الثاني مع أبيات قالها جرير في هجاء الفرزدق، وقبله قوله:

بَيْنَ مَالِكٍ فَاتِ الْفَرَزْدَقُ مَجْدُنَا وَمَاتَ ابْنُ لَيْلَى وَهوَ مِنْ ذَاكَ يَائِسُ
(جرير، الديوان: ص ٢٥٤).

فقر في الشعر

قيل لابن الزبَيْر: ^(١) لم تقصّر أشعارك؟ فقال: لأنها أعلّق بالمسامع، وأجول في المحافل.

وقيل ذلك لعقيل بن علفة في أهاجيه، فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. غيره: لسان الشاعر أرض لا تُخرج الزهر حتى تستسلف المطر، وما ظنك بقوم الاقتصار محمود إلا فيهم. والكذب مذموم إلا منهم. إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مؤوبة، ويقرع جلسه بأدنى زلة.

أبو القاسم صاحب بن عباد: الشر يتطايّر كتطايّر الشرر، والنظم يبقى بقاء النقش في الحجر.

أبو عبيدة: الزخاف في الشعر كالرخصة في الدين، لا يقدم عليها إلا فقيه. وقال أبو فراس الحمداني: ^(٢)

تَنَاهَضَ النَّاسُ لِلْمَعَانِي لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نَهْوَضِي
تَكَلَّفُوا الْمَكْرَمَاتِ كَدًا تَكَلَّفَ الشُّعْرُ بِالْعَرُوضِ

وقد مدح الجاحظ العروض وذمها، فقال في مدحها: العروض ميزان، ومعارض بها يُعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليها مدار الشعر، وبها يسلم من الأود والكسر. وقال في ذمها: هو علم مؤلّد، وأدب مُستَبَد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستنكر ^(٣) العقل بمستفعلن وفعل، من غير فائدة ولا محصول.

ومن مفردات الأبيات في هذا المعنى قول دعلج: ^(٤)

(١) هو أبو سعد، عبد الله بن الزبَيْر بن قيس بن عدي بن سعد السهمي القرشي: أحد شعراء قريش المعدودين، ومن أشدهم على المسلمين هجاءً وتحريضاً. هرب إلى نجران عام الفتح «٨ هـ»، فقال فيه حسان بن ثابت أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة، فأسلم واعتذر، فقبل رسول الله ﷺ إسلامه وأمنه. توفي نحو ١٥ هـ/ نحو ٦٣٦ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٣٨/١٥؛ الآمدي، المؤلف والمختلف: ١٩٤).

(٢) أبو فراس، الديوان: ص ١٧٨.

(٣) في رواية «يستكد العقل بمستفعلن»، وهو خير مما أثبتناه.

(٤) البيت في العمدة في محاسن الشعر: ١١٤/١.

يَمُوتُ رَدِيُّ الشَّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَهْلِهِ وَجَيْدُهُ يَبْقَى وَإِنْ مَاتَ قَائِلُهُ
البحري: (١)

أَعْيَا عَلِيٌّ؛ فَلَا هَيَابَةَ فَرَقٍ يَخْشَى الْهَجَاءَ، وَلَا هَشًّا فَيَمْتَدِّحُ
آخر:

[و] مِمَّا يَقْتُلُ الشُّعْرَاءَ غَمًّا عَدَاوَةٌ مَنْ يُغَلَّ عَنْ الْهَجَاءِ
أحمد بن أبي فتن: (٢)

وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسَ بِاللُّؤْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى الْبَخْلِ اللَّئَامَ، وَيَبْخُلُ (٣)

وهذا كقول علي بن العباس الرومي في أبي الفياض سَوار بن أبي شراعة، وكان سَوار شاعراً مجيداً: (٤)

يَا مَنْ صِنَاعَتُهُ الدُّعَاءُ إِلَى الْعُلَا عَجَباً لِحَضَاضِ الْكِرَامِ عَلَى الَّذِي
هُوَ فِيهِ مُحْتَاجٌ إِلَى حَضَاضِ (٥)
وَرَأَى الْجَمِيلَ فِيهِ عَنْهُ تَعَاضٍ وَصَفَ الْمَكَارِمَ وَهُوَ فِيهَا زَاهِدٌ
لَمْ أَلْقَ كَالشُّعْرَاءِ أَكْثَرَ حَارِضاً
كَمْ فِيهِمْ مِنْ أَمْرِ بِرَشِيدَةٍ
يَا حَنْزَرَتِي لِمَوَدَّةٍ أَدِيبَةٍ
لَيْسَ الْعِتَابُ بِنَافِعٍ فِي قَاطِعِ
لَمْ يَأْتِهَا، وَشَرَّعِي رَفَاضٍ
لَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهَا افْتِرَاقَ تَرَاضٍ
أَعْيَا الْمَشِيبُ تَتَابَعَ الْمِقْرَاضِ (٦)

ثم قال بعد هذا التبكيت والعتاب ما منعه أن يتوهم أنه هجاه:

- (١) البحري، الديوان: ٢٠٤/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن مخلد.
- (٢) هو أبو عبد الله، أحمد بن أبي فتن (صالح بن سعيد): شاعر مقلد مطبوع، محدث، من شعراء الدولة العباسية. كان مولى لبني هاشم، لا يمدح أحداً، ولا يستمخح أحداً، إلا أنه أكثر المدح في الفتح بن خاقان. (البغدادى، تاريخ بغداد: ٢٠٢/٤، ابن المعمر، طبقات الشعراء: ٣٩٦).
- (٣) في العملة ١٩٦/١ «يلوم على البخل الرجال ويبخل».
- (٤) ابن الرومي، الديوان: ٤٢/٤.
- (٥) حَضَاض: (على وزن فَعَّال، للمبالغة): شديد الحَض، كثير الحَث.
- (٦) الْحَرَّاض: جمع حَارِض، وهو الكثير الهموم.

وَلَمَّا هَجَوْتُكَ، بَلْ وَعَظْتُكَ إِنِّي
فَاكْفُفْ سِهَامَكَ عَنْ أَخِيكَ فَإِنَّمَا
فَمَتَى حَلُمْتُ وَجَدْتُ أَحْنَفَ دَهْرِهِ
فَاعْذِرْ أَخَاكَ عَلَى الْوَعِيدِ؛ فَإِنَّمَا
[وَأَعْلَمُ وَقَيْتَ الْجَهْلَ أَنَّ خُصَاسَةً
بَطَرُ الْغَنَى وَمِثْلَةُ الْإِبْعَاضِ] ^(٥)

ثم هجاء بقوله: ^(٦)

وَمَا تَكَلَّمْتَ إِلَّا قُلْتَ فَاحِشَةً
مَهْمَا تَقُلْ فِيهِمْ مِنْكَ مُرْسَلَةٌ
كَأَنَّ فَكَيْكَ لِلْأَعْرَاضِ مِقْرَاضُ
وَفُوكَ قَوْسُكَ وَالْأَعْرَاضُ أَغْرَاضُ ^(٧)

وابن الرومي هذا كما قال مسلم بن الوليد الأنصاري في الحكم بن قنبر المازني:
عَابَنِي مِنْ مَعَايِبِ هُنَّ فِيهِ حَكَمٌ فَاشْتَفَى بِهَا مَنْ هَجَانِي
وكما قال الآخر:

وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادٌ لِعُمُرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ

[الأحنف بن قيس]

وروى عيسى بن دأب قال: أول ما عُرفَ الأحنف بن قيس وَقَدَّمَ أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ أَحَدَثَ الْقَوْمِ سِنًا، وَأَقْبَحَهُمْ مَنْظَرًا، فَتَكَلَّمَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَ الْوَفْدِ
بِحَاجَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ، وَالْأَحْنَفُ سَاكِتٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: قُلْ يَا فَتَى! فَقَامَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ

- (١) الأعراض: جمع غرض: ما يجعله الرامي هدفًا يقصد برميهِ إليه.
- (٢) المعراض: سهم يرمى به، بلا ريش ولا نصل، يمضي عرضاً، فلا يصيب بحده.
- (٣) الأحنف: هو الأحنف بن قيس التميمي، من حلما العرب. كان سيد قومه، وكان إذا غضب، غضب لغضبه مئة ألف سيف، لا يدرون لم غضب. والبراض: هو البراض بن قيس بن رافع الكتاني: فاتك جاهلي ضرب المثل بفتكه، وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس.
- (٤) الإنباض: أن تَمُدَّ الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتاً.
- (٥) في الديوان: «ومثلة الأنفاض». والأنفاض: الفقر.
- (٦) ابن الرومي، الديوان: ٤٤/٤.
- (٧) في الديوان: «مهما نَطَقْتَ فَكَيْلٌ مِنْكَ مُرْسَلَةٌ».

المؤمنين، إن العرب نزلت بمساكن طيبة، ذات ثمار وأنهار عذاب، وأكنة ظليلة^(١)، ومواضع فسيحة، وإنا نزلنا بسبخة نشاشة^(٢)، ماؤها ملح، وأفنتها ضيقة، وإنما يأتيها الماء في مثل حلق النعامة فإلا تدركنا يا أمير المؤمنين بحفر نهر يغرر ماؤه، حتى تأتي الأمة فتعرف بجرتها وإنائها أوشك أن نهلك، قال: ثم ماذا؟ قال: تريد في صاعنا ومُدنا، وثبت من تلاحق في العطاء من ذريتنا. قال: ثم ماذا؟ قال: تخفف عن ضعيفنا، وتنصف قويتنا، وتتعاهد ثغورنا، وتجهز بعثنا، قال: ثم ماذا؟ قال: إلى ها هنا انتهت المطالب، ووقف الكلام. قال: أنت رئيس وفدك، وخطيب مضرك، قم عن موضعك الذي أنت فيه. فأدناه حتى أقعده إلى جانبه، ثم سأله عن نسبه، فانتسب له، فقال: أنت سيد تميم، فبقيت له السيادة إلى أن مات.

نسب الأحنف

وهو الأحنف، واسمه الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن بن عبادة بن الزبال بن مرة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن [سعد بن] زيد مائة بن تميم.

وقال بعض بني تميم: حضرت مجلس الأحنف وعنده قوم مجتمعون له في أمر لهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الكرم منع الحر، ما أقرب النعمة من أهل البغي، لا خير في لذة تعقب ندماً، لم يهلك من اقتصد، ولم يفتقر من زهد، رب هزل قد عاد جداً، من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه، دعوا المزاح فإنه يؤرث^(٣) الضغائن، وخير القول ما صدقه الفعل، احتملوا لمن أدل عليكم، وأقبلوا عذر من اعتذر إليكم، أطع أخاك وإن عصاك. وصله وإن جفاك، أنصف من نفسك قبل أن يُنصف منك، إياكم ومشاورة النساء، واعلم أن كفر النعم لؤم، وصحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذمم، ما أفيح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الود، لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به متواك، فأنتق من حق، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا كان الغدر موجوداً في الناس فالثقة بكل أحد عجز؛ اعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل. قال: فما سمعتُ كلاماً أبلغ منه. فقامت وقد حفظته.

(١) الأكنة: جمع كن، وهو البستر الواقى من الحر والبرد. والظليلة: ذات الظل.

(٢) السبخة: أرض ذات ملح ونز، لا تكاد تثبت. وسبخة نشاشة: لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها.

(٣) يؤرث الضغائن: يوقدها ويشعلها، ويؤجج نارها.

كلام للأحنف في مجلس معاوية

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيد بين يديه، وهو ينظرُ إليه إعجاباً، فقال: يا أبا بَحر، ما تقولُ في الولدِ؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين، هم عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرّة أعيننا، بهم نصولُ على أعدائنا، وهم الخلف مِنَّا بَعْدَنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءَ ظليلة، إن سألوك فأعْطِهِم، وإن استعتبوك فَأَعْتِبِهِمْ^(١) ولا تَمْنَعُهُم رِفْدَكَ فيمَلُّوا قُرْبَكَ، ويستقلُّوا حياتَكَ، ويتمنوا وفاتَكَ. فقال: لله دُرُكُ يا أبا بَحر، همُ كما قلت!

وزعمت الرواة أنها لم تسمع للأحنف إلا هذين البيتين:

فَلَوْ مَدَّ سَرُوي بِمالٍ كثيرٍ لَجُدْتُ وَكنتُ لَهُ بِأَذِلَّ^(٢)
فَإِنَّ المَرْوَةَ لَا تُسْتَطَاعُ إذا لم يَكُنْ مَالُهَا فَاضِلًا

صفة الأحنف

وكان يُبَحِّلُ. وقال لبني تميم: أترعمون أني بخيل! والله إني لأشير بالرأي قيمته عشرة آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرأيك بُحِّلُ. وكان الأحنف من الفضلاء الخطباء النساك، وبه يُضْرَبُ المثل في الحِلْمِ.

ذكر للنبي فاستغفر له

وقد ذَكَرَ للنبي ﷺ فاستغفر له؛ فقد بعث النبي ﷺ رجلاً إلى قومه بني سَعْدِ يَعْرِضُ عليهم الإسلام، فقال الأحنف: إنه يدعوكم إلى خَيْرٍ، ولا أسمعُ إلا حسناً. فَذَكَرَ للنبي ﷺ، فقال: اللهم اغْفِرْ للأحنف. وكان الأحنف يقول: ما شيء أَرْجَى عندي مِنْ ذلك.

من أوصاف الأحنف

قال عبدُ الملك بن عُمَيْرٍ: قدم إلينا الأحنف، فما رأينا خصلةً تُذَمُّ في رجلٍ إلَّا رأيناها فيه، كان أصلح الرأْسِ، متراكب الأسنان، أشدَّق، مائل الذَّقْنِ، ناتئ الوجنتين، باخق العينين^(٣)، خفيف العارضين، أحنف الرِّجْلين، وكانت العين تفتحهُ دَمَامَةً وَقَلَّةَ رِوَاءٍ، ولكنه إذا تكلم جَلَى عن نفسه. وهو الذي خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء، وتنازعت

(١) استعتبوك: طلبوا رضاك. وأعتبهم: أعطهم الرضا.

(٢) سرا فلان سَرَواً وسَرَاوَةً: شرف، أو سَخَا في مروة.

(٣) البخق في العين: أَلَّا يلتقي جفتاها.

القبائل؛ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه؛ يا معشر الأزد [وربيعة]، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأكفأؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويكُنّا على العدو، والله لأزُد البصرة أحبّ إلينا من تميم الكوفة، [ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام]، وفي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم.

جارية لآل المهلب تنظر إلى الأحنف

وقد قام خطباء البصرة في هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا، فلما قام الأحنف أصغّت القبائل إليه، واثالت عليه، وقال الناس: هذا أبو بحر، هذا خطيب بني تميم، وحضر ذلك الجمع جارية لآل المهلب، فذهبت تروم النظر إليه، فاعتاص ذلك عليها، فأشرفت عليه من دارها، فلما رأته والأبصار خاشعة لكلامه، ورأت دمامة خلقه، وكثرة آفات جوارحه، قالت: فُقدت هذه الخلقة ولو افترت عن فصل الخطاب.

الأحنف يفد على معاوية

وذكر المدائني أن الأحنف بن قيس وفد على معاوية رضي الله عنه مع أهل العراق، فخرج الآذن، فقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم ألا يتكلّم أحدٌ إلّا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافّة دقت، ونازلة نزلت، ونابتة نبتت، كلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبه. قال: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

كلامه لمعاوية وقد أراد البيعة ليزيد

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجّه إليه يوفد أهل العراق، فبعث إليه يوفد البصرة والكوفة، فتكلّمت الخطباء في يزيد، والأحنف ساكت، فلما فرغوا قال: قل يا أبا بحر، فإنّ العيون إليك أشرع منك إلى غيرك، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ إنك أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره، فإن كنت تعلمه الله رضا فلا تُشاور فيه أحداً، ولا تُقيم له الخطباء والشعراء، وإن كنت تعلم بُعده من الله فلا تزوده من الدنيا وقرّحل أنت إلى الآخرة؛ فإنك تصير إلى يوم يفرّ فيه المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبه وبنيه. قال: فكأنه أفرغ على معاوية ذنوباً^(١)

ماء بارد. فقال له: اقْعُدْ يا أبا بَحْر؛ فإن خيرة الله تَجْري، وقضاء الله يمضي، وأحكام الله تنفذ، ولا مُعَقَّب لحكمه، ولا رَادَّ لقضائه؛ وإن يزيد فتى قد بَلَّوْناه^(١)، ولم نجد في قريش فتى هو أجدر بأن يُجْتَمَعَ عليه منه. فقال: يا أمير المؤمنين، أنت تحكي عن شاهد، ونحن نتكلّم على غائب، وإذا أراد الله شيئاً كان.

ابن الرومي يذكر حق الشاعر على الكرام

قال ابن الرومي^(٢):

إِنَّ امْرَأً رَفَضَ الْمَكَاسِبَ وَاعْتَدَى يَتَعَلَّمُ الْآدَابَ حَتَّى أَحْكَمَا
فَكَسَا وَحَلَّى كُلَّ أَرْوَغٍ مَاجِدٍ مِنْ حُرٍّ مَا حَاكَ الْقَرِيضَ وَنَظَّمَا
ثِقَةً بِرَعْيِ الْأَكْرَمِينَ حَقُوقَهُ لِأَحَقِّ مُلْتَمِسٍ بِالْأَلَا يُحْرَمَا

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عَمَّار: ومن نادر شعر أبي الحسن في هذا المعنى قوله، ووصف إتياب الشعراء أنفسهم بدؤويهم في صناعتهم، وما يتصرّم من أعمارهم، وأن إلحاحهم في طلب ما في أيدي من أسلفوه مديحهم لو كان رغبة منهم إلى ربهم كان أجدى عليهم، وأقرب من درك بُغيتهم، ونجح طليبتهم، ثم انحرف إلى توبيخ من مدّحه فحرمه بأحسن عبارة، وأرضى استعارة، فقال: ^(٣)

لِلنَّاسِ فِيمَا يَكْلَفُونَ مَغَارِمَ عِنْدَ الْكِرَامِ لَهَا قَضَاءُ ذِمَامِ
وَمَغَارِمُ الشُّعْرَاءِ فِي أَشْعَارِهِمْ إِنْفَاقُ أَعْمَارٍ وَهَجْرُ مَنَامِ
وَجَفَاءٌ لِسَانٍ وَرَفْضُ مَكَاسِبِ لَوْ خُولِفَتْ حُرْسَتُ مِنَ الْإِعْدَامِ
وَتَشَاغُلٌ عَنْ ذِكْرِ رَبٍّ لَمْ يَزَلْ حَسَنَ الصَّنَائِعِ سَابِغِ الْإِنْعَامِ^(٤)
مَنْ لَوْ بِخِدْمَتِهِ تَشَاغَلَ مَعْشَرٌ خَدَمُوكُمْ أَجْدَى عَلَى الْخَدَامِ^(٥)
أَقَمَّا لِذَلِكَ حُرْمَةً مَرْعِيَّةً إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا لَغَيَّرُ كِرَامِ^(٦)

(١) بلّوناه: اختبرناه.

(٢) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ١٤٤/٦. وقد قال هذه الأبيات في علي بن محمد بن العباس.

(٤) سابغ الإنعام: من إضافة الصفة للموصوف، والإنعام السابغ: الكثير الوافي.

(٥) في رواية: «خدموا فكم أجدى».

(٦) في رواية: «أوما».

لَمْ أَحْتَسِبْ فِيكَ الثَّوَابَ بِمِذْحِي إِيَّاكَ يَا بَنَ أَكَارِمِ الْأَقْوَامِ
 لَوْ كَانَ شِعْرِي حِسْبَةً لَمْ أَكُنْهُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهِ مِنَ الْإِيَامِ^(١)
 لَا تَقْبَلَنَّ الْمَذْحَ ثُمَّ تَعَافَهُ فَتَنَامَ وَالشَّعْرَاءُ غَيْرُ نِيَامِ^(٢)
 وَاحْذَرْ مَعَرَّتَهُمْ إِذَا دَنَسْتَهُمْ فَلَهُمْ أَشَدُّ مَعَرَةَ الْعُرَامِ^(٣)
 وَاعْلَمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُنْصَفُوا حَكَمُوا لَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْحُكَامِ
 وَجَنَابَةُ الْعَادِي عَلَيْهِمْ تَقْضِي وَعِقَابُهُمْ يَبْقَى مَعَ الْإِيَامِ^(٤)
 أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيُّ: (٥)

وَمَكَائِدُ السَّفَهَاءِ وَاقِعَةٌ بِهِمْ وَعَدَاوَةُ الشَّعْرَاءِ بِئْسَ الْمُقْتَسَى

وفاة الأحنف ورتاء امرأة له

مات الأحنف بن قيس بالكوفة، فمضى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء، وقال:
 اليوم مات سرُّ العرب؛ فلما دُفِنَ قامت امرأة على قبره فقالت: لله دَرُكٌ من مُجَنِّ في
 جَنِّ^(٦)، ومُدْرَج في كَفَن، نسألُ الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بِقَفْدِكَ، أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ
 سبيلَكَ، ودليلَ الرُّشدِ دليلاً، وأن يوسِّعَ لك في قبرك، ويغفرَ لك يومَ حَشْرِكَ؛ فوالله لقد
 كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامِلِ عطوفاً، ولقد كنت في الحيِّ مُسَوِّداً، وإلى الخليفة
 مُوفِداً، ولقد كانوا لقولك مُسْتَمِيعِينَ، ولرأيتُ مُتَبِعِينَ؛ ثم أقبلت على الناس فقالت: أَلَا إِنَّ
 أولياءَ الله في بلادِهِ، شهود على عبادِهِ، وإنِّي لقائلةٌ حقاً، ومُثَبِّةٌ صدقاً، وهو أهلٌ لِحُسْنِ
 الثَّناء، وطيب الثَّنَا^(٧)، أما والذي كنت من أجله في عُدَّة، ومن الحياة إلى مَدَّة، ومن المقدار
 إلى غاية، ومن الإياب إلى نهاية، الذي رفع عملك، لما قَضَى أَجَلَكَ، لقد عِشتَ حميداً
 مودوداً، ومُتَّ سعيداً مفقوداً، ثم انصرفت وهي تقول:

- (١) في الديوان: «لو كان مدحي».
- (٢) في الديوان: «ثم تَعَفَّهُ». وتعفه: تنكره.
- (٣) المعرة: من عَرَّ فلان فلاناً، إذا ذكر عورته أو موضع الخلل فيه.
- (٤) في الديوان: «وظلامة العادي».
- (٥) المتنبي، الديوان: ٢٩٨/١. والبيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار أمير طبرية، وقد علم أن بعض السفهاء وشى به إليه.
- (٦) مجن: مستور. والجَنِّ: القبر، وجمعه أجنان.
- (٧) في رواية «وطيب الدعاء». وقد ثنا الحديث ثنوا: بَنَّهُ، وثنا فلاناً: اغتابه، وثناؤه الحديث والخبر: ذاكه إياه.

لَلَّهِ دَرْكٌ يَا أَبَا بَحْرٍ ماذا تَغَيَّبَ مِنْكَ فِي الْقَبْرِ؟
 لَلَّهِ دَرْكٌ أَيُّ حَشَوِ ثَرَى أصبحتَ مِنْ عُرْفٍ وَمِنْ نُكْرِ
 إِنْ كَانَ دَهْرٌ فِيكَ جَرَّ لَنَا حَدَّثْنَا بِهِ وَهَنْتَ قُوَى الصَّبْرِ^(١)
 فَلَكُمْ يَسِدٌ أَسَدَيْتَهَا وَيَدٌ كَانَتْ تَرُدُّ جَرَائِرَ الدَّهْرِ^(٢)

ثم انصرفت فُسِّلَ عنها، فإذا هي امرأته وابنة عمه. فقال الناس: ما سمعنا كلامَ امرأةٍ قطَّ أبلغ ولا أصدق منه.

قال: وكان الأحفُ قدم الكوفة في أيام مصعب بن الزبير، فرآه رجلٌ أعورَ دميماً قصيراً أَحَفَّ الرجلين، فقال له: يا أبا بحر؛ بأي شيء بلغت في الناس ما أرى؛ فوالله ما أنتَ بأشرف قومك، ولا أجودهم؟! فقال: يا ابن أخي، بخلاف ما أنت فيه! قال: وما هو؟ قال: تَرَكِي من أمرك ما لا يعني، كما عَنَّاكَ من أمري ما لا تركه.

[منصور النمري]

المعتصم ومحمد بن وهيب الشاعر

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ
 منصور النمري^(٣) فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ:^(٤)

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجَمَّعُ
 إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا فَاللَّهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُنْضِعُ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
 إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أُنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَسَّعُ

(١) وهنت: ضعفت.

(٢) أسديتها: أعطيها ومنحتها. والجرائر: جمع جريمة، وهي الجريمة، والخطيئة، والذنب.

(٣) هو أبو القاسم، منصور بن البرقان بن سلمة بن شريك النمري: شاعر من أهل الجزيرة الفراتية. قدم بغداد في أيام الدولة العباسية، واتصل بالرشيد ومدحه، ويقال إنه لم يمدح من الخلفاء غيره. وكان تلميذاً لكلثوم بن عمرو العتابي، ومن بحره استقى. توفي نحو ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٣/١٤٠؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٤١).

(٤) الأبيات في العمدة في محاسن الشعر: ١٣٩/٢.

فليدخل، فقال محمد بن وهيب: ^(١) فينا من يقول خيراً منه، وأنشد:

ثَلَاثَةٌ تَشْرِقُ الدُّنْيَا بِهَاجَتِهِمْ شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ ^(٢)
يَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ الْغَيْثُ وَاللَيْثُ وَالصَّمْصَامَةُ الذِّكْرُ ^(٣)
فَأَمْرٌ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنُ صَلَتهِ.

أخذ معنى البيت الأول من بيتي محمد بن وهيب أبو القاسم محمد بن هانيء الأندلسي:

الْمُدْنَقَانِ مِنَ الْبَرِيَّةِ كُلُّهَا قَلْبِي وَطَرْفُ بَابِلِي أَحْوَرُ ^(٤)
وَالْمُشْرِقَاتُ النِّيرَاتُ ثَلَاثَةٌ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمَنِيرُ وَجَعْفَرُ
وبيت أبي القاسم [الأول] مأخوذ من قول ابن الرومي:

يَا عَلِيًّا جَعَلَ الْعَدُوَّ مِفْتَاحاً لِسُقْمِي
لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَلِيلٌ غَيْرَ جَفْنِيكَ وَجِسْمِي

منصور النمرى والعتابي

ومر النمرى بالعتابي مغموماً فقال: مالك، أعزك الله؟ فقال: امرأتي بطلت ^(٥) منذ ثلاث ونحن على يأس منها. فقال له العتابي: وإن دواءها منك أقرب من وجهها، قل: هارون الرشيد، فإن الولد يخرج! فقال: شكوت إليك ما بي، فأجبتني بهذا؟ فقال: ما أخذت هذا إلا من قولك:

(١) هو أبو جعفر، محمد بن وهيب الحميري: شاعر بغدادى متشيع، من شعراء الدولة العباسية. أصله من البصرة. مدح المأمون والمعتصم، واختص بالحسن بن سهل، وأدب الفتح بن خاقان، وكان يتكسب بشعره. توفي نحو ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م. (الزركلي، الأعلام: ١٣٤/٧؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢٣٧/٢).

(٢) في رواية: «تشرق الدنيا بطلعتهن».

(٣) في العمدة في محاسن الشعر: «في كل نائلة». والصمصامة: السيف.

(٤) المدنقان: مثنى مدنف، وهو اسم مفعول من أدنفه المرض، أي أضعفه. والطرف: العين. بابلي: منسوب إلى بابل، وهي بلد السحر، وهم يصفون عيون النساء بالفتور، ويصفونها بأنها تفعل بالألباب ما لا يفعل السحر.

(٥) امرأتي بطلت: أي هي في المخاض، وهو وجع الولادة.

إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَسِيعُ

وأبيات منصور بن سلمة بن الزبرقان النمرى التى ذكرها المعتمد من قصيدة له وهى أحسن ما قيل فى الشيب أولها:

ما تَنْقُضِي حَسْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ
بِأَنَّ الشَّبَابَ وَفَاتَتْني بِغُرَّتِهِ خُطُوبُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خَدَعُ^(١)
مَا كُنْتُ أَوْ فِي شَبَابِي كُنْتُ غُرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبْعُ
تَعَجَّبْتُ أَنْ رَأَيْتُ أَسْرَابَ دَمْعَتِهِ فِي حَلْبَةِ الْخُدِّ أَجْرَاهَا حَتَّى وَجِعُ
أَصْبَحْتُ لَمْ تُطْعَمِي ثُكُلَ الشَّبَابِ وَلَمْ تَشْجِنِي بِغُصَّتِهِ فَالْعُذْرُ لَا يَقْعُ
لَا الْحَيْنَ فَتَانِي غَيْرَ كَاذِبَةٍ عَيْنُ الْكَذُوبِ فَمَا فِي وَدَّكُمْ طَمَعُ^(٢)
مَا وَاجِهَ الشَّيْبَ مَنْ عَيْبٍ وَإِنْ وَمَقْتُ إِلَّا لَهَا نَبْوَةٌ عَنْهُ وَمُرتَدَعُ^(٣)
إِنِّي لَمُعْتَرِفٌ مَا فِيَّ مِنْ أَرْبٍ عِنْدَ الْحَسَنِ فَمَا لِلنَّفْسِ تَنَخُّدُ
قَدْ كِدْتُ تَقْضِي عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَسَى لَوْلَا تَعَزِيكَ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْقَطِعُ

وذكر أن الرشيد لما سمع هذا بكى، وقال: ما خير دنيا لا تخطر فيها ببرد الشباب! وأنشد ممثلاً:

أَتَأْمُلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهاً وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى ذَهَابٍ
فَلَيْتَ الْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ جُمِعْنَ لَنَا فَتُحْنَنَّ عَلَى الشَّبَابِ

تقديم الرشيد للنمرى وأسبابه

وكان الرشيد يقدم منصوراً النمرى بِجَوْدَةِ شعره، وَلَمَّا يُمْتُ إِلَيْهِ مِنَ النِّسْبِ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ ثَقِيلَةً أُمُّ الْعَبَّاسِ مِنَ النَّمْرِ بْنِ قَاسِطٍ؛ وَلَمَّا كَانَ يُظْهِرُ سِنَ الْمِيلِ إِلَى إِمَامَةِ الْعَبَّاسِ وَأَهْلِهِ، وَالْمَنَافَرَةِ لآلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيَقُولُ:

(١) غُرَّةُ الشَّبَابِ: غفلته، وسهو، وأوله. الْخُدْعُ: جمع خُدْعَةٍ، وهى مَا يُخْدَعُ بِهِ الْإِنْسَانُ، يَقَالُ: خَدَعَ فُلَانٌ فُلَانًا خَدْعًا وَخُدْعَةً وَخُدَيْعَةً: أَظْهَرَ لَهُ فُلَانٌ مَا يَخْفِيهِ، وَأَرَادَ بِهِ الْمَكْرُوهَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ.

(٢) لَهَا فُلَانًا: لَامَهُ وَعَذَلَهُ.

(٣) وَمَقْتُ: وَدَّتْ، وَأَحْبَبْتُ، وَعَشَقْتُ. الْمُرْتَدَعُ: الْارْتِدَاعُ وَالْانْتِزَاعُ.

بني حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِ مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَعِدُنَ عِدَادَةً زُورٍ^(١)
تُسَمُّونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطَرٌ فِي سَطُورِ

يريدُ قولَ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾^(٢). وهذا إنما نزل في شأن زيد بن حارثة، وكان رسولُ الله ﷺ تَبَاه، فقال له الرشيد: ما عدوتَ ما في نفسي، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحب.

النمري رافضي

وكان بضمير غير ما يظهر، ويعتقد الرِّفْض، وله في ذلك شعر كثير لم يظهر إلا بعد موته، وبلغ الرشيد قوله:

أَلِ النَّبِيِّ وَمِنْ يُحِبُّهُمْ يَتَطَامُنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(٣)
أَمِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٤)
إِلَّا مَصَالَتْ يَنْصُرُونَهُمْ يَظُبُّ الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا الذُّبْلِ^(٥)

فأمر الرشيد بقتله [وكان حيثُذ برأس العين]، فمضى الرسول فوجده قد مات فقال الرشيد: لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها. وكان يُلَغِز في مدحه لهرون، وإنما يريد قول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: أنت مني بمنزلة هرون من موسى. وقال الجاحظ: وكان يذهب أولاً مذهب الشُّرَاة^(٦)، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضي وسمع كلامه، فانتقل إلى الرِّفْض، وأخبرني مَنْ رآه على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما بنشد قصيدته التي يقول فيها:

- (١) أماط الشيء عنه: أبعد.
- (٢) سورة الأحزاب، آية (٤٠).
- (٣) تطامن فلان: سكن، أو انخفض، واطمأن عما كان يفعله: تركه، وطمأنه وطمأنه: سَكَّنَهُ وحناء.
- (٤) الْأَزْلُ: الشدة والضيق.
- (٥) المصالت: جمع مصلت، وهو المقدام الشجاع. الظُّبَا: جمع طُبَّة، وهي حذَّ السيف. والصوارم: السيوف، واحداها صارم.
- (٦) الشُّرَاة: الخوارج، سموا أنفسهم بذلك لأنهم زعموا أنهم شروا أنفسهم بأن لهم الجنة. والروافض: فرقة من الشيعة.

فَمَا وَجِدْتُ عَلَى الْأَكْنَافِ مِنْهُمْ
وَلَكِنَ الْوَجُوهَ بِهَا كُلُّوْمٌ
أُرِيقَ دَمُ الْحُسَيْنِ وَلَمْ يُرَاعُوا
فَدَثَ نَفْسِي جَيْتَكَ مِنْ جَيْتِي
أَيَخْلُو قَلْبُ ذِي وَرَعٍ وَدِينٍ
وَقَدْ شَرَقَتْ رِمَاحُ بَنِي زِيَادٍ
بُتْرَبَةٍ كَرَبَلَاءَ لَهُمْ دِيَارُ
فَأَوْصَالُ الْحُسَيْنِ يَبْطِنُ قَاعِ
تَحِيَّاتٍ وَمَغْفِرَةٍ وَرَوْحِ
بَرِّتَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّنْ
وَلَا الْأَقْفَاءُ آثَارُ النَّصُولِ^(١)
وَفَوْقَ حُجُورِهِمْ مَجْرَى السَّيُولِ
وَفِي الْأَحْيَاءِ أَمْوَاتُ الْعُقُولِ
جَرَى دَمُهُ عَلَى خَدِّ أَسِيلِ
مِنْ الْأَحْزَانِ وَالْأَلَمِ الطُّوِيلِ
بِرِّي مِنْ دِمَاءِ بَنِي الرَّسُولِ^(٢)
نِيَامُ الْأَهْلِ دَارِسَةُ الطُّلُولِ
مَلَاعِبُ اللَّذْبُورِ وَلِلْقَبُولِ^(٣)
عَلَى تِلْكَ الْمَحَلَةِ وَالْحُلُولِ^(٤)
أَصَابَكَ بِالْأَذْيَةِ وَالذُّحُولِ^(٥)

[ابن المعذل]

أحمد بن المعذل

وقال أحمد بن المعذل:

أَخُو دَنَفٍ رَمَتْهُ فَأَقْصَدْتُهُ
سِهَامٌ مِنْ جُفُونِكَ لَا تَطِيشُ^(٦)
كَيْتَبٌ إِنْ تَرَحَّلَ عَنْهُ جَيْشٌ
مِنْ الْبَلَوَى أَلَمَ بِهِ جُيُوشُ

وكان أحمد بن المعذل بن غيلان العبدي في اللغة والبيان والأدب والحلاوة غايةً.

قال: دخلت المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصني ويعني بي، فلما فاتحني قال: ما تحتاج أنت إلى شفيح، معك من الحذاء والسقاء ما تأكل به لب الشجر، وتشرب صفو الماء.

- (١) يريد أنهم لا يفرّون فيقع الطعن في ظهورهم.
- (٢) شرقت الرماح بدمائهم: كناية عن كثرة ما أسالته منها.
- (٣) الذُّبُورُ: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصَّبا.
- (٤) المحلة: الموضع الذي يحلون به، والحلول: جمع حال، وقد حلَّ بالمكان: نزل فيه، واتخذ سكناً.
- (٥) الذُّحُول: جمع ذحل، وهو الوتر.
- (٦) الدَّنَفُ: المرض المثقل. وأقصد السهم: أصاب. لا تطيش: لا تخطيء.

بين أحمد وأخيه

وكان أخوه عبد الصمد^(١) يؤذيه وَيَهْجُوهُ، فكتب إليه أحمد: أما بعدُ فإن أعظم المكروه ما جاء من حيث يُرْجَى المحبوب، وقد كُنْتُ مؤملاً مَرْجُواً، حتى شمل شرك، وعم أذاك، فصرت فيك كأبي العاق: إن عاش نَعَصَه، وإن مات نَقَصَه، واعلم لقد خَشِنْتُ صَدْرَ أَخٍ جَيَّهَ لك ناصحٌ، والسلام.

وكان يقول له: أنت كالأصبع الزائدة: إن تُرِكَتْ شانتُ، وإن قُطِعَتْ أَلَمْتَ!

ومثلُ هذا قولُ النعمان بن شمر الغساني:

وَصَالُ أَبِي بُرْدٍ عَنَاءٌ، وَتَرْكُهُ بلاءٌ، فما أذري به كَيْفَ أَصْنَعُ
إِذَا زُرْتُهُ يَوْمِينَ مَلَّ زِيَارَتِي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ ظَلَّتِ الْعَيْنُ تَذْمَعُ

وقول الضحاك بن همام الرقاشي:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِمَّا خُلِفْتَ لِغَيْرِنَا حَيَاتُكَ لَا تُرْجَى وَمَوْتُكَ فَاجِعُ
وَأَنْتَ - عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ - ابْنُ حُرَّةٍ وَإِنِّي لَمَّا يَرْضَى بِهِ الْخَضَمُ مَانِعُ
وَفِيكَ خِصَالٌ صَالِحَاتٌ يَشِيْهُهَا لَدَيْكَ جَفَاءٌ عِنْدَهُ الْوَدُ ضَائِعُ

وقال بعضُ المحدثين:

إِذَا سَاءَنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ جَاهِدْ وَفِي كُلِّ حَالٍ مَنْ أَحْبَبَ وَأَمْحَضُ^(٢)
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يُعَامِلُنِي بِهِ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ مَنْ أَعَادِي وَأُبْعَضُ

أخذ أحمد بن المعذل للصلة

وقال أبو العباس المبرّد: وكان أحمد بن المعذل من الأبهة، والتمسك بالمنهاج، والتجشّب للعبث، والتعرض للإشفاق لما في^(٣) أيدي الناس؛ وإظهار الزهد فيه، والتباعد عنه، على غاية، حتى حُمِلَ في فقهاء وأدباء من أهل البصرة؛ فأخذ الصلة غير مُتَمَتِّع ولا مُتَكَرِّر. ووصله إسحاق بن إبراهيم فقبل، واستدعى اجتباؤه إياه، وتحلّى له جهده، فقال عبد الصمد:

(١) توفي نحو ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م. ويقال: إن له أحد عشر أنحاً، كلهم مع أبيهم المعذل بن غيلان، لهم مكاتبات بالأشعار (الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ٢٥٤).

(٢) أمحض الرجل: محضه، يقال: أمحضه الود والنصيحة والحديث، صدّقه.

(٣) للإشفاق: هو مفعول لأجله، وأصل الكلام: والتعرض لما في أيدي الناس لأجل الإشفاق.

عَذِيرِي مِنْ أَخٍ قَدْ كَانَ يُثِيرِي
وَكَانَ يَنْذِمُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ
فَلَمَّا أَنْ أَتَتْهُ دُرَيْهَمَاتٌ
عَلَى مَنْ لَأَبَسَ السُّلْطَانَ عَتَبَةً
لَهُ بِالْجَهْلِ وَالْهَذْيَانِ خُطْبَةً
مِنَ السُّلْطَانِ بَاعَ بِهِنَّ رَبَّةً

وقال فيه :

لِي أَخٍ لَا تَرَى لَهُ
أَجْمَعُ النَّاسَ كُلَّهُمْ
دُونَ مَعْرُوفٍ كَفَّهِ
سَائِلًا غَيْرَ عَاتِبٍ
لِلثِّيمِ الْمَذَاهِبِ
لَمْ يَسُ بَعْضُ الْكَوَاكِبِ
لَيْتَ لِي مِنْكَ يَا أَخِي
جَارَةً مِنْ مُحَارِبٍ
نَارُهَا كَلَّ شَتْوَةَ
مِثْلُ نَارِ الْحَبَاحِبِ^(١)

القطامي يهجو امرأة من محارب

ذهب إلى قول القطامي، وقول القطامي من خبيث الهجاء، وكان نزل بامرأة من محارب بن خصة بن قيس بن عيلان بن مضر، فذم مثواه عندها، فقال :

وَإِنِّي وَإِنْ كَانَ الْمُسَافِرُ نَازِلًا
فَلَا بَدَّ أَنْ الضَّيْفَ يُخِيرُ مَا رَأَى
لَمْخِيرُكَ الْأَنْبَاءَ عَنْ أُمِّ مَنْزِلٍ
تَلَفَعْتُ فِي طَلِّ وَرِيحٍ تَلَفَّنِي
إِلَى حَيْرَتُونَ تُوقِدُ النَّارَ بَعْدَمَا
تَصَلِّي بِهَا بَرْدَ الْعِشَاءِ وَلَمْ تَكُنْ
[فَمَا رَاعَهَا إِلَّا بَغَامٌ مَطِيئِي
وَإِنْ كَانَ ذَا حَقٍّ عَلَى النَّاسِ وَاجِبٍ
مُخَبِّرُ أَهْلِ أَوْ مُخَبَّرُ صَاحِبٍ
تَضَيَّفَتْهَا بَيْنَ الْعُذِيِّ فَرَاكِ
إِلَى طَرْمَاءَ غَيْرِ ذَاتِ كَوَاكِبِ^(٢)
تَلَفَعْتَ الظُّلْمَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٣)
تَخَالُ وَمِضُّ النَّارِ يَيْدُو لِرَاكِ
تُرِيحُ بِمَحْسُودٍ مِنَ الصَّوْتِ لَاغِبٍ^(٤)

(١) نار الحباج: ما تطاير من شر النار في الهواء، من تصادم الحجارة أو نحو ذلك، قال النابغة الذبياني:

تَقْدُ التَّلُوقِي الْمَضَاعَفَ نَسْجَةً
وَتُوقِدُ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ
(ديوانه: ص ١١).

(٢) الطرماء: الظلمة الشديدة.

(٣) الحيزون: العجوز.

(٤) بغام المطية: صوتها. ولغب فلان لغباً ولغوياً: تعب وأعيأ، فهو لاغب. ويقال: تلغبت بهم القفار، وتلغبتهم الأسفار: أتعبتهم.

فَجُئْتُ فُنُوناً مِنْ دِلَاثٍ مُنَاخَةٍ وَمِنْ رَجُلٍ عَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبٍ^(١)
 سَرَى فِي حَلِيكِ اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا تَخْزَمُ بِالْأَطْرَافِ شَوْكَ الْعُقَارِبِ
 تَقُولُ وَقَدْ قَرَبْتُ كُورِي وَنَاقَتِي إِلَيْكَ، فَلَا تَذَعُرْ عَلَيَّ رَكَابِي^(٢)
 فَسَلَّمْتُ وَالتَّسْلِيمُ لَيْسَ يَسْرُهَا وَلَكِنَّهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ جَانِبٍ
 فَرَدْتُ سَلاماً كَارِهاً ثُمَّ أَعْرَضْتُ كَمَا انْحَاشَتْ الْأَفْعَى مَخَافَةَ ضَارِبٍ^(٣)
 فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ سَأَلْتُهَا مَنِ الْمُشْتَوِينَ الْقَدِّ مِمَّا تَرَاهُمْ
 مِنْ الْمُشْتَوِينَ الْقَدِّ مِمَّا تَرَاهُمْ جِيعاً وَرَيْفُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَاضِبٍ
 فَلَمَّا بَدَأَ حِرْمَانُهَا الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ مَبِيتُ السَّوِّ ضَرْبَةً لِأَرْبٍ^(٤)
 وَقُمْتُ إِلَى مَهْرِيَّةٍ قَدْ تَعَوَّدْتُ يَدَاهَا وَرِجْلَاهَا حَيْثُ الْمَرَائِبِ^(٥)
 إِلَّا إِنَّمَا نِيرَانُ قَيْسٍ إِذَا شَتَّوَا لِيَطَارِقَ لَيْلٍ مِثْلُ نَارِ الْحَبَّاحِ

ومحارب: قبيلة منسوبة إلى الضعف، وقد ضربت العربُ بها المثل. قال الفرزدق
 لجرير: (٦)

وَمَا اسْتَعَهَدَ الْأَقْوَامُ مِنْ زَوْجٍ حُرَّةً مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْكَ أَوْ مِنْ مُحَارِبٍ^(٧)

أي يأخذون العهدَ عليه أنه ليس من كليب ولا من محارب.

وقال أبو نواس في قصيدته التي فخر فيها باليمنية وهجا قبائل معد: (٨)

وَقَيْسُ عَيْلَانَ لَا أُرِيدُ لَهَا مِنْ الْمُخَازِي سِوَى مُحَارِبِهَا

(١) الدلاث: السريع من النوق والجمال وغيرها.

(٢) الكور: الرَّحْلُ، وقيل: هو الرَّحْلُ بِأَدَاتِهِ.

(٣) انحاشت: ابتعدت.

(٤) لزب الشيء لزوباً: ثبت، فهو لازب، يقال: صار الأمر ضربة لازب، قال النابغة الذبياني:

وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ إِلَّا شَرًّا بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لِأَرْبٍ

(ديوانه: ص ١٣).

(٥) مهريّة: ناقة مهريّة، منسوبة لقبيلة مَهْرَةَ بن حيدان، وهي تسبق الخيل في جريها.

(٦) الفرزدق، الديوان: ٩٧/١.

(٧) استعهد: اشترط. يريد أن الأقوام يشترطون على من يأتيهم خاطباً ألا يكون من كليب أو من محارب.

(٨) أبو نواس، الديوان: ص ٥٠٩.

أم عبد الصمد بن المعدل

وكانت أم عبد الصمد بن المعدل طباحةً، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه: ما عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيمَنْ أُلْقِيَ بَيْنَ قَدَرٍ وَتَنْوَرٍ، وَنَشْأَ بَيْنَ زَقٍّ وَطُنْبُورٍ^(١)؟ وعبد الصمد شاعر أهل البصرة في وقته، وهو القائل:

تُكَلِّفُنِي إِذْ لَالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أَهَانَ لِتَكْرُمَا
تَقُولُ: سَلِّ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ فَقُلْتُ: سَلِّهِ رَبِّ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَا

لأبي حكيمة في الرقيق

قال أبو شراة القيسي: كنت في مجلس العُتْبِيِّ مع عبد الصمد بن المعدل، فتذاكرنا أشعار المولدين في الرقيق، فقال عبد الصمد: أنا أشعر الناس فيه وفي غيره، فقلت: أحذق منك والله بالرقيق الذي يقول، وهو راشد بن إسحاق أبو حكيمة الكوفي:

وَمُسْتَوْحِشٍ لَمْ يُنَسِّ فِي دَارِ غُرَبَةٍ وَلَكِنَّهُ مِمَّنْ يَحِبُّ غَرِيبُ
طَوَاهُ الْهَوَى وَاسْتَشْعَرَ الْوَصْلَ غَيْرُهُ فَشَطَّتْ نَوَاهُ وَالْمَزَارُ قَرِيبُ^(٢)
سَلَامٌ عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَا أُرُورُهَا وَإِنْ حَلَّهَا شَخْصٌ إِلَيَّ حَيْبُ
وَإِنْ حَجَبَتْ عَن نَّاظِرِي سُتُورُهَا هَوَى تَحْسُنُ الدُّنْيَا بِهِ وَتَطْيِبُ
هَوَى تَضْحَكُ اللَّذَاتُ عِنْدَ حُضُورِهِ وَيَسْخَنُ طَرْفُ اللَّهِو حِينَ يَغِيبُ
تَنَسَّى بِهِ الْأَعْطَافُ حَتَّى كَانَهُ إِذَا اهْتَرَزَ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ قَضِيبُ
أَلَمْ تَرَ صَمْتِي حِينَ يَجْرِي حَدِيثُهُ وَقَدْ كُنْتُ أَدْعَى بِاسْمِهِ فَأَجِيبُ
رَضِيتُ بِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَيْنِ فِيهِ نَصِيبُ
أَحَاذِرُ إِنْ وَاصَلْتُهُ أَنْ يَنَالَنِي وَإِيَّاهُ سَهْمٌ لِلْفِرَاقِ مُصِيبُ
أَرَى دُونَ مَنْ أَهْوَى عُيُونًا تُرِينِي وَلَا شَكَّ أَنِّي عِنْدَهُنَّ مُرِيبُ
أُدَارِي جَلِيسِي بِالتَّجَلُّدِ فِي الْهَوَى وَلِي حِينَ أَخْلَوْ زَفْرَةً وَنَحِيبُ
وَأُخْبِرُ عَنْهُ بِالَّذِي لَا أَحْبَهُ فَيُضْحِكُ سِتِّي وَالْفَوَادُ كَثِيبُ

(١) الزُّقُّ: وعاء من جلد يُجَزُّ شعره، ويستخدم للشرب وغيره. والطنبور: من آلات اللّهُو.

(٢) شطت: بعدت. نواه: نيته، قصده، أو بعده، وهم يستنون الفعل إلى مصدره، فيقولون: جَدَّدَهُ، وشعر شعره.

مَخَافَةً أَنْ تُغَرِّى بِنَا أَلْسَنَ الْعِدَا فَيَطْمَعُ فِينَا كَاشِحٌ فَيَعِيبُ
كَأَنَّ مَجَالَ الطَّرْفِ فِي كُلِّ نَاطِرٍ عَلَى حَرَكَاتِ الْعَاشِقِينَ رَقِيبُ
أَرَى خَطَرَاتِ الشُّوقِ يَكِينُ ذَا الْهُوَى وَيُضَيِّنُ عَقْلَ الْمَرْءِ وَهُوَ لَيْسَبُ
وَكَمْ قَدْ أَذَلَّ الْحُبُّ مَنْ مُتَمَنَّعٍ فَأُضْحَى وَتَوَبُّ الْعِزِّ مِنْهُ سَلِيبُ
وَإِنَّ خُضُوعَ النَّفْسِ فِي طَلَبِ الْهُوَى لِأَمْرٍ، إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ، عَجِيبُ
فَلَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

لأبي شراعة

ولأبي شُراعة يمدح بني رياح:
بني رياح أعاد الله نِعْمَتَكُمْ خَيْرَ الْمَعَادِ وَأَسْقَى رَبَّكُمْ دِيماً^(١)
فَكَمْ بِهِ مِنْ فَتَى حُلُوِّ شَمَائِلُهُ يَكَادُ يَنْهَلُ مِنْ أَعْطَافِهِ كَرَمًا
لَمْ يَلِيسُوا نِعْمَةً لِلَّهِ مُذْ خُلِقُوا إِلَّا تَلَبَّسَهَا إِخْوَانُهُمْ نَعْمًا

لابن المعذل في إبراهيم بن رياح

وفي إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعذل:
قَدْ تَرَكْتُ الرِّيحَ يَا بَنَ رِيَّاحٍ وَهِيَ حَسْرَى إِنْ هَبَّ مِنْهَا نَسِيمُ
نَهَكْتُ مَالَكَ الْحَقُوقُ فَأُضْحَى لَكَ مَالٌ نِصْوُ وَفَعْلٌ جَسِيمُ^(٢)

وكان عبد الصمد [ابن المعذل] متصلاً بإبراهيم وبنيه، وأفاد منهم أموالاً جلييلة، واعتقد عقداً نفيسة، فما شكر ذلك ولا أصبح به بما يجب عليه من الثناء عند نكبتة، وكان الواصل عزله عن ديوان الضياع، ودفعه إلى عمر بن فرج الرخجي، فحبسه فهجاه عبد الصمد.

صفات عبد الصمد بن المعذل

قال أبو العباس محمد بن يزيد:^(٣) وكان عبد الصمد شديداً الإقدام على رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، خبيث النية، يرصد صديقه بالمكرهه، تقديرأ أن يعاديه فيسوءه بأمر

(١) القديم: جمع ديمة، وهو المطر يطول زمانه في سكون.

(٢) نهكته: أضعفه، أو أتت عليه واجتاحته. النَّصْوُ: الضعيف السقيم.

(٣) هو الميرد، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عميرة بن حسان الأزدي، المتوفى سنة ٢٨٦ هـ/٩٠٠ م.

يعرفه؛ ولا يكاد يَسْلَمَ لأحد، وكان مشهوراً في ذلك الأمر، يُلبَسُ عليه^(١)، ويحمل على معرفة، عجباً يَظَرَفُ لسانه، وطيب مجلسه، وأيضاً لِقُبْحِ مَسَبِّه، وشائن معرته.

قال أبو العيناء: ولما حبس الواصل إبراهيم بن رباح، وكان لي صديقاً، صنعت له هذا الخبر رجاءً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فيستفع به، فأخبرني زيد بن علي بن الحسين أنه كان عند الواصل حين قرئ عليه فَضْحِكُ واستطرفه. وقال: ما صنع هذا كله أبو العيناء إلا في سبب إبراهيم بن رباح، وأمر بتخليته، والخبر: قال لقيت أعرابياً من بني كلاب فقلت له: ما عندك من خبر هذا العسكر؟ فقال: قتل أرضاً عالمها، قال: فقلت: فما عندك من خبر الخليفة؟ قال: بَخِخ^(٢) بعزه، وضرب بجرانه^(٣)، وأخذ الدرهم من مصره، وأرهف قلم كل كاتب بجايته. قلت: فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: عُضْلَة^(٤) لا تُطَاقُ، وَجَنْدَلَة لا تُرَامُ، ينتحي بالمدى لثجزه فيجور، وتنصب له الحبال حتى تقول: الآن، ثم يضرب^(٥) ضَبْرَة الذئب، ويخرج خروج الضب، والخليفة يحنو عليه، والقرآن آخذ بضَبْعَيْهِ. قلت: فما عندك في عمر بن فرج؟ قال: ضَحْمُ حَضَجِر^(٦)، غضوب هَزْبِر^(٧). قد أهدفه القوم لِبَغْيِهِم، وانتضلوا له عن قِسْيِهِم، وأخر له بمثل مصرع من يصرع. قلت: فما عندك في خبر ابن الزيات؟ قال: ذلك رَجُلٌ وسع الورى شره، وبطن بالأمور خيره. فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مِخْلَب، إلا بتسديد الرأي. قلت: فما عندك في خبر إبراهيم بن رباح؟ قال: ذاك رجل أَوْبَقَه كرمه، وإن يَقُرَّ للكرام قدح، فَأَحْرَ بِمَنْجَاتِهِ، ومعه دعاء لا يخذله، وَرَبٌّ لا يسلمه، وَفَوْقه خليفة لا يظلمه. قلت: فما عندك في خبر نجاح بن سلمة؟ قال: لله

(١) يُلبَسُ عليه: أي يخالطه الناس مع علمهم به.

(٢) بَخِخَ بَخْبَخَةً وَيَخْبَاحاً: احتذى من الحر، فلم يَسِرْ وقت الظهيرة، وبخبخ لحمه: استرخى من هزال بعد سَمَن، وبخبخ في النوم: غَطَّ.

(٣) الجران: باطن العنق، وقيل: هي جلدة تضطرب على باطن العنق، من ثغرة النحر إلى منتهى العنق في الرأس. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: حتى ضرب الحق بجرانه، أرادت أن الحق استقام وقر في قراره. ولعله أراد بالجران هنا: السوط لقول جرّان العود الشاعر لامرأته: خُذَا حَذْرًا يَا جَارَتِي فإِنِّي رَأَيْتُ جِرَانَ الْعَوْدِ قَدْ كَادَ يَصْلُحُ

وكان أراد بجران العود سوطاً قلّه من جرّان عود نحره.

(٤) الْعُضْلَةُ: اللداهية.

(٥) ضَبْرَ ضَبْرًا وَضَبْرَانًا: قفز، وثب.

(٦) الْحَضَجِرُ: العظيم البطن.

(٧) الهزبر: الأسد.

دره من ناقض أوتار، يتوقد كأنه شعله نار، له في الفينة بعد الفينة، عند الخليفة خلصة كخلصة السارق، أو كحسوة الطائر، يقوم عنها وقد أفاد نعماء، وأوقع نقماً. قلت: فما عندك في خبر ابن الوزير؟ قال: إخاله كبش الزنادقة، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله خضم ورع، وإذا أمر بتقصيه أمطر فأمرع. قلت: فما عندك من خبر الخصيب أحمد؟ قال: ذاك أحرق، أكل أكلة نهم، فاختلف اختلاف بشم. قلت: فما عندك في خبر المعلى بن أيوب؟ قال: ذاك رجل قُد من صخرة، فصبره صبرها، ومثته مشها، وكل ما فيه بعد فمناها ولها. قلت: فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل؟ قال: كتوم غرور^(١)، وجلد صبور، رجل جلده جلد نمر، كلما خرقوا له إهاباً، أنشأ الله له إهاباً. قلت: فما عندك من خبر الحسن بن وهب؟ قال: ذاك رجل اتخذ السلطان أخاً، فاتخذ السلطان عبداً، قال: قلت: فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب؟ قال: شد ما استوفيت مسألتك أيها الرجل! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها في جريرة محرمة، ليس من القوم في ورد ولا صدر، هيهات:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ

قال: قلت: فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب؟ قال: أموات غير أحياء، وما يشعرون أياهم يعثون.

قلت: فأين نزلت فأؤثك؟ قال: ما لي منزل تأثته. أنا أستر في الليل إذا عسعس، وأنتشر في الصباح إذا تنفس^(٢).

من شعر راشد بن إسحاق بن راشد

ومن ملبح شعر راشد بن إسحاق بن راشد، وهو أبو حكيمة، وكان قوي أسر الشعر:

تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي وَإِنِّي لَوَاقِفٌ	أَجِيلُ وَجْهَ الرَّأْيِ فَيْكَ وَمَا أَدْرِي ^(٣)
أَعَزَّمُ عَزَمَ الْيَأْسِ فَالْمَوْتُ رَاحَةٌ	أَمْ أَقْنَعُ بِالْإِعْرَاضِ وَالنَّظَرِ الشَّرِّ
وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْكَ لَمُنْطَوٍ	عَلَى حُرْقٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
إِذَا هَاجَ شَوْقِي مَثَلَتْكَ لِي الْمَنَى	فَالْقَاكَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سِتْرِ

(١) وفي رواية: «كتوم غدور».

(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (سورة التكاوير، الآية ١٧)

و(١٨). وعسعس الليل: أقبل بظلامه.

(٣) أجيل وجه الرأي: أديرها ليظهر لي الصواب.

فَدَيْتُكَ لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فِيكَ حِيلَةٌ
تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجِعٌ
وَقَالَ:

عَبْتُ عَلَيْكَ فِي قَطْعِ الْعِتَابِ
وَفِيمَا صِرْتَ تَظْهَرُ لِي دَلِيلٌ
وَمَا خَطَرْتُ دَوَاعِي الشَّوْقِ إِلَّا
وَقَالَ أَيْضًا:

ضَحِكْتُ وَلَوْ تَذَرِينَ مَا بِي مِنَ الْهَوَى
لِمَنْ لَمْ تُرَخِّ عَيْنَاهُ مِنْ فَيْضِ عَبْرَةٍ
لِمُسْتَأْنَسٍ بِالْهَمِّ فِي دَارِ وَحْشَةٍ
أَلَا بِأَبِي الْعَيْشِ الَّذِي بَانَ فَاَنْقَضَى
لِيَالِي يَدْعُونَا الصَّبَا فَتُجِيبُهُ
نُورِدُّ مُسْتَوْرَ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا
إِلَى أَنْ جَرَى صَرْفُ الْحَوَادِثِ فِي الْهَوَى

وله مذهب استفرخ فيه أكثر شعره، صُنْتُ الْكِتَابَ عَنْ ذِكْرِهِ.

[عبد الملك بن صالح]

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح - وكان معتقلاً في حَبْسِهِ - فلما مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ التَفَتَ
إِلَيْهِ، وَكَانَ يُحَدِّثُ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ وَزِيرَهُ، فَقَالَ مَثَلًا:

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادٍ^(١)

(١) البيت لعمر بن معدى كرب الزبيدي، قاله لابن أخته قيس بن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادي،
وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة. وهو البيت الذي تمثل به علي بن أبي طالب حين همَّ ابن ملجم
بطعنه. وكان العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد ضَمَّنَهُ فِي قَوْلِهِ لِمُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ:

لَقَدْ أَنْكَرْتَنِي إِنْكَارَ خَوْفٍ يَضُمُّ حَشَاكَ عَنْ شَتْمِي وَذَخْلِي
كَقَوْلِ الْمَرْءِ عَمَرُو فِي الْقَوَافِي لِقَيْسٍ حِينَ خَالَفَ كُلَّ عَذَلٍ
عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادٍ أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي

(ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر: ٧٦/٢). وقد استشهد ابن رشيق بهذه الأبيات
على التضمين المعكوس.

ثم قال: يا عبد الملك، كأنني أنظر إلى شؤبويها قد هَمَع^(١)، وإلى عارضها قد لَمَع، وكأنني بالوعيد قد أَوْرَى^(٢)، بل أَدْمَى، فأبرز عن بَرَاجمَ بلا مَعَاصِم^(٣)، ورؤوس بلا غَلَاصِم^(٤)، فمهلاً بني هاشم، في والله سَهْلَ لكم الوَعْرُ، وصفا لكم الكِدْر، وألَقْتُ إليكم الأمور أثناء أزمته، فنذار لكم نذراً قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل، فقال عبد الملك: أفذاً أتكلّم أم تؤاماً؟ قال: بل فذاً، قال: اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، واحفظه في رعاياك الذي استرعاك، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر، والعقاب بموضع الثواب، فقد والله سَهَلْتُ لك الوعر، وجمعتُ على خوفك ورجائك الصدور، وشددتُ أواخي ملكك بأوثق من رُكْنِي يَلْمَلَم^(٥)، وكنتُ لك كما قال أخو بني جعفر بن كلاب - يعني ليذا: ^(٦)

وَمَقَامٍ ضَيَّقَ فَرَجَتَهُ بِلِسَانٍ وَبَيَّانٍ وَجَدَلْ
لَوْ يَقُومُ الْفِيلُ أَوْ فَيَّالُهُ زَلَّ عَنْ مِثْلٍ مَقَامِي وَزَحَلْ

فأعاده إلى مجلسه^(٧)، وقال: لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مراراً، فيمنعني عن قتله إبقائي على مثله.

[ملح الحقد وذمه]

عبد الملك يمتدح الحقد

وأراد يحيى بن خالد أن يَضَعَ من عبد الملك لِيُرْضِي الرشيد، فقال له: يا عبد الملك، بلغني أنك حَقُود! فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الشر والخير، إنهما لباقيان في قلبي! فقال الرشيد: تالله ما رأيتُ أحداً احتجَّ للحقد بأحسن مما احتجَّ به عبد الملك.

- (١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وجمع المطر: انهمر، انصب.
- (٢) من قولهم: «أورى الزند» إذا قدحته فأخرج ناراً.
- (٣) البراجم: الأصابع.
- (٤) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي صفيحة غضروفية عند أصل اللسان.
- (٥) يَلْمَلَمُ: جبل، وقيل: موضع، وقيل: هو ميقات أهل اليمن للإحرام بالحج.
- (٦) ليد بن ربيعة، الديوان: ص ١٤٧. والبيتان من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه، ويأسى لفقد أخيه أريد.
- (٧) قد يكون الصواب: «فأعاده إلى محبته».

لابن الرومي

وقد مدح ابن الرومي الحقد، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك وزاد فيه؛ فقال لعاتبٍ عابه بذلك: ^(١)

لَئِنْ كُنْتُ فِي حَفْظِي لِمَا أَنَا مُودَعٌ مِنْ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ انْتَحَيْتَ عَلَى عِرْضِي ^(٢)
لَمَّا عَيْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةِ وَرُبَّ امْرِئٍ يَزُرِّي عَلَى خُلُقِي مَحْضٍ ^(٣)
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَيْنَا وَلَا تَقْضِي ^(٤)
وَحَيْرُ سَحِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُوفِيكَ مَا تُسْئِدِي مِنَ الْقَرْضِ بِالْقَرْضِ ^(٥)
إِذَا الْأَرْضُ أَذَتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِبُكَ مِنْ أَرْضٍ ^(٦)
وَلَوْلَا الْحَقُودُ الْمُسْتَكْنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَا آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْضٍ ^(٧)
وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوَامُ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَنْتَمِينُ إِلَى بَعْضٍ ^(٨)
فَحيثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَشَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ

وقال يردّ على نفسه، ويذم ما مدح، توسّعاً واقتداراً: ^(٩)

يَا مَادَحَ الْحَقْدِ مُحْتَالًا لَهُ شَبَهًا لَقَدْ سَلَكَتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعِثًا ^(١٠)
إِنَّ الْقَبِيحَ وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شَعِثًا ^(١١)

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢٤/٤.

(٢) العِرْضُ: الشرف.

(٣) في الديوان:

فَمَا عَيْتَنِي إِلَّا بِمَا لَيْسَ عَائِبِي وَكَمْ جَاهِلٍ يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مَحْضٍ

يزري: ينتقص. محض: خالص من الشوائب.

(٤) تَدَّانَ: تستلدين.

(٥) تسدي: تنعم.

(٦) الرَّيْعُ: فضل كل شيء، والمرجوع والغلة.

(٧) المستكنات: المستترات. نقض: حرّك. الوتر: الحقد.

(٨) في الديوان: «يَنْتَسِبْنَ إِلَى بَعْضٍ». السجايَا: الخلال، الصفات.

(٩) ابن الرومي، الديوان: ٤٦٣/١.

(١٠) سلكت: سرت. الوعث: الصعب.

(١١) لَمْ: جُمِعَ. شَعِثَ: تَفَرَّقَ. وَصَنَعْتَ ظَاهِرَهُ: زَيَّنْتَهُ وَحَسَّنَتْهُ.

- كم زَخَرَفَ القولَ ذو زُورٍ وَلَبَّسَهُ
 على القلوبِ ولكن قل ما لَبَّسًا^(١)
- قد أبرم الله أسباب الأمور معاً
 فلن ترى سبباً مِنْهُمْ مُتَكَبِّراً^(٢)
- يا دافنَ الحَقْدِ في ضِعْفِي جَوَانِبِهِ
 ساءَ الدفينُ الذي أضحت له جَدَثًا^(٣)
- الحَقْدُ داءٌ دَوِيٌّ لا دواءَ لَهُ
 يَري الصدورَ إذا ما جَمَرُهُ حُرْثًا^(٤)
- فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أو مُعَاتِبَةٍ
 فإنما يُبرىءُ المَصدُورَ ما نَفَسًا^(٥)
- وَاجْعَلْ طَلابِكَ بِالْأوتارِ ما عَظُمْتَ
 ولا تَكُنْ بصغيرِ القولِ مُكْتَرِثًا^(٦)
- فَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وإن جُرِمَ
 مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الأكْبَادَ أو فَرَا^(٧)
- يَكْفِيكَ في العفو أن الله قَرَضَهُ
 وَحياً إلى خيرٍ من صُلَى ومن بُعِثًا^(٨)
- شَهِدْتُ أَنَّكَ لو أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخِيكَ حَقُوداً صَدْرُهُ شَرًّا^(٩)
- إذا وَسَّرَكَ أن تَلْقَى الذنوبَ معاً
 وأن تُصَادَفَ مِنْهُ جَانِباً دَمًّا^(١٠)
- إني إذا خُلِطَ الْأَقْوَامُ صَالِحُهُمْ
 بِسَيِّئِ الْفَعْلِ جِدًّا كان أو عَبًّا^(١١)
- جَعَلْتُ قَلْبِي كَطَرَفِ السَّبْكِ حَيْثُ
 يَسْتَخْلِصُ الْفِضَّةُ الْيَضَاءَ لَا الْحَبَّ^(١٢)
- وَلَمَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَوْضِ أَمْدَحُهُ
 بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا نَجًّا^(١٣)

- (١) في الديوان: «من زور»، و«على العقول».
- (٢) أبرم: أحكم. أسباب الأمور: عللها. ونكت العهد: نقضه ونبذَه وانصرف عنه.
- (٣) في الديوان:
- يا دافن الحقد في ضِعْفِي جَوَانِحِهِ
 ساءَ الدفينُ الذي أَمَسْتُ لَهُ جَدَثًا
 والجدث: القبر.
- (٤) داء دوي: مرض مُسْتَعَصٍ. يري: يُشعل. وحرث الجمر: حركه.
- (٥) الصَفْح: المَسامحة. يبرىء: يشفي. وفي الديوان: «يرأ».
- (٦) الأوتار: جمع وتر، وهو الانتقام. مكترث: مهتم.
- يقول: إذا أردت الانتقام، فليكن بسبب الأمور الكبيرة، وليس بصغارها.
- (٧) العفو: الصَفْح والمَسامحة. التقوى: الإيمان. فرث: شق. وفي الديوان: «والعفو».
- (٨) قَرَضَ: مدح. وقوله: «إلى خير من صُلَى ومن بُعِث»، يريد: النبي ﷺ.
- (٩) شَرَّ صَدْرُهُ: غلظ وخشن.
- (١٠) في الديوان: «أن ينسى الذنوب». دَمَّتْ دَمَاطَةً: سهل خلقه.
- (١١) في الديوان: «إذا خلط الإخوان».
- (١٢) في الديوان: «جعلت صدري».
- (١٣) خَبَثُ الْمَاءِ: فسد، وأتَن، وتغير طعمه.

والبيت الذي تمثل به الرشيد هو لعمر بن معد يكرب يقوله لقيس بن المكشوح المرادي، وقد تمثل به علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رأى عبد الرحمن بن ملجم المرادي فقال له: أنت تخضب هذه من هذه، وإشار إلى لحيته ونُقِرَّتْهُ^(١). فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تقتله! فقال: كيف يقتل المرء قاتله؟

بين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد

وكان بين مسلمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباعد، فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه، فكتب إليه يقول:

أَلَا تَقْنَى الحَيَاءَ أَبَا سَعِيدٍ	وَتَقْصِرَ عَنْ مُلَاحَاتِي وَعَذْلِي ^(٢)
فَلَوْلَا أَنْ فَرَعَكَ حِينَ تُنْمَى	وَأَصْلَكَ مُتَهَيَّ فَرْعِي وَأَصْلِي ^(٣)
وَأَنْسَى إِنْ رَمَيْتُكَ هَضْبُ عَظْمِي	وَنَالْتَنِي إِذَا نَالْتِكَ بَلْسِي ^(٤)
لَقَدْ أَكْرَمْتَنِي إِنْكَارَ خَوْفٍ	يَضُمُّ حَشَاكَ عَنْ شَتْمِي وَأَكْلِي
فَكَمْ مِنْ سَوْرَةٍ أَبْطَأَتْ عَنْهَا	بَنَى لَكَ مَجْدَهَا طَلْبِي وَحَفْلِي ^(٥)
وَمُبْهَمَةٍ عَيَّتَ بِهَا فَأَبْدِي	عَوِيلِي عَنْ مَخَارِجِهَا وَفَضْلِي
كَقَوْلِ الْمَرْءِ عَمَرُو فِي الْقَوَافِي	لِقَيْسٍ حِينَ خَالَفَ كُلَّ عَذْلٍ
عَذِيرِي مِنْ خَلِيلِي مِنْ مُرَادٍ	أُرِيدُ حِسَاتِهِ وَيُرِيدُ قَتْلِي

لم يتفق له في القافية كما قال عمرو، فغيّره.

[رجع إلى عبد الملك بن صالح]

من أخبار عبد الملك بن صالح

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن علي، وكان بليغاً جهوريماً فاضلاً عاقلاً.

وقال الجاحظ: قال لي عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح: قال لي

(١) في رواية: «وتغرته»، وهي فقرة النحر بين الترقوتين، والثقرة: منقطع القمحودة في القفا.

(٢) أقنى الحياء: لزمه، أو أدخره.

(٣) تُنْمَى: تُسَبَّ.

(٤) هاض العظم: كسره بعد ما كاد ينحجر.

(٥) السورة: الوثبة، ومن المجد ونحوه: أثره وعلامته.

عبد الملك، بعد أن خصّني وصيّري وزيراً بدلاً من قُمامة: يا عبد الرحمن، انظر في وجهي؛ فأنا أعرفُ منك بنفسك ولا تُسعدني على ما يقبح؛ دع [عنك كيف الأمير؟]، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمسى؟ واجعل مكان التقرّظ حُسن الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول، وإذا حدّثك حديثاً فلا يفوتك شيء منه؛ وأرني فهمك في طرفك؛ إني اتخذتك وزيراً بعد أن كنت مُعلّماً، وجعلتك جليساً مقرباً بعد أن كنت مع الصبيان مُبعداً، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجحان ما صرت إليه.

بين الرشيد وعبد الملك وكانا يتسايران

وساير الرشيد عبد الملك، فقال له قائل: طأطىء من إشرافه^(١)، واشدّد من شكائمه^(٢)، وإلا فسَدَ عليك، فقال له الرشيد: ما يقول هذا؟ قال: حاسدُ نعمة، وناقسُ رتبة، أغضبهُ رضاك عني، وباعدَهُ قُربُك مني، وأساءَهُ إحسانُك إليّ. فقال لي الرشيد: انخفض القومُ وعلوتهم؛ فتوقّدت في قلوبهم جَمرةُ التأسّف. فقال عبد الملك: أضرمها الله بالتزيّد! فقال الرشيد: هذا لك وذاك لهم.

اعتذار عبد الملك وقد ارتج عليه

وصعد المنبر، فأرتج عليه فقال: أيتها الناس، إن اللسان بضعةٌ من الإنسان تكلُّ بكَلالهِ إذا كلّ، وتنفسح [بأنفساحه] إذا ارتجل، إن الكلامَ بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وإنّا لا نسكُتُ حَصراً، ولا ننطقُ هَذاراً^(٣)؛ بل نسكُتُ مفيدين، وننطقُ مُرشدين، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامنا أيّام، بها فضّل الخطاب، ومواقع الصواب، وسأعودُ فأقول، إن شاء الله تعالى.

بين يدي الرشيد بعد حبسه

وقال الأصمعي: كنتُ عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسه، فقال: يا عبد الملك، أكفراً بالنعمة^(٤)، وغدراً بالسلطان، ووثوباً على الإمام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بُؤْتُ بأعباءِ الندم، واستحلال النّقم، وما ذاك إلا من قولٍ حاسدٍ، ناشدتك الله

(١) إشرافه: علوّه وارتفاعه.

(٢) الشكائم: جمع شكيمة، وهي قوة القلب، والانتصار من الظلم، ويقال: فلان شديد الشكيمة، أو ذو شكيمة: أنفٌ أبيّ.

(٣) الهنر: سقط الكلام.

(٤) كُفراً بالنعمة: جُحوداً لها وإنكاراً.

والولاية، ومودة القرابة. فقال الرشيد: يا عبد الملك، تَضَعُ لي لسانك، وترفعُ لي جَنَانَكَ، بحيث يحفظُ الله لي عليك، وبأخذ لي منك، هذا كَاتِبُكَ قمامة يَنْبِئُ عن غِلْكَ^(١)، فالتفت عبدُ الملك إلى قُمَامَةِ وكان قائماً، فقال: أحَقّاً يا قمامة؟ قال: حقّاً، لقد رُمْتُ خَتَرَ^(٢) أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ يا أمير المؤمنين في غِيَّتِي من يَبْهَتِي^(٣) في حضرتي؟ فقال الرشيد: دَعِ قمامة، هذا ابْنُكَ عبد الرحمن يَنْبِئُ عنك بمثل خبر قمامة، فقال عبد الملك: إِنَّ عبد الرحمن مأمور أو عاقٍ؟ فَإِنْ كان مأموراً فهو معذور، وإن كان عاقاً فما أتوقع من عقوبه أكثر.

[في مقام الخوف]

بين الرشيد والحسن بن عمران

وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِلَ عليه يَرْسُفُ في قُبُودِهِ: ^(٤) وَلَيْتَكَ دُمْتُقُ وهي جَنَّةٌ مُونِقَةٌ، تحيط بها غُدُرٌ كَاللَّجِينِ^(٥)، فتكف على رياضِ كَالزَّرَائِي^(٦)، وكانت بيوت أموال فما برح بها التعدي، حتى تركتها أجَرَدَ من الصُّخْرِ، وأوحش من القَفْرِ! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصدت لغير التوفيق من جهته، ولكني ولّيت أقواماً ثَقُلَ على أعناقهم الحقُّ، فتفرغوا في ميدان التعدي، ورأوا أَنَّ المِراغمة^(٧) يَتَرَكُ العِمارة أَوْقَعُ بإضرار السلطان، وأنّوه بالشنعة؛ فلا جَرَمَ أَنَّ مَوْجِدَةَ أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظّ الأوفر من مساءتي! فقال عبد الله بن مالك: هذا أجزلُ كلام سَمِعَ لخائف، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء «أفضل الأشياء بديهة أُمْنٍ وردت في مقام خَوْفٍ».

بين الرشيد ويزيد بن مزيد

ولما رَضِيَ الرشيدُ عن يزيد بن مزيد دَخَلَ عليه فقال: الحمد لله الذي سَهَّلَ لي سُبُلَ

- (١) غِلْكَ: حقدك وفساد قلبك.
- (٢) رمت: أردت. والختر: الخيانة والغدر.
- (٣) بهت بهتاً، وبهتةً، وبهتاتاً: قذفه بالباطل.
- (٤) رسف في القيد رَسَفًا، وَرَسِفًا: مشى فيه رويداً.
- (٥) الغُدُرُ: جمع غدير، وهو ما احتجته السيل من الماء. واللجين: الفضة.
- (٦) الزرابي: جمع زَرِيْبَةٍ، وهي الوسادة تُبْسَطُ للجلوس عليها، قال تعالى: ﴿وَزَرَائِي مَبْنُوَّةٌ﴾.
- (سورة الغاشية، الآية: ١٦).
- (٧) المِراغمة: المعادة والهجر.

الكرامة بلقائك، وردَّ عليَّ النعمة بِوَجْهِ الرضا منك، وجزاك الله في حال سُخْطِكَ حقَّ
المُشْتَبَيْنِ المراقبين، وفي حال رضاكَ حقَّ المنعمين المُتَطَوِّلين؛ فقد جعلك الله - وله الحمد -
تَشَبَّهَ [نَحْرَجًا] عند الغضب، وتَتَطَوَّلَ [مَمْتَنًا] بالنعم، وتَسْتَبْقِي المعروفَ عند الصنائع
تَفَضُّلاً بِالْعَفْوِ.

[من الرثاء]

لمسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد

وفي يزيد بن يزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته، وقد رُوِيَ له في يزيد بن أحمد
السَّلَمِيِّ:

قُبِرَ بِرِذْعَةٍ اسْتَسَرَّ ضَرِيحُهُ خَطَرًا تَقَاصَرُ دُونُهُ الْأَخْطَارُ^(١)
نُفِضَتْ بِكَ الْأَحْلَاسُ نَقْضَ إِقَامَةٍ واسْتَرْجَعَتْ نُزَاعَهَا الْأَمْصَارُ^(٢)
فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُرْنَةٍ أَتْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ^(٣)
سَلَكَتْ بِكَ الْعَرْبُ السَّيْلَ إِلَى الْعَلَا حَتَّى إِذَا سَبَقَ الرَّدَى بِكَ حَارُوا

لمحمد بن أبي عطية يرثي أخاه

وقال أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه: ^(٤)

حَطَّطَتْهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ وَزَفَقَتْهُ لِلْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ^(٥)
هَلَّا بِيَعُضُ خِصَالِهِ حَطَّطَتْهُ فَبِضْوَعِ أَفْنُقِ مَنَازِلِ وَقُبُورِ
وَاللَّهُ لَوْ بِنَسِيمِ أَخْلَاقٍ لَهُ تُعْزَى إِلَى التَّقْدِيسِ وَالتَّطْهِيرِ

- (١) برذعة: اسم موضع. وفي رواية «قبر بخلوان». واستسر: أخفى وستر.
- (٢) الأحلاس: جمع حلس، وهو كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرجل والقتب والرج.
- (٣) المزنة: السحابة تحمل الماء، وجمعها: مُزْنٌ. والأوعار: جمع الوعر: المكان الصلب.
- (٤) هو أبو عبد الرحمن، محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية، مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أحد الشعراء المتكلمين المتقدمين. ولد ونشأ بالبصرة، وكان إذا حضر مجلساً غلب عليه ببرايعته وفصاحته، وفاق بالشعر جميع نظرائه، وخفَّ شعره على كل لسان، واستعمله الكتاب، واحتندوا معانيه، وجعلوه إماماً. توفي نحو ٢٥٠ هـ/ ٨٦٥ م (الهواري، الشعر والشعراء: ١٦٦).
- (٥) حَطَّطَ المَبْت: جعل عليه الحنوط، وهو كلُّ ما يخالط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسكٍ وذريرة وصندل وعبر وكافور وغيره.

حَتَّطتْ مِنْ وَطْئِ الْحَصَى وَعَلَا الرَّبَى لَتَزُودَ بَلْ عُدَّةً لِنَشُورِ^(١)
 فَادْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الشَّبَابُ فَإِنَّهُ [قَدْ كَانَ خَيْرَ مُجَاوِرٍ وَمُجِيرٍ]
 [وَادْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الْوَفَاءُ فَإِنَّهُ] عَصَفَتْ بِهِ رِيحاً صَباً وَدَبُورِ^(٢)
 وَاللَّهِ مَا أَبْتَسُّهُ لِأَزِيدَهُ شَرَفاً وَلَكِنْ نَفْثَةُ الْمَصْدُورِ^(٣)

لأعرابي يرثي أعرابياً

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثني عشر ألفاً، فلما حُمِلَ على سريره صرَّ، فقال بعضُ من حضر:

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٤)
 وَلَيْسَ فَتِيقُ الْمَسِكِ مَا تَجِدُونَهُ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّاءُ الْمُخْلَفُ

لابن المعتز

وقال عبد الله بن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب يرثيه:

يَابْنَ وَهْبٍ بِالْكَرْهِ مَنِّي بَقِيْتُ عَجَبِي يَوْمَ مَتَّ كَيْفَ حَيِّتُ
 إِنَّمَا طَيَّبَ الشَّاءَ الَّذِي خَلَدَ فَمَتَ لَا مِسْكُ نَعْتِكَ الْمَقْتُوتُ
 وَاخْتَصَرْتُ الطَّرِيقَ بَعْدَكَ لِلْمَوْتِ تِ فَلَاقِيَتُهُ وَلَسْتُ أَفُوتُ
 كَيْفَ يَبْقَى عَلَى الْحَوَادِثِ حَيٌّ بِيَدِ الدَّهْرِ عُوْدُهُ مَنُحُوتُ
 وقال أيضاً:

ذَكَرْتُ ابْنَ وَهْبٍ فَلَلَّهُ مَا ذَكَرْتُ وَمَا غَيَّيُوا فِي الْكَفَنِ
 تَقَطَّرَ أَقْلَامُهُ مِنْ دَمٍ وَيَعْلَمُ بِالظَّنِّ مَا لَمْ يَكُنْ
 وَظَاهِرُ أَطْرَافِهِ سَاكِنٌ وَمَا تَحْتَهُ حَرَكَاتُ الْفَطْنِ

وقال:

- (١) النشور: البعث.
 (٢) الصبا: ريح الشرق الناعمة. والدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل ريح الصبا (القبول).
 (٣) نفثة المصدور: ما يُخَفَّفُ به عن صدره، ويروَّحُ به عن نفسه.
 (٤) الصرير: الصوت، وصر الشيء: صَوَّتَ. تقصفت: تتكسر وتتحطم.

ذَكَرْتُ عُيَيْدَ اللَّهْ وَالْتَرَبُّ دُونَهُ فَلَمْ تَحْسِ الْعَيْنَانِ مِنِّي بُكَاهُمَا^(١)
وَحَاشَاهُ مِنْ قَوْلٍ «سَقَى الْغَيْثُ قَبْرَهُ» يَدَاهُ تُرْوِي قَبْرَهُ مِنْ نَدَاهُمَا

للبحثري في الحسن بن وهب

وهذا مأخوذ من قول الطائي: ^(٢)

سَقَى الْغَيْثُ غَيْثًا وَارَبَتِ الْأَرْضُ شَخْصَةً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرٌ^(٣)
وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلْسَحَابِ صَنِيعَةً بِإِسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ

وقال ابن المعتز:

لَمْ تَمُتْ أَنْتَ، إِنَّمَا مَاتَ مَنْ لَمْ يُبْقِ فِي الْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ ذِكْرًا
لَسْتُ مُسْتَسْقِيًا لِقَبْرِكَ غَيْثًا كَيْفَ يَظْمَأُ وَقَدْ تَضَمَّنَ بَحْرًا

والبيت الثاني من هذين من بيت الطائي.

وقال: ^(٤)

مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ أَخْلَقْتَ رِمْمُهُ أَرَيْقَ مَاءُ الْمَعَالِي إِذْ أَرَيْقَ دَمُهُ^(٥)
رَأَيْتُهُ بِنَجَادِ السِّيفِ مُحْتَبِيًا كَالْبَدْرِ حِينَ انْجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ظِلْمُهُ^(٦)
فِي رَوْضَةٍ حَفَّهَا مِنْ حَوْلِهَا زَهْرٌ أَيقَنْتُ عِنْدَ انْتِبَاهِي أَنَّهَا نِعْمَةٌ^(٧)
فَقُلْتُ وَالْدَمْعُ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ حُرْقٍ يَجْرِي وَقَدْ خَدَّدَ الْخَدَيْنِ مُنْجِمُهُ^(٨)

(١) في رواية: «فلم تملك العينان إلا بكاهما».

(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانه (دار صادر).

(٣) الغيث (الأول): المطر، والغيث (الثاني): الجواد الكريم.

(٤) صاحب الأبيات هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، وقد قالها في رثاء محمد بن حميد الطوسي (ديوانه: ٣٣٠/٢).

(٥) أخلقت: بليت. والرَّم: العظام البالية، مفردها رمة. وفي الديوان: «مُدَّ أَرَيْقَ دَمُهُ».

(٦) نجاد السيف: حماثته. محتبياً: مشتملاً.

(٧) في الديوان:

فِي رَوْضَةٍ قَدْ عَلَا حَافَاتُهَا زَهْرٌ عَلِمْتُ عِنْدَ انْتِبَاهِي أَنَّهَا نِعْمَةٌ
(٨) في الديوان:

فَقُلْتُ وَالْدَمْعُ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ فَرْحٍ يَجْرِي وَقَدْ مَلَأَ الْخَدَيْنِ مُنْجِمُهُ
خَدَّدَ الْخَدَيْنِ: أهرلهما، أو أثّر فيهما، أو جعل فيهما أخاديد.

أَلَمْ تَمُتْ يَا سَلِيلَ الْمَجْدِ مِنْ زَمَنِ؟ فَقَالَ لِي: لَمْ يَمُتْ مَنْ لَمْ يَمُتْ كَرَمُهُ؟^(١)
وقال بعض أهل العصر:

عُمُرُ الْفَتَى ذِكْرُهُ، لَا طَوْلُ مُدَّتِهِ وَمَوْتُهُ مَوْتُهُ لَا مَوْتُهُ الدَّانِي
فَأَحْيِ ذِكْرَكَ بِالْإِحْسَانِ تَزْرَعُهُ تُجْمَعُ بِهِ لَكَ فِي الدُّنْيَا حَيَاتَانِ

وقال عبد السلام بن رَغَبَانَ الْحِمَاصِي: ^(٢)
سَقَى الْغَيْثُ أَرْضاً ضُمَّتْكَ وَسَاحَةً لِقَبْرِكَ فِيهِ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالْبَدْرُ
وَمَا هِيَ أَهْلٌ إِذْ أَصَابَتْكَ بِالْبَلَى لِسُقْيَا، وَلَكِنْ مِنْ حَوَى ذَلِكَ الْقَبْرِ

أَخَذَ هَذَا الْبَيْتَ [الْأَوَّلَ] الرَّاضِي فَقَالَ يَرْتَى أَبَاهُ الْمَقْتَدِرُ:
بِنَفْسِي تَرَى ضُمَّتْ فِي سَاحَةِ الْبَلَى لَقَدْ ضَمَّ مِنْكَ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالْبَدْرُ
فَلَوْ أَنَّ عُمْرِي كَانَ طَوْنَعٌ مَشِيتِي وَأَسْعَدَنِي الْمَقْدُورُ قَاسَمْتُكَ الْعُمْرَا
وَلَوْ أَنَّ حَيَا كَانَ قَبْرًا لِمَيِّتٍ لَصَيَّرْتُ أَحْشَائِي لِإِعْظُمِهِ قَبْرَا

هَذَا الْبَيْتَ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْمَتْنِيِّ: ^(٣)
حَتَّى أَتَوْا جَدًّا كَانَ ضَرِيحُهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُوَحِّدٍ مَحْفُورُهُ ^(٤)

قطر الندى والخليفة المعتضد

لَمَّا حُمِلَتْ قَطْرُ النَّدَى بِنْتُ حُمَارَوَيْهِ بْنِ [أَحْمَدَ بْنِ] طُولُونَ إِلَى الْمَعْتَضِدِ كَتَبَ مَعَهَا أَبُوهَا إِلَيْهِ يَذْكُرُهُ بِحُرْمَةِ سَلَفِهَا [بِسَلَفِهِ]، وَيَذْكُرُ مَا تَرَدَّدَ عَلَيْهِ مِنْ أَبْهَةِ الْخِلَافَةِ، وَجَلَالَةِ الْخِلَافَةِ، وَيَسْأَلُ إِبْنَانَهَا وَبَسْطَهَا، فَبَلَغَتْ مِنْ قَلْبِ الْمَعْتَضِدِ لَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَسُرَّ بِهَا غَايَةَ السُّرُورِ، وَأَمَرَ الْوَزِيرَ أَبَا الْقَاسِمِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ بِالْجَوَابِ عَنِ الْكِتَابِ، فَأَرَادَ أَنْ يَكْتُبَهُ بِخَطِّهِ، فَسَأَلَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ ثَوَابَةِ أَنْ يُؤَثِّرَهُ بِذَلِكَ فَفَعَلَ؛ وَغَابَ أَيَّامًا وَأَتَى بِنَسْخَةٍ يَقُولُ فِي فَصْلِ مِنْهَا: وَأَمَّا الْوَدِيعَةُ فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ شَيْءٍ انْتَقَلَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ،

(١) فِي الدِّيَوَانِ: «أَلَمْ تَمُتْ يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مُذْ زَمَنِ».

وَأَصْلُ الشَّقِيقِ: الَّذِي يَشَاقُ الْإِنْسَانَ فِي النَّسَبِ، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَخَذَ شَقًّا.

(٢) هُوَ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ بِذِيكَ الْجَنِّ الْحِمَاصِي (ت ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م).

(٣) الْمَتْنِيُّ، الدِّيَوَانُ: ١٩٣/١. وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَرْتَى بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ التَّنُوخِي.

(٤) الْجَدُّ: الْقَبْرُ. وَالضَّرِيحُ: الشَّقُّ فِي وَسْطِ الْقَبْرِ.

عناية بها، وحياطة عليها، ورعاية لمودتك فيها. ثم أقبل عبيد الله يُعجب من حُسن ما وقع له من هذا، وقال: تسميتي لها بالوديعه نصفُ البلاغة، فقال عبيد الله: ما أقبَحَ هذا! تفاءلتَ لامرأة زُفَّت إلى صاحبها بالوديعه، والوديعهُ مستردة. وقولك «من يمينك إلى شمالك أقبَح» لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال، ولو قلت: «وأما الهدية فقد حسن موقعها منا، وجلّ خطرُها عندنا؛ وهي وإن بُعدت عنك، بمنزلة من قُربت منك؛ لثَقُفَدنا لها، وأنسنا بها، ولسرورها بما وردت عليه، واعتباطها بما صارت إليه» لكان أحسن، فنفذ الكتاب.

وكانت قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفضل العقل، خلا بها المعتضد يوماً للأُنس بها في مجلس أفرده لم يحضره غيرها، فأخذت منه الكأس، فنام على فخذها، فلما استقل^(١) وضعت رأسه على وسادة، وخرجت فجلست في ساحة القصر على باب المجلس، فاستيقظ فلم يجدْها، فاستشاط غضباً^(٢)، ونادى بها فأجابته على قرب، فقال: ما هذا؟ أخليتك إكراماً لك، ودفعت إليك مهجتي دون سائر حظائاي، فتَضَعين رأسي على وسادة! فقالت: يا أمير المؤمنين، ما جهلتُ قدرَ ما أنعمتَ به عليّ، وأحسنْتَ فيه إليّ، ولكن فيما أدبني به أبي أن قال لي: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي بين النيام.

[رجع إلى الرثاء]

لابن المعتز يرثي ابن ثوبة

وفي أبي الحسين بن ثوبة يقول ابن المعتز يرثيه:

ليس شيءٌ لصحةٍ ودوامٍ	غلبَ الدهرُ حيلةَ الأقوامِ
وتولى أبو الحسين حميداً	فعلى روجه سلامُ السلامِ
حينَ عاقدته على الحفظِ للعهدِ	يدَ وصافحته بكفِّ الذمامِ ^(٣)
واضطفتته على الأخلاءِ نفسي	كاصطفاءِ الأرواحِ للأجسامِ ^(٤)
كان ربحانة الندامى وميزا	ن القوافي شعراً وتخرَ كلامِ
ومكان السهم الذي لا يرى الشد	ك ولا يستغيث بالأوهامِ

(١) استقل: كناية عن تمكن النوم منه.

(٢) استشاط غضباً: غضب غضباً شديداً، وأصل معنى «استشاط» احترق.

(٣) الذمام: العهد.

(٤) اصطفى: اختار. والأخلاء: جمع خليل، وهو الصديق الخالص (فعليل بمعنى مفاعل).

سَاحَرَ الْوَحْيَ فِي الْقَرَاتِيسِ لَا تُحَدِّثُ
بَسُّ عَنْهُ أَعْنَهُ الْأَقْلَامُ
فَإِذَا مَا رَأَيْتُهُ خِلْتُ فِي خَدَّيْ
لَهُ صُبْحاً مُقْبِياً بِظِلَامٍ^(١)
نَفْسُ صَبْرٍ لَا تَجْزَعِي إِنْ هَذَا
خُلِقَ مِنْ خِلَائِقِ الْأَيَّامِ

[أيام الشباب]

لرجل من بني كلاب

وأشدد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب^(٢) لرجل من بني كلاب:

سَقَى اللَّهُ دَهْرًا قَدْ تَوَلَّتْ غَيَاطِلُهُ
وَفَارَقْنَا إِلَّا الْحُشَّاشَةَ بَاطِلُهُ^(٣)
لِيَالِي خِذْنِي كُلُّ أَيْضٍ مَاجِدٍ
يُطِيعُ هَوَى الصَّابِي وَتُعْصِي عَوَازِلُهُ^(٤)
وَفِي دَهْرِنَا وَالْعَيْشُ فِي ذَاكَ غِرَّةٌ
أَلَا لَيْتَ ذَاكَ الدَّهْرُ تَتَنَّى أَوَائِلُهُ
يَمَا قَدْ غَنَيْنَا وَالصَّبَا جُلُّ هَمِّنَا
يُمَا لِنَا أَذْيَالُهُ الدَّهْرُ حِقْبَةُ
وَجَرَّ لَنَا أَذْيَالُهُ الدَّهْرُ حِقْبَةُ
فَسَقِيَا لَهُ مِنْ صَاحِبٍ خَذَلْتُ بِنَا
يُطَاوِلُنَا فِي عَيْبِهِ وَنُطَاوِلُهُ
أَصْدَ عَنْ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ قَاتَلِي
مُطَبِّتًا فِيهِ وَوَلَّتْ رَوَاجِلُهُ
وَأَهْجُرُهُ حَتَّى كَأَنِّي قَاتِلُهُ
وَأَهْجُرُهُ حَتَّى كَأَنِّي قَاتِلُهُ

هذا البيت يناسب قول ذي الرمة، وإن لم يكن في هذا المعنى، يصف ظبية وولدها:

إِذَا اسْتَوْدَعْتُهُ صَفْصَفًا أَوْ صَرِيمَةً
تَنَحَّتْ وَنَصَّتْ جِيدَهَا بِالمُنَاطِرِ^(٥)
حِذَارًا عَلَى وَشَنَانٍ يَصْرَعُهُ الْكَرَى
بِكُلِّ مَقْبِلٍ عَنْ ضِعَافٍ فَوَاتِرٍ
وَتَهْجُرُهُ إِلَّا اخْتِلَاسًا نَهَارَهَا
وَكَمْ مِنْ مُحِبِّ رَهْبَةِ الْعَيْنِ هَاجِرٍ

(١) مُقْبِبٌ: من تنقبت المرأة إذا شدت النقاب على وجهها، والنقاب: القناع.

(٢) هو أبو العباس، أحمد بن يحيى الشيباني الكوفي المعروف بثعلب، نحوي، لغوي. توفي ببغداد سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م. من آثاره: «المصون في النحو» و«معاني القرآن». و«معاني الشعر» (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٢/ ٢٠٣).

(٣) الغياطل: الظلمات، الواحد: غيطل، وقيل: الغيطة والغيطل: الظلمة المتراكمة، وقيل: الشجر الكثيف الملتصق.

(٤) الخِذْنُ: الصديق، أو الصديق في السر.

(٥) الصفصف: المستوي من الأرض. والصريمة: الرملة المنقطعة.

لأبي حية النميري

وقال أبو حية النميري:

أَمَّا وَأَبَى الشَّبَابُ لَقَدْ أَرَاهُ جَمِيلاً مَا يَرَادُ بِهِ بَدِيلُ
إِذِ الْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ عَلَيْنَا وَظِلُّ أَرَاكَةِ الدُّنْيَا ظَلِيلُ

لابن بسام

وقال علي بن بسام:

بِشَاطِيءِ نَهْرٍ قَبْرِكَ فَالْمُصَلَّى فَمَا وَالْأَهْمَا فَالْقَرِيَّتَيْنِ
مَعَاهِدُ لَهْوِنَا وَالْعَيْشُ غَضٌّ وَصَرَفُ الدَّهْرِ مَقْبُوضُ الْيَدَيْنِ

من ترجمة ابن بسام وأخباره

وكان ابنُ بسام هذا - وهو علي بن [محمد بن] منصور بن بسام مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثه، و[ليس] له حظ التطويل، وهو القائل:

كَمْ قَدْ قَطَعْتُ إِلَيْكَ مِنْ دَيْمُومَةٍ نُطِفُ الْمِيَاهِ بِهَا سَوَادُ النَّاضِرِ^(١)
فِي لَيْلَةٍ فِيهَا السَّمَاءُ مُرْدَّةٌ سَوَادٌ مُظْلِمَةٌ كَقَلْبِ الْكَافِرِ^(٢)
وَالْبَرْقُ يَخْفِقُ مِنْ خِلَالِ سَحَابِهِ خَفَقَ الْفُؤَادُ لِمَوْعِدٍ مِنْ زَائِرِ
وَالْقَطَرُ مِنْهُمْ لِيَسْحَ كَأَنَّهُ دَمْعُ الْمُودَعِ إِثْرَ الْفِ سَائِرِ

وقال في العباس [بن الحسين] لما وَزَرَ للمكتفي:

وِزَارَةُ الْعَبَّاسِ مِنْ نَحْسِهَا سَتَقْلَعُ الدُّوْلَةَ مِنْ أُسْهِهَا
شَبَّهْتُهَ لِمَا بَدَأَ مُقْبِلًا فِي خِلْعٍ يُخَجِّلُ مِنْ لُبْسِهَا
جَارِيَةٌ رَعْنَاءٌ قَدْ قَدَّرَتْ ثِيَابَ مَوْلَاهَا عَلَى نَفْسِهَا^(٣)

(١) الدَّيْمُومَةُ والدَّيْمُومُ: الفلاة يدوم السير فيها لبعدها، وقيل: الديمومة: الأرض المستوية التي لا أعلام فيها، ولا طريق، ولا ماء، ولا أنيس، وإن كانت مُكَلِّتَةً. والجمع: دياميم. النُطْفُ: جمع نطفة، وهي الماء الصافي.

(٢) مُرْدَّةٌ: اسم فاعل من قولهم: «أرذ المطر» إذا هطل. وفي رواية: «فيها السماء مزادة».

(٣) جارية رعناء: هوجاء، حمقاء.

وقال في علي بن يحيى المنجم يرثيه :

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ يَا عَلِيُّ مُسَلِّمًا وَلَكَ الزِّيَارَةُ مِنْ أَقْلٍ الْوَاجِبِ
وَلَوْ اسْتَطَعْتُ حَمَلْتُ عَنْكَ تُرَابَهُ فَلَطَّالَمَا عَنِي حَمَلْتُ نَوَائِبِي

وكان مولعاً بهجاء أبيه، وفيه يقول وقد ابنتى داراً :

شِدَّتْ دَاراً خِلْتَهَا مَكْرُمَةً سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْغَرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيحاً وَسَطَهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيداً زَلَقَا^(١)

وقال أبو العباس بن المعتز يهجوهُ :

مَنْ شَاءَ يَهْجُو عَلِيًّا فَشِعْرُهُ قَدْ كَفَّاهُ^(٢)
لَوْ أَنَّكَ لِأَيِّهِ مَا كَانَ يَهْجُو أَبَاهُ

[مع الخلفاء]

بين المأمون وأحمد بن أبي خالد

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد، وهو يخلف الحسن بن سهل، وقد أشار إليه برأي استرجعته: قد اعتلَّ الحسنُ ولزم بيته، ووكل الأمر إليك، فأنا إلى راحتِهِ وبقائه، أحوَجُ [مني] إلى إتمامه وفنائه، وقد رأيتُ أن أستوزرك؛ فإن الأمر له ما دُمْتَ أنت تقوم به، وقد طالعتُ رأيهِ في هذا الأمر، فما عداكَ. فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبنِي بالواجب فيها، واجعلْ بيني وبين الغاية ما يرجوني له وَلِيِّي، ويخافني له عَدُوِّي، فما بعد الغايات إلا الآفات. فاستحسن كلامه، وقال: لا بد من ذلك، واستوزره.

المأمون ومحمد بن داود في حسن الخط

ورأى المأمونُ خطَّ محمد بن داود فقال: يا محمد، إن شاركتنا في اللفظ، فقد فارقتنا في الخط، فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أعظم آيات النبي ﷺ أنه آدَى عَنِ اللَّهِ سبحانه وتعالى رسالاته، وحفظ عنه وَحْيِهِ، وهو أُمِّي لا يعرف من فنون الخط فنّاً، ولا يقرأ من سائرهِ حَرْفاً، فبقي عمود ذلك في أهلِهِ، فهم يَشْرَفُونَ بِالشَّبهِ الْكَرِيمِ فِي نَقْصِ الخط،

(١) الصَّعِيدُ: التراب. والزَّلَقُ: الموضع الذي لا تثبت عليه الأقدام لملاسته.

(٢) في رواية: «فَشِعْرُهُ قَدْ هَجَاهُ».

كما يشرفُ غَيْرُهُمْ بزيادته؛ وإن أمير المؤمنين أخصَّ الناس برسول الله ﷺ، والوارثُ لموضعه، والمتقلدُ لأمره ونهيه، فعلقته به المشابهة الجليلة، وتناهتْ إليه الفضيلة فقال المأمون: يا محمد، لقد تركتني لا آسى على الكتابة^(١)، ولو كنتُ أُمياً.

وهذا شبيهٌ بقول سعيد بن المسيب، وقد قيل له: ما بال قريش أضعفُ العرب شعراً، وهي أشرفُ العرب بيتاً؟ قال: لأنَّ كُؤن رسول الله ﷺ منها قطعَ مَثَنَ الشعر عنها.

من رافة المأمون بعماله

وقال إبراهيم بن الحسن بن سهل: كنّا في مجلس المأمون وعَمَرُو بن مَسْعَدَةَ يقرأ عليه الرِّقَاع، فجاءته عَطَسَةٌ، فلوى عنقه فردّها، فرآه المأمون فقال: يا عمرو، لا تَفْعَلْ فإن ردَّ العَطَسَةِ وتحويل الوجه بها يُورِثان انقطاعاً في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته! فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشامٌ اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إِنَّا لَا نَتَّخِذُ الْإِخْوَانَ خَوَلاً^(٢)! فالذي قال هشام أحسنُ مما قلته. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين: إِنَّ هِشَاماً يَتَكَلَّفُ مَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ، [ويظلم] فيما تعدل فيه، ليس له قرابتك من رسول الله ﷺ، ولا قيامك بحق الله، وإنك والملوك لكما قال النابغة الذبياني: ^(٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(٤)
لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ^(٥)

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة:

تَكَادُ تَمِيدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ إِنْ رَأَوْا لِعَمْرُو بن هِنْدٍ غَضَبَةً وَهُوَ عَاتِبُ^(٦)

(١) لا آسى: لا أحزن.

(٢) الخَوْلُ: الخدم والعبيد.

(٣) النابغة الذبياني، الديوان: ص ١٨. والبيتان من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه.

(٤) السورة: الرفعة والشرف والمزلة. يتذبذب: يضطرب ويتعلق. يقول: إن منازل الملوك دون منزلتك فكأنهم متعلقون دونك.

(٥) في الديوان: «فَإِنَّكَ شَمْسٌ». يقول: أنت بين الملوك كالشمس بين النجوم، فإذا ظهرت غمرتهم بضوئك ومجدك.

(٦) ماد الشيء مِيداً وَمِيدَاناً: تحرك واضطرب.

هُوَ الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَفْضَلْتُ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبُ^(١)

بين يزيد بن معاوية وجميل بن أوس

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس، وكان أكرمه واجتبه: لم كَرِهْتَ الإفراط في تقديمي، وتطامنت^(٢) عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني؟ فقال: [أيد الله سلطانك، وأعلى مكانك]، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم والآداب، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منا، وأكثر للزمان صُحبةً، وأكثر للأيام تجربة، وقد قال الحكميم: بقدر الثواب عند الرضا يكون العقاب عند السخط، وَيَقْدَرُ السَّمَوُ فِي الرَّفْعَةِ تَكُونُ وَجْبةُ الرَّفْعَةِ، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة، ولا يقبل النصيحة، وأنا يا أمير المؤمنين وإن كنت آمناً من التعرض لِسُخْطِكَ والدنو مما يقرب منه، فَلَسْتُ بِأَمِنٍ مِنْ طَعْنِ الْمُسَاوِي فِي الدَّرَجَةِ عندك، وحقر المشارك في المنزلة منك، وليس من تقديمك قليل، ولا من تَعْظِيمِكَ يسير، فإن أقل ذلك فيه النباهة، والفخر، [والثناء] والذكر، وحسي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك، وحسي من تقديمك خالص رضاك، وصفاء ضميرك.

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جُعِلَ الإسكندرُ في تابوت من ذهبٍ تقدّم إليه أحدُهم فقال: كان الملكُ يخبأُ الذهب، وقد صار الآن الذهب يخبؤه، وتقدم إليه آخر، والناسُ يكونون ويجزعون، فقال: حرّكنا بسكونه، أخذه أبو العتاهية فقال:

يَا عَلِيَّ بْنَ ثَابِتٍ بَانَ مِنِّي صَاحِبُ جَلٍّ فَقَدْهُ يَوْمَ بِنْتَا^(٣)
قَدْ لَعَمْرِي حَكَيْتَ لِي غُصَصَ الْمَوِ وَحَرَّكَتَنِي لَهَا وَسَكَّتَا

وتقدم إليه آخر فقال: كان الملكُ يَعْطُنَا فِي حَيَاتِهِ، وهو اليومَ أَوْعَظُ مِنْهُ أَمْسٍ. أخذه أبو العتاهية فقال:

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِطَاطٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

(١) الدجن: إلياس الغيم الأرض وأقطار السماء، يقال: يوم دَجْنٍ، ويوصف به فيقال: يَوْمُ دَجْنٍ، والجمع: أَدْجَانٌ وَدُجُونٌ وَدِجَانٌ.

(٢) تطامن: سكن أو انخفض.

(٣) بان منه وعنه يَبَانٌ وَيُونَا وَيُثُونَةٌ: بَعْدَ وَانْفِصَالِ.

وتقدّم إليه آخر فقال: قد طاف الأرضين ونملكها، ثم جعل منها في أربعة أذرع. ووقف عليه آخر فقال: مالك لا تقلّ عضواً من أعضائك، وقد كنت تستقلّ ملك العباد. ووقف عليه آخر فقال: انظر إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى ظل الغمام كيف انجلى. وقال آخر: مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان، وقد كنت ترغب بها عن رحب^(١) البلاد. وقال آخر: [كان الملك غالباً فصار مغلوباً، وآكلاً فصار مأكولاً. وقال آخر]: أمانت هذا الميت كثيراً من الناس ثلثاً يموت، وقد مات الآن. وقال آخر: ما كان أقبح إفراطك في التجبر أمس، مع شدة خضوعك اليوم. وقالت بنت دارا: ما علمت أن غالب أبي يعلّب. وقال رئيس الطباخين: قد نُضِدت النضائد^(٢)، وألقبت الوسائد، ونُصِبت الموائد، ولست أرى عميد المجلس!

جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار في ذكر السلطان

أشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً. لا بُدركُ الغنى بالسلطان إلا نفس خائفة، وجسم تعب، ودين مثلم. إن كان البحر كثير الماء فإنه بعيد المهوى، ومن شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة. فساد الرعية بلا ملك كفساد الجسم بلا روح. إذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً. من صحب السلطان صبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بخره. الملك بالدين يقي، والدين بالملك يقوى. من نصح لخدمة نصحته المجازاة. لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه؛ فإن البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حال سكونه، فكيف عند اختلاف رياحه، واضطراب أمواجه؟

ومن كلام أهل العصر وغيرهم في هذا النحو

الأوطان حيث يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فلها البشرى بالعز والإمارة. أحر بالملك العادل أن يستقل سريره في سرّة الأرض. ريح السلطان على قوم سموم^(٣)، وعلى قوم نسيم. أخلق بدم المستخف بالجبايرة أن يكون جباراً^(٤). من غمس

(١) الرحب: الواسع.

(٢) نضد الشيء نضداً: ضم بعضه إلى بعض مُتَّصِفاً. والنضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة، أو ما حُشي من المتاع.

(٣) سموم: حارة مُحَرقة.

(٤) الجبار: الهذر، وهو ما لا قصاص فيه، ولا غرم، يقال: ذهب دمه جباراً، ويقال: حرب جبار: لا دية فيها ولا قصاص.

يده في مال السلطان فقد مشى بقدمه على دمه. الملك خليفة الله في عباده وبلايه، ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته. الملك من ينشر أثواب الفضل، ويبسط أنواع العدل. السلطان كالنار، إن باعدتها بطل نفعها، وإن قاربها عظم ضررها. إقبال السلطان تعب وفتن، وإعراضه حيرة ومذلة. صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب. السلطان إذا قال لِعَمَّالِهِ: هاتوا، فقد قال لهم: خذوا. ثلاثة لا أمان لهم: السلطان، والبحر، والزمان. ليكن السلطان عندك كالنار، لا تدنو منها إلا عند الحاجة إليها، وإن اقتبست منها فعلى حذر. مثل أصحاب السلطان كقوم رَفُّوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم في المرقى. مثل السلطان كالجبل الصَّعب الذي فيه كل ثمرة طيبة، وكل سَنع حطوم، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد. لئن عزَّ الملوك في الدنيا بالجور لينزلن في الآخرة [بالعدل].

لابن عَبَّاد الصَّاحِبِ:

إِذَا وَلَّاكَ سُلْطَانٌ فَزِدْهُ مِنْ التَّعْظِيمِ وَاحْذَرْهُ وَرَاقِبْ
فَمَا السُّلْطَانُ إِلَّا الْبَحْرُ عَظْمًا وَقُرْبُ الْبَحْرِ مَحْذُورُ الْعَوَاقِبِ

[وصف كاتبة]

ووصف أحمد بن صالح بن شيران^(١) جارية كاتبة فقال: كَانَ خَطُّهَا أَشْكَالَ صَوْرَتِهَا، وَكَأَنَّ مِدَادَهَا سَوَادُ شَعْرِهَا، وَكَأَنَّ قِرْطَاسَهَا أَدِيمٌ وَجْهَهَا، [وَكَأَنَّ قَلَمَهَا بَعْضُ أَنْامِلِهَا، وَكَأَنَّ بَنَانَهَا سِحْرٌ مُقْلَتِهَا، وَكَأَنَّ سِكِّينَهَا غُنْجٌ لِحْظُهَا] وَكَأَنَّ مِقْطَهَا قَلْبٌ عَاشِقُهَا.

[وصف غلام كاتب]

وَقَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ يَصِفُ غُلَامًا كَاتِبًا:

انْظُرْ إِلَى أَثَرِ الْمِدَادِ بِخَدِهِ كَبَفْسِجِ الرَّوْضِ الْمَشُوبِ بِوَرْدِهِ
مَا أَخْطَأَتْ نُونَاتُهُ مِنْ صُدْغِهِ شَيْئًا، وَلَا أَلْفَاتُهُ مِنْ قَدِهِ
أَلَقْتُ أَنْامِلُهُ عَلَى أَقْلَامِهِ شَبْهًا أَرَاكَ فِرْنْدَهَا كَفِرْنْدِهِ^(٢)

(١) في نسخة «بن بشير».

(٢) فرند السيف: ما يلمح في صفحته من أثر تموج الضوء.

وكانما أنفاسُهُ من شَعْرِهِ وكانما قِرْطاسُهُ من خَدِّهِ^(١)
وقال أحمد بن أبي سمره الدارمي فيما ينظر إلى هذا من طَرْفٍ خَفِيِّ:

[سَرَابُ الْفِيَا فِي صَادِقٍ عِنْدَ وَعْدِهَا وَسُمْ الْأَفَاعِي مُبْرِيٌّ عِنْدَ صَدِّهَا]
رَمَتْنِي وَلَمْ أَسْعَدْ بِأَيَّامٍ وَصَلِهَا بَعَيْنِي مَهَاةً أَنْحَسْتَنِي بِبُعْدِهَا
فَعَلَّقَهَا قَلْبِي كَمَا قَدْ تَعَلَّقْتُ صَوَالِحَ صُدُغَيْهَا بِتَفَاحِ خَدِّهَا^(٢)
فَقَلْبِي لَمَّا أضعفته كَخَضَرِهَا وَدَمْعِي لَمَّا نَظَّمْتُهُ كَعَقْدِهَا
وَنَيْلُ الثَّرِيَّا مُمَكِّنٌ عِنْدَ وَصَلِهَا وَأَسْرَعُ مِنْ بَرَقٍ تَنَاقَضُ وَعْدِهَا

[من بديع الزمان إلى ابن العميد]

رقعة كتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه: أين تكرم الشيخ العميد أيده الله على مولاه؟ وكيف معدلته إلى سواه؟ أيقصر في النعمة، لأنني قصرت في الخدمة؟ إذن فقد أساء المعاملة، ولم يحسن المقابلة، وعثر في أذيال السُّهُو، ولم ينش بيده العفو، أم يقول: إن الدهر بيننا خُلِعَ، وفيما بعد مُتَّسِع، فقد أزف رَحِيلِي^(٣)، ولا ماء بعد الشَّطِّ، ولا سطح وراء الخط؛ أم ينتظر سؤالي؟ وإنما سألته، يوم أملتُه، واستمنحتُه^(٤)، يوم مدحته، واقتضيته، يوم أتيتُه، وانتجعت سحابه، لما قرعت بابه، وليس كل السؤال أعطني، ولا كل الرد أعفني؛ أم يظن - أيده الله تعالى - أنني أردت صِلَتَه، ولا ألبس خلعتَه؟ وهذه فِرَاسَةُ الْمُؤْمِنِ، إلا أنها باطلة، ومَخِيلَةُ الْعَارِفِ، إلا أنها فاسدة؛ أم ليس يجد في مكاناً للنعمة يَضَعُهَا، وأرضاً للمنة يزرعها؟ فلا أقل من تجربة دفعة، والمخاطرة بإنفاذ خلعة، ليخرج من ظلمة التخمين، إلى نور اليقين، وينظر أشكر أم أكفر؟ أم يتوقع - أيده الله - صاعقة تملكني، أو بائقة تهلكني^(٥)، فلهذا أَمَلْتُ مُوَفَّرَ، لأن شيخ السوء باقٍ مُعَمَّرٌ؛ أم يقدر - أيده الله - أنني أشكره إذا اصطنع، وأعذره إذا منع، وتالله لو كنت ينبوع المعاذير ما حظي منها بجرعة، فَلْيُرْحَنِي بِسُرْعَةٍ.

(١) الأنفاس: جمع نفس، وهو الحبر.

(٢) الصَّوَالِحُ: جمع الصَّالِح: الصافي الخالص، أو عصاً معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة.

(٣) أزف رحيلي: قرب.

(٤) استمنحته: طلبت منحه.

(٥) البائقة: المهلكة.

[بين البديع وأبي القاسم الهمداني]

وكتب أبو القاسم الهمداني إلى البديع: قد كتبت لسدي حاجة إن قضاها وأمضاها، ذاق حلاوة العطاء، وإن أباهها وفلّ شباها^(١) لقي مرارة الاستبطاء، فأبي الجودين أخفّ عليه؟ أجود بالعلق^(٢)، أم جود بالعرض؟ ونزول عن الطريف، أم عن الخلق الشريف؟

فأجابه: جعلت فداك هذا طيخ، كله توبيخ، وثرید، كله وعید، ولقم، إلا أنها نقم، ولم أر قدراً أكثر منها عظماً، ولا آكلاً أكثر مني كظماً، ولم أر شربة أَمَر منها طعماً، ولا شارباً أتم مني حلماً، ما هذه الحاجة؟ ولتكن حاجتك من بعد أَلين جوانب، وألطف مطالب، توافق قضاها وترافق ارتضاءها، إن شاء الله تعالى.

من مقامات بديع الزمان الهمداني

وفي مقامات أبي الفتح^(٣) الإسكندري من إنشائه، قال:

حدثنا عيسى بن هشام قال: أحلني جامع بخارى يوم، وقد انتظمت مع رُفقة في سبط الثريا، وحين احتفل الجامع بأهله طلع علينا ذو طمرين^(٤)، قد أرسل صواناً، واستلى [طفلاً] عُرِياناً، يضيق بالضرر وسُعه، وبأخذه القرّ ويدّعه، لا يملك غير القشرة^(٥) برّدة، ولا يلتقي لحيّاه رعدة، ووقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا الطفل إلا من رحم طفله، ولا يرق لهذا الضر إلا من لا يأمن مثله، يا أصحاب الجدود المفروزة، والأردية المطروزة، والدور المنجّدة، والقصور المشيدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً، ولن تعدموا وارثاً، فبادرُوا الخير ما أمكن، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن، فقد والله طعمنا السكّاج^(٦)، وركبنا الهملاج^(٧)، ولبسنا الديباج، وافترشنا الحشاي بالعيشاي، فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدّره، وانقلاب المجنّ لظهره، فعاد الهملاج قُطوفاً^(٨)، وانقلب الديباج صُوفاً، وهلم جراً، إلى ما تشاهدون

(١) فلّ: كسر وحطم. وشباها: حدّها.

(٢) العلق: النفيس الذي يتغالى فيه.

(٣) أي مقامات بديع الزمان الهمداني التي وضعها على لسان أبي الفتح الإسكندري.

(٤) الطمر: الثوب الخلق البالي.

(٥) القشرة: الجلد.

(٦) السكّاج: ضرب من الطعام، لحم يخلّ.

(٧) الهملاج: الفرس السريع.

(٨) القُطوف: البطيء السير.

من حَالِي وَرَيِّي، فها نحن نرضع من الدهر ثَدْيِي عَقِيم، وَنَرْكَبُ من الفقر ظهر بَهِيم، ولا نَرَوُ إِلَّا بعين اليتيم، ولا نمد إلا يد العديم، فهل من كريم يجلو عنا غياهب هذه البؤوس، ويفلُّ شَبَا هذه النَحُوس؟ ثم قعد مرتفقاً، وقال للطفل: أنت وشأنك. فقال: وما عسى أن أقول، وهذا الكلام لو لقي الشعر لَحَلَقَه، أو الصخر لَفَلَقَه، وإن قلباً لم يُضِجْهُ ما قلت لَنِي! قد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم، فليشغل كل منكم بالجود يده، وليذكر غَدَه، وإِقْيَا بي ولده، واذكروني أذكركم، وأعطوني أشكركم!

قال عيسى بن هشام: فما أنسني في وَحْدَتِي إِلَّا خَاتَم خَتَمَتْ به خنصره، فلما تناوله أنشأ يقول:

وَمُمْنَطَقِي مَنْ نَقَبِهِ	بِقِلَادَةِ الْجُوزَاءِ حُسْنًا
كَمَتَيْتُم لِقَايَ الْحَيِّ	بَبَفَضِّهِ شَغْفًا وَحُزْنًا
مُتَأَلِّفٍ مِنْ غَيْرِ أُنْ	رَرْتَهُ عَلَى الْأَيَّامِ خِذْنًا
عَلَّقْتُ سِنِّي قَدْرُهُ	لَكِنْ مَنْ أَهْدَاهُ أَسْنَى
أَقْسَمْتُ لَوْ كَانَ الْوَرَى	فِي الْمَجْدِ لَفُظًا كُنْتُ مَعْنَى

قال عيسى بن هشام: فتبعته حتى سَفَرَتِ الْخُلُوةُ عن وجهه، فإذا والله شيخنا الإسكندري، وإذا الصبي غلاماً له، فقلت:

أَبَا الْفَتْحِ شَبْتُ وَشَبَّ الْغِلَامُ فَأَيْنَ الْكَلَامُ، وَأَيْنَ السَّلَامُ؟^(١)

فقال:

غَرِيباً إِذَا جَمَعَتْنَا الطَّرِيقُ أَلِفاً إِذَا نَظَّمَتْنَا الْخِيَامُ

فعلمت أنه كره لقائي، فتركته وانصرفْتُ.

[وصف فص وخاتم]

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصاً:

سَاجِلٌ بِفَضْلِكَ مَنْ أَرَدْتُ وَبَاهِهِ فَكُفَى بِهِ كَمْدًا لِقَلْبِ الْحَاسِدِ^(٢)

(١) في رواية: «شَبْتُ وَشَابَّ الْغِلَامُ».

(٢) ساجله: باراه وفاخره.

مُتَالِقٌ فِيهِ الْفِرْنَدُ كَانَهُ وَجْهِي غَدَاةٌ نَدَى وَضَيْفٍ قَاصِدٍ
لَوْ أَنَّ ظَمَأَى مِنْهُ عُلَّتْ لَارْتَوَتْ مِنْ مَاءِ جَوْهَرِهِ الْمَعِينِ الْبَارِدِ^(١)
بَهَرِ الْعُيُونِ إِضَاءَةً فِي رِقَةٍ فَكَأَنَّنِي مُتَخَتِّمٌ بِعُطَارِدِ^(٢)

لبعض المحدثين

وقال بعضُ المُحَدِّثِينَ يَصِفُ خَاتَمًا:
وَوَحِيدُ الْكِيانِ صِيغَ بَدِيعًا فَإِذَا تَمَّ صِيغَ مِنْ جَوْهَرَيْنِ
خَلَعَتْ خَجَلَةُ الْخُدُودِ عَلَيْهِ خِلْعًا قَدْ لُبِّنَ فَوْقَ اللَّجِينِ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَهُ فِي بَنَانٍ قَدْ كَسَاهَا مِنْ حُئْنِهِ حُلَّتَيْنِ
قُلْتُ نَجْمٌ هَوَى مِنْ الْجَرِّ حَتَّى صَارَ مَجْرَى بُرُوجِهِ فِي الْيَدَيْنِ

للبحثري

وقال البحثري يَسْتَهْدِي الْمَعْتَزَ فَصًّا:^(٣)
فَهَلْ أَنْتَ يَا بَنَ الرَّاشِدِينَ مُخْتَمِي يِاقُوتَةٍ تُبْهِي عَلَيَّ وَتُشْرِقُ
إِذَا بَرَزْتَ وَالشَّمْسُ قَلْتَ تَجَارِيَا إِلَى أَمَدٍ أَوْ كَادَتْ الشَّمْسُ تَسْبِقُ^(٤)
إِذَا التَّهَبْتُ فِي اللَّحْظِ ضَاهِي ضِياؤُهَا جَبِينِكَ عِنْدَ الْجُودِ إِذْ يَتَأَلَّقُ^(٥)
أُسْرَبُلُ مِنْهَا ثُوبٌ فَخَرٍ مُعْجَلٍ فَيَبْقَى بِهَا ذِكْرٌ عَلَى الدَّهْرِ مُخْلِقُ

لأبي الفتح كشاجم

وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم:
عَرَضْنَ فَعَرَضْنَ الْقُلُوبَ مِنَ الْهَوَى لِأَسْرَعَ فِي كَيِّ الْقُلُوبِ عَلَى الْجَمْرِ

- (١) العلل (في الأصل): هو الشرب الثاني، والمراد هنا الشرب مطلقاً.
(٢) بهر الشيء فلاناً: أدهشه وحيره، وبهرت الشمس الأرض: عمها نورها، وبهرت فلانة النساء: فاقتنهن حسناً.
(٣) البحثري، الديوان: ١/ ١٧٠.
(٤) في الديوان: «قلت تجارتاً».
(٥) ضاهى: أشبه. ويتألق: يضيء.

كَأَنَّ الشَّفَاةَ اللَّعْسَ مِنْهَا خَوَاتِمٌ مِنْ التَّبَرِّ مَخْتَوِمٌ بِهِنَّ عَلَى الذُّرِّ^(١)
وقال الناظم:

يَرُوعُ مُنَاجِيهِ بِهَارُوتٍ لَحْظِهِ وَيُؤْنِسُهُ مِنْهُ بِصُورَةِ آدَمِ
تَرَى فِيهِ لَاماً فَرْدَةً فَوْقَ وَرْدَةٍ وَفَصًّا مِنَ الْيَاقُوتِ مِنْ فَوْقِ خَاتَمِ

[مفاضلة بين الكلام والصمت]

وقال أبو تمام الطائي: تذاكرنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضله، والصمتَ ونُبِّله، فقال: ليس النُّجْمُ كالقمر؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبرُ منه.

قال الجاحظ: كيف يكون الصمتُ أنفعَ من الكلام، ونفعُهُ لا يكادُ يجاوزُ صاحبه، ونفعُ الكلامِ يعمُ ويخصُ، والرواةُ لم تَرَوْ سَكُوتَ الصَّامَتَيْنِ، كما روتِ كلامَ الناطقين؛ فبالكلامِ أرسل اللهُ تعالى أنبياءَه لا بالصَّمتِ، ومَوَاضِعُ الصَّمتِ المَحمودَةُ قليلة، ومَوَاطِنُ الكلامِ المَحمودَةُ كثيرةٌ، وبَطُولُ الصَّمتِ يَفْسُدُ البَيانُ. وكان يقال: مُحَادَثَةُ الرِّجَالِ تَلْقِيحٌ لِأَلْبَابِهَا.

وذكر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال: إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَّرَ أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ، وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ يَتَكَلَّمُ فَيُحْسِنَ.

قال بعضُ النساك: أَسَكْتَنِي كَلِمَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ عَشْرِينَ سَنَةً؛ وَهِيَ: مَنْ كَانَ كَلَامُهُ لَا يُوَافِقُ فَعَلُهُ فَإِنَّمَا يُوَيِّخُ نَفْسَهُ.

[الحنين إلى الأوطان]

قال أبو عمرو بن العلاء: مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حُرْبَةِ الرَّجُلِ وَكُرْمِ غَرِيزَتِهِ حَنِينُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَتَشَوُّقُهُ إِلَى مُتَقَدِّمِ إِخْوَانِهِ، وَبِكَأَوِّهِ عَلَى مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهِ.

وقالوا: الْكَرِيمُ يَحْنُ إِلَى جَنَابِهِ، كَمَا يَحْنُ الْأَسَدُ إِلَى غَايِهِ.

وقالوا: يَشْتَاقُ اللَّيِّبُ إِلَى وَطْنِهِ، كَمَا يَشْتَاقُ النَّجِيبُ إِلَى عَطْنِهِ^(٢).

(١) اللعس: جمع لعساء، وهي التي فيها خيط أسمر، وهو مما يمتدح به.

(٢) النجيب هنا: الجمل الأصيل، الكريم: العطن: مبارك الإبل، أي مكان بُرُوكها.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن

بلد لا تُؤثر عليه بلداً، ولا تَصْبِر عنه أبداً. هو عِشَّة الذي فيه دَرَج، ومنه خَرَج. مجمع أُسْرته، ومقطع سُرَّته. بلد أنشأته تُرْبته، وغذاه هواؤه، ورباه نَسِيمُهُ، وحُلَّت عنه التماثُ فيه.

قالوا: وكان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك، حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من الثَّجَّار، يعرف بابن أبي كامل، أجبره على بيع داره واغصبه بعض جُدرها، بقوله: ^(١)

لابن الرومي في تعليل الحنين إلى الوطن

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلَا أَيْعُهُ
عَهْدْتُ بِهِ شَرِّحَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً
وَحَبَّبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ
فَقَدْ أَلْفَيْتُ النَّفْسَ حَتَّى كَأَنَّهُ
لَهَا جَسَدٌ إِنْ بَانَ غُودَرَ هَالِكاً ^(٢)
كَنِعْمَةٍ قَوْمٌ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا ^(٣)
مَارَبٌ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا ^(٤)
عُهُودَ الصَّبَا فِيهَا فَحَثُّوا لِذَلِكَ
لَهَا جَسَدٌ إِنْ بَانَ غُودَرَ هَالِكاً ^(٥)

يقول له فيها:

وَقَدْ عَزَّنِي فِيهَا لَيْثٌ وَسَامِنِي
وَمَا هُوَ إِلَّا نَسْجُكَ الشَّعْرِ ضَلَّةٌ
بَصِيرٌ بِتَسَالِ الْمُلُوكِ، وَلَمْ يَكُنْ
فَقَالَ لِي أَجْهَدُ فِيَّ جَهْدَ احْتِيَالِكَا ^(٦)
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا ضَلَّةٌ مِنْ ضَلَالِكَا ^(٧)
يَعَارٍ عَلَى الْأَحْرَارِ مِثْلُ سُؤَالِكَا ^(٨)

(١) ابن الرومي، الديوان: ١٩/٥.

(٢) الوطن هنا: الدار. آليت: أقسمت.

(٣) شرح الشباب: أوله ونضارته.

(٤) المارِب: الحاجات، مفردها: مارِب.

(٥) بان: بعد وانفصل.

(٦) عَزَّنِي: غلبني. وفي الديوان:

وَرَاغَمْنِي فِيمَا أَنَى مِنْ ظِلَامَتِي وَقَالَ لِي: أَجْهَدُ فِيَّ جَهْدَ احْتِيَالِكَا

(٧) في الديوان: «فَمَا هُوَ إِلَّا نَسْجُكَ الشَّعْرِ سَادِرًا». وَسَدَرَ فُلَانٌ سَدْرًا وَسَدَارَةً: لم يهتم، ولم يبال ما صنع.

(٨) في الديوان: «يَعِيرُ سُؤَالَ الْمُلُوكِ».

وَلَاتِي وَإِنْ أَضْحَى مُدِلًّا بِمَالِهِ لَأَمْلُ أَنْ أَضْحَى مُدِلًّا بِمَالِكَا^(١)
فَإِنْ لَمْ تُصْبِنِي مِنْ يَمِينِكَ نِعْمَةً فَلَا تُخْطِئَنَّهُ نِقْمَةً مِنْ شِمَالِكَا^(٢)
فَكَمْ لَقِيَ الْعَافُونَ بَدْءًا وَعَوْدَةً نَوَالِكَ وَالْعَادُونَ مَرَّ نِكَالِكَا^(٣)

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي: أثناني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه، وقال: أنصِفْنِي، وقل الحق: أيهما أحسن قولِي في الوطن أو قول الأعرابي:

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنَعِجٍ إِلَيَّ وَسَلَمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا^(٤)
بِلَادٌ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا^(٥)

فقلت: بل قولك؛ لأنه ذكر الوطن ومحَبَّته، وأنت ذكرت العلة التي أوجبَتْ ذلك.

وله يشتاق إلى بغداد

وقال ابن الرومي أيضاً يشتاق إلى بغداد، وقد طال مقامه بِسُرٍّ من رأى^(٦):

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّيْبَةَ وَالصَّبَا وَلَبِسْتُ ثَوْبَ الْعَيْشِ وَهُوَ جَدِيدُ^(٧)
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَغْصَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ^(٨)

وقال أبو العباس: ولما احتفل القائل في هذا المعنى السابق إليه قال:

بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي

وقد تقدّم. وإذا كانت تمانمه قطعت بأبرق العزّاف، وكان التراب الذي مَسَّ جلده

(١) في الديوان: «لَأَمْلُ أَنْ أُلْفَى».

(٢) في الديوان: «فَإِنْ أَخْطَأْتَنِي مِنْ يَمِينِكَ نِعْمَةً».

(٣) في الديوان: «فَكَمْ لَقِيَ الْعَافُونَ عَوْدًا وَبَدْءًا». والنكال: العقاب، أو النازلة، قال تعالى: «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا». (سورة البقرة، آية ٦٦). والعافون: طالبو المعروف.

(٤) صاب السحاب بالمطر: جاد، وصاب المطر صَوْبًا وَصِيْبِيَّةً: انصب.

(٥) نيطت: علقت. التمانم: جمع تميمة، وهي العُوْدَةُ تُعَلَّقُ عَلَى الصَّبِيِّ تَمْنَعُ عَنْهُ الْعَيْنَ فِي زَعْمِهِمْ، أَوْ الرُّقِيَّةُ يُرْقَى بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَرْعٍ أَوْ جُنُونٍ.

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢٧٠ / ٢.

(٧) في الديوان: «وَلَبِسْتُ فِيهِ الْعَيْشَ وَهُوَ جَدِيدٌ».

(٨) في الديوان: «وَعَلَيْهِ أَفْكَانُ الشَّبَابِ تَمِيدٌ». تميد: تتحرك وتتمايل.

تراب جزيرة سيرا، وجب أن يحن إليه حنين المتأسفين على غوطة دمشق، وقصور مدينة السلام، ونجف الجزيرة، ومستشرق الخورنق، وجوسق سر من رأى، لَمَّا بعد عنها، وطال مقامه بغيرها، كلاً، ولكن هذا الرجل علم أن الحنين إلى الأوطان لما تُذكر من معاهد اللهو فيها، بحدّة الشباب الذي ذكر أن غول سكرته، يغطي علي مقدار فضيلته، في قوله: ^(١)

لَا تَلْعُ مَنْ يَكْسِي شَيْبَتَهُ إِذَا لَمْ يَبْكِيهَا بِدَمٍ
عَيْبُ الشَّيْبَةِ غَوْلُ سَكْرَتِهَا مِقْدَارُ مَا فِيهَا مِنَ النَّعَمِ ^(٢)
لَمَّا نَرَاهَا حَقَّ رُؤَيْتِهَا إِلَّا أَوَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ ^(٣)
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا حَتَّى تُغَشَّى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يُبَيِّنُهُ وَجَدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ

أخذها هذا من قول الطائي: ^(٤)

رَاحَتْ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِه فَارَعَةَ الْأَيْدِي مِلَاءَ الْقُلُوبِ ^(٥)
قَدْ عَلِمْتُ مَا رُزِقْتُ، إِنَّمَا يُعْرِفُ فَقَدْ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبِ

لبشار بن برد في حب الوطن

وأخذ ابن الرومي قوله في صفة الوطن من قول بشّار: ^(٦)

مَتَى تُعْرِفِ الدَّارَ الَّتِي بَانَ أَهْلُهَا يَسْعُدَى فَإِنَّ الْعَهْدَ مِنْكَ قَرِيبُ ^(٧)
تُذَكِّرُكَ الْأَهْوَاءُ إِذْ أَنْتَ يَافِعٌ لَدَيْهَا فَمَعْنَاهَا لَدَيْكَ حَيِيبُ ^(٨)

(١) ابن الرومي، الديوان: ١٠٢/٦.

(٢) الغول: الهلاك، يقال: غالته الخمرة: شربها فذهبت بعقله أو بصحة بدنه، ويسمى «السكر» الغول.

(٣) في الديوان: «إِلَّا زَمَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ».

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢٨٤/٢. والبيتان من قصيدة يرثي بها إسحاق بن أبي ربيع.

(٥) ملأ القلوب: أي بالحزن عليه.

(٦) بشار بن برد، الديوان: ١٤٦/١. والبيتان من قصيدة ينسب بها يسعدى بنت صقر بن قعقاع المالكية، من بني بكر.

(٧) بان أهلها: ارتحلوا وابتعدوا.

(٨) يافع: شاب. المغنى: المنزل الذي غني فيه أهله، ثم ظعنوا عنه.

لبعض الأعراب

أو من قول بعض الأعراب:

ذَكَرْتُ بِلَادِي فَاسْتَهَلَّتْ مَدَامِعِي بِشَوْقِي إِلَى عَهْدِ الصَّبَا الْمُتَقَادِمِ^(١)
حَنَنْتُ إِلَى أَرْضٍ بِهَا اخْضَرَ شَارِبِي وَقُطِّعَ عَنِّي قَبْلَ عَقْدِ التَّمَائِمِ

لرجاء بن هارون العكي

وأشدد ثعلب لرجاء بن هارون العكي:

أَحْنُ إِلَى وَادِي الْأَرَاكِ صَابَةً لِعَهْدِ الصَّبَا فِيهِ وَتَذْكَارِ أَوَّلِ
كَأَنَّ نَسِيمَ الرِّيحِ فِي جَنَابَتِهِ نَسِيمُ حَيِّبٍ أَوْ لِقَاءِ مُؤَمِّلِ

قال أبو بكر الصولي: ولست أشك أنه من قول رجاء أخذ، وبه ألم، وعليه عَوَّل؛ لأنه في تناوله المعنى غريبُ الأخذ، عَائِرُ السَّهْمِ^(٢)، لا يعارض معنى معروفاً إذا أشدد علم الناس أنه مَعْدِنُهُ الذي انتحته منه.

وقد اختلس معنى قول ابن الرومي:

فَقَدْ أَلْفَتُهُ النَّفْسُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَهَا جَسَدٌ إِنْ بَانَ غَوَدَرَ هَالِكَا

للإيادي

أخذه علي بن محمد الإيادي وقال فأحسن الأخذ ولطف في السرقة:

بِالْجَزَعِ فَالْحَبَّتَيْنِ أَشْلَاءَ دَارَ ذَاتِ لَيْسَالٍ قَدْ تَوَلَّتْ قِصَارَ
بَانُوا فَمَاتَتْ أَسْفَا بَعْدَهُمْ وَإِنَّمَا النَّاسُ نُفُوسُ الدِّيَارِ

لأعرابي

وقال أعرابي:

أَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ وَطِيبُ تُرَابِهِ تُصَافِحُهُ أَيْدِي الرِّيحِ الْغَرَائِبِ
وَعَهْدُ صَبَا فِيهِ يُنَازِعُكَ الْهَوَى بِذَلِكَ أَتْرَابٌ عِذَابُ الْمَشَارِبِ

(١) استهلت مدامعي: انهمرت، وهطلت، وسالت.

(٢) السهم العائر: الذي لا يعرف راميهِ.

تَنَالَ الْمُتَى مِنْهُنَّ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ عَذَابُ الشَّيَا وَارِدَاتُ الذَّوَائِبِ^(١)

لابن ميادة

وقال ابن ميادة^(٢) يخاطبُ الوليدَ بن يزيد.

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بِحَرَّةٍ لَيْلَى حَيْثُ رَبَّتَنِي أَهْلِي
بِلَادٍ بِهَا نِطَطْتُ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَقُطِّعَنَ عَنِّي حِينَ أَدْرَكَنِي عَقْلِي
فَإِنْ كُنْتُ عَنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ مَانِعِي فَأَفْشِ عَلَيَّ الرِّزْقَ وَاجْمَعْ إِذَا شَمْلِي

وقال سوار بن الصرير^(٣)، ورويت لمالك بن الرب: ^(٤)

سَقَى اللّهُ الْيَمَامَةَ مِنْ بِلَادٍ نَوَاتِحُهَا كَأَرْوَاحِ الْغَوَانِي^(٥)
وَجَوًّا زَاهِرًا لِلرَّيْحِ فِيهِ نَسِيمٌ لَا يَرُوعُ التَّرْبَ وَإِنِّي
بِهِ شَقْتُ الشَّبَابَ إِلَى زَمَانٍ يُقْبَحُ عِنْدَنَا حُنُّ الزَّمَانِ

لأعرابي

وقال أعرابي:

- (١) الذوائب: جمع ذؤابة، وأراد الشعر، ووروده: استرساله.
- (٢) هو أبو شرحبيل، وأبو حرملة، الرماح بن أبرد بن ثويان بن سراقبة الذيباني الغطفاني المضري: شاعر رقيق، هجاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. اشتهر بنسبه إلى أمه ميادة، وهي امرأة صقلبية من أهل إسبانية. وفي شعره سلامة الطبع، وفصاحة الأعراب، ومحاسن المحدثين وملحهم توفي سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٢٢٧؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ١٤٣).
- (٣) في رواية: «سوار بن المضرب». وهو أحد بني ربيعة بن كعب بن زيد مائة بن تميم، الشاعر المشهور، المعروف بابن المضرب، ومعناه: الذي ضرب مرة بعد مرة. (الجاحظ، الحيوان: ٣/ ٤٤٠، الحاشية رقم ٤).
- (٤) هو مالك بن الرب بن حوط بن فرط بن حسل بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: شاعر فائق لص، نشأ في بادية بني تميم يقطع الطريق، وأخباره مع شظاظ الضبي وغيره من قطاع الطرق مشهورة. لحق بسعيد بن عثمان بن عفان، فغزا معه خراسان، وبقي فيها حتى مات سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م (الهواري، روائع من الأدب العربي: ١٧٠).
- (٥) في رواية: «نوافجها كأرواح الأغاني». والنوافج: جمع نافجة، وهي الريح الشديدة الهبوب والأرواح: جمع ريح.

أَقُولُ لَصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَخْذِي بِنَا بَيْنَ الْمُئِنَّةِ فَالضُّمَارِ^(١)
 تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ غَرَارِ^(٢)
 أَلَا يَا حَبْذَا نَفَحَاتِ نَجْدٍ وَرَيْسَا رَوْضِهِ غَبِّ الْقَطَارِ^(٣)
 [وَأَهْلِكَ إِذْ يَحِلُّ الْقَوْمُ نَجْدًا وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ]
 شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ
 وهذا البيت كقول الآخر:

سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا لَنَا قَدْ تَابَعْتَ وَسَقِيًا لِعَصْرِ الْعَامِرِيَّةِ مِنْ عَصْرِ
 لِيَالِيٍّ أَعْطَيْتُ الْبَطَالََةَ مِفْوْدِي تَمَرُّ اللَّيَالِيِّ وَالشُّهُورُ وَلَا أَدْرِي

ابن الرومي يهجو سليمان بن عبد الله بن طاهر

وتخلَّفَ سليمان عن نصرة ابن الرومي؛ فذاك الذي هاجمه على هجائه، فمن ذلك قوله، وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً: ^(٤)

جَاءَ سُلَيْمَانُ بَنِي طَاهِرٍ فَاجْتَنَحَ مُعْتَزَ بَنِي الْمُعْتَصِمِ
 كَأَنَّ بَغْدَادَ وَقَدْ أَبْصُرْتُ طَلَعَتْهُ نَائِحَةٌ تَلْتَدِمُ^(٥)
 مُسْتَقْبِلٌ مِنْهُ وَمُسْتَدْبِرٌ وَجْهٌ بِخَيْلٍ وَقَفَا مِنْهُمْ زِمٌ
 وقال: ^(٦)

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ^(٧)
 كَمْ يَعُدُّ الْقِرْنَ بِاللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ^(٨)

(١) العيس: الإبل. تخذي: تسرع في سيرها. والمئينة: ماء لتحميم. والضمار: موضع.

(٢) العرَّار: نبات طيب الرائحة، الواحدة عرارة.

(٣) غب القطار: بعد المطر.

(٤) ابن الرومي، الديوان: ٨/٦.

(٥) في الديوان: «لئن أبصرت». وتلتدم: تلطم وجهها.

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢٠٥/٤.

(٧) أتلفه: أهلكه وأعطبه. وفي الديوان: «سيدنفه»، وأدنفه: أمرضه.

(٨) القرن: واحد الأقران: الأبطال الأكفاء.

لَا يَعْرِفُ الْقِرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِيحٍ، فَيَعْرِفُهُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض الخوارج، وقد قال له أبو جعفر المنصور:

أَخْبِرْنِي أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكَ، فَقَالَ: مَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ، فَقُلْ لَهُمْ يَدْبُرُوا أَعْرَفُكَ.

وفي هذه المنازعة يقول ابن الرومي لمواليه بني هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور: ^(١)

تَخَذْتُكُمْ دِرْعًا عَلَيَّ لِتَذْفَعُوا نِيَالَ الْعِدَى عَنِّي فَكُنْتُمْ نِيَالَهَا ^(٢)
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْكُمْ خَيْرَ نَاصِرٍ عَلَى حِينِ خِذْلَانِ الْيَمِينِ شِمَالَهَا
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَحْفَظُوا لِمَوَدَّتِي ذِمَامًا فَكُونُوا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا
قِفُوا مَوْقِفَ الْمَعْدُورِ عَنِّي بِمَعْزِلٍ وَخَلُّوا نِيَالِي وَالْعِدَا وَنِيَالَهَا

ألفاظ لأهل العصر، في وصف الأمكنة والأزمنة

بلدة كأنها صورة جنة الخلد، منقوشة في عَرْضِ الأرض. بلدة كأن محاسن الدنيا مجموعة فيها، ومحصورة في نواحيها. بلدة كأن ترابها عنبر، وحَصْبَاءُهَا عقيق ^(٣)، وهواءها نسيم، وماءها رَحِيق. بلدة معشوقة السُّكْنَى، رَحْبَةُ الْمَثْوَى ^(٤)، كَوْكُبُهَا يَقْطَان، وَجَوْهَا عُريَان، وَحَصَاها جَوْهر، وَنَسِيمُها مُعْطَر، وَتَرَابُها مِسْك أَذْفَر ^(٥)، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مَرِي. بلدة واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد وسررتها، ووجهها وغرتها.

ولهم في ضد ذلك

بلد مُضَايِقُ الحدود والأفنية، متراكب المنازل والأبنية. بلد حرُّها مؤذٍ، وماؤها غير

(١) ابن الرومي، الديوان: ٩٧/٥.

(٢) في الديوان: «تَخَذْتُكُمْ دِرْعًا وَتُرْسًا لِتَذْفَعُوا».

(٣) الحصباء: صغار الحصى.

(٤) المَثْوَى: المنزل، المقام. والرحبة: الواسعة.

(٥) مِسْك أَذْفَر: طيب للغاية.

مغذ. بلدة وَسَخة السماء، رَمدة الهواء، جَوْها غبار، [وأَرْضها خَبَارٌ]^(١)، وماؤُها طِين، وترابُها سِرَجِين^(٢)، وحيطانها نَزُوز، وتشرينها تموز^(٣)، فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من غرق. بلدة ضيقة الديار، سيئة الجوار، حيطانها أَخْصاص، وبيوتها أَقْفاص، وحُشُوشها مسایل^(٤)، وطرقها مَزابل.

ولهم في صفات الحصون والقلاع

حصن كأنه من مَرْقَب النجم، يحصر دونه الناظر، ويقصر عنه العُقَابُ الكاسِرُ، يكاد مَنْ علَّاه يغرق في حوض الغمام. حصن انتطق بالجوزاء، وناجَتْ أبراجُه بِرُوجِ السماء. قلعة حَلَّتْ بالجو تُناجِي السماء بأسرارها. قلعة بَعُدَ في السماء مُرتَقاها، حتى تساوى ثراها مع ثرياتها. قلعة تتوشَّح بالغيوم، وتَحَلَّى بالنجوم. قلعة عالية على المرتقى، صمَّاء عن الرقي، قد جاوزت الجوزاء سَمْتًا، وعزَلتِ السماك الأَعْلَى سَمَكًا، هي متناهية في الحصانة، موشوقة بالوثاقة، ممتنعة على الطلب والطلب، منصوبة على أضييق المسالك وأوعر المناصب، لم تَرُدْها الأيامُ إِلَّا نُبُوَ أعطاف، واستصعب جوانب وأطراف، قد ملَّ الوَلَاءُ حِصَارَها، ففارقوها عن طموح منها وشِمَاس، وسُمَّت الجيوشُ ظِلَّها، فغادَرَتْها بعد قنوطِ وياس، فهي حِمَى لا يُرَاغ^(٥)، ومَعْقِل لا يُسْتَطاع، كَأَنَّ الأيامَ صالَحَتْها على الإعفاء من الحوادث والليالي عاهدَتْها على التسليم من القوارع. قلعة تَحْوِي من الرِّقعة قَدْرًا لا تستهان مواقعه، وتلوي في المنعة جيدًا لا تستلان أخادِعه، ليس لِلْوَهْم قبل القدوم إليها مَسْرَى، ولا لِلْفِكْرِ قبل الخطو نحوها مَجْرَى.

ولهم في صفات القصور والدور

قصر كأن شُرْفاته بين النَّسْرِ والعيوق^(٦)، كأنه يُسَامِي الفَرْقَدَ، وقد اكتسَتْ له الشَّعْرَى

(١) الخبر: اللّين المسترخي من الأرض.

(٢) يريد أن ترابها نجس، لأن السرجين عنزة البهائم.

(٣) نزوز: كثير النَّزَر، ما يتحلَّب من الأرض من الماء. وتشرين وتموز: من أسماء الشهور الرومية،

وتشرين في مطلع الشتاء، وتموز في الصيف. يريد أنها شديدة الحر.

(٤) الحُشُوشُ: جمع حُشٍّ، وهو المتوضأ، أو الكنيف، أو البستان.

(٥) لا يُرَاغ: لا يُطلب، لأنه لا سبيل إليه.

(٦) النسر والعيوق والشعري: أسماء نجوم في السماء.

العُبور ثوبَ الغيور. قصر طال مَبْنَاهُ، وطاب مَغْنَاهُ، كأنه في الحَصَانَةِ جَبَلٌ منيع، وفي الحسن رَبِيعٌ مَرِيع. شُرُفَاتُ كَالْعَذَارَى شَدَّدْنَ مَنَاطِقَهَا، وَتَوَجَّنَ بِالْأَكَالِيلِ مَفَارِقَهَا. قَصْرٌ أَقْرَتْ لَهُ الْقُصُورُ بِالْقُصُورِ^(١)، كَأَنَّهُ سَحَابٌ فِي بَحْرِ السَّمَاءِ. دَارُ قُورَاءَ^(٢) تُوسِعُ الْعَيْنَ قُرَّةً، وَالنَّفْسَ مَسْرَةً. كَأَنَّ بَانِيهَا اسْتَسْلَفَ الْجَنَّةَ فَعَجَّلَتْ لَهُ. دَارٌ تَخْجَلُ مِنْهَا الدُّورُ، وَتَتَقَاعَصِرُ عَنْهَا الْقُصُورُ؛ إِنْ مَاتَ صَاحِبُهَا مَغْفُورًا لَهُ فَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ جَنَّةٍ إِلَى جَنَّةٍ. دَارٌ قَدْ اقْتَرَنَ الْيُمْنُ بِيَمَانِهَا، وَالْيُسْرُ بِسُرَّاهَا، الْجِسْمُ مِنْهَا فِي حَضَرٍ، وَالْعَيْنُ عَلَى سَفَرٍ. دَارٌ هِيَ [دَائِرَةُ الْمِيَامِنِ، وَ] دَائِرَةُ الْمَحَاسِنِ. دَارٌ دَارٌ بِالسَّعْدِ نَجْمُهَا، وَفَازَ بِالْحَسَنِ سَهْمُهَا. دَارٌ يَخْدُمُهَا الدَّهْرُ، وَيَأْوِيهَا الْبَدْرُ، وَيَكْفِيهَا النَّصْرُ، هِيَ مَرْتَعُ النَّوَظِرِ، وَمُتَنَفِّسُ الْخَوَاطِرِ. دَارٌ قَدْ أَخَذَتْ أَدَوَاتِ الْجِنَانِ، وَضَحَكَتْ عَنِ الْعَبْقَرِيِّ الْحَسَنِ^(٣).

[من رسائل الميكالي وشعره]

فصل لأبي الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه:

ما ابتدأتُ بمخاطبة سيدي، حتى سَرَتِ الْمَسْرَةُ فِي نَفْسِي، وَقَوَيْتُ أَرْكَانَ بَهْجَتِي وَأُنْسِي، وَحَتَّى أَقْبَلْتُ وَجْهَ الْمِيَامِنِ تَهَلُّلاً إِلَيَّ، وَبَدَرُ الْمَسَاعِدِ تَشَالُ عَلَيَّ^(٤)، وَكَيْفَ [لَا يَمْلِكُنِي الْجَذَلُ وَالْفَرَحُ، وَكَيْفَ] لَا يَهْرُئُنِي النَّشَاطُ وَالْمَرَحُ، وَقَدْ زَفَقْتُ وَدَّيَّ إِلَى كُفٍّ كَرِيمٍ، وَعَرْضَتِهِ لَحَظٌ مِنَ الْجَمَالِ جَسِيمٍ، وَأَرْجُو أَنْ يَرِدَ مِنْهُ عَلَى حُسْنِ قَبُولٍ وَإِقْبَالٍ، وَيَخْطِي مِنْ ارْتِيَاخِهِ لَهَ بِيْرْدٍ أَشْتَمَالٍ، وَيُصَادَفُ مِنْ اهْتِزَازِهِ وَإِنْشَائِهِ، وَعِمَارَتِهِ وَإِنْمَائِهِ، وَتَحْصِينَ أَطْرَافِهِ مِنْ شَوَائِبِ الْخُلَلِ، وَشَوَائِنِ الْوَهْنِ وَالْمِيلِ، وَمَا تَسْتَحْكَمُ بِهِ مَرَاثِرُ الْوِصَالِ، وَتُؤْمِنُ عَلَى قُوَاهَا عَوَادِي الْإِتْقَاضِ وَالْإِنْحِلَالِ.

وله: إِذَا لَمْ يُؤْتِ الْمَرْءُ فِي شُكْرِ الْمَنَعَمِ إِلَّا مِنْ عِظَمِ قَدْرِ الْإِنْعَامِ وَالْإِصْطِنَاعِ، وَاسْتِغْرَاقِهِ مِنْهُ قُوَى الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِصْطِلَاعِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي الْقُصُورِ عَنْ كُنْهِ وَاجِبِهِ عَثْبٌ، وَلَا

(١) القصور (الأولى): جمع قصر، والثانية بمعنى التقصير.

(٢) قوراء: واسعة.

(٣) العبقرى: نسبة إلى عبقر، وهو صفة لكل ما بُلِغَ في وصفه وما يفوقه شيء، والعبقرى: الديباج، والطنافس الثَّخَانُ، قال تعالى: ﴿مُتَكَثِّفِينَ عَلَى رُفْرِفِ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية ٧٦).

(٤) تشال علي: تتوالى وتكثر.

يلحقه فيه نقيصةٌ ولا عيبٌ. ولئن ظهر عَجْزِي عن حق هذه النعمة فإني أحيل بحسن الثناء على من لا يُعْجزه حملُه، ولا يؤوده ثقلُه، ولا يذكو الشكرُ إلا لدَيْه، ولا تُصَرِّفُ الرغبةُ إلا إليه، واللهُ يُقيِّمُ لمجدٍ يقيم أعلامَه، وَفَضْلُ يَفْضِي ذِمَامَه، وَغُرْفُ يَبِثُ أَقْسَامَه، ووليُّ يوالي إكرامَه، وعدوُّ يَدِيمُ قَمْعَه وإرغامَه.

وله: ولو وفيت هذه النعمة الجسيمة حقَّها لمشيت إلى حضرته - أنسها الله تعالى - حَبَوًّا [لا] ^(١) على القَدَم، ولَا تَرُتُ فيه خدمة اللسان على خِدْمَةِ القَلَم، ولما رُضيت له بباعي القصير، وعبارتي الموسومة بالعجز والقصور، حتى أَسْتَعِيرَ فيه أَلْسِنَةً تَحْمِلُ شُكْرًا وَثْنًا، وتوسع نَشْرًا ^(٢) ودعاءً، ثم لا أَكُونُ بَلَعْتُ مَبْلَغًا كافيًا، ولا أَبْلَيْتُ عُدْرًا شافيًا؛ إِلَّا أَنْ عَدِمَ الإِذْنَ تَبْطِنِي ^(٣) عن مقصود الغرض، وعاقني عن الواجب المفترض؛ فَأَقَمْتُ عَاكِفًا على دعاءٍ أَرْفَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبْتَهَلًا، وَأَوَاصِلُهُ مُجْتَهِدًا فِي لَيْلِي وَنَهَارِي مُحْتَغِلًا.

وله: أحقَّ النعمة بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مُسْتَشْرِفَةً ^(٤)، والقلوب إليها مُشَوِّفَةً، والأيام بها وإِعْدَةً، والأقْدَارُ فيها مُسَاعِدَةً، حتى اسْتَقَرَّتْ فِي نِصَابِهَا، وَأَلْقَتْ عِصِيَّ اغْتِرَابِهَا، فهي لِلنَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ مَتْرُشِحَةٌ، وبالعزِّ والسعادة متوشحة، وبالأدعية الصالحة مستدامة مُرْتَهَنَةٌ، وباتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ والأهواء عليها مرتبطة محصنة.

وله فصل من كتاب تعزية بالأمر ناصر الدين:

أَقْدَارُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ لَمْ تَزَلْ تَخْتَلِفُ بَيْنَ مَكْرُوهِ وَمَحْبُوبٍ، وَتَتَصَرَّفُ بَيْنَ مَوْهُوبٍ وَمَسْلُوبٍ، غَادِيَةً أَحْكَامُهَا مَرَّةً بِالمَصَائِبِ والنَوَائِبِ، رَاثِيَةً أَقْسَامَهَا تَارَةً بِالعَطَايَا والرَّغَائِبِ، وَلَكِنْ أَحْسَنَهَا فِي الْعَيُونِ أَثْرًا، وَأَطْيَبَهَا فِي الْأَسْمَاعِ خَبْرًا، وَأَحْرَاها بِأَنْ تَكْسِبَ الْقُلُوبَ عِزًّا وَتَصْبِرًا، مَا إِذَا انْطَوَى نُشْرٌ، وَإِذَا انْكَسَرَ حُجْرٌ، وَإِذَا أَخَذَ بِيَدِ رَدِّ بَأْخَرِي، وَإِذَا وَهَبَ بِيَمْنِي سُلْبٌ بيسرى، كَالْمَصِيَّةِ بِفِلَانِ الَّتِي قَرَّحَتِ الْأَكْبَادَ، وَأَوْهَتِ الْأَعْضَاءَ ^(٥)، وَسَوَّدَتِ وَجْهَ

(١) الْحَبْوُ: الرَّحْفُ.

(٢) النثر هنا: الإذاعة بين الناس.

(٣) تَبْطِنِي: أَقْعِدْنِي.

(٤) مُسْتَشْرِفَةٌ: مُتَطَلِّعَةٌ.

(٥) أَوْهَت: أضعفت. الأعضاء: جمع عضد، وهو من اليد ما بين الكتف والذراع، ويرمز به إلى القوة، ومنه قولهم: «فت في عضده»، ويطلق العضد مجازاً على الناصر والمعين، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. (سورة الكهف، آية ٥١).

المكارم والمعالي، وصورت الأيام في صور الليالي، وغادرت المجد وهو يلبس حداده، والعدل وهو يكي عماده، والدين وهو يندب جهاده، حتى إذا كاد اليأس يغلب الرجاء، ويرد الظنون مظلمة النواحي والأرجاء، قيض الله تعالى من الأمير الجليل من اجتمعت عليه الأهواء، ورضيت به الدهماء^(١)، فأسى به حادث الكلم، وسد بمكانه عظيم الثلم^(٢)، وردّ الآمال والنفوس قد استبدلت بالحيرة قوة وانتصاراً، وصارت للدولة المباركة أعواناً وأنصاراً.

من شعر الميكالي في تجنيس القوافي

ومن شعره في تجنيس القوافي، في معانٍ مختلفة:

إذا لم تكن لمقال النصيح سميعاً ولا عاملاً أنت به
يُبهِك الدهر من رقدة الـ ملاهي وإن قلت لا أنتبه

وقال:

تفرق الناس في أرزاقهم فرقاً فلايس من ثراء المال أو عاري
كذا المعاش في الدنيا وساكنها مقسومة بين أوعاث وأوعار^(٣)

وقال:

حوى القيدُ عُمرًا فقلتُ اعتقد رضا بالقضاء ولا تحقد^(٤)
فإما احتقدت قضاء الإله فأبخر بمحتقد تحت قد

وقال: (٥)

تمت محاسنه فما يُزري بها مع فضله ونمائه وكماله^(٦)
إلا قصور وجوده عن جوده لا عون للرجل الكريم كماله^(٧)

(١) الدهماء: عامة الناس وسوادهم.

(٢) الثلم: الشق أو الكسر.

(٣) أوعاث: جمع وعث، وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام، والوعث: كل أمر شاق من تعب وغيره. أوعار: جمع وعَر، وهو المكان الصلب أو المخيف.

(٤) احتقد فلان وحقد: خف وأسرع في عمل، فهو حافد، والجمع حفدة، وحقد.

(٥) البيتان الأول والثاني في يتيمة الدهر للشعالي: ٤٣٣/٤.

(٦) في اليتيمة: «مع فضله وسخائه وكماله».

(٧) قصور وجوده: قصور إقامته. الكمال (الأولى): صفة لمن اجتمعت فيه مناقب الخير، وكماله (الثانية) أي: مثل ماله.

انصُرْ أخاك إذا اجتَدَاكَ فَوَاسِه
وإن استَغَاثَكَ واثقاً بِكَ مَالِه^(١)
وقال أيضاً:

إذا تَغَدَّيْتُ صَدْرَ يَوْسُفَ
فَقَلَّسْتُ إِذْ مَسَّنِي أَذَاهُ
ثم تَأَذَّيْتُ بِالْغِسْدَاءِ
أرى غَدَائِي أَرَاغَ دَائِي^(٢)
وله في هذا [الصوغ]:^(٣)

لنا صديقٌ يُجِيدُ لَقْمًا
ما ذاقَ من كُتْبِهِ، وَلَكِنْ
رَاحَتْنا فِي أَذَى قَفَاهُ
أَذَى قَفَاهُ أَذَقَ فَنَاهُ
وقال يهجو رجلاً:^(٤)

يُرِيدُ يُوسُفَ فِي بَيْتِهِ
فَتَى سَخِطَ النَّصَبَ فِي قَدْرِهِ
وَيَأْبَى لَهُ الضِّيقُ فِي صَدْرِهِ
يُخَسِّرُ أَوْصَالَ أَضْيَافِهِ
كما رَضِيَ الْخَفَضَ فِي قَدْرِهِ
ولا يُثِيرُ الْخُبْزَ مِنْ خِذْرِهِ

له في وصف كتاب ورده

وقال في غير هذا المذهب يصف كتاباً وَرَدَ عليه:^(٥)

قد أَتانا من صديقٍ كلامٌ
فَسَرَى في القلبِ مني سُورُ
كَلالٍ زَانَهُنَّ نِظَامُ
مُطَرَّبٌ يَعْجِزُ عَنْهُ الْمُسَدَّمُ
مِثْلُ ما يَرْتاحُ رَبُّ بَناتٍ
فَرَعَى اللّهَ طويلاً يُرْجَى
خَلْفاً مَنْ نَسِلِهِ لا يُنْذَمُ^(٦)
قال يا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ
وَأَتَاهُ بَعْدَ يَأْسٍ بِشِيرٍ

(١) اجتداك: طلب جدواك، والجدوى: العطاء.

(٢) أَرَاغَ: خادع.

(٣) البيتان في يتيمة الدهر: ٤٣٤/٤.

(٤) البيتان الأول والثاني في يتيمة الدهر: ٤٣٤/٤.

(٥) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤٣٣/٤.

(٦) في اليتيمة: «مثلما يرتاح شيخ بنات».

(٧) في اليتيمة: «فدعا الله»، و«لا يُرام».

له في وصف الشمع

وقال يصف الشمع:

وَلَيْلٍ كَلَوْنَ الْهَجْرِ أَوْ ظَلَمَةِ الْحَبْرِ
يَشْقَ جَلَايِبَ الدُّجَى فَكَأَنَّمَا
يُحَاكِي رُوءَاءَ الْعَاشِقِينَ بَلَوْنَهُ
خَلَا أَنْ جَارِي الدَّمْعِ يُنْحَلُهُ قَوَى
تَبَدَّى لَنَا كَالْغَصَنِ قَدْأَ وَفَوْقَهُ
تَحْمَلُ نَوْرًا حَفْضُهُ فِيهِ كَامِنٌ
إِذَا مَا عَلَتْهُ عِلَّةٌ جُرَّ رَأْسُهُ

وقال:

يَا رَبَّ غُضُّنٍ نَوْرُهُ
يَظْلُلُ طُغُولَ عُمْرِهِ
نَارَ الْمُحِبِّ فِي الْحَشَا
لَاخَ لَنَا فِي مَغْرِبِ

وقال:

وَقَضِيْبٍ مِنْ بَنَاتِ النَّحْلِ
يُشَبِّهُ الْعَاشِقَ فِي لَوْ
كُتِبِي الْبَاطِلُ مِنْهُ
فَإِذَا مَا أَنْعَمَ الْأَبْ
فَهُوَ لِلشَّقِيقَةِ مِنْهَا

(١) الرُّوءَاءُ: المنظر الحسن.

(٢) في رواية: «كأنا منه في ليلة القدر». وليلة البدر، هي الليلة الرابعة عشر من ليالي الشهر العربي، وفيها يكتمل نور البدر.

(٣) من بنات النحل: يريد أنه من الشمع الذي يؤخذ من النحل.

(٤) الإهاب: الجلد.

لكشاجم في وصف الشمع

وقال كشاجم يصف شمعاً أهدها [إلى بعض الملوك]:

[و] صُفِرَ مِنْ بَنَاتِ النَّحْلِ تُكْسَى
عَذَارَى يُفْتَضُّنَ مِنَ الْأَعَالِي
وَأَمَسَتْ تُتَبَّحُ الْأَصْوَاءَ حَتَّى
كَوَاكِبُ لَسَنٍ عَنْكَ بِأَفْلَاتِ
بَعَثْتُ بِهَا إِلَى مَلِكٍ كَرِيمٍ
فَأَهْدَيْتُ الضِّيَاءَ بِهَا إِلَى مَنْ
وقال:

يَشْقَى الْفَتَى بِخِلَافِ كُلِّ مُعَانِدٍ
يَقْذَى إِذَا أَصْغَى الْإِنَاءَ لِشُرْبِهِ
وقال:

أَطَالِبُ أَيَّامِي بِإِنْجَازِ مَوْعِدِي
أَقُولُ عَنَاهَا أَنْ تَلِينَ لِمَطْلَبِي
وقال:

أَرَى وَصَالَكَ لَا يَصْنُفُو لَامِلِهِ
كَالْقَوْسِ أَقْرَبُ سَهْمَيْهَا إِذَا عَطَفَتْ
وَالْهَجْرُ يَتْبَعُهُ رَكْضاً عَلَى الْأَثَرِ
عَلَيْهِ أَيْعِدْهَا مِنْ مَنَزَعِ الْوَتَرِ

لابن الرومي يذكر متلونا

أخذ هذا من قول ابن الرومي وذكر رجلاً متلونا: (٥)

- (١) العُقَارُ: الخمر.
- (٢) النَجَارُ: الأصل والحسب.
- (٣) أصغى الإناء: أماله.
- (٤) لوى عن الأمر: تناقل، ولوى فلاناً دينه وبدينه لِيّاً وَلِيَاناً: مَطَّلَهُ.
- (٥) ابن الرومي، الديوان: ٢٦٣/٤.

رَأَيْتُكَ بَيْنَا أَنْتَ خِلٌّ وَصَاحِبٌ إِذَا بِكَ قَدْ وَلَيْتَنَا ثَانِيًا عِطْفًا^(١)
وَأَنْتَ إِذْ أَحْسَنِي حُنُوكَ مُوجِبٌ يِعَادًا لِمَنْ بَادَلْتَهُ الْوَدَّ وَاللُّطْفًا^(٢)
لَكَ الْقَوْسُ أَحَنَى مَا تَكُونُ إِذَا انْحَنَتْ عَلَى السَّهْمِ أَنْتَ مَا تَكُونُ لَهُ قَدْفًا^(٣)
وله في نحو ذلك: ^(٤)

تَوَدَّدْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مُتَوَدِّدًا وَاتَّعَبْتُ أَقْلَامِي عِتَابًا مُرَدِّدًا^(٥)
كَأَنِّي أَسْتَدْعِي لَكَ ابْنَ حَيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدًا^(٦)

[في وصف أبي الفضل الميكالي]

وذكر عمر بن علي بن محمد المطوعي أبا الفضل الميكالي في كتاب ألفه في منظومه ومشوره فقال: قد أصبحت حضرته - لا زالت أَرْجَاةَ الْأَرْجَاءِ بطيب شمائله، راضية الرضا عن صَوْبِ أَنَامِلِهِ - مَوْسِمَ الْأَمَالِ، ومحط الرحال؛ وَعَبْدَهُ أحرار الكلام، كما خدمته أحرار الأيام، وأطاعته المعاني والمعالِي، كما أطاعه صَرَفُ الْأَيَّامِ والليالي، فهو - أدام الله تمكينه - شهابُ المجد الذي لا يخبو واقده، ورؤوس الكرم الذي لا يجذب رائده؛ إن أردت البلاغة فهو مَالِكُ عَنَانِهَا، وفارسُ مِيدَانِهَا، وناظم دُرَّهَا ومرجانها، وصانع لُجَيْنِهَا وعِقْبَانِهَا؛ وإن أردت السَّامِحَةَ فهو محلُّها ومكانها، وتاريخها وعنوانها، ويدها ولسانها، وحَدِّقَتُهَا وإنسانها، وحديقَتُهَا وبُسْتَانُهَا؛ وإن أردت شرف الأصل والنسب، والجمع بين الموروث [من المجد] والمُكْتَسَبِ، فناهيك بأوائله شرفاً سابقاً، وفضلاً باسقاً، ومجداً في فلك الفخر سامقاً^(٧)؛ فهم الْجَحَاجِحَةُ الْعُرَّ^(٨)، والكواكب الزُّهْرُ، ومن بهم يفتخرُ الفخر، ويتشرف الدهر، زحموا

(١) في الديوان: «إِذَا أَنْتَ قَدْ وَلَيْتَنَا». وثنى عطفه: ولي متبخرأ.

(٢) في الديوان: «لِمَنْ بَادَلْتَهُ الْوَدَّ وَالْعِطْفَا».

(٣) في الديوان: «إِذَا حَنَّتْ».

(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢٧٣/٢.

(٥) في الديوان: «وَأَمَلْتُ أَقْلَامِي».

(٦) في الديوان:

كَأَنِّي أَسْتَدْعِي بِكَ ابْنَ حَيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ إِلَى الصَّدْرِ أَبْعَدًا

وابن الحية: القوس.

(٧) سامق: عالٍ شديد العلو.

(٨) الجحاجحة: جمع الجحاجح، وهو السيد السمع الكريم.

مناكب الكواكب من بُعد أقدارهم، وصكوا فَرَقَ الفرقد وصَدَرَ البَدْر بشرف أخطارهم، فما فيهم إلا قمر فضّل دارَ في فَلَكِ علم، وَهَلالَ مجدٍ لاح في سماءَ فَهُم، توارثوا المجد كابرًا عن كابر، وبقاياً عن غابر، وسافرت أخبارهم في البُعد والقُرب. وطارَت في أقاصي الشرق والغرب، وسارت مَسِيرَ الشمس في كلِّ بلد، وهبَّتْ هبوبَ الريح في البر والبحر، فهم كما قال أبو عبادة البحرّي في الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد وبلغ ما أراد: ^(١)

بَنِي أَحْوَذِيٍّ يَغْمُرُ الطَّرْفَ مُوفِيًّا يَسْطِطُهُ وَالسَيْفُ وَافِي الْحَمَائِلِ ^(٢)
تَضِيْقُ الدُرُوعُ التَّبَعِيَّاتُ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ رَحْبِ الْبَاعِ مَسْبُطُ الْأَنَامِلِ ^(٣)
عُرَاعِرُ قَوْمٍ يَسْكُنُ الثَّغْرُ إِنْ مَشَوْا عَلَى أَرْضِهِ وَالثَّغْرُ جَمَّ الزَّلَازِلِ ^(٤)
فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ مُنْعِمٍ مُتَطَوِّلٍ بِالْآلِئِهِ أَوْ مُشْرِفٍ مُتَطَوِّلٍ
إِذَا سُئِلُوا جَادَتْ سِيوفُ أَكْفَهُمْ [نَظَائِرُ جُمَاتِ التَّلَاعِ السَّوَائِلِ] ^(٥)
خَلِيقُونَ سُرُوءًا أَنْ تُلَيْنَ أَكْفُهُمْ عَرَائِكُ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ الْجَلَائِلِ ^(٦)
وَمَا زَالَ لَحْظُ الرَّاعِيْنَ مُعْلَقًا إِلَى قَمَرٍ فِيهِمْ رَفِيعِ الْمَنَازِلِ ^(٧)

وفيه، أو في أبيه، يقول أبو سعيد أحمد بن شبيب:

وإلى الأمير ابن الأمير تَوَاهَقَتْ رَوْحِي الرِّكَابِ بَرَازِحِي الرِّكَابِ ^(٨)
شَيْمٌ أَرَقُّ مِنَ الْهَوَاءِ بِلِ الْهَوَى وَالذُّ مِنْ ظَفَرٍ بِعَقَبٍ ضِرَابِ

(١) البحرّي، الديوان: ٢٦٩/٢.

(٢) الأحوذّي: الحاذق، السريع في كل ما أخذ فيه. وفي الديوان: «يغمر السيف».

(٣) تَبَعِيَّاتٌ: نسبة إلى التتابة ملوك اليمن. وسبط الأصابع: طولها.

(٤) العُرَاعِر: الشريف، وجمعه عُرَاعِر (بفتح أوله).

(٥) في الديوان:

إِذَا سُئِلُوا جَاءَتْ سِيُوبُ أَكْفَهُمْ تُطَايِرُ جُمَاتِ التَّلَاعِ السَّوَائِلِ
وَالسُّيُوبُ: جمع سَيْب، وهو العطاء. والتَّلَاع: جمع تَلْعَة، وهي ما أرتفع من الأرض، أو مسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

(٦) في الديوان: «خَلِيقُونَ سُرُوءًا أَنْ تُلَيْنَ أَكْفُهُمْ». والعَرَائِكُ: جمع عَرِيكة، وهي الطبيعة والنفس، أو السنام، ويقال: هو لَيْنُ العَرِيكة: سهل منقاد، وهو شديد العَرِيكة: أي شديد النفس.

(٧) في الديوان: «إلى قمرٍ فيهم».

(٨) تَوَاهَقَتْ: تبارت ومدّت أعناقها في سيرها، والرزحى: الساقطة تبعاً وهزاًلاً.

وَعَزَائِمٌ لَوْ كُنَّ يَوْمًا أَشْهُمًا لَنَقَذْنَ فِي الْأَيَّامِ غَيْرَ نَوَابٍ^(١)
مَائِيَّةُ الْجَرِيَانِ إِلَّا أَنَّهَا نَارِيَّةُ الْإِقْدَامِ وَالْإِلْهَابِ
يَخْطُرُنَ بَيْنَ سِيَاسَةٍ وَرِيَاسَةٍ وَيَتَّهَنَ بَيْنَ مَثْوِيَةٍ وَعِقَابِ

[ابن أبي دؤاد بين يدي الوثائق]

قال أبو عبد الله بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها، ومجامع حفلها، فما رأيت أغزر أدباً من الوثائق؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي، يريد دُعِيلاً:

خَلِيلِيَّ مَاذَا أُرْتَجِي مِنْ أَمْرِي طَوَى الْكَشْحَ عَنِّي الْيَوْمَ وَهُوَ مَكِينُ^(٢)
وَلِإِنَّ أَمْرًا قَدْ ضَنَّ عَنِّي بِمَنْطِقِي يَسُدُّ بِهِ مِنْ خَلْتِي لَضَائِنُ
فانبرى أحمد بن أبي دؤاد يسأله كأنما نَشِطَ من عِقَالٍ في رجل من أهل الإمامة فأُطْنِبَ وأسهب، وذهب في القول كل مَذْهَب؛ فقال الوثائق: يا أبا عبد الله لقد أكثرت في غير كبير، ولا طَيِّب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه صديقي:

وَأَهْوَنُ مَا يُعْطِي الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ مِنْ الْهَيْئِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ
فقال: وما قدر الإمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه شهرني بالاستشفاع إليك، وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والإسعاف، فإذا لم أقم له هذا المقام أكون كما قال أمير المؤمنين آنفاً:

خَلِيلِيَّ مَاذَا أُرْتَجِي مِنْ غَنَى أَمْرِي طَوَى الْكَشْحَ عَنِّي الْيَوْمَ وَهُوَ مَكِينُ
فقال الوثائق: بالله يا محمد بن عبد الملك إِنْ عَجَلْتَ لِأبي عبد الله حاجته، لِيَسْلَمَ مِنْ هُجْنَةِ الْمَطْلِ، كما سلم من هُجْنَةِ الرَّدِ^(٣).

[من صفة ابن أبي دؤاد، وأخباره]

وكان ابن أبي دؤاد من أحسن الناس تأتياً، وكان يقول: ربما أردت أن أسأل أمير

(١) نواب: جمع ناب، وهو اسم فاعل من «ناب السيف والرمح» إذا حاد عن ضربيته.

(٢) طوى كشحه على الأمر: أضمره ومستره، وطوى عنه كشحه: تركه وأعرض عنه.

(٣) الهُجْنَةُ: العيب والقبح.

المؤمنين الحاجة بِحَضْرَةِ ابن الزيات فأوْخِرَ ذلك إلى وقت مغيبه؛ لئلا يتعلَّم حُسْنَ التلطف مني! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوة عظيمة وأمر الواثق أصحابه أن ينهضوا قياماً لأبي جعفر إذا دَخَلَ؛ ولم يرخص في ذلك لأحد، فاشتدَّ الأمرُ على ابن أبي دُواد، ولم يجد لخلاف الواثق سبيلاً. فوَكَّلَ بعض غلمانه بمراقبة موافاته، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع، فقال ابن الزيات:

صَلَّى الصُّحَى لَمَّا اسْتَفَادَ عِدَاوَتِي وَأَرَاهُ يَسْكُ بَعْدَهَا وَيَصُومُ^(١)
لَا تَعْدَمَنَّ عِدَاوَةٌ مَوْسُومَةٌ تَرَكَّكَ تَعْعُدُ بَعْدَهَا وَتَقُومُ

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تَصَجَّرًا بكثرة حوائجه: قد أَخَلَيْتَ بيوتَ الأموال بطلباتك لِلْآتِذِينَ بك، والمتوسِّلِينَ إليك. فقال: يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متَّصلة بك، ودخائرها موصولة لك، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح، فقال: والله لا مَنَعَتَاكَ ما يزيدُ في عشقك، ويقوِّي في همتك فينا ولنا؛ وأمر فأخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم.

[بين أبي العيناء وابن أبي دُواد]

قال أبو العيناء: [قلت] لابن أبي دُواد: إنَّ قوماً من أهل البصرة قدموا إلى سُرٍّ من رأى يداً عليّ، فقال: يَدُ الله فوق أيديهم. فقلت: إنَّ لهم مَكْرَأً، فقال: ولا يحقُّ المَكْرُ السَّيِّءُ إلَّا بأهله، فقلت: إنَّهم كثير. قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذنِ الله والله مع الصابرين، فقلت: لله دُرُّ القاضي فهو كما قالت الصَّمُوتُ الكلاية:

لَلَّهِ دَرَكٌ أَيْ جُئَةٍ خَائِفٍ وَمَتَاعٌ دُنْيَا أَنْتَ لِلْحَدَثَانِ^(٢)
مُتَخَمِّطٌ يَطَأُ الرِّجَالَ شَهَامَةً وَطَاءَ الْفَنَيْقِ مَدَارِجَ الْقِرْدَانِ^(٣)
وَيَكْبُهُمْ حَتَّى تَظُلَّ رُؤُوسُهُمْ مَأْمُومَةٌ تَنْحَطُّ لِلْغَرِبَانِ
وَيَفْرُجُ الْبَابَ الشَّدِيدَ رِتَاجُهُ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ بَابَانِ^(٤)

(١) استفاد المال وغيره: حصَّله، واقتناه.

(٢) الجئة: الشُّرة، وكلُّ ما وقى من سلاح وغيره.

(٣) المتخمط: المتكبر. الفنيق: الفحل المكرم من الإبل، الذي لا يركب، ولا يُهان لكرامته على أهله. والقردان: جمع قرد، يريد أنه يقهر الرجال ولا يأبه لهم.

(٤) الرِّتَاجُ: الباب، والمرتاج: المنلاق، وهو ما يُغلق به الباب.

وكانت هذه المجاورة بين أبي العيناء وبين أبي العلاء المنقري، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة.

قطعة من شعر الأعراب في الغزل

ابن ميادة:

ألا ليت شعري هل يحلنْ أهْلُنَا وَأَهْلُكَ رَوْضَاتِ بَيْطِنِ اللَّوَى خُضْرًا^(١)
وَهَلْ تَأْتِيَنَّ الرِّيحُ تَنْزُجُ مَوْهِنَا بِرِيَّاكَ تَعْرُورِي بِنَا بِلْدَا قَفْرًا^(٢)
بِرِيحِ خُزَامَى الرَّمْلِ بَاتَ مُعَانَقَا فُرُوعِ الْأَقَاخِي تَنْضُبُ الْطَلَّ وَالْقَطْرَا
أَلَا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ يَا أُمَّ جَحْدَرٍ قَرِيْبَا، فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْكَ فَلَ صَبْرًا^(٣)

وقال:

وَمَا رَوْضَةُ بَاتَ الرِّيحُ يَجُودُهَا عَلَى مَا بِهَا مِنْ حَنَوَةٍ وَعَرَارٍ^(٤)
بِأَطْيَبِ مِنْ رِيحِ الْقَرْنَفِلِ مَوْهِنَا بِمَا أَلْتَفَّ مِنْ دِرْعٍ لَهَا وَخِمَارٍ

وقال آخر:

تُجَالِسُنَا بِنْتُ الدَّلَالِ تَعَلَّقَتْ عُرَاهُ بِحَبَّاتِ الْقُلُوبِ الْهَوَائِمِ
وَيَبِينُ مَا تُخْفِي مِنَ الْوَجْدِ رَدَّهَا غَرِيقُ الْإِنْسَانِي فِي الدَّمُوعِ السَّوَاجِمِ^(٥)

(١) في الأغاني: «هل يحلنْ أهلها».

(٢) دَرَجٌ دَرَجًا وَدَرُوجًا، وَدَرَجَانَا: مشى مشية الصاعد في الدرج، ودب. ودرجت الرياح: مرّت مرًا هَيِّنًا، أَوْ أَسْفَتْ فتركت نمائم في الرمل. والموهن: نحو من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. وفي الأغاني: «فهل تأتينيّ الرياح»، و«جَرَعَا عَفْرًا». وتعروري: تركب، يقال: أعروري الفرس أو البعير: ركبه عربياً، قال تأبط شراً:

يَظْلُ بَمَوْمَاءٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيئًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ
(٣) في الأغاني:

ألا ليت شعري هل إلى أم جحدرٍ سَبِيلُ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَ صَبْرًا
وأم جحدر: هي أم جحدر بنت حسان المريّة، إحدى نساء بني جذيمة، وكان ابن ميادة ينسب بها، فحلف أبوها ليخرجنها إلى رجل من غير عشيرته، ولا يُزوجها بنجد، فقدم عليه رجل من الشام، فزوجه إياها، فلقى عليها ابن ميادة شدة ونصب. (الأصفهاني، الأغاني: ٢٣٧/٢).

(٤) يجودها: يَمْطُرُهَا. الحنوة: الريحانة. العرار: ورد أصفر ذو رائحة طيبة.

(٥) الأناسي: جمع إنسان، وهو من العين ناظرها (سوادها).

جَرَى الدَّمْعُ مَجْرَى مَائِهِ فَكَفَفْنَهُ
وَرَدَ التَّحِيَّاتِ الْهَوَى مِنْ عُيُونِهَا
وقال العلاء بن موسى الجهني:

وَلَمَّا رَأَيْتُنِي مُخْطِراً شَوْكَةَ الْعِدَى
جَلَسْتُ دَاجِي الظُّلُمَاءِ مِنْهَا بِسُنَّةِ
وَبِالشَّدْرِ مَشْبُوكاً كَأَنَّ التَّهَابَةَ
وَجَاءَتْ كَسَلِ السِّيفِ لَوْ مَرَّ مَشِيْهَا
فَبَيْتَا وَلَمْ نَكْذِبْكَ لَوْ أَنَّ لَيْلَنَا
نَذُودُ النُّفُوسِ الصَّادِيَاتِ عَنِ الْهَوَى
فَلَمَّا بَدَأَ ضَوْؤُ الصَّبَاحِ وَرَاعَنَا
نَهَضْنَا بِشَخْصٍ وَاحِدٍ فِي عُيُونِهِمْ
إِلَى جَنَّةٍ مِنْهُمْ وَسَلِمْتُ غَادِيَا
وَوَلَّتْ وَأَغْبَاشُ الدَّجَى مُرْجَحَةٌ

وقال أعرابي من طيء:

وَأَحْوَرَ يَصْطَادُ الْقُلُوبَ وَمَا لَهُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى الْفَتَكَ مِنْ سِلَاحِهِ
وَأَشْنَبُ بَرَّاقِ الثَّيَابِ غُرُوبُهُ

مِنَ الرِّيشِ إِلَّا زَغْفَرَانٌ وَائِمْدُ
سِوَارٍ وَخَلْخَالٌ وَطَوْقٌ مُضْطَدُّ
مِنَ الْبَرْدِ الْوَسْمِي أَصْفَى وَأَبْرَدُ^(٨)

- (١) داجي الظلماء: سواد الليل. الشُّنَّة: الجبين.
- (٢) الشدر: حبات صغار من الذهب أو اللؤلؤ، والمراد عقدها.
- (٣) خضد الشيء: كسره من غير فصل.
- (٤) سقي المصرد: يقال: صرد فلاناً: سقاه أقل مما يحتاج إليه، وصرد شربة: تناوله جرعات متفرقة.
- (٥) الهائف المشهد: المؤذن، لأنه يأتي في أذانه بالشهادتين.
- (٦) نطا: يقال: نطت المرأة غزلها: سدته.
- (٧) أغباش: جمع غبشة، وهي ظلمة آخر الليل، مُرْجَحَةٌ: اسم فاعل من ارجحن إذا نقل ومال واهتز.
- (٨) أشنب: أي ثغر أشنب، وقد شنب الثغر: رقت أسنانه وابتضت. وغروب الأسنان: مناقع ريفها، وقيل: أطرافها وحدتها وماؤها، قال عنترة بن شداد:
إِذ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ
عَذْبٍ مُقْبَلُهُ لَذِيذِ الْمَطْعَمِ
(ديوانه: ١٧) وواحد الغروب: غروب.

خَلِيلِي بِاللَّهِ أَفْعُدَا فَنِيْنَا وَمِضْأَ نَرَى الظُّلْمَاءَ مِنْهُ تَقْدَدُ^(١)
يُكْشَفُ أَعْرَاضُ السَّحَابِ كَأَنَّهُ صَفِيحَةُ هِنْدِيٍّ تُسَلُّ وَتُعْمَدُ^(٢)
فَبَتْ عَلَى الْأَجْبَالِ لَيْلًا أَشِيْمُهُ أَقُومُ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَقْعُدُ^(٣)
هَذَا فِي الْبَرْقِ كَقَوْلِ الطَّرْمَاحِ فِي الثَّوْرِ:
يَدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَتُعْمَدُ^(٤)

[زيارة طيف الخيال]

وقال بشار: ^(٥)

أَعْلَدْتِ لِي عَتَبًا بِحُبِّكُمْ يَا عَبْدُ طَالٍ بِحُبِّكُمْ عَتَبِي^(٦)
وَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِي خِيَالُكُمْ فِي الْفُرْطِ وَالْخُلْخَالِ وَالْقُلْبِ^(٧)
فَشَرِبْتُ غَيْرَ مُبَاشِرٍ حَرَجًا بِرُضَابٍ أَشْنَبَ بَارِدٍ عَذْبٍ^(٨)
وقال المتنبي: ^(٩)

بِتَنَا يُنَاوِلُنَا الْمُدَامَ بِكَفِّهِ مَنْ لَيْسَ يَخْطُرُ أَنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ^(١٠)

- (١) تَقْدَدُ الشَّيْءُ: تَشَقَّقُ، أَوْ يَبْسُ.
- (٢) صَفِيحَةُ هِنْدِيٍّ: أَي سَيْفٌ هِنْدِيٌّ، لِقَوْلِهِ: تُسَلُّ وَتُعْمَدُ.
- (٣) الْأَجْبَالُ: جَمْعُ جَبَلٍ، وَهُوَ مَا عَلَا مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ وَاسْتَطَالَ وَجَاوَزَ التَّلَّ ارْتِفَاعًا. وَشَامَ الْبَرْقِ وَالسَّحَابِ: نَظَرَ إِلَيْهِ يَتَحَقَّقُ أَيْنَ يَكُونُ مَطَرُهُ.
- (٤) الْبَيْتُ فِي الْعَمْدَةِ فِي مُحَاسِنِ الشَّعْرِ: ٢٩١/١.
- (٥) بشار بن برد، الديوان: ٢٢/٤.
- (٦) الْعَتَبُ (بِالتَّحْرِيكِ): الشَّدَّةُ فِي الْمَكْرُوهِ، وَالْعَتَبُ (بِتَسْكِينِ التَّاءِ): اللَّوْمُ وَالْمَوْجَدَةُ.
- (٧) الْخِيَالُ: الطَّيْفُ. الْفُرْطُ: حَلِيٌّ يَلْقَى فِي الْأَذْنِ. الْخُلْخَالُ: حَلِيٌّ السَّاقِينَ، يَلْبَسُ تَحْتَ الْكَعْمِينَ، مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ. وَالْقُلْبُ: سَوَارٌ يَشَبُّهُ الْحَيَّةُ.
- (٨) الْحَرَجُ: الْإِثْمُ. وَبَاشَرَ الْأَمْرَ: وَلِيَ بِنَفْسِهِ. وَالرُّضَابُ: الرِّيقُ. وَأَشْنَبَ: أَي ثَغَرَ أَشْنَبَ، وَهُوَ الْبَرَقُ، اللَّمَّاعُ، الْعَذْبُ الْمَاءُ.
- (٩) الْمُتَنَبِّي، الْدِيَّانُ: ٣٧/٢. وَالْبَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُ بِهَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِي.
- (١٠) يَصِفُ مَا رَأَاهُ فِي الْحَلْمِ مِنْ طَيْفٍ حَبِيْبِهِ فَيَقُولُ: رَأَيْتَاهُ يَنَاوِلُنَا الشَّرَابَ بِكَفِّهِ، وَهُوَ لَا يَجْرِي فِي خَاطِرِهِ أَنْ نَرَاهُ لَلْبَعْدِ الَّذِي يَتَنَا.

نَجْنِي الْكَوَاكِبَ مِنْ قَلَاتِدِ جِيدِهِ وَنَنَالَ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خَلْخَالِهِ^(١)
وأول شعر أبي الطيب:

لَا الْحُلْمُ جَادَ بِهِ وَلَا يَمَّالِهِ لَوْلَا ادِّكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيَالِهِ^(٢)
إِنَّ الْمُعِيدَ لَنَا الْمَنَامَ خَيَالَهُ كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ^(٣)
إِنِّي لِأَبْنِضُ طَيْفَ مَنْ أَحَبَّبْتُهُ إِذْ كَانَ يَهْجُرُنَا زَمَانَ وَصَالِهِ^(٤)

يقول: التمثيل والتخيل له في البقطة أعاد خياله في المنام، فكان الخيال الذي في النوم تصوّر في البقطة. وأظهر من هذا قول الطائي:^(٥)

زَارَ الْخِيَالَ لَهَا لَا بَلَّ أَزَارَكُهُ فِكْرٌ إِذَا نَامَ فِكْرُ الْخَلْقِ لَمْ يَنْمِ
طَبِي تَقَنُّصَتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ لَهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ أَشْرَاكَ مِنَ الْحَلَمِ
أما بيته الأول فمن قول جميل:^(٦)

حَبِيبُ طَيْفِكَ مِنْ طَيْفِ أَلَمٍ بِهِ حَدَّثَ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولٌ
وقال ذو الرمة:

نَأَتْ دَارُ مَيِّ أَنْ تَزَارَ، وَزَوَّرَهَا إِذَا مَا دُجَا الْإِظْلَامُ مَنَا وَسَاوَسُ^(٧)
إِذَا نَحْنُ عَرَّسْنَا بِأَرْضِ سَرَى لَنَا هَوًى لِبَسْتَهُ بِالْقُلُوبِ اللَّوَابِسُ^(٨)

- (١) أي: كنا نراه مُجَالِساً لنا حتى نمسّ قلاتده، وننال خلخاله، مع أنهما كالكواكب والشمس في البعد.
- (٢) المثال: الصورة. والزيال: المبارحة. يقول: لولا استدامة هذا التذكر ما جاد عليّ الحلم بمرأى خياله، ولا خيال صورته.
- (٣) يقول: إن الحبيب الذي أعاد لنا المنام خياله، فرأيناه في الحلم، إنما أعاد لنا خيال صورته التي كنا نمثلها في اليقظة، فنحن إنما نرى خيال خياله.
- (٤) يقول: إنه يكره طيف محبوبه لأنه كلما واصله الطيف كان المحبوب هاجراً، فوصاله مترتب على هجر المحبوب.
- (٥) أبو تمام، الديوان: ٩٤/٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي.
- (٦) لم نجد هذا البيت في ديوانه (دار صادر).
- (٧) وفي رواية: «إلى صحبتي بالليل هاد مواعس».
- (٨) عَرَّسْنَا: نزلنا ليلاً. سرى: سار ليلاً. ولبسته: خلطته.

وبيته الثاني أَلَمَّ فيه بقول قيس بن الملوّح :

وإني لأستغشي وما بي نَعَسَةٌ لعلّ خيالاً منك يَلْقَى خيالياً^(١)
وأخرجُ من بين الجلوس لعلني أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِياً^(٢)
تَقَطُّعُ أَنْفَاسِي لِذِكْرِكَ أَنْفَاساً يَرِدُّنَ فَمَا يَرْجِعُنَّ إِلَّا صَوَادِياً
وقد قال فيه قيس بن ذريح: ^(٣)

وإني لأهوى النومَ في غير نَعَسَةٍ لعلّ لقاءً في المنام يكونُ
تُخَبِّرُنِي الأحلامُ أني أراكمُ فيا لَيْتَ أحلامَ المنامِ يَقِينُ

وكان البحري أكثر الناس إبداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له «خيال البحري»، وفي بعض ذلك يقول: ^(٤)

أَلَمْتُ بنا بَعْدَ الهدوءِ، فَسَامَحْتُ بِوَصْلِ مَتَى تَطْلُبُهُ فِي الجَدِّ تَمَنِّعِ
فما بَرَحْتُ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَانْقَضَى وَأَعْجَلَهَا دَاعِي الصَّبَاحِ الْمُتَمَنِّعِ
فَوَلَّتْ كَأَنَّ البَيْنَ يَخْلِجُ شَخْصَهَا أَوَّانَ تَوَلَّتْ مِنْ حَاشِي وَأَضْلَعِي^(٥)
وقال: ^(٦)

سَقَى الغَيْثُ أَجْزَاعاً عَهْدَتْ بِجَوْهَا غَزَالاً تُرَاعِيهِ الْجَاذِرُ أَغْيَدَا^(٧)

(١) أستغشي: أطلب النعاس، فأتمطى لأنام.

(٢) وفي رواية:

وأخرجُ من بينِ الثُّيُوتِ لعلني أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِياً
(ديوانه: ص ١٢٧).

(٣) هو قيس بن ذريح، من بني بكر بن عبد مناة من كنانة: شاعر من العشاق المتيمنين، نشأ في المدينة، واشتهر بحب لبنى بنت الحباب الكعبية، ومعظم شعره فيها. ويقال: إن لبنى ماتت حزناً وغماً، فمات قيس أسفاً عليها، ودفن إلى جانبها في المدينة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٧٤/٩؛ زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية: ٢٩١/١؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١٩٤/١).

(٤) البحري، الديوان: ١٠٣/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي.

(٥) يخلج شخصها: يجذبه وينزعه.

(٦) البحري، الديوان: ١٥٣/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها المعتز بالله العباسي.

(٧) الأجزاء: جمع جزع، وهو منعطف الوادي. الجاذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية. الأغيد: المائل العنق، اللبن الأعطاف.

إذا ما الكرى أهدى إليَّ خياله شفَى قُرْبُهُ التَّبريحَ أو نَقَعَ الصدى^(١)
 فلم نَرِ مِثْلَنا ولا مِثْلَ شأننا نَعْدَبُ أَيْقَاطاً وَنَنَعُمُ هَجْدًا^(٢)
 وقال: (٣)

بلى وَخَيَالٍ مِنْ أَثِيلَةٍ كُلَّمَا تَأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدِي تَعَرَّضَ يُطْمَعُ^(٤)
 يُرِي مُقْلَتِي مَا لَا تَرَى مِنْ لِقَائِهِ وَتَسْمَعُ أَذْنِي رَجَعَ مَا لَيْسَ تَسْمَعُ
 [ويُكْفِيكَ مِنْ حَقِّ تَخَيُّلٍ بَاطِلٍ تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهْفِ فَتَرْجِعُ]
 قوله في البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك:

وَمَاذَا يَفِيدُكَ طَيْفُ الْخِيَا لِ وَالْهَجْرُ حَظُّكَ مِمَّنْ تُحِبُّ
 غَنَاءٌ قَلِيلٌ، وَلَكِنِّي تَمَلَّيْتُهُ بِقَنُوعِ الْمُحِبِّ
 وللحسين في هذا المعنى وإن لم يكن في ذِكْرِ الْخِيَالِ:

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى خِلْتُ أَنِّي، وَمَا أَرَاكَ، أَرَاكَ
 وَإِذَا مَا تَنَفَّسَ النَّرْجِسُ الْغَضُّ تَوَهَّمْتُهُ نَسِيمَ حَنَّاكَ
 خُدَّعَ لِلْمُنَى تَعَلَّلَنِي فِيهِ سَكَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَنُكْهَةِ ذَاكَ^(٥)
 وأول من طرد الخيالَ طرفة بن العبد، فقال: (٦)

فَقُلْ لِخِيَالِ الْحَنْظَلِيَةِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهَا فَإِنِّي وَاصِلٌ حَبْلٌ مَن وَصَلَ^(٧)
 فتبعه جرير في قوله فقال: (٨)

طَرَفْتُكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

(١) نَقَعَ الصدى: بَلََّ الْعَطَشَ.

(٢) الْهَجْدُ: النَّائِمُونَ.

(٣) البحتري، الديوان: ٣٤٥/١. والآيات من قصيدة يمدح بها أبا عيسى بن صاعد.

(٤) في الديوان: «وخيالٍ من قَتِيلَةٍ» و«تأوهت من وَجْدٍ».

(٥) النكهة: أصلها ريح الفم.

(٦) طرفة بن العبد، الديوان: ٧٥.

(٧) الحنظلية: امرأة منسوبة إلى بني حنظلة، وهم من تميم.

(٨) جرير بن الخطفي، الديوان: ص ٤٥٢. والبيت من قصيدة يجيب بها الفرزدق.

قال البحرى، ونفى هذا المعنى بقوله: ^(١)

قَدْ كَانَ مِنِّي الْوَجْدُ غِبًّا تَذَكَّرِ
تَجْرِي دُمُوعِي حِينَ دَمْعِكَ جَامِدٌ
إِذْ كَانَ مِنْكَ الصَّدُّ غِبًّا تَنَاسَى ^(٢)
وَيَلِينُ قَلْبِي حِينَ قَلْبُكَ قَاسِي
تَغْشَى، وَلَا نَهَتْهُ حَامِلَ كَاسِي ^(٣)

وقال ابن هانئ الأندلسي:

أَلَا طَرَفَتْنَا وَالْجُودُ رُكُودٌ
وَقَدْ أَعْجَلَ الْفَجْرُ الْمَلَمْعَ خَطْوَهَا
وَفِي الْحَيِّ أَيْقَاطٌ وَنَحْنُ هُجُودٌ ^(٤)
وَفِي أَخْرِيَاتِ اللَّيْلِ مِنْهُ عَمُودٌ
فَلَمْ يَذِرْ نَحْرًا مَا دَهَاهُ وَجِدٌ ^(٥)
فَلَا تُدْ فِي لَبَاتِهَا وَعُقُودٌ ^(٦)
وَأَنَا بَلِينَا وَالزَّمَانُ جَدِيدٌ

وقال علي بن محمد الإيادي:

أَمَّا إِنَّهُ لَسَوْلاً الْخِيَالُ الْمُرَاجِعُ
لَأَشْفَقَ وَاسْتَحْيَا مِنَ النُّومِ وَالْإِلَهْ
وَعَاصٍ يُرَى فِي النَّوْمِ وَهُوَ مُطَاوِعُ
يُرَى بَعْدَ رَوْعَاتِ الْهَوَى وَهُوَ هَاجِعُ

وقال أيضاً:

طَيْفٌ يَزُورُكَ مِنْ حَيِّبٍ هَاجِرٍ
شَقُّ الدَّجَى وَسَرَى فَأَمْعَنَ فِي السَّرَى
أَهْلًا بِهِ وَبَطِيفِهِ مِنْ زَائِرٍ
حَتَّى أَلَمَ فَبَاتَ بَيْنَ مُحَاجِرِي
نَحْوِي وَسَالِفَةُ الْغَزَالِ الْنَافِرِ
أَسْرَى فَأَنْصَفَ مِنْ حَيِّبٍ هَاجِرِ
وَقَضَيْتَ ذِمَّةَ فَيْضٍ دَمْعٍ قَاطِرِ
عَلَّلْتَ عَلَّةَ قَلْبٍ صَبِّ هَائِمِ

(١) البحرى، الديوان: ٤٣٥/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الحسن بن عبد الملك.

(٢) في الديوان:

قَدْ كَانَ مِنِّي الْحُزْنُ غِبًّا تَذَكَّرِ
إِذْ كَانَ مِنْكَ الصَّبْرُ غِبًّا تَنَاسَى
في الديوان: «وَلَا كَفَكَمْتُ حَامِلَ كَاسٍ». ونهته فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره.

(٤) هجود: نيام.

(٥) عطلت المرأة: خلعت من الحلبي، فهي عاطل، والجمع عواطل.

(٦) اللَّبَاتُ: جمع لَبَّة، وهي موضع القلادة من العنق.

وقال عبد الكريم بن إبراهيم:

لم أذِرْ مَغْنَاكَ لَوْلَا الْمِسْكُ وَالْقَطْرُ
سَرَى يِعَارِضُ أَنْفَاسَ الرِّيحِ بِمَا
يُخْفِي بِثَوْبِ الدُّجَى مَسْرَاهُ مُسْتَرَا
كَأَنَّ أَعْيْنَ وَاشِيَهُ تُرَاقِبُهُ

وقال:

أَهْلًا بِهِ مِنْ زَائِرٍ مُعْتَادٍ
يَتَجَاوَزُ الرِّيَابَ يَخْفِقُ ظِلُّهَا
أَنْتَى اهْتَدَى فِي ظِلِّ أَخْضَرٍ مُغْدِفٍ
بَارِقٍ مِنْ كِبِدِ الْمَتِيمِ مَقْدَمًا
مُعْتَادَةً أَمِنَتْ نَمَائِمَ حَلِيهَا
وَكَاثِمًا يَأْقُوئُهَا فِي نَحْرِهَا

[عقال بن شبة بين يدي المنصور]

خطب صالح بن أبي جعفر المنصور في بعض الأمر فأحسن، فأراد المنصور أن يقرظه ويشني عليه، فلم يجسر أحد على ذلك لمكان المهدي، وكان مرشحاً للخلافة، وخافوا ألا يقع الثناء على أخيه بموافقته، فقام عقال بن شبة، فقال: ما رأيت أبين بياناً، ولا أفصح لساناً، ولا أحسن طريقاً، ولا أغمض عروفاً، من خطيب قام بحضرتك يا أمير المؤمنين، وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير: (٧)

- (١) العَقْرُ: وجه الأرض، والتراب، وأول سقية يُسْقَاهَا الزرع. وفي رواية: «اللملم عند خَفَرٍ». والخفر: الحياء.
- (٢) يرفل في ثياب حداد: أراد أنه أسود شديد السواد.
- (٣) أغدق الليل: أرخى ستوره.
- (٤) الحارث بن عباد: هو فارس النعمانة الذي اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل بن ربيعة ابنه.
- (٥) العَوَادُ: الزائرون.
- (٦) يجن: يستر، يخفي.
- (٧) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٤٢. والأبيات من قصيدة يمدح بها هرمًا وأباه وإخوته.

يَطْلُبُ شَأَوْا امْرَأَتَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا بَرَا الْمُلُوكَ وَبَرَا هَذِهِ الشُّوْقَا^(١)
هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقُ بِشَأَوْهِمَا عَلَى تَكَالُيفِهِ فَمِثْلُهُ لِحَقَا^(٢)
أَوْ يَسْقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهْلٍ فَيَالِذِي قَدَمًا مِنْ صَالِحِ سَبَا^(٣)

فعمجب الناس من حسن تخلصه، فقال أبو جعفر: لا ينصرف التميمي إلا بثلاثين ألفاً.

قال أبو عبد الله كاتب المهدي: ما رأيت مثل عقال قط في بلاغته؛ [مدح الغلام، و] أرضى المنصور، وسلم من المهدي.

[زهير وهرم بن سنان]

وفي قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة المري:

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقًا
مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا^(٤)
وَلَيْسَ مَانِعَ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ يَوْمًا وَلَا مُعْدِمًا مِنْ خَابِطٍ وَرَقًا^(٥)
لَيْتَ بَعَثَ بِعَثَرِ بَصْطَادِ الرِّجَالِ، إِذَا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا^(٦)
يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطْعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقًا^(٧)

- (١) بَرَا الْمُلُوكَ: فاقاها. وفي الديوان: «نالا الملوك». والشأو: الطلق من الجري، والغاية. وأراد بالمرأين: أباه وجده. والشوق: أوساط الناس. يقول: إن أبويه سبقا أوساط الناس، وفاقا الملوك، وهو يطلب سبقهما.
- (٢) على تكاليفه: أي على ما يتكلف من الشدة والمشقة.
- (٣) في الديوان: «فَمِثْلُ مَا قَدَمًا».
- (٤) في الديوان: «إِنْ تَلَقَى يَوْمًا». وعلى عِلَاتِهِ: أي على قلة مال أو عدم. والسماحة: الجود والكرم، والسهولة واللين.
- (٥) الخابط: طالب المعروف، وأصله الذي يخطب الشجر لينزل ورقه فيأخذه غلفاً لماشيته. وقوله: «ولا معدماً من خابط» أي: ولا معدماً خابطاً و«من» زائدة لاستغراق الجنس. والورق هنا: المعروف. والمعدم: المانع.
- (٦) في الديوان: «مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا». لَيْتَ بَعَثَ: أي هو في الجرأة والإقدام كالليث: الأسد. عَثَرَ: موضع. والأقارن: جمع قرن، وهو الصاحب أو الكفء في القتال.
- (٧) يقول: إذا ارتدى الناس في الحرب بالنبل، دخل هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتنق قرنه والتممه. يصف أنه يزيد عليهم في كل حال من أحوال الحرب.

فَضَّلُ الْجَوَادِ عَلَى الْخَيْلِ الْبِطَاءِ فَلَا يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزَقًا^(١)
هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَغِيَا بِحُجَّتِهِ وَسَطَ النَّدِيِّ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقًا^(٢)
لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ أَفَقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الْأَفَقَا

وكان زهير كثير المدح لهرم، ويروى أن بتاً لسان بن أبي حارثة رأت بتاً لزهير بن أبي سلمى في بعض المحافل، وإذا لها شارة وحال حسنة، فقالت: قد سرنى ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك [فقلت: إنها منكم]. فقالت: بلى والله لك الفضل، أعطيتاكم ما يَفْنَى، وأعطيتمونا ما يبقى!

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنة هرم بن سنان: ما وهب أبوك لزهير؟ قالت: أعطيتاه مالاً وأثاثاً أفناه الدهر. قال: لكن ما أعطاكموه لا تُفْنِيه الدهور. وقد صدق عمر رضي الله عنه، لقد أبقي زهير لهم ما لا تُفْنِيه الدهور، ولا تُخْلِقُه العصور، ولا يزال به ذكر الممدوح سامياً، وشرفه باقياً، فقد صار ذكرهم علماً منصوباً، ومثلاً مضروباً، قال الطائي، وذكرهم في شعره: (٣)

مَا لِي وَمَالِكَ شِبْهُ حِينَ أَذْكَرُهُ إِلَّا زُهَيْرٌ وَقَدْ أَضْغَى لَهُ هَرِمٌ

وقال يوسف الجوهري يمدح الحسن بن سهل:

لَوْ أَنَّ عَيْنِي زُهَيْرٍ أَبْصَرْتُ حَسَنًا وَكَيْفَ يَصْنَعُ فِي أَمْوَالِهِ الْكَرْمُ
إِذَنْ لَقَالَ زُهَيْرٌ حِينَ يُبْصِرُهُ هَذَا الْجَوَادُ عَلَى الْعَلَاتِ لَا هَرِمٌ^(٤)

وقال آخر، ويدخل في باب تفضيل الشعر:

الشعرُ يحفظُ ما أودَى الزمانُ بهِ والشعرُ أفضلُ ما يُجَنَى من الكرمِ

(١) الجواد: الذي يوجد بما عنده من الجري. الممنون: المقتطوع. الترق: الذي يبطيء بعد الجري، والذي يعطي ثم يكف.

أراد أن ممدوحه فضل الناس فضل الجياد على البطء من الخيل.

(٢) الندى: مجلس القوم.

امتدحه بالكرم، والجرأة، والبلاغة، وأنه لا يعيا بخطته في متلدى القوم.

(٣) أبو تمام، الديوان: ٣٦٨/٢. والبيت من قصيدة يعاتب بها محمد بن سعيد كاتب الحن بن سهل.

(٤) في الديوان: «حِينَ أُشْهِدُهُ».

لولا مقال زهير في قصائده ما كان يُعرفُ جُودُ كان من هَرمٍ

وقيل: أعطى هرم [العطاء الجزيل] عوض قول زهير فيه: ^(١)

ناللّه قد علمت سرّاة بني ذُبَّانَ عامَ الحَبَسِ والأَصْرِ ^(٢)
 أَنْ نِعَمَ حَشَوُ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِبْتَ نَزَالَ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ ^(٣)
 حَامِي الذِّمَارِ عَلَى مُحَافَظَةِ الدِّ حُجْلَى أَمِينٍ مُغَيَّبِ الصَّدْرِ ^(٤)
 حَدِبٌ عَلَى الْمَوْلَى الضَّرِيكِ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ ^(٥)
 وَمُرَهَّقُ النِّيرانِ يُحَمَّدُ فِي الدِّ سَلَاوَاءٍ غَيْرُ مُلْعَنٍ الْقِدْرِ ^(٦)
 وَالْمَسْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ، وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِثْرِ ^(٧)

وقال: ^(٨)

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَدٌ كُنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَائِهِ هَرمٍ ^(٩)
 هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلُهُ عَفْوَاً، وَيُظْلِمُ أحياناً فَيُظْلِمُ ^(١٠)

- (١) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٢٨.
- (٢) السَّوَاءُ: جمع سَرِيٍّ، وهو الشريف. الحبس: هو أن يحرق العدو بالقوم، فيحبسوا أموالهم ولا يخرجوها إلى الرعي خشية أن يغار عليهم. والأصر: كالحبس، والضيق وسوء الحال.
- (٣) في الديوان: «ولنعم حشو الدرع أنت إذا». دعيت نزال: تداعى القوم بالنزول عن الخيل والنضارب بالسيف حين اشتداد الحرب وتزاحم الأقران. لجَّ في الدُّعْرِ: تتابع الناس في الفرع.
- (٤) الجُلَى: النائبة الشديدة. على محافظة الجُلَى: أي لمحافظته على الجُلَى. والجُلَى أيضاً: جماعة العشرة. وحامي الذمار: أي يحمي ما يجب عليه أن يحميه من حرمه. وأمين مغيب الصدر: أي مؤتمن على ما يغيب في صدره ويضمّره.
- (٥) الحدب: المشفق. المولى: ابن العم. الضريك: المحتاج. وفي الديوان: «نابت عليه نوائب الدهر».
- (٦) مرهق النيران: تغشى الضيفان نيرانه. والسلاواء: الشدة. وغير مُلْعَنٍ الْقِدْرِ: أي محمود القدر، لأنه لا يأكل ما في قدره وحده دون ضيفه وجاره واليتيم والمسكين.
- (٧) يقول: بينه وبين الفاحشات ستر من الحياء وتقى الله، ولا ستر بينه وبين الخير.
- (٨) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٩١.
- (٩) على علّاته: على ما ينويه من قلة ذات يد وعوز.
- (١٠) في الديوان: «هو الجواد». يعطي عفواً: بلا ملل ولا تعب. وقوله: ويظلم أحياناً: أي يطلب منه في غير موضع الطلب وغير وقته. يظلم: يحتمل هذا الظلم لجوده وكرمه.

وَأَنَّ أَتَاهُ خَلِيلٌ بِسُؤْمٍ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ: لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمٌ^(١)
الخليل: الذي أحلَّ به الفقر؛ إلى غير ذلك من مُختارٍ مدحه فيه.

[فضل الشعر]

ولما امتدح نُصَيْبُ عَبْدَ اللَّهِ بن جَعْفَرٍ رضي الله عنه أمر له بإبل وخيل، وثياب ودنانير
ودراهم، قال له رجل: أَعْطِي لِمِثْلِ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ هَذَا الْعَطَاءُ؟ فَقَالَ: إِنْ كَانَ أَسْوَدٌ فَإِنْ
شِعْرُهُ أَبْيَضَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا فَإِنْ ثَنَاءٌ لَحُرٍّ، وَلَقَدْ اسْتَحَقَّ بِمَا قَالَ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ وَهَلْ
أَعْطَيْنَاهُ إِلَّا ثِيَابًا تَبْلَى، وَمَالًا يَفْنَى، وَمَطَايَا تَنْضَى، وَأَعْطَانَا مَدِيحًا يُرَوَّى، وَثَنَاءً يَبْقَى.

وَقَالَ الْأَخْطَلُ يَعْنِدُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ بِمَدْحِهِ لَهُمْ:
أَبْنِي أُمَيَّةَ إِنْ أَخَذْتُ نَوَالَكُمْ فَلَمَّا أَخَذْتُمْ مِنْ مَدِيحِي أَكْثَرَ
أَبْنِي أُمَيَّةَ لِي مَدَائِحُ فِيكُمْ تُسَوِّنُ إِنْ طَالَ الزَّمَانُ وَتُذَكِّرُ

ولما مدح أبو تمام الطائي محمد بن حسان الضبي بقصيدته التي أولها:^(٢)
أَسْقَى طُلُولَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمٌ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمٌ^(٣)
وصَلَّه بِمَالٍ كَثِيرٍ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعَةً نَفِيسَةً، فَقَالَ يَصِفُهَا:^(٤)

قَدْ كَسَانَا مِنْ كُسُوَةِ الصَّبَفِ خِرْقٌ مُكْتَسَبٌ مِنْ مَكَارِمِ وَمَسَاعٍ^(٥)
حُلَّةٌ سَابِرِيَّةٌ وَكِسَاءٌ كَسَحَا الْقَيْضُ أَوْ رَدَاءُ الشَّجَاعِ^(٦)
كَالسَرَابِ الرِّقَاقِ فِي الْحُسْنِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الْخِدَاعِ^(٧)

(١) الخليل: الفقير، ذو الخلعة، أي الفقر. لا حرم: أي غير ممنوع مالي عنه.

(٢) أبو تمام، الديوان: ١٥١/٢. وفيه أنه يمدح بهذه القصيدة أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة.

(٣) الأجش: الخشن الصوت، وأراد به الرعد. الهزيم: صوت الرعد.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٤٠٦/١.

(٥) الخرق: الكريم.

(٦) الخلعة: الثوب. سابرية: رفيقة. سحا القيص: يعني ما تحت القيص، وهو القشر الأعلى من
البيضة. والشجاع هنا: الحية. ورداء الشجاع: جلد الحية الذي ينسلخ عنها. يريد أن الثوب
الذي كساه إياه رقيق.

(٧) السراب: ما يلمع كالماء في وسط النهار.

فَصَيِّبًا تَسْتَرْجِفُ الرِّيحُ مَتْنِيَهٗ هـ بِأَمْرِ مِنَ الْهَبُوبِ مُطَاعٌ ^(١)
 رَجَفَانَا كَأَنَّهُ الدَّهْرَ مِنْهُ كَيْدُ الصَّبِّ أَوْ حَشَى الْمُرْتَاعِ ^(٢)
 لَازِمًا مَا يَلِيهِ تَحْسَبُهُ جُزْءُ ءَا مِنَ الْمَتْنِينَ وَالْأَضْلَاعِ ^(٣)
 كِنُوءٌ مِنْ أَعْرَ أُرُوعٍ رَحْبِ الصَّدِّ لِدِرِ رَحْبِ الْفَوَادِ رَحْبِ الدَّرَاعِ ^(٤)
 سَوَفَ أَكْسُوكَ مَا يُعْقِي عَلَيْهَا مِنْ ثَنَاءٍ كَالْبُرْدِ بُرْدِ الصَّنَاعِ ^(٥)
 حُسْنُ هَاتِيكَ فِي الْعَيُونِ، وَهَذَا حُسْنُهُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ

فقال: لعنة الله عليّ إن بقي عندي ثوب أو يصل إلى أبي تمام؛ وأمر بحمل ما في خزائنه إليه.

بعض الأخبار عن أبي تمام

قال إبراهيم بن العباس الصولي لأبي تمام: [أمرأء] الكلام يا أبا تمام رعيّة لإحسانك، قال: [ذاك] لأنّي أسّضيء بنورك، وأردّ شريعتك.

وكان الطائي مع جَوْدَةِ شعره بليغ الخطاب، حاضر الجواب، وكان يقال: ثثنان قلّما يجتمعان: اللسان البليغ، والشعر الجيد.

وقال الحسن بن جُنَادَةَ الوشاء: انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان، فوقف عليّ، فقلت: من أين؟ فقال: كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاماً طيباً، وفاكهة فاضلة، ويُخْرِنَا وَغُلْفُنَا؛ فَخَرَجْتُ هَارِباً مِنَ الْمَجْلِسِ، نَافِراً إِلَى التَّسْلِي، وما في منزلي نبيذ [فإن كان عندك منه شيء فامنحني، فقلت: ما عندي نبيذ]، ولكن عندي خَمْرٌ أُرِيدُهُ لِبَعْضِ الْأَدْوِيَةِ، فقال: دع اسمه، وَأَعْطِنَا جِسْمَهُ، فليس يشيننا عن المدام، ما هَجَّتْهُ ^(٦) به من اسم الحرام.

(١) القصبي: ثوب من الكتان ناعم. تسترجف: تطلب رجفانه. وأراد بمتنيه: ظهره، أو ما ظهر منه.
 (٢) أي: كأنه في ارتجافه كيد العاشق أو حشا المرتاع، والضمير في منه يعود إلى الهبوب، والدهر منصوب على الظرفية الزمانية.

(٣) لازماً ما يليه: أي يلزم لرقته ما يليه من الجسد، فتحسبه جزءاً منه. والمتنين: متنى: جنبه الظهر.

(٤) في الديوان: «حِلْعَةٌ مِنْ أَعْرَ...».

أَعْرَ: كريم. أُرُوع: يعجب الناس بخصاله. والرحب: الواسع.

(٥) يُعْقِي عليها: يمحوها. الصنّاع: الحاذق في الصنعة.

(٦) هَجَّتْهُ: فَبَحَّتْهُ.

[استنجاز أعرابي موعظة]

قال عبيد الله^(١) بن محمد بن صدقة: كنّا عند أبي عبيد الله، فدخل عليه أعرابي قد كان له عليه وعد، فقال له: أيها الشيخ السيد، إني والله أتسحبُ على كرمك، وأستوطيُء فراشَ مجدك، وأستعين على نعمك بقدرك؛ وقد مضى لي موعدان، فاجعل التَّجَعَّ ثالثاً، أَقْدُ لك الشُّكْرُ في العرب شادخ الغُرّة، بادي الأوضح. فقال أبو عبيد الله: ما وعدتك تغريراً، ولا آخرتك تقصيراً، ولكن الأشغال تقطعني، وتأخذ بأوفر الحظّ مني، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية، ومنتهى الوسع بأوفر مأمول، وأحمد عاقبة، وأقرب أمد، إن شاء الله تعالى.

فقال الأعرابي: يا جلساء الصّدق، قد أحصرني التطول، فهل من معين مُنْجِد ومساعدٍ منشد؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبي عبيد الله: والله - أصلحك الله - لقد قصّدتُ، وما قصّدتُ حتى أُمَلِّك، وما أُمَلِّك إلا بعد أن أجال النظر، فأمن الخطر، وأيقن بالظفر، فحقّق له أمله بتهيئة القليل، وتهيئة التعجيل. قال الشاعر:

إذا ما اجتَلَّاهُ المَجْدُ عن وَعْدِ آمِلٍ تَبَلَّجَ عن بَشِيرٍ لِيَسْتَكْمِلَ البَشْرَ^(٢)
وَلَمْ يَكُنْهِ مَطْلُ العُدَاةِ عَنِ التِّي تَصَوَّنُ لَهُ الحَمْدُ المَوْفَّرَ والأَجْرَ^(٣)

فأحضر أبو عبيد الله^(٤) للأعرابي عشرة آلاف درهم، وقال الأعرابي للفتى: خُذْهَا فأنت سببها. فقال: شكرُك أحبُّ إليّ منها، فقال له أبو عبيد الله: خُذْهَا فقد أَمَرْنَا له بمثلها. فقال الأعرابي: الْآنَ كَمَلْتُ النعمة، وَتَمَّتِ المنة.

[معاوية بن يسار]

وكان أبو عبيد الله واسع الذرع، سابغ الدرع في الكرم والبلاغة، واسمُه معاوية بن يَسَار^(٥).

وكان يقول: إِنَّ نخوةَ الشرفِ تُنَاسِبُ بَطَرَ الغِنَى، والصبرُ على حقوقِ الثَّرْوَةِ أشدُّ من

(١) في نسخة: «عبد الله» في المواضع كلها.

(٢) بَلَجَ وجهه بَلَجاً: تَنَضَّرَ سُوراً. والبَشْرُ: طلاقة الوجه.

(٣) المَطْلُ: التسويف والتأجيل والتأخير.

(٤) في نسخة: «أبو عبد الله»، في المواضع كلها.

(٥) في نسخة: «معاوية بن يشار».

الصَّبْرُ عَلَى أَلَمِ الْحَاجَةِ، وَذُلُّ الْفَقْرِ يَسْعَى عَلَى عِزِّ الصَّبْرِ، وَجَوْرُ الْوَلَايَةِ مَانِعٌ مِنْ عَدْلِ الْإِنْصَافِ، إِلَّا مَنْ نَاسَبَ بَعْدَ الْهَمَةِ، وَكَانَ لِسُلْطَانِ عِزِّهِ قُوَّةٌ عَلَى شَهْوَتِهِ.

وكان يقول: لَا يُكْسَرُ رَأْسُ صِنَاعَةٍ إِلَّا فِي أَحْسَنِّ رُتَانٍ، وَأَرْدَلِ سُلْطَانٍ، وَلَا يَعْيبُ الْعِلْمَ إِلَّا مَنْ انْسَلَخَ عَنْهُ، وَخَرَجَ مِنْهُ.

وكان يقول: حُسْنُ الْبَشْرِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ [النجاح] ورائدٌ مِنْ [رَوَادِ الْفَلَاحِ]، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ زَهِيرٌ: ^(١)

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ ابْنَهُ عَلَى الزُّنْدَقَةِ: لَا يَمْنَعُكَ مَا سَبَقَ [بِهِ] الْقَضَاءُ فِي وَلَدِكَ، مِنْ [ثَلَجِ صَدْرِكَ] وَتَقْدِيمِ نُصْحِكَ؛ فَإِنِّي لَا أَعْرِضُ لَكَ رَأْيًا عَلَى تَهْمَةٍ، وَلَا أُؤَخِّرُ لَكَ قَدَمًا عَنْ رِثَةٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا كَانَ [وَلَدِي حَسَنَةً] مِنْ نَبْتِ إِحْسَانِكَ أَرْضُهُ، وَمَنْ تَفْقِدُكَ سَمَائِهِ، وَأَنَا طَاعَةُ أَمْرِكَ، وَعَبْدُ نَهْيِكَ، وَبِقِيَّةِ رَأْيِكَ لِي أَحْسَنُ الْخَلْفِ عِنْدِي.

وكان يقول: الْعَالِمُ يَمْشِي الْبِرَّازَ آمِنًا، وَالْجَاهِلُ يَهْبِطُ الْغَيْطَانَ كَامِنًا، وَلِلَّهِ دَرُّ زَهِيرٍ حَيْثُ يَقُولُ: ^(٢)

السَّيْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سَيْرٍ

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهِ: ذَاكِرْنِي الْمَنْصُورُ فِي أَمْرِ الْحُسَيْنِ ^(٣) بِنَ قَحْطَنَةٍ، فَقَالَ: كَانَ أَوْثَقَ النَّاسِ عِنْدِي، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْ قَلْبِي، فَلَمَّا لَقِيَ أَبَا حَنِيفَةَ اتَّكَثَ، فَقُلْتُ: إِنْ فَسَدَتْ نَيْتُهُ فَسَيُضَعُّهُ الْبَاطِلُ كَمَا رَفَعَهُ الْحَقُّ، وَتَشْهَدُ مَخَايِلُهُ عَلَيْهِ كَمَا شَهِدَتْ لَهُ، فَتَعَدَّلُ فِي أَمْرِهِ مِنْ شَكِّ إِلَى يَقِينٍ. ثُمَّ قَالَ لِي: اكْتُمُ عَلَيَّ مَا أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ شَهَابٍ: اسْتَعْنَتْ عَلَيَّ أَبِي عُبَيْدُ اللَّهِ فِي أَمْرِ بَعْضِ إِخْوَانِهِ وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ سُؤَالِي إِيَّاهُ فِيهِ، فَقَالَ لِي: لَوْلَا أَنْ حَقَّقَ لَا يُجْحَدُ وَلَا يُضَاعَ، لَحَجَبْتُ عَنْكَ حُسْنَ نَظَرِي؛ أَظُنُّنِي أَجْهَلُ الْإِحْسَانِ حَتَّى أَعْلَمَهُ، وَلَا أَعْرِفُ مَوْضِعَ الْمَعْرُوفِ حَتَّى أَعْرِفَهُ؟ لَوْ

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٦٨. والبيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر.

(٢) سبق ورودُه وشرحه في مكان سابق.

(٣) في نسخة: «الحسن».

كَانَ يُنَالُ مَا عِنْدِي إِلَّا بِغَيْرِي لَكُنْتُ مِثْلَ الْبَعِيرِ الذَّلُولِ؛ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحَمْلَ الثَّقِيلَ، إِنْ قِيدَ
 انْقَادَ، وَإِنْ أُتِيخَ بَرَكَ، مَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً، فَقُلْتُ: مَعْرِفَتُكَ بِمَوْضِعِ الصَّنَاعِ أَثْبَتَ
 مَعْرِفَةَ، وَلَمْ أَجْعَلْ فَلَاناً شَفِيعاً إِنَّمَا جَعَلْتَهُ مَذْكُوراً. قَالَ: وَأَيُّ إِذْكَارٍ أَبْلُغُ عِنْدِي فِي رَغْبِي
 حَقِّكَ مِنْ مَسِيرِكَ إِلَيْهِ وَتَسْلِيمِكَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ مَتَى لَمْ يَتَصَفَّحِ الْمَأْمُولُ أَسْمَاءَ مُؤْتَمِلِهِ غَدْوَةً
 وَرَوَاحاً لَمْ يَكُنْ لِلْأَمَلِ مُحَلّاً، وَجَرَى عَلَيْهِ الْمَقْدَارُ لِمُؤْتَمِلِهِ عَلَى يَدَيْهِ بِمَا قَدَرُ، وَهُوَ غَيْرُ
 مَحْمُودٍ عَلَى ذَلِكَ وَلَا مُشْكُورٍ، وَمَالِي إِمَامٌ بَعْدَ وَرْدِي مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَسْمَاءُ رِجَالِ أَهْلِ
 التَّأْمِيلِ، حَتَّى أَعْرِضَهُمْ عَلَى قَلْبِي، فَلَا تَسْتَعْنُ عَلَى شَرِيفٍ إِلَّا بِشَرْفِهِ؛ فَإِنَّهُ يَرَى ذَلِكَ عِيّاً
 لِعُرْفِهِ؛ وَأَنْشُدُ:

وَذَاكَ أَمْرٌ إِنْ تَأْتَيْهِ فِي عَظِيمَةٍ إِلَى بَسَابِهِ لَا تَسْأَلُهُ بِشَفِيعِ

وَمِنْ تَوْقِيعَاتِهِ: الْحَقُّ يُعْقِبُ فَلْجاً أَوْ ظَفِراً، وَالْبَاطِلُ يُورِثُ كَذِباً وَنَدَمًا.

وَكُتِبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ: وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةٌ بِحَبِّ الْعَاجِلِ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ: لَكِنْ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ
 اللَّهُ لِلشَّهْوَةِ زِمَاماً وَلِلْهَوَى رِبَاطاً مُوَكَّلٌ بِحَبِّ الْآجِلِ، وَمُسْتَصْفِرٌ لِكُلِّ كَثِيرٍ زَائِلٍ.

قَالَ مَصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الزَّيْبَرِيِّ: وَفَدَّ زِيَادُ الْحَارِثِيُّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَهُوَ بِالرِّيِّ وَلِيٌّ
 عَهْدٌ، فَأَقَامَ سِتِينَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ بَرِّهِ، وَهُوَ مُلَازِمٌ كَاتِبُهُ أَبَا عُبَيْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا طَالَ أَمْرُهُ
 دَخَلَ إِلَى كَاتِبِهِ فَأَنْشَدَهُ:

مَا بَعْدَ حَوْلِينَ مَرّاً مِنْ مُطَالَبَةٍ وَلَا مُقَامٍ لِذِي دِينٍ وَذِي حَسَبٍ

لَيْسَنَ رَحَلْتُ وَلَمْ أَظْفَرْ بِفَائِدَةٍ مِنَ الْأَمِيرِ لَقَدْ أَعْدَرْتُ فِي الطَّلَبِ

فَوَقَعَ أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ: يَصْنَعُ اللَّهُ لَكَ! فَكُتِبَ إِلَيْهِ:

مَا أَرَدْتُ الدَّعَاءَ مِنْكَ لِأَنِّي قَدْ تَقَنَّنْتُ أَنَّهُ لَا يُجَابُ

أُجْبَابُ الدَّعَاءِ مِنْ مُسْتَطِيلٍ جُلُّ تَسِيحِهِ الْخَنَا وَالسَّبَابُ^(١)

الفاظ لأهل العصر، في ذكر الاستطالة والكبر

مَعَ مَا يَشَاكِلُ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِيهَا، وَيَطْرُقُ نَوَاحِيهَا مِنَ الْمَسَاوِي وَالْمَقَابِحِ. فَلَانُ لِسَانُهُ
 مِقْرَاضٌ لِلْأَعْرَاضِ، لَا يَأْكُلُ خُبْرَهُ إِلَّا بِلَحُومِ النَّاسِ. هُوَ غَرَضٌ يُرْشَقُ بِسَهَامِ الْغِيَةِ، وَعِلْمُ

(١) الْخَنَا: الْفَحْشَى فِي الْكَلَامِ.

يقصد بالوقعة، قد تناولته الألسن العاذلة، وتناقلت حديثه الأندية الحافلة. قد لزمه عار لا يُمَحَى رَسْمُهُ، ولزمه شئار لا يزول وَسْمُهُ، فأصبح [نَقَلَ كُلَّ لِسَانٍ، وَضَحَّكَ كُلَّ إِنْسَانٍ^(١)]، وصار دولة الألسن، ومثلة الأعين. وقد عَرَّضَ عرضه [غرضاً لسهام الغائبين، وألسنة القاذفين، وقلَّدَ نفسه عظيم العار والشَّار^(٢)]، والسَّبة الخالدة على الليل والنهار. قد أسكرته خَمْرَةُ الكبر، واستغرقتُه عُرَّةُ التَّيِّه، كأن كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدَى داياته، وكأنَّ يوسف لم يَنْظُرْ إِلَّا بطلعته، [وداود لم ينطق إِلَّا بنغمته]، ولقمان لم يتكلم إِلَّا بحكمته، والشمس لم تطلع إِلَّا من جبينه، والغمام لم يَنْدُ إِلَّا من يمينه، وكأنه امتطى السَّمَاكِين، وانتعل الفرقدَيْن، وتناول الشَّيرَيْن بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقليْن، وكأن الخضرَاء له عرشت، والغبراء باسمه فرشت.

فلان له من الطَّائِوس رِجْلُهُ، ومن الوردِ شَوْكُهُ، ومن الماء زَبْدُهُ، ومن النار دخانها، ومن الخمر خُمَارها، قد هَبَّتْ سَمَائِمُ نَمَائِمِهِ، ودَبَّتْ مَكَائِدُ عَقَارِيهِ، والنمام يضرب بسَيْفٍ كَلِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ يَقْطَعُ، ويضرب بعُضْدٍ وَاهِنٍ إِلَّا أَنَّهُ يَوْجَعُ. هو تمثالُ الجبن، وصورة الخوف، ومقرُّ الرعب؛ فلو سَمَّيْتُ له الشَّجَاعَةَ لَخَافَ لَفْظُهَا قَبْلَ مَعْنَاهَا، وَذَكَرَهَا قَبْلَ فُحْوَاهَا، وفزع من اسمها دون مسماهَا، فهو يملك من تخوفه أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ، فكيف بمسموع الكلام؟ إذا ذَكَرْتَ السُّيُوفَ لِمَسَ رَأْسُهُ هَلْ ذَهَبَ، وَمَسَ جَبِينُهُ هَلْ ثَقُبَ؟ كَأَنَّهُ أُسْلِمَ فِي كِتَابِ الْجُبْنِ صَبِيًّا، وَلَقَنَّ كِتَابَ الْفُشْلِ أُعْجِمِيًّا. وَعَدُّهُ بَرْقٌ خَلَبَ. وروغان ثعلب. غيم وعده جَهَام^(٣)، وَحَدُّ سَيْفِهِ كَهَام^(٤). حَصَلْتُ مِنْهُ عَلَى مَوَاعِيدِ عَرْقَوِيَّة^(٥)، وَأَحْزَانِ يَعْقُوبِيَّة^(٦)، قد حرمني ثَمَرُ الْوَعْدِ، وَجَرَّنِي عَلَى شَوْكِ الْمَطْلِ. فَنِي لَهُ وَعْدٌ أَخَذَ مِنَ الْبَرْقِ الْخَلْبَ خَلْقًا، وقد تناول من العارض الجَهَامَ طَبْعًا، وتركني أَرْغَى رِيَاضَ رَجَاءٍ لَا يُبْتَ، وَأَجْنِي ثَمَارَ أَمَلٍ لَا يُورَقُ؛

(١) الثَّقُلُ: مَا يُنْقَلُ بِهِ عَلَى الشَّرَابِ مِنْ فَوَاكِهٍ وَكَوَامِخٍ وَغَيْرِهَا، أَوْ مَا يُفَكِّهُ بِهِ مِنْ جَوْزٍ وَلَوْزٍ وَبِنْدَقٍ وَنَحْوِهَا. وَالضُّحْكَةُ: الَّذِي يَضْحَكُ مِنْهُ النَّاسُ.

(٢) الشَّارُّ: الْأَمْرُ الْمَشْهُورُ بِالْقَبِيحِ.

(٣) الْجَهَامُ: السَّحَابُ لَا مَاءَ فِيهِ.

(٤) كَهَمُ السَّيْفِ، فَهُوَ كَهَامٌ وَكُهَيْمٌ: كُلٌّ.

(٥) مَوَاعِيدُ عَرْقَوِيَّةٍ: نِسْبَةٌ إِلَى عَرْقُوبٍ، وَهُوَ مُضْرَبُ الْمَثَلِ فِي الْخَلْفِ وَالْمَطْلِ.

(٦) أَحْزَانُ يَعْقُوبِيَّةٍ: نِسْبَةٌ إِلَى يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي حَزَنَ عَلَى ابْنِهِ يُوسُفَ وَبَكَاهُ، حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ، آيَةُ ٨٤).

فَأَنَا فِي ضَمَانِ الْإِنْتَظَارِ، وَإِسَارِ عِدَّةِ ضِمَارٍ^(١). هُوَ يَرْسِلُ بَرَقَهُ، وَلَا يَسِيلُ وَدْقَهُ، وَيَقْدُمُ رَعْدَهُ، فَلَا يَمُطِرُ بَعْدَهُ. وَغَدَهُ الرِّقْمَ عَلَى بَسَاطِ الْهَوَاءِ، وَالخَطَّ فِي بَسِيطِ الْمَاءِ.

حَلَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ:^(٢)

لَا أُسْتَفِيقُ مِنَ الْغَرَامِ، وَلَا أُرَى	خَلَوْا مِنَ الْأَشْجَانِ وَالْبُرَحَاءِ ^(٣)
وَصُرُوفُ أَيَّامٍ أَقْمَنَ قِيَامَتِي	بَنَى الْخَلِيطُ وَفُرْقَةُ الْقُرْنَاءِ ^(٤)
وَجَفَاءَ خِلِّ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ	عَوْنِي عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ
ثَبَّتَ الْعَزِيمَةَ فِي الْعَقُوقِ، وَوَدَّه	مُتَّقِلٌ كَتَفُلِ الْأَحْيَاءِ ^(٥)
ذِي خَلَّةٍ بِأَتَيْنَ أَثْبَتُ عَهْدِهِ	كَالْخَطِّ يُرْسِمُ فِي بَسِيطِ الْمَاءِ ^(٦)

أَرَدْتُ هَذَا الْبَيْتَ.

هُوَ صَخْرَةٌ خَلَقَاءُ^(٧)، لَا يَسْتَجِيبُ لِلْمُرْتَقَى، وَحِيَّةٌ صَمَاءٌ لَا تَسْمَعُ لِلرُّقَى، كَأَنِّي أَسْتَنْقِرُ بِالْجَوِّ رَعْدًا، وَأَهْزَمَ مِنْهُ بِالْدَّعَاءِ طُودًا، هُوَ ثَابِتُ الْعِطْفِ [نَابِي الْعِطْفِ]، عَاجِزُ الْقُوَّةِ، قَاصِرُ الْمُتَّةِ، يَتَعَلَّقُ بِأَذْنَابِ الْمَعَاضِيرِ، وَيَحِيلُ عَلَى ذُنُوبِ الْمَقَادِيرِ. هُوَ كَالنِّعَامَةِ تَكُونُ جَمَلًا إِذَا قِيلَ لَهَا طَيْرِي، وَطَائِرًا إِذَا قِيلَ لَهَا سِيرِي. يَفَاضُ لَهُ بَذَلٌ، وَلَا يَقْوُضُ إِلَيْهِ شَغْلٌ، وَيَمْلَأُ لَهُ وَطْبٌ، وَلَا يُدْفَعُ لَهُ خَطْبٌ، قَدْ وَفَرَ هَمَّهُ عَلَى مَطْعَمِ يَجُودِهِ، وَمَلَبَسَ يَجُودَهُ، وَمَرَقَدَ يَمَهَّدَهُ، وَبَنَانَ يَشِيدُهُ.

هَذَا كَقَوْلِ الْحَطِيطَةِ:^(٨)

- (١) الضِّمَارُ: الْغَائِبُ الَّذِي لَا يُرْجَى.
- (٢) الْآيَاتُ مِنْ قَصِيدَةٍ وَرَدَتْ فِي بَيْتِيَةِ الدَّهْرِ لِلشَّعَالِيِّ: ٢٠٣/٣، وَكَانَ ابْنُ الْعَمِيدِ أَرْسَلَهَا إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ، لِيَعْرِضَهَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الْعَبَّاسِيِّ.
- (٣) الْبُرَحَاءُ: الشَّجَرَةُ.
- (٤) النَّوْيُ: الْبُعْدُ، أَوْ النَّاحِيَةُ يُدْعَبُ إِلَيْهَا. وَالْخَلِيطُ: الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ، قَالَ ابْنُ مِيَادَةَ: إِنَّ الْخَلِيطَ أَجْدَاوُ الْبَيْتِ فَأَنْدَقُوا وَمَا رَبُّوهُ قَدَّرَ الْأَمْرَ الَّذِي صَنَعُوا (ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: خَلَطَ). وَالْقُرْنَاءُ: جَمْعُ قَرِينٍ، وَهُوَ الْمَقَارَنُ وَالْمَصَاحِبُ، وَالزَّوْجُ.
- (٥) فِي بَيْتِيَةِ الدَّهْرِ: «كَتَفُلِ الْأَحْيَاءِ».
- (٦) فِي بَيْتِيَةِ الدَّهْرِ:
- ذِي مَلَكَةٍ بِأَتَيْكَ أَثْبَتُ عَهْدِهِ كَالْخَطِّ يَرْقُمُ فِي بَسِيطِ الْمَاءِ
- (٧) خَلَقَاءُ: مَلَسَاءُ.
- (٨) الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ قَالَهَا الْحَطِيطَةُ فِي هِجَاءِ الزَّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرِ. وَيُقَالُ: إِنَّ الزَّبْرِقَانَ شَكَاهُ إِلَى عَمْرِ بْنِ =

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعْثِهَا واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

قَلْبٌ نَعْلٌ، وَصَدْرٌ دَغِلٌ، وَطَوِيَّةٌ مَعْلُولَةٌ، وَعَقِيدَةٌ مَدْخُولَةٌ، صَفْوُهُ رَنْقٌ^(١)، وَبِرُهُ مَلَقٌ، قَدْ مَلِئَ قَلْبُهُ رَيْنًا، وَشَحِنَ صَدْرُهُ مَيْنًا^(٢)، يَدْعِي الْفَضْلَ وَهُوَ فِيهِ دَعِيٌّ، ذَأْبُهُ بَثُ الْخَدَائِعِ، وَالتَّقْتُ فِي عُقْدِ الْمَكَائِدِ، ضَمِيرُهُ خُبْتُ، وَيَمِينُهُ حُنْتُ، وَعَهْدُهُ نَكْتُ. هُوَ سَحَابَةٌ صَيْفٌ، وَطَارِقٌ صَيْفٌ، قُوَّتُهُ غَنِيْمَةٌ، وَالظَّفَرُ بِهِ هَزِيمَةٌ. هُوَ الْعَوْدُ الْمَرْكُوبُ، وَالْوَتَرُ الْمَضْرُوبُ، يَطْوُهُ الْخَفْتُ وَالْحَافِرُ، وَيَسْتَضِيئُهُ الْوَارِدُ وَالصَّادِرُ. [يَغْمُضُ عَنِ الذِّكْرِ]، وَيَصْغُرُ عَنِ الْفِكْرِ. ذَاتُهُ لَا يَوْسَمُ أَغْفَالَهَا، وَصَفْتُهُ لَا تَنْفَرُجُ أَقْفَالَهَا. هُوَ أَقْلٌ مِنْ تَبْنَةٍ فِي لَبْنَةٍ، وَمِنْ قَلَامَةٍ فِي قُمَامَةٍ. وَهُوَ بِيَذِقُ الشُّطْرَنْجِ فِي الْقِيَمَةِ وَالْقَامَةِ، جَهْلُهُ كَثِيفٌ، وَعَقْلُهُ سَخِيفٌ، لَا يَسْتَرُّ مِنَ الْعَقْلِ بِسَخِيفٍ، وَلَا يَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى سَخَفٍ. يَمْدُ يَدَ الْجُنُونِ فَيَعْرُكُ بِهَا أُذُنَ الْحَرَمِ، وَيَفْتَحُ حِرَابَ السَّخْفِ فَيَصْفَعُ بِهِ قَفَا الْعَقْلِ. لَا تَزَالُ الْأَخْبَارُ تَوْرِدُ سَفَائِحَ جَهْلِهِ وَخُرْقَهُ، وَالْأَنْبَاءُ تَنْقُلُ نَتَائِجَ سُخْفِهِ وَحُفَّتِهِ. قَدْ ظَلَّ يَتَعَثَّرُ فِي فَضُولِ جَهْلِهِ، وَيَتَسَاوَدُّ فِي ذِيُولِ عَقْلِهِ. هُوَ سَمِينُ الْمَالِ مَهْزُولُ النَّوَالِ. ثَرْوَةٌ فِي الثَّرِيَا وَهَمَّةٌ فِي الثَّرَى.

وَجْهُهُ كَهَوَلِ الْمَطْلَعِ، وَزَوَالِ النِّعْمَةِ، وَقَضَاءِ السَّوَاءِ، وَمَوْتِ الْفُجَاءَةِ. هُوَ قَذَى الْعَيْنِ، وَشَجَى الصَّدْرِ، وَأَذَى الْقَلْبِ، وَحُمَى الرُّوحِ، وَجْهُهُ كَأَخْرِ الصِّكِّ، وَظَلَمُ الشُّكِّ، كَأَنَّ النُّحْسَ يَطْلُعُ مِنْ جَبِينِهِ، وَالخَلَّ يَقْطُرُ مِنْ وَجْتِهِ. وَجْهُهُ طَلْعَةُ الْهَجَرِ، وَلَفْظُهُ قِطْعُ الصَّخَرِ. وَجْهُهُ كَحُضُورِ الْغَرِيمِ، وَوُصُولِ الرَّقِيبِ، وَكِتَابِ الْعَزْلِ، وَفِرَاقِ الْحَبِيبِ. لَهُ مِنَ الدِّينَارِ نَضْرَتُهُ، وَمِنَ الْوَرْدِ صُفْرَتُهُ، وَمِنَ السَّحَابِ ظُلُمَتُهُ، وَمِنَ الْأَسَدِ نَكْهَتُهُ^(٣). هُوَ عَصَارَةُ لُؤْمٍ فِي قَرَارَةِ خُبْتُ. الْأَمُّ مَهْجَةٌ فِي أَسْقَطِ جَنَّةٍ. حَدِيثُ النِّعْمَةِ، خَبِيثُ الطَّعْمَةِ، خَبِيثُ الْمَرْكَبِ، لَيْثِمُ الْمَتَسَبِّ، يَكَادُ مِنْ لُؤْمِهِ يُعْدِي مِنْ جَلْسِ إِلَى جَنْبِهِ، أَوْ تَسَمَّى بِاسْمِهِ. قَدْ أَرْضَعَ بِلْبَانَ

= الخطاب فقال: إنه هجاني؛ فقال عمر: وما قال لك؟ قال: قال لي: دع المكارم... البيت. فقال عمر: ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة؛ فقال الزبيرقان: أو ما تبلغ مروءتي إلا أن أكل وألبس! فقال عمر: عليّ بحسان، فجيء به فسأله، فقال: لم يهجه، ولكن سلح عليه، فأمر به عمر، فجعل في نقيير في بئر، ثم استابه، وهدده بقطع لسانه، ونهاه عن هجاء الناس. (الأصفهاني، الأغاني: ١٥٤/٢ - ١٥٥).

(١) الرنق: الكدر.

(٢) الرَيْنُ: الدنس، وأراد الحقد والضغن، والمين: الكذب.

(٣) النكهة: ريح النعم، والأسد معروف بالبحر، وهو تنن النعم.

اللُّؤْمُ، وَرُبِّي فِي حِجْرِ الشُّومِ، وَفُطِمَ عَنْ ثَدْيِ الْخَيْرِ، وَنَشَأَ فِي عَرَصَةِ الْخُبْنِ، طَلَّقَ الْكِرَمَ ثَلَاثًا لَمْ يَنْطِقْ فِيهِ اسْتِثْنَاءً، وَأَعْتَقَ الْمَجْدَ بَتَاتًا لَمْ يَسْتَوْجِبْ عَلَيْهِ وِلَاءً. هُوَ حِمَارٌ مَبْطَنٌ بِثَوْرٍ مَفْرُوزٍ بِتَيْسٍ، مَطْرَزٌ بِطُرٍّ، [أَتَى مِنَ اللَّؤْمِ بِنَادِرٍ]، لَمْ تَهْتَدِ لَهُ قِصَّةُ مَادِرٍ^(١). هُوَ فَصِيرُ الشَّيْرِ، صَغِيرُ الْقَدْرِ، قَاصِرُ الْقَدْرِ، ضَيْقُ الصَّدْرِ، رَدٌّ إِلَى قِيَمَةٍ مِثْلِهِ فِي خَبْثِ أَصْلِهِ، وَفَرَطُ جَهْلِهِ، لَا أَمْسَ لِيَوْمِهِ، وَلَا قَدِيمَ لِقَوْمِهِ، سَائِلُهُ مُحْرَمٌ، وَمَالُهُ مَكْتُومٌ؛ لَا يَحِينُ إِنْفَاقُهُ، وَلَا يَحِلُّ خَنَاقُهُ. خَيْرُهُ كَالْعَنْقَاءِ تَسْمَعُ بِهَا وَلَا تَرَى. خُبْرُهُ فِي حَالِقٍ، وَإِدَامُهُ فِي شَاهِقٍ. غِنَاهُ فَقْرٌ، وَمَطْبَخُهُ قَفَرٌ، يَمْلَأُ بَطْنَهُ وَالْجَارُ جَائِعٌ، وَيَحْفَظُ مَالَهُ وَالْعَرِضُ ضَائِعٌ، قَدْ أَطَاعَ سُلْطَانُ الْبُخْلِ وَانْخَرَطَ كَيْفَ شَاءَ فِي سَبِيلِكِهِ. هُوَ مِمَّنْ لَا يَبْيَضُ حَجَرُهُ، وَلَا يَشْمُرُ شَجَرُهُ، سَكَيْتَ الْحَلْبَةَ^(٢)، وَسَاقَةَ الْكَتِيئَةِ^(٣)، وَآخِرَ الْجَرِيدَةِ^(٤). لُغْنَةُ الْعَائِبِ، وَعَرْضَةُ الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ. هُوَ عَيْبَةُ الْعُيُوبِ، وَذَنْوِبٌ^(٥) الذَّنُوبِ. وَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ الْمِكَالِي:

وَطَلَعَةٍ بِقُبْحِهَا قَدْ شَهَّرَتْ نَحَكِي زَوَالَ نِعْمَةٍ مَا شُكِرَتْ
كَأَنَّهَا عَنْ لَحْمِهَا قَدْ قُشِرَتْ أَقْبَحُ بِهَا صَحِيفَةٌ قَدْ نُشِرَتْ
عُسْوَانِهَا إِذَا الْوَحُوشُ حُشِرَتْ يَلْعَنُهَا مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ
صَاحِبُهَا ذُو عَوْرَةٍ لِمَا سُنِرَتْ إِنْ سَارَ يَوْمًا فَالْجِبَالُ سُبِرَتْ
أَوْ رَامَ أَكْلًا فَالْجَحِيمُ سُعِرَتْ

من بديع الزمان يشكو الحيري القاضي

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضي علي بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري القاضي ويذمه - وقد أطلت عنان الاختيار فيها لصحة مبانيها، وارتباط ألفاظها بمعانيها:

- (١) مَادِر: مضرب المثل في البخل، كان له حوض يملأه ماءً ليسقي دوابه، فإذا فرغ قذف فيه الحصى الكثير لئلا يستقي غيره.
- (٢) الْحَلْبَةُ: موضع جري الخيل المتسابقة. وسكيتها: أراد أنه يأتي في آخر المتسابقين.
- (٣) السَّاقَةُ مِنَ الْجَيْشِ: مُؤَخَّرُهُ.
- (٤) الْجَرِيدَةُ: خَيْلٌ لَا رَجَالَةَ فِيهَا، وَدَفْتَرُ أَرْزَاقِ الْجَيْشِ فِي الدِّيْوَانِ، وَسَعْفَةٌ طَوِيلَةٌ تُقَشَّرُ مِنْ خَوْصِهَا.
- (٥) الذَّنُوبُ: الدُّلُوعُ الْعَظِيمَةُ، وَالْوَافِرُ الذَّنْبِ. وَيُقَالُ: يَوْمَ ذَنْوَبٍ: طَوِيلُ الشَّرِّ.

الظَّلَامَة - أطال الله بقاء القاضي - إذا أُنْتُ من مجلس القضاء، لم ترق إلا إلى سيد
القضاة. وما كنت لأقصر سيادته على الحكام، دون سائر الأنام، لولا اتصالهم بسببه،
واتسائهم بلبقه، وهبهم مطفئين على قسمه، مغيرين على اسمه، ألهم في الصحة أديم
كأديمه^(١)، أو قديم في الشرف كقديمه، أو حديث في الكرم كطريفه؛ فهنيئاً لهم الأسماء،
وله المعاني، ولا زالت لهم الظواهر، وله الجواهر. ولا غرو أن يُسموا قضاة، فما كل مانع
ماء، ولا كل متقف سماء، ولا كل سيرة عدل العُمَرَيْن^(٢)، ولا كل قاض قاضي
الحَرَمَيْن^(٣)، ويا لثارات القضاء! ما أرخص ما بيع، وأسرع ما أضيع! والسنة الإنذار، قبل
خلو الديار، وموت الخيار، ألا يُغار لحلى الحساء، على السوداء، ومركب أولي السياسة،
تحت النساسة، ومجلس الأنبياء، من تصدر الأغبياء، وجمي البزاة من صيد البغاث^(٤)،
ومرتع الذكور^(٥) من تسلط الإناث؟ ويا للرجال، وأين الرجال! ولي القضاء من لا يملك من
آلاته غير السبَال^(٦)، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال، ولا يتوجه في أحكامه إلا إلى
الاستحلال، [ولا يرى التفرقة إلا في العيال] ولا يُحسن من الفقه غير جمع المال، [ولا
يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال، وكثرة الافتعال] ولا يدرس من أبواب الجدال إلا قبيح
الفعال، وزور المقال، ذاك أبو بكر القاضي، أضاعه الله كما أضاع أمانته، وخان خزائنه،
ولا حاطه من قاضٍ في صولة جندي، وسبلة كردي... إلى أن قال: أيكفي أن يُصبح المرء
بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يكمل شبابه، وتشيب أترابه. ثم
يلبس دَنِيَّة^(٧)، ليخلع دينيته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سبَاله، ليطيل
حباله، ويظهر شَقَاشِقَه^(٨)، ليستر مخارقه، ويبيض لحيته، ليسود صحيفته، ويبيد ورعه،

(١) الأديم: الجلد.

(٢) العُمَران: أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) الحرمان: الحرم المكي، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة.

(٤) البغاث: طائر أبغث اللون، أصغر من الرخم، بطيء الطيران، وفي المثل: «إن البغاث في أرضنا
يَسْتَسِير»، يراد: من جاورنا عز بنا.

(٥) في نسخة: «ومربع الذكور».

(٦) السبَال: جمع سبلة، وهو الشارب، ويقال: مقدم اللحية وما أسبل منها على الصدر.

(٧) الدَنِيَّة: قلنسوة كان القضاة يلبسونها.

(٨) الشقاشق: جمع شَقَشِقَة: شيء كالرثة يخرجها الجمل من فيه إذا هاج وهدر، يقال: هلرت
شَقَشِقَة فلان: ثار أو أفصح في كلام.

ليخفي طمعه، ويغشى محرّابه، ليملاً جِرابه^(١)، ويكثر دُعائه، ليحشو وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاءه، ويعالج بالليل وجعائه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً؟ هذا إذا المجد كالوه يقفزان^(٢) وباعوه في سوق الخسران! هيهات حتى ينسى الشهوات، ويجوب الفلوات، ويعتضد المحابر، ويحتضن الدفاتر، ويتج الخواطر، ويحالف الأسفار، ويعتاد القفار، ويصل الليلة باليوم، ويعتاض السهر من النوم، ويحمل على الروح، ويجني على العين، وينفق من العيش، ويحزن في القلب، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق؛ وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق، فقد ضلّ سواء الطريق، وهذا الحيريّ رجل قد شغله طلب الرئاسة عن تحصيل آلتها، وأعجله حصول الأمانة عن تحمل أدواتها^(٣):

والكلبُ أحسنُ حالةً وهو النهاية في الخساسة
ممن تصدّى للرياسة سة قبل إبان الرياسة

فولّي المظالم وهو لا يعرف أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يدري مقدارها؛ والأمانة عند الفاسق خفيفة المحمل على العاتق، تُشفق منها الجبال، ويحملها الجهال، وقعد مقعد رسول الله ﷺ بين حديثه يروى، وكتاب الله يُتلى، وبين البينة والدعوى، فقبحه الله تعالى من حاكم لا شاهد عنده أعدل من السّلة والجام^(٤)، يُدلى بهما إلى الحكّام، ولا مزكى أصدق لديه من الصّفر^(٥)، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحبّ إليه من غمزات الخصوم، على الكيس المحتوم، ولا كفيل أوقع بواقفه من خبيثة الذّيل، وحمال الليل، ولا وكيل أوعز عليه من المنديل والطبق، في وقت الغسق والفلق، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفلس، ثم الويل للفقير إذا ظلم، فما يغنيه موقف الحكم إلا بالقتل من الظلم، ولا يجبره مجلس القضاء إلا بالنار من الرّمضاء. وأقسم لو أن اليتيم وقف بين أنياب الأسود، بل الحيات السّود، لكانت سلامته منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضي بين عقابه وأقاربه؛ وما ظنّ القاضي بقوم يحملون الأمانة على مُئونهم،

(١) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد وغيره.

(٢) قفزان: جمع قفيز، وهو مكيال.

(٣) في نسخة «عن تنخل أدواتها».

(٤) السّلة: السرقة، والجام: الوعاء الذي تُشرب به الخمر.

(٥) الصّفر: جمع أصفر، وهو الدينار.

ويأكلون النارَ في بطونهم، حتى تغلظ قَصَرَاتُهُمْ^(١) من مالِ اليتامى، وتسمن أكفَالُهُمْ من مالِ الأيتامى، وما رأيهُ في دارِ عمارتِها خرابُ الدور، وعُطلةُ القُدور، وخَلَاءُ البيوت، من الكسوة والقوت، وما قوله في رجل يُعَادِي اللهَ في الفلَس، ويبيعُ الدِّينَ بالثمنِ البُخس، وفي حاكم يبرزُ في ظاهرِ أهلِ السُّمْتِ، وباطنِ أصحابِ السبِّ، فَعَلَهُ الظلمُ البَحْتُ، وأكله الحرامِ السُّحْتُ. وما قوله في سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام؛ وجراد لا يقع إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يُغَيِّرُ إلا على الضعاف، وليث لا يفتَرِسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود، وخارب^(٢) لا ينهب مالَ الله إلا بين العهود والشهود.

وذكر في هذه الرسالة فصلاً في ذكر العلم - وهو مستطرف البلاغة، مستعذب البراعة -

قال:

والعلم - أطال الله بقاءَ القاضي - شيء ما تعرفُهُ، بعيد المرام، لا يُصَادُ بالسَّهام، ولا يُقَسَّمُ بالأزلام^(٣)؛ ولا يُرعى في المنام [ولا يُضَبَّطُ باللجام، ولا يُورث عن الأعمام، ولا يكتب للثام]، وزرع لا يَزْكُو^(٤) حتى يصادفَ من الحزمِ ثرى طيباً، ومن التوفيقِ مطراً صيباً؛ ومن الطبعِ جَوْاً صافياً، ومن الجهدِ روحاً دائماً، ومن الصبرِ سقياً نافعاً، والعلمِ عِلْقُ^(٥) لا يباع ممن زاد، وصيْدٌ لا يألف الأوغاد، وشيءٌ لا يُدْرِكُ إلا بنزع الروح، وعَوْنُ الملائكةِ والروح، وغَرَضٌ لا يصابُ إلا بافتراش المدر^(٦)، واتِّسَادُ الحجر، وردُّ الضجر، وركوب الخطر، وإدْمَانُ السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص إلا على من زكا زرعُه، وخلا ذرعُه، [وكرم أصلُه وفرَّعُه، ووعى بصره وسمعُه]، وصفا ذهنه وطبعه، فكيف يناله من أنفق صِبَاهَ على الفحشاء؛ وشبابه على الأحشاء، وشغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع، وقطع سلوته بالغنى، وخلوته بالغناء، وأفرغ جده على الكيس، وهزله في الكأس؛ والعلم ثمرٌ لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا

(١) القصرات: جمع قَصَرَة (بالتحريك)، وهي أصل العنق.

(٢) الخارب: السارق.

(٣) الأزلام هنا: قذاح الميسر.

(٤) لا يزكو: لا ينمو.

(٥) العِلْقُ (بالكسر): النفيس.

(٦) المَدْرُ: صغار الحصى.

يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائر لا يخدعه إلا قَصص اللفظ، ولا يعلقه إلا شَرَك الحفظ [ولا ينشب إلا في الصدر]، وبَحْر لا يخوضه الملاح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبَل لا يتسنى إلا بِحُطَا الفِكْر، وسماء لا يصعد إلا بِمِعْراج الفهم، ونَجْم لا يلمس إلا بِيَدِ المجد.

ومن مفردات الأبيات في المعاييب والمقاييب

قول أبي تمام: ^(١)

مَسَاوِ لو قُسمَنَ على الغواني لما أُمُهَزْنَ إلا بالطلاق ^(٢)
آخر:

قَوْمٌ إذا جَرَّجَانِ منهم أَمِنُوا من لُؤْمِ أحسابهم أن يُقتلوا قَوْدًا ^(٣)
البحري: ^(٤)

نَبَا في يدي، وابن اللثمة واجِدٌ وَبَيَّبُوا الخبيثُ الطَّبْعَ وَهُوَ صَقِيلُ
ابن الرومي في رجل يعرف بابن رمضان: ^(٥)

رَأَيْتُكَ تَدْعِي رَمْضَانَ دَعْوَى وَأَنْتَ نَظِيرُ يَوْمِ الشُّكِّ فِيهِ
وله في أعمى: ^(٦)

كَيْفَ يَرْجُو الحياءَ مِنْهُ صَدِيقٌ وَمَكَانُ الحياءِ مِنْهُ خَرَابٌ ^(٧)
غيره:

هُوَ الكَلْبُ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَلَالَةً وَسُوءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِي الكَلْبِ

(١) أبو تمام، الديوان: ٢٥٠/٢. والبيت من مقطوعة يهجو بها ابن الأعمش.

(٢) في الديوان: «لما جُهِزْنَ».

(٣) جَرَّ: اكتسب جريرة. يريد أنهم لا يساؤون أحداً من الناس، ومن شرط القود - وهو الاقتصاص من القاتل بقتله - التكافؤ، فليسوا يقتلون أصلاً.

(٤) البحري، الديوان: ٣٨٨/١. والبيت من قصيدة يمدح بها حمولة.

(٥) ابن الرومي، الديوان: ٣٧٩/٦.

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٤٠٨/١.

(٧) الحياء: الحشمة، والحياء (الثانية): فرج أمه.

آخر:

أَبَا ذَلْفٍ يَا أَكْذَبَ النَّاسِ كُلَّهُمْ سِوَايَ فَإِنِّي فِي مَدِيحِكَ أَكْذَبُ

أبو الفضل الميكالي:

هُوَ الشُّؤْكَ لَا يُعْطِيكَ وَافِرَ مَنَّةٍ يَدَ الدَّهْرِ إِلَّا حِينَ تَضْرِبُهُ جَلْدًا

[قولهم في اللحن وتعلم العربية]

قال المأمون لبعض ولده وسمع منه لحنًا: ما على أحدكم أن يتعلم العربية، فيقيم بها أودَه^(١)، ويزينُ بها مشهدَه، ويفلُّ^(٢) حُجَجَ خَصْمِه، بمسِّ كتاب حكمه^(٣)، ويملك مجلس سُلْطَانِه، بظاهر بيانه؛ ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته، فلا يزال الدهر أسيرَ كلمته.

وقال رجلٌ للحسن البصري يا أبو سعيد، قال: كَسِبُ الدِراهِمِ شَغْلَكَ أَنْ تَقُولَ يَا أَبَا سَعِيدٍ، ثُمَّ قَالَ: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِلْأَدْيَانِ، وَالنَّحْوَ لِللسانِ، وَالطَّبَّ لِلْأَبْدَانِ.

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه: والله إنه لفصيحٌ إذا لفظ، نصيحٌ إذا وعظ. وقيل له: يا أبا سعيد، ما نراك تلحن، قال: سَبَقْتُ اللِّحْنَ. أخذه أبو العتاهية، وقيل له: إنك تخرج في شعرك عن العُرُوض، فقال: سَبَقَتِ الْعُرُوضُ.

وقال إسحاق بن خلف البهراني:

النَّحْوُ يَصْلُحُ مِنْ لِسَانِ الْأَلَكَيْنِ وَالْمَرْءُ تُعْظِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ^(٤)
فَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا فَأَجَلُهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسِنِ

وقال علي بن بسام:

رَأَيْتُ لِسَانَ الْمَرْءِ رَائِدَ عِلْمِهِ وَعُثْرَانَهُ فَاَنْظُرْ بِمَاذَا تُعْنَوْنَ
وَلَا تَعُدْ إِصْلَاحَ اللِّسَانِ فَإِنَّهُ يُخَبِّرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيُيِّنْ

(١) أوده: اعوجاجه.

(٢) يفل: يكرس ويضعف.

(٣) في نسخة: «بمسكتات حكمه».

(٤) لكن فلان لكنا ولكنه: عي وتقل لسانه.

على أن للإعراب حَدًّا، وَرُبَّمَا سَمِعْتَ من الإعراب ما ليس يَحْسُنُ
ولا خَيْرَ في اللَّفْظِ الكَرِهِ استماعُهُ ولا في قَبِيحِ اللَّحْنِ والقَصْدُ أَزْيَنُ

وقال بعضُ أهل العصر، وهو أبو سعيد الرستمي:

أَفِي الحقِّ أن يُعْطَى ثلاثون شاعراً وَيُحَرِّمَ ما دونَ الرِّضَا شاعراً مثلي
كما سَامَحُوا عَمراً بِواوِ زيادةٍ وَضَوِّقَ بِسمِ الله في أَلْفِ الوَصْلِ

أبو الفتح البستي:

حُدِفْتُ وغيري مُبْتَتَّ في مكانه كَأني نُونُ الجمعِ حينَ يُضَافُ

وقال:

أَفْدِي الغَزَالَ الذي في النَّحْوِ كُلِّمَنِي مُنَاطِراً فَاجْتَبَيْتُ الشَّهَدَ من شَفَتِهِ
فَأَوْرَدَ الحُجَجَ المَقْبُولَ شَاهِدُهَا مُحَقِّقاً ليريني فَضَلَ مَعْرِفَتِهِ
ثم اتَّفَقْتُ على رَأْيٍ رَضِيتُ بِهِ والرفعُ من صِفَتِي والنصبُ من صِفَتِهِ

الحسن اللحام: (١)

أنا مِنْ وُجُوهِ النَحْوِ فيكُمْ أَفْعَلُ وَمِنْ اللِّغَاتِ إِذَا تُعَدُّ المُهْمَلُ (٢)

[لَوْعَةُ الشوق]

وقال أحمد بن يوسف:

كتب غلامٌ من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمان الديوان، إلى آخر منهم وكان قد
علق به، وكان شديد الكَلَفِ به والمحبَّةَ له: ليس من قَدَّرِي - أدام الله سعادتك - أن أقولَ
لمثلِكَ جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لأنِّي أراك فوقَ كُلِّ قيمةٍ خطيرةٍ وثمرٍ مُعْجِزٍ، ولأنَّ نفسي لا تُساوي
نفسكَ، فَتَقَبَّلْ في فِدَتِكَ، وعلى كل حال؛ فجعلني الله فِدَاءَ ساعةٍ من أيامكَ، اعلم أيها
السيد العليُّ المنزلة، أنه لو كان لِعَبْدِكَ من شدة الخطبِ أمرٌ يَقِفُ على حدِّه النعتُ (٣)،
لاجتهدنا أن يُضْعِفَ (٤) من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قَلْبِكَ، وتحنو له على الرِّقَّةِ به

(١) في نسخة: «أبو الحسن اللحام».

(٢) أفعل: يريد أنه غير متصرف.

(٣) النعت: الوصف.

(٤) في نسخة: «لاجتهد أن يصف».

والتحفي أثناء جوانحك، ولكن الذي أمسيت وأصبحت ممتحناً به فيه شَسَعٌ^(١) على كل بيان، ونزع عَنْ كُلِّ لسان؛ والحب أيها المالك لم يَشْبُهُ قَدَى ريبة، ولم يختلط به قلب مَعَاب، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحرمة نيته، والذي أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وفَت كبدِي، فإن خَفَ ذلك عليك ورأيت نشاطاً من نفسك إليه كنتَ كمن فَكَّ أسيراً وأبرأً عليلاً، ومن الخير سلك سبيلاً، يتوعَّرُ سلوكُها على مَنْ كان قبله، وَمَنْ يكون بعده؛ ثم أضاف إلى ذلك مَنَّهُ لا يُطيقها جَبَلٌ رَاس، ولا فلك دائر، فأريك أيها السيد المعتمد في الإسعاف، قبل أن يَبْدِرَنِي الموتُ؛ فيحول بيني وبين ما نزعْتَ إليه النفس مواصلاً برّاً إن شاء الله تعالى.

فأجابه: تولَّى الله تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أَوْحَشَ ما بيننا بطائر فُرْقَةٍ، ولا صافر تشَّتت، وضمَّنا وإياك في أوْتق حبال الأُنس، وأؤكد أسباب الأُلْفَةِ؛ وقفت على ما لخصته من العجز من بلوغ ما خامر قلبك^(٢)، وانطوى في ضميرك، من الشَّغف المقلق، والهوى المضرع، ولعمري لو كَشَفْتُ لك عن مِغْشَار ما اشْتَلَّ عليه مضمِر صدري لأيقنت أَنَّ الذي عندك إذا قِسْتَهُ إلى ما عندي كالمتلاشي البائد، ولكنك بفضل الإنعام سَبَقْتَنَا إلى كَشَف ما في الضمير. وأما طاعتي لك، وذمامي إليك؛ فَطَاعَةُ الْعَبْدِ الْمُقْتَنَى، الطائع لما يَحْكُمُ له وعليه مولاه ومالكه، وأنا صائرٌ إليك وَفَتَ كذا؛ فَتَاهَبْ لذلك بأحمد عافية، وأتمَّ عَقْدَةً^(٣)، وأسعد نجم جرى بالأُلْفَةِ، إن شاء الله تعالى.

وكتب بعض الكتاب: إنني لأكره أن أفديك بنفسي استحياءً من التقصير في المعاوضة، ومن التخلف في الموازنة، وعلى الأحوال كلها، فَقَدَّمَ اللهُ رُوحِي عَنْكَ، وصانني عن رُؤْيَا المَكْرُوهِ فيك.

وقال المتنبي: ^(٤)

فَدَى لَكَ مِنْ يُقْصَرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكٌ إِذْنٌ إِلَّا فَدَاكَ^(٥)

(١) شسع: بعد.

(٢) خامر قلبك: خالطه.

(٣) في نسخة: «وأتم عاقبة».

(٤) المتنبي، الديوان: ٤٠٥/٢. والأبيات من قصيدة قالها عند وداعه لعضد الدولة، في الأول من

شعبان سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٤ م، وهي آخر شعر قاله.

(٥) المدى: الغاية. يقول: يفديك كل من قصر عن غايتك، وإن استجيب هذا الدعاء، فذاك الملوك =

وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لِمَنْ قَلَاكَ^(١)

وَأَمَّا فِسْدَاكَ كُلَّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلَكَةٍ مِلَاكَ^(٢)

[وقال عبيد الله بن شبيب: كتب إلي بعض إخواني من أهل البصرة كتاباً ملح فيه وأوجز، وهو: أطال الله بقاءك، كما أطال حباءك، وجعلني فداك إن كان في فداؤك.

كَبَيْتُ وَلَوْ قَدِرْتُ هَوَى وَشَوْقاً إِلَيْكَ لَكُنْتُ سَطِيراً فِي كِتَابِي]

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابني المدير، وقد أصابتها محنة ثم أردفتها نعمة: لو قُبلت فيكما، ودانيتُ قدريكما، لقلت: جعلني الله فداكما، ولكني لا أجزي عنكما، فلا أقبل بكما، وقد بلغتني المحنة التي لو مات إنسان غمّاً بها لكانت [ثم اتصلت النعمة التي لو طار امرؤ برحابها لكانت] وكتب تحته:

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ

وكتب ابن ثوبة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر في ترك مكاتبة بالتفدية [الله يعلم، وكفى به عليمًا، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية] فرأيت عيباً أن أفديك بنفس لا بدّ لها من فناء، ولا سبيل لها إلى بقاء، ومن أظهر لك شيئاً وأضرر لك خلافه فقد غش؛ والأمر إذا كانت الضرورة تُوجب أنه ملق^(٣) لا يحقق، وإعطاء لا يتحصل، لم يجب أن يخاطب به مثلك، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم، ودليلاً من دلالات الاجتهاد، وطريقاً من طرق التقرب.

قال الزبير بن أبي بكر: قال لي مسلمة بن عبد الله بن جندب الهذلي: خرجت أريد العقيق ومعى زيان السواق؛ فلقينا نوسةً فيهن امرأة لم أر أجمل منها فأنشدت بيتين لزبان:

أَلَا يَسَا عِبَادَ اللَّهِ هَذَا أَخَوُكُمْ قَتِيلٌ، فَهَلْ فِيكُمْ لَهُ الْيَوْمَ ثَائِرٌ؟

== كلهم، لأنهم جميعاً مقصرون عنك.

(١) يساوي: أي يساويك، فحذف المفعول للعلم به. وقلاك: أبغضك.

أي: ولو قلنا: يفديك من كان مساوياً لك، كان ذلك دعاءً لأعدائك بالبقاء، إذ لا يساويك أحد منهم.

(٢) ملاك الشيء: ما يقوم به، أي وجعلنا كل نفس آمنة من أن تفديك، ولو كانت نفس ملك كبير الشأن، تقوم مملكته به، ويضمن لها البقاء ببقائه.

(٣) الملق: الدعاء والتضرع.

خُذُوا بدمي، إن مِتُّ، كُلَّ خَرِيدَةٍ مَرِيضَةٍ جَفَنَ الْعَيْنِ وَالطَّرْفُ سَاحِرٌ^(١)

ثم قال: شأنك بها يابن الكرام فالطلاقُ له لازمٌ إن لم يكن دَمُ أَيْكَ في نقابها. فأقبلت عليَّ وقالت: أنت ابن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن فتيلنا لا يُودى، وأسيرنا لا يفدى، فَاغْتَنَمَ لِنَفْسِكَ، واحتسب أباك.

بنو عذرة

قال أبو عبيدة: قال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة: تعدُّون موتكم من الحب مزية، وإنما ذاك من ضَعْفِ المنة، وعَجْزِ الروية. فقال العذري:

أما إنكم لو رأيتم المحاجرَ البُلُجَ^(٢)، ترشق بالأعين الدُّعَجَ^(٣)، فوقها الحواجِبُ الزُّجَ^(٤)، [وتحتها المباسم الفُلُجُ]^(٥)، والشَفَاءُ السُّمَرُ، تفتَر عن الشايبا العُرَّ، كأنها بَرَد الدَّر، لجعلتموها اللات والعزى، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم:

وصف الحسان

وقال أعرابي: دخلتُ بغداد فرأيتُ فيها عيوناً دُعَجاً، وحواجِبَ زُجّاً، يَسْحَبْنَ الثياب، وَيَسْلُبْنَ الألباب.

وذكر أعرابي نساءً فقال: طعائن في سوافهن طول، غير قبيحات العُطُول^(٦)، إذا مشين أَسْبَلْنَ الذبول، وإن رَكِبْنَ أثْقَلْنَ الحُمول.

ووصف آخر نساء فقال: يتلثمن على السبائك، ويتشحن على النيازك^(٧)، ويتزرنَّ

(١) الخريدة: البكر، العذراء.

(٢) البُلُج: جمع أبلج ويلجاء، وقد بلج الوجه بلجاً: تنصَّر سروراً، وبلج فلان: بعد ما بين حاجبيه، وكل واضح: أبلج.

(٣) الدُّعَج: جمع أدعج ودعجاء، وقد دعجت العين دَعَجاً، ودُعْجَةً: اشتد سوادها وبياضها واتسعت.

(٤) الزُّج: جمع أَرَج وزَجَّاء، وقد زَجَّ الحاجب زَجْجاً: دَقَّ في طول وثَقَّوس.

(٥) الفُلُج: جمع أَفْلَج وفَلْجاء، وقد فلجت المرأة فَلَجاً وفَلْجَةً: تباعد ما بين أسنانها خلقةً، ويقال: فلج ثغره، وفلجت أسنانه.

(٦) العُطُول: يقال: عطلت المرأة عَطَلاً وَعُطْلاً وَعُطُولاً: خلت من الحلي، فهي عاطل، والجمع عواطل.

(٧) النيازك: جمع نيزك، وهو جرم سماوي يسبح في الفضاء، فإذا دخل في جو الأرض احترق =

على العَوَاتِك، ويرتفقن على الأرائك، ويتهادَيْن على الدَّرَانِك^(١)، ابتسامُهن وميض، عن ثَغْرِ كالإغريض، وهن إلى الصَّبَا صُور، وعن الخَنَا حُور^(٢).

[وصف الهوى، وأمره]

سئل بعض الحكماء عن الهوى، فقال: هو جليسٌ مُتَمَتِع، وأليفٌ مُؤَنَس، أحكامه جائزة^(٣)، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والنفوس وآراءها، وأعطى زمام طاعتها، وقياد مملكتها، تَوَارَى عن الأبصار مدخله، وغمض عن القلوب مسلكه.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت: لا مُتَمَتِع الهوى بملكه، ولا مُلِيَّ بسلطانه، وقبض الله يده، وأَوْهَنَ عَصْدَه؛ فإنه جائر لا ينصف في حكم، أعمى ما ينطقُ بعدل، ولا يقصر في ظلم، ولا يَرْعَوِي لِلْوَم، ولا ينقادُ لِحَقٍّ، ولا يُتَّقِي على عقل ولا فهم، لو ملك الهوى وأطيع لردَّ الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها.

ووصف أعرابي الهوى فقال: هوداءٌ تَدَوَّى به النفوسُ الصَّحاح، وتسيل منه الأرواح، وهو سقم مكتتم، وجَمَرٌ مُضْطَرِم؛ فالقلوبُ له منضجة، والعيون ساكنة^(٤).

قال [أبو] عبيد الله بن محمد بن عمران المرزباني: ^(٥) أخبرني المظفر بن يحيى، قال: أحب رجل امرأةً دونه في القدر، فعذله عمه، فقال: يا عم، لا تَلَمَّ مُجْبِراً على سَقَمه؛ فإن المقر على نفسه مُسْتَعْنٍ عن منازعة خَصْمِه، وإنما يَلام من افتَرَف ما يقدر على تركه، وليس أمرُ الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره؛ بل قُدْرَتُهُ أَغْلَبُ، وجانبُهُ أَعَزُّ من أن تنفذ فيه حيلةً حازِم، أو لطف محتال.

= وظهر كأنه شهاب ثاقب متساقط، والنيك أيضاً: الرمح القصير.

(١) الدرناك: البُسط، واحدها درناك.

(٢) صور: مائلات، وحور: راجعات.

(٣) في نسخة: «أحكامه جائزة».

(٤) في نسخة: «والعيون ساكنة» أي تسبل الدمع.

(٥) هو أبو عبد الله، محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبد الله المرزباني، الخراساني الأصل،

البغدادي: كاتب، اخباري، راوية، كثير السماع. ولد ببغداد وتوفي فيها سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م.

(عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٩٧/١١).

وقال بعضهم: رأيت امرأتين من أهل المدينة تُعَاتِبُ إحداهما الأخرى على هَوَى لهما، فقالت: إنه يقال في الحكمة الغابرة، والأمثال السائرة: لا تَلُومَنَّ من أساءَ بك الظنَّ إذا جعلتَ نفسك هدفاً للتهمة، ومن لم يكن عَوْناً على نفسه مع خَصْمِهِ لم يكن معه شيء من عَقْدَةِ الرأي، ومن أَقْدَم على هَوَى وهو يَعْلَمُ ما فيه من سوءِ المغَبَةِ سلط على نفسه لسان العَدْل، وضيع الحَرَمَ. فقالت المَعْدُولَةُ: ليس أَمْرُ الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره، وهو أغلب قدرةً، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة الحازم، أو ما سمعت قول الشاعر:

لَيْسَ خَطْبُ الهَوَى بِخَطْبٍ يَسِيرُ لَا يُنَبِّئُكَ عَنْهُ مِثْلُ خَبِيرٍ
لَيْسَ أَمْرُ الهَوَى يُدَبَّرُ بِالرَّأْيِ يَ وَلَا بِالْقِيَاسِ وَالتَّفْكِيرِ
إِنَّمَا الْأَمْرُ فِي الهَوَى خَطَرَاتٌ مُحَدَّثَاتُ الْأُمُورِ بَعْدَ الْأُمُورِ

قال المرزباني: أخبرني الصولي أن هذه الأبيات لِعليّة بنت المهدي^(١)، ولها فيها لَحْنٌ.

وقيل لعبد الله بن المقفع: ما بالُ العاقل المميز الذهن، واللييب الفطن، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضع الهلكة، ومصارع التَلَف، وعلم ما يؤول^(٢) إليه عَقْبَاهُ، وترجع به أَخْرَاهُ على أولاه؟ فقال: زُخْرَفُ^(٣) ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعي القلوب إلى مُلَامَسَتِهِ، ومُتْلِي بعاجل حلاوة يَطْبِي^(٤) النفوس إلى مُلَابَسَتِهِ، كظاهر زخرف الدنيا، وبهاء رونقها، ولذيد جَنَى ثمرها، وقد سكرت أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر إلى قبيح عيوب أفعالها، فهم في بلائها منغمسون، وفي هلكة فتنتها متورطون، مع علمهم بسوءِ عواقب خَطْبِهَا، وتَجُرُّعِ مرارة شربها، وسرعة استرجاعها ما وهبت، وإخراجها ممّا ملكت، فليس يَنْجُو منها إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا، ولا يهلك فيها إِلَّا مَنْ أَمِنَهَا، وكذلك صُورَةُ الهوى؛ هما في الفتنة سواء.

(١) عَلِيَّةُ بنت المهدي بن المنصور، من بني العباس، وأخت هارون الرشيد: أديبة، شاعرة، من أحسن الناس وأطرفهم، وكانت حنة الدين، لا تُغني ولا تُشرب النبيذ إلا إذا اعتزلت الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن. وكانت تخص الرشيد بالغناء والشعر، فلما مات تركت الغناء، فألح عليها الأمين فغته. توفيت سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ٣١١/١؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١٨٦/٢).

(٢) يؤول: يرجع.

(٣) زُخْرَفُ: زِين.

(٤) يَطْبِي النفوس: يدعوها.

[بعض ما جاء في العفاف]

وقال ابن دُرَيْد: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَغْلِقْ أَبْوَابَ الشَّبَهَاتِ بِأَفْعَالِ الزَّهَادَةِ، [وافتح أبواب البر بمفاتيح العبادة] فَإِنَّ ذَلِكَ يُدْنِيكَ مِنَ السَّعَادَةِ، وَتُسْتَوْجِبُ مِنَ اللَّهِ الزِّيَادَةَ.

وقال غُبَرُهُ: إِنَّ اللَّذَّةَ مَشْوِيَةٌ بِالْقُبْحِ؛ فَضَكَّرُوا فِي انْقِطَاعِ اللَّذَّةِ وَبِقَاءِ ذِكْرِ الْقُبْحِ.

قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة [نَفْطَوْنَهُ]:^(١)

لَبَسَ الظَّرِيفُ بِكَامِلٍ فِي ظَرْفِهِ حَتَّى يَكُونَ عَنِ الْحَرَامِ عَفِيفًا
فَإِذَا تَعَفَّفَ عَنْ مُحَارِمِ رَبِّهِ فَهُنَاكَ يُدْعَى فِي الْأَنَامِ ظَرِيفًا

وقال:

كَمْ قَدْ ظَفَرْتُ بِمَنْ أَهْوَى فَيَمْنَعُنِي مِنْهُ الْحَيَاءُ وَخَوْفُ اللَّهِ وَالْحَذَرُ
وَكَمْ خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فَيَقْنَعُنِي مِنْهُ الْفِكَاهَةُ وَالْتَقِيلُ وَالنَّظَرُ
أَهْوَى الْمَلَاخَ وَأَهْوَى أَنْ أُجَالِسَهُمْ وَلَيْسَ لِي فِي حَرَامٍ مِنْهُمْ وَطَرُ
كَذَلِكَ الْحُبُّ لَا إِيْسَانُ مَعْصِيَةٍ لَا خَيْرَ فِي لَذَةٍ مِنْ بَعْدِهَا سَفَرُ

وقال العباس بن الأحنف:

أَتَأَذْنُونَ لِصَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
[لَا يُبْصِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ] عَفُّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ

وقال بعض الطالبين:

رَمَوْنِي وَإِيَاهُمْ بِشَنْعَاءِ هُمْ بِهَا أَحَقُّ، أَذَالَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَعَجَّلَا
بِأَمْرِ تَرْكِنَاهُ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ جَمِيعاً فَمَا عِفَّةٌ أَوْ تَجَمُّلاً

وقال سعيد بن حميد:

زَائِرُ زَارِنَا عَلَى غَيْرِ وَعْدٍ مُخْطَفُ الْكَشْحِ مُثْقَلُ الْأُرْدَاكِ

(١) هو أبو عبد الله، إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، الملقب بنفطويه النحوي الواسطي. أديب بارع، له تصانيف حسان. توفي سنة ٣٢٣ هـ/٩٣٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤٧/١؛ القفطي، إنباه الرواة: ١٧٦/١؛ السيوطي، بغية الوعاة: ١٨٧؛ ابن النديم، الفهرست: ٨١).

غَالِبَ الْخَوْفِ حِينَ غَالَبَهُ الشُّوْ قُ وَأَخْفَى الْهَوَى وَلَيْسَ بِخَافِي
غَضُّ طَرْفِي عَنْهُ تُقَى اللَّهَ فَاخْتَرْتُ عَلَى بَذْلِهِ بَقَاءَ التَّصَافِي
ثُمَّ وَلَى وَالْخَوْفُ قَدْ هَزَّ عِظْفِي هَ وَلَمْ يَخْلُ مِنْ لِبَاسِ الْعَفَافِ

وفي الحديث الشريف: «مَنْ أَحَبَّ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ».

والعفاف مع البذل، كالاستطاعة مع الفعل، كما قال صريع الغواني:

وَمَا ذَمِّي الْأَيَّامَ أَنْ لَسْتُ مَادِحاً لِعَهْدِ لِيَالِيهَا الَّتِي سَلَفَتْ قَبْلُ
أَلَا رَبِّ يَوْمٍ صَادِقِ الْعَيْشِ نِلْتُهُ بِهَا وَنَدَامَايَ الْعَفَافَةَ وَالْبَذْلُ^(١)

وأشد الصولي لأبي حاتم السجستاني^(٢) في المبرد، وكان يلزم حلقته، وكان من الملاح وهو غلام:

مَاذَا لَقِيتُ الْيَوْمَ مَنْ مُتَمَجِّجٍ خَنِثِ الْكَلَامِ^(٣)
وَقَفَّ الْجَمَالَ بِوَجْهِهِ فَمَتَّ لَهُ حَقْدُ الْأَنَامِ
حَرَكَاتِهِ وَسُكُونُهُ يُجَنِّى بِهَا ثَمَرُ الْأَثَامِ
فَإِذَا خَلَسْتُ بِمَثَلِهِ وَعَزَمْتُ فِيهِ عَلَى اعْتِرَامِ^(٤)
لَمْ أَعْسُدْ أَخْلَاقَ الْعَفَا فِي وَذَلِكَ أَوْكَدُ لِلْفَرَامِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا أَبَا الدِّ عِبَاسَ جَلَّ بِكَ اعْتِصَامِ
فَارْحَمْ أَخَاكَ فَلَانَهُ نَزَرُ الْكَرَى بِأَدَى السَّقَامِ
وَأَنْلَهُ مَا دُونَ الْحَرَا مَ فَلَيسَ يَرْغَبُ فِي الْحَرَامِ

وكان أبو حاتم يتصدق كلَّ يوم بدرهم، ويختتم القرآن في كل أسبوع.

- (١) الندامي: جمع نديم، وهو الذي يجاللك على الشراب.
- (٢) هو أبو حاتم، سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني: من كبار العلماء باللغة والشعر، من أهل البصرة. كان المبرد يلزم القراءة عليه. له نيف وثلاثون كتاباً، منها: كتاب «المعمرين» و«النخلة» و«المختصر» في النحو. توفي سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م. (الزركلي، الأعلام: ١٤٣/٣).
- (٣) المُتَمَجِّجُ: الكثير المجون. وخنث الكلام: لينه وتكسره.
- (٤) اعتزام: يقال: عزم فلان عزمًا: اشتد، وَخَبَثُ، وكان شريراً، وعزم فلاناً واعتزمه: أصابه بشراسة وأذى.

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سريج الشافعي، وأبو بكر بن داود العباسي في مجلس علي بن عيسى بن الجراح الوزير، فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك: «من كثرت لحظاته دامت خسراته» أبصر منك بالكلام في الإيلاء، فقال أبو بكر: لئن قلت ذلك فإني أقول:

أَنْزَهُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلَتِي وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ مُحَرَّمَا
وَأَحْمِلُ مِنْ ثِقَلِ الْهَوَى مَا لَوْ أَنَّهُ يُصَبُّ عَلَى الصَّخْرِ الْأَصْمَ تَهْدَمَا
وَيَنْطِقُ طَرْفِي عَنْ مُتَرَجِّمِ خَاطِرِي فَلَوْلَا اخْتِلَاسِي رَدَّهُ لَتَكَلَّمَا
رَأَيْتُ الْهَوَى دَعَايَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَلَسْتُ أَرَى حُبًّا صَاحِبًا مُسْلِمَا

فقال أبو العباس: بم نفتخر علي؟ وأنا لو شئت لقلت:

وَمُطَاعِمٍ لِلشَّهِيدِ مِنْ نَعْمَاتِهِ قَدْ بَيْتُ أَشْنَعُهُ لَذِيذَ سِنَانِهِ^(١)
صَبًّا بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَكِلَامِهِ وَأَكْرَرُ اللَّحْظَاتِ فِي وَجَنَانِهِ
حَتَّى إِذَا مَا الصَّبْحُ لَاحَ عَمُودُهُ وَلَيْ بِيْخَانِمِ رَبِّهِ وَبُرَانِهِ^(٢)

فقال أبو بكر: أصلح الله الوزير، تحفظ عليه ما قال حتى يقيم شاهدين عدلين أنه ولي بخاتم ربه! فقال أبو العباس: يلزميني في هذا ما يلزمك في قولك: أنزه في روض المحاسن مقلتي... البيت. فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما ظرفاً ولطفاً وفهماً وعلماً.

الفاظ لأهل العصر، في محاسن النساء

هي روضة الحُسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض. هي من وجهها في صباح شامس، ومن شعرها في ليل دامس^(٣)، كأنها فلقة قمر على بُرج فضة. بدر النَّم يضيء تحت نقابها، وغصن البان بهتز تحت ثيابها، ثغرها يجمع الضرب والضرب^(٤)، كأنه نثر الدر، كما قال البحرني^(٥):

(١) السَّنة: الثَّعاسُ.

(٢) المِرَات: جمع بُرة: حلقة من صفر أو غيره تضعها المرأة في أنفها للزينة، أو كل حلقة أو سوار أو قرط أو خلخال وما أشبه ذلك.

(٣) شامس: ذو شمس (على النسب)، ودامس: مظلم.

(٤) الضرب: اللين، والضرب: عسل النحل.

(٥) البحرني، الديوان: ٣٨١/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن محمد الطائي.

إِذَا نَضَوْنَ شُفُوفَ الرِّيطِ آوَنَةً قَشَرْنَ عَنْ لَوْلُؤِ الْبَحْرَيْنِ أَصْدَافاً^(١)

قد أنبتَ صدرها ثمرَ الشباب، خرطت لها يدُ الشبابِ حُقَيْنِ^(٢) من عاج، كأنها البدرُ قرطٌ بالثرَيَّا، ونيطَ بها عقدٌ من الجوزاء، أعلاها كالغُصْنِ مَيَالٍ، وأسفلها كالِدَعَصِ^(٣) مُنْهَالٍ، لها عنقٌ كإبريق اللُّجَيْنِ، وسرَّةٌ كمدَّهن العاج، نِطَاقُهَا مُجْدِبٌ، وإزارُهَا مُخَصَّبٌ. مَطْلَعُ الشمس من وَجْهِهَا، وثبتَ الدرُّ من فيها، وملقط الورد من خدَّها، ومنيع السَّحَرِ من طَرْفِهَا، ومبادئ الليل من شَعْرِهَا، ومغرس الغصن من قَدَّهَا، ومهيل الرَّمْلِ من رِدْفِهَا.

ولهم في محاسن العلمان والمعذرين

زاد جماله، وأقمر هلاله. ترققَ في وجهه ماءُ الحُسنِ، شادنٌ فاتِرٌ^(٤) طَرْفُهُ، ساحرٌ لَفْظُهُ. غلامٌ تأخذه العين، ويَبْكُهُ القلبُ، ويأخذه الطَّرْفُ، وترتاح إليه الروح. تكادُ القلوبُ تأكله، والعيونُ تشرَّبُهُ. جرى ماءُ الشباب في عودِه فتمايلَ كالغُصْنِ، واستوفى أقسامَ الحُسنِ، ولبسَ ديباجةَ المَلَاخَةِ، كأنَّ البدرَ قد ركبَ أزراره، لا يشبعُ منه الناظرُ، ولا يروى منه الخاطرُ، كادَ البدرُ يحكيه، والشمسُ تشبهه وتضاهيه، صور تجلو الأبصار، وتُخجلُ الأقمار، شادنٌ مُنْتَقِبٌ بالبدر، ومكتحلٌ بالسحر. ما هو إلا نزهة الأبصار، ومُخْجَلُ الأقمار، وبذعة الأمصار، غمزات طَرْفِهِ تُخبر عن طَرْفِهِ، ومنطقه ينطق عن وَصْفِهِ. تخالُ الشمسُ تبرقعت غرَّتُهُ، والليلُ ناسبَ أصدائه وطَرْفَتُهُ، الحُسنُ ما فوق أزراره، والطَّيبُ ما تحت إزاره، شادنٌ يضحكُ عن الأقحوان، ويتنفسُ عن الرياحان، كأنَّ خدَّه سكران من خمر طَرْفِهِ، ويغداد مسروقةً من حُسنِهِ وطَرْفِهِ، أعجمت يدُ الجمالِ نونَ صُدْغِهِ بِخَالٍ، هذا محلول من قول ابن المعتز:

غِلَالِسةٌ خَدَهُ صَبِغَتْ بِوَرْدٍ وَنُونُ الصُّدْغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالٍ

له عِينَانِ حَشَوُا أَجْفَانَهُمَا السَّحَرُ، كأنه قد أعار الطَّيْبَ جِدَّهُ، والغُصْنَ قَدَّهُ، والراحَ رِيحَهُ، والوردَ خَدَّهُ، الشكل^(٥) من حركاته، وجميعُ الحُسنِ بعض صفاته. قد ملك أُرْمَةً القنوب، وأظهر حَجَّةَ الذنوب، كأنما وَسَمَهُ الجمالُ بنهايته، ولحظةُ الفلكُ بعنايته، فصاغه من

(١) نضون: خلعتن. الشفوف: واحد شَفَتْ: الثوب الرقيق. الریط: جمع ریطة: الملاءة.

(٢) «حقين»: تثنية حق: وعاء من عاج يوضع فيه الطيب، وأراد ثدييها.

(٣) الدَّعَصُ: الكتيب من الرمل.

(٤) الشادن: ولد الظبية الذي قوي واستغنى عن أمه.

(٥) الشكل: الدلال.

لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَحَلَاةُ بَنجُومِهِ وَأَقْمَارِهِ، وَنَقَبُهُ بِذَائِعِ آثَارِهِ، وَرَمَقَهُ بِنَوَاطِرِ سُعُودِهِ، وَجَعَلَهُ بِالْجَمَالِ أَحَدَ حَدُودِهِ. وَقَدْ صَبَّغَ الْحَيَاءُ غِلَاةَ وَجْهِهِ، وَنَشَرَ لَوْلُوُ الْعِرْقِ عَنْ وَرْدِ خَدِّهِ. تَكَادُ الْأَلْحَاطُ تَسْفِكُ مِنْ خَدِّهِ دَمَ الْخَجَلِ. لَهُ طَرَّةٌ كَالْغَسَقِ، عَلَى غُرَّةٍ كَالْفَلَقِ. جَاءَنَا فِي غِلَاةٍ تَنُمُّ عَلَى مَا يَسْتَرُهُ، وَتَجْفُو مَعَ رِقَّتِهَا عَمَا يَظْهَرُهُ. وَجَّةٌ بِمَاءِ الْحُسْنِ مَغْسُولِ، وَطَرَفٌ بِمِرْوَدِ التَّخْرِ مَكْحُولِ، ثَغْرٌ حُمِيَّ حِمَايَةَ الثُّغُورِ، وَجُعِلَ ضَرَّةٌ لِقَلَائِدِ النُّحُورِ. السَّخَرُ فِي أَلْحَاطِهِ، وَالشَّهْدُ فِي أَلْفَاطِهِ. اخْتَلَسَ قَامَةُ الْغُصْنِ، وَتَوَشَّحَ بِمِطَارِفِ الْحُسْنِ، وَحَكَى الرُّوضِ غَبَّ الْمُزْنِ^(١). الْأَرْضُ مُشْرِقَةٌ بِنُورِ وَجْهِهِ، وَلَيْلُ السَّرَارِ فِي مِثْلِ شَعْرِهِ^(٢). الْجَنَّةُ مُجْتَنَّةٌ مِنْ قُرْبِهِ، وَمَاءُ الْجَمَالِ يَتَرَقَّرُ فِي خَدِّهِ، وَمَحَاسِنُ الرِّبْعِ بَيْنَ سَحَرِهِ وَنَحْرِهِ، وَالْقَمَرُ فَضْلَةٌ مِنْ حُسْنِهِ. مَا هُوَ إِلَّا خَالٌ فِي خَدِّ الظَّرْفِ، وَطِرَازٌ عَلَى عِلْمِ الْحُسْنِ، وَوَرْدَةٌ فِي غُصْنِ الدَّهْرِ، وَنَقْشٌ عَلَى خَاتَمِ الْمَلِكِ، وَشَمْسٌ فِي فَلَكِ اللَّطْفِ. هُوَ قَمَرٌ فِي التَّصْوِيرِ، شَمْسٌ فِي التَّأثيرِ. مَنَظَرٌ يَمَلَأُ الْعَيُونَ، وَيَمْلِكُ النُّفُوسَ، زُرَافِينَ أَصْدَاغَهُ^(٣) مَعَالِيْقِ الْقُلُوبِ. كَأَنَّ صُدْعَهُ قَرَطَ مِنَ الْمِسْكِ عَلَى عَارِضِ الْبَكْرِ. وَجْهُهُ عَرَسٌ، وَصَدْغُهُ مَأْتَمٌ، وَوَصْلُهُ جَنَّةٌ، وَهَجْرُهُ جَهَنَّمُ. أَصْدَاغُهُ قَدْ اتَّخَذَتْ شَكْلَ الْعُقَارِبِ، وَظَلَمَتْ ظُلُمَ الْأَقَارِبِ. إِنْ كَانَ عَقْرَبُ صُدْغِهِ تَلْسَعُ، فَتِرْيَاقُ رِيقِهِ يَنْفَعُ. كَانَ شَارِبُهُ زَنْبُرُ الْخَزْرِ الْأَخْضَرِ^(٤)، وَعِذَارُهُ طِرَازُ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ [الْأَذْفَرُ]^(٥)، عَلَى الْوَرْدِ الْأَحْمَرِ. إِذَا تَكَلَّمَ تَكَشَّفَ حِجَابُ الزَّمَرْدِ وَالْعَقِيقِ، عَنْ سِمِطِ الدَّرِّ الْأَنْيَقِ. قَدْ هَمَّ أَرْقَمُ الشَّعْرِ عَلَى شَارِبِهِ، وَكَادَ فَمُ الْحُسْنِ يَقْتَلُهُ. كَأَنَّ الْعِذَارَ يَنْقَشُ فَصَّ وَجْهِهِ، وَيَحْرِقُ فِضَّةَ خَدِّهِ. طَرَزَ الْجَمَالَ دِيْبَاجَ وَجْهِهِ، وَأَبَانَ عِذَارَهُ الْعِلَازَ فِي حُبِّهِ. [لَعِبَ الرِّبْعُ بِخَدِّهِ، فَأَنْبَتَ الْبَنْفَسِجَ فِي وَرْدِهِ. لَمَّا احْتَرَقَتْ فَضَّةُ خَدِّهِ، احْتَرَقَ سَوَادُ الْقَلْبِ مِنْ حُبِّهِ].

كَيْفَ لَا يَخْضَرُ شَارِبُهُ وَمِيَاهُ الْحُسْنِ تَنْقِيهِ

وَلَهُمْ فِي نَقِيضِ ذَلِكَ، فِي ذِمِّ خُرُوجِ الْحَيَّةِ

قَدْ انْتَقَبَ بِالذَّيْجُورِ، بَعْدَ النُّورِ؛ فَدَوْلَةُ حُسْنِهِ قَدْ أَعْرَضَتْ أَيَّامَهُ، وَانْقَرَضَتْ دَوْلَتُهُ

(١) الْمُزْنُ: السحاب يحمل الماء، الواحدة مُزْنَةٌ.

(٢) لَيْلُ السَّرَارِ: آخِرُ لَيَالِي الشَّهْرِ الْعَرَبِيِّ.

(٣) الزُرَافِينَ: جَمْعُ زُرْفَيْنِ، وَهُوَ الْحَلَقَةُ، يُقَالُ: زُرْفَنُ صَدْغِهِ: جَعَلَهُمَا عَلَى شَكْلِ الزُرْفَيْنِ.

(٤) الزَنْبِيرُ: الزُّعْبُ وَالْوَبَرُ الَّذِي يَعْلُو الْمَنُوجَاتِ.

(٥) مِسْكٌ أَذْفَرُ: جَيِّدٌ إِلَى الْغَايَةِ، وَقَدْ ذَفَرَ الشَّيْءُ: اشْتَدَّتْ رَائِحَتُهُ.

وأحكامه. استحال خذه دُجا، وزمرد خذه شُجَا^(١)؛ وأخمدت ناز حُسْنِه بعد الإيقاد،
ولبس عارضه ثوب الحداد. ذبل وزد خذه، وتشوك زعفران خطه. فارقنا خشفًا، ووافانا
جلفًا^(٢)، وفارقنا هلالًا وغزالًا، وعاد وبالًا ونكالا^(٣). مالي أرى الآباط جائشة^(٤)؛
والآناف مُعْشِبَة، والعيون منورة، والأزرار مرعى، والأظفار حِمَى، واللحى لبودا، والأسنان
خُضْرًا وسُودًا.

من رسائل البديع ومقاماته

من رسالة لمن طلب وداده

وكتب إلى بديع الزمان بعض من عَزَلَ عن ولاية حسنة يستمدُّ وداده ويستميل فؤاده؛
فأجابه بما نسخه: وَرَدَتْ رُقْعَتُكَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ فَأَعْرَضْتُهَا طَرَفَ التَّعَزُّزِ وَمَدَدْتُ إِلَيْهَا يَدَ
التَّقَرُّزِ، وَجَمَعْتُ عَلَيْهَا ذَيْلَ التَّحَرُّزِ، فَلَمْ تَنْدَ عَلَى كَبْدِي، وَلَمْ تَحْطَ بِنَاطِرِي وَيَدِي. وَلَقَدْ
خَطَبْتُ مِنْ مَوَدَّتِي مَا لَمْ أَجِدْكَ لَهَا كَفِيًّا، وَطَلَبْتُ مِنْ عِشْرَتِي مَا لَمْ أَرُكْ لَهَا رَضِيًّا؛ وَقُلْتُ:
هَذَا الَّذِي رَفَعَ عَنَّا أَجْفَانَ طَرَفِهِ، وَشَالَ بِشَعْرَاتِ أَنْفِهِ، وَتَاهَ بِحُسْنِ قَدِّهِ، وَزَهَا بِوَرْدِ خَدِّهِ،
وَلَمْ يَسْقِنَا مِنْ نَوْتِهِ، وَلَمْ نَسِرْ بِضَوْئِهِ؛ فَالآنَ إِذْ نَسَخَ الدَّهْرُ آيَةَ حُسْنِهِ، وَأَقَامَ مَائِلَ غُصْنِهِ،
وَقَلَّلَ غَرْبَ عُجْبِهِ^(٥)، وَكَفَّفَ شَأْوَ زَهْوِهِ، وَانْتَصَرَ لَنَا مِنْهُ بِشَعْرَاتٍ قَدْ كَسَفَتْ هِلَالَه، وَأَكْسَفَتْ
بَالَهُ، وَمَسَخَتْ جَمَالَه، وَغَيَّرَتْ حَالَهُ، وَكَدَّرَتْ شِرْعَتَهُ^(٦)، وَنَكَّرَتْ طَلْعَتَهُ، جَاءَ يَسْتَقِي مِنْ
جَرْفِنَا جَرْفًا^(٧)، وَيَغْرِفُ مِنْ طَيْتِنَا غَرْفًا، فَمَهْلًا يَا أَبَا الْفَضْلِ مَهْلًا:

أَرْغَبْتُ فِينَا إِذْ عَلَا كَ الشَّعْرِ فِي خَدِّ قَحْلٍ
وَحَرَجْتُ مِنْ حَدِّ الطُّبَا وَصِرْتُ فِي حَدِّ الْإِبِلِ
أَنْشَأْتُ تَطْلُبُ عِشْرَتِي عُنْدَ لِلْعَادَاةِ يَا خَجِلِ

- (١) السبج: جمع سبجة أو سبيجة، وهي كساء أسود، والمراد أن شعر عارضيه قد نبت.
- (٢) الخشف: ولد الظبية أول ما يولد، يطلق على الذكر والأنثى. والجلف: الكرّ الغليظ الجافي.
- (٣) الوبال: الشدة، والقتل، والفساد، وسوء العاقبة. والنكال: العقاب أو النازلة.
- (٤) الآباط: جمع إبط: باطن المنكب والجناح. جائشة: هائجة، متدققة.
- (٥) فلل: كسر، والضرب: الحد.
- (٦) الشريعة: موضع ورود الماء، وتكديرها: تصير ماؤها كدراً.
- (٧) الجرف: المال الكثير من الصامت والناطق، والكلأ الملف.

أُنسيت أيامك؛ إذ تُكَلِّمنا نَزْرًا^(١)، وَتَنْظُرنا شَزْرًا^(٢)، وتجالِس مَنْ حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتَر لكلامك، ونهش لسلامك:

فَمَنْ لَكَ بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيْكَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَنْظُرُ
أيام كنت تتمايل، والأعضاء تتزايِل، وتتغانج، والأجسادُ تتفَالج، وتتفلت، والأكباد تنفتت، وتخطر وترفل، والوَجْدُ بنا يعلو ويسفل، وتُدبر وتُقبل، فتمني وتخيل، [وتصد] وتُعْرِض، فتنضي وتمرض:

وَبَسِمْ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا تَخْلِلُ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصُ لَهُ نِدِ^(٣)
فَأَقْصِرِ الْآنَ فَإِنَّهُ سَوْقٌ كَسَدٌ، وَمَتَاعٌ فَسَدٌ، ودولة أعرضت، وأيام انقضت:
وَعَهْدٌ نِفَاقٌ مَضَى وَسُوقٌ كَيْسَادٍ نَزَلَ
وَحَدٌّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَخَطٌّ كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ

ويوم صار أَمْسٌ، وحسرة بقيت في النفس، وثمر غاض مأوّه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتشن لا يطرب، [ووجه زال بهاؤه]، ومُثْلَةٌ لا تجرح الحافظها، وشفة لا تفتن ألفاظها، فحتام تَدَلْ، وإلآم نَحْمَلُ وعَلَام؟ وَأَنْ أَنْ تُدْعِنِ الْآنَ، وقد بلغني ما أنت مُتَعَاظِيهِ من تمويه يجوز بعد العشاء في الغسق، وتشبيه يفضح عند ذوي البصر والصدق؛ من إفتائك لتلك الشعرات جفاً وحَصاً، وإِنْحَائِكَ عليها نقصاً وقصاً. وسيكفينا الدهرُ مؤونة الإنكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته إليك؛ فأما ما استأذنت فيه رأيي من الاختلاف إلى مجلسي فما أَقَلُّ إليك نشاطي، وأضيق عنك بساطي، وأشنع قلقي منك، وأشد استغنائي عن حضورك، فإن حضرت فأنت داءٌ نَرُوضُ عليه الحلم، وتعلم به الصبر، وتكلف فيه الاحتمال، ونُقْضِي منه الجَفْنَ على قَدَى، ونَطْوي منه الصدر على أذى، ونجعل للقلوب تأنيباً، وللعيون تأديباً. ومالك إلا أن تعترض من الرغبة عتاً رغبةً فينا. ومن ذلك التدلل علينا تذلاً لنا، ومن ذلك التعالي

(١) النَّزْرُ: القليل.

(٢) الشَّزْرُ: نظرة الإعراض، أو الغضب، أو الاستهانة.

(٣) البيت لطرفة بن العبد، أنظر ديوانه: ص ٢١. والألمى: الذي يضرب لون شفته إلى السواد، والأنثى لمياء. كأن منوراً: يعني أقحواناً منوراً. حرَّ كل شيء: خالسه. الدعص: الكثيب من الرمل، والجمع أَدعاص.

تَبْصُصًا^(١)، ومن ذلك التغالي ترخُّصًا، وما بالُ الدهر أعقبك من التزايد تنقصًا، ومن التسحب على الإخوان تقمُّصًا، ولئن اعتضت من الذهب رُجوعًا، لقد اعتضنا من النزاع نُزوعًا^(٢)، فأنا برحلك وجانبك، ملقَى حبلك على غاربك، لا أوثر قرئك، ولا أئذه سربك^(٣)، والسلام.

المقامة الأسدية من إنشاء البديع

ومن إنشاء بديع الزمان في مقامات الإسكندري ولعل ما فيها من الطول غير مملول. قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: كان يبلغني من مقامات الإسكندري ما يُضغِي له النَّفُور، وَيَتَمَضُّ له العصفور، وَيُرَوِّي لي في شِعْره ما يَمْتَرِج بِأجزاء الهواء رِفَّةً، وَيَعْمُضُ عن أوهام الكَهَنَةِ دِقَّةً، وَأَنَا أسأل الله بقاءه، حتى أَرْزُقَ لقاءه، وَأَتَعَجَّب من قعودِهِ هِمَّتَهُ بحالته، مع حُسْنِ آتِهِ، وقد ضرب الدهر شؤونه أسدادًا^(٤) وهلمَّ جَرًّا. إلى أن انفقت لي حاجةً بِحِمَصٍ، فشَحَذْتُ إليها الحِرَصَ، في ضُحْبَةِ أفرادِ كنجوم الليل، أَحْلَاسَ^(٥) لظهور الخيل، فأخذنا الطريق نَتَهَبُ مسافته، ونستأصل شأفته، ولم نَزَلْ نَقْرِي أَسْمَةَ النَّجَادِ^(٦) بتلك العجَاد، حتى صِرْنَا كالعَصِي، وَرَجَعْنَا كَالْقَسِيِّ، وَتَاحَ لنا وادٍ في سَفْحِ جبل، ذي الآءِ وَأَثَلٍ، كالعدارى يُسَرِّحْنَ الضفائر، وَيَنْشُرْنَ الغدائر، فمالتِ الهاجرة بنا إليها، فنزلنا نَغُورَ وَنَغُورَ، وربطنا الأفراسَ بالأمراس، ومِلْنَا مع الثعاس؛ فما راعنا إلا صهيلُ الخيول، ونظرتُ إلى فَرَسِي وقد أَرْهَفَ أُذنيه، وَطَمَحَ بَعيْنيه، يَجْدُ قُوَى الجبل بمشافره^(٧)، وَيَحْدُ خَدَّ الأرض بحوافره^(٨)، ثم اضطربت الخيلُ، فأرسلت الأبوال، وَقَطَعَتِ الجبالُ، وصار كلُّ منا إلى

- (١) يقولون: يبصص الكلب بذنبه: حركه يتملق به صاحبه، وبصبصت الإبل: حركت أذناها عند الحذاء وأسرعت، وبصص في دعائه: رفع سبائيه إلى السماء وحركهما.
- (٢) نزعت النفس إلى الشيء نزاعًا: اشتاقته، ونزعت عنه نُزوعًا: انصرفت.
- (٣) ندَّة الرجل ندَّها: صات، وندّه البعير ونحوه: زجره وطرده عن أي شيء بالصياح، وكان من طلاقهم في الجاهلية أن يقول الرجل للمرأة: اذهبي فلا أئذه سربك.
- (٤) في رواية: «ضرب الدهم شؤونه، بأسداد دونه». والأسداد: جمع سدّ، وهو الحاجز بين شيئين، والبناء في مجرى الماء ليحجزه.
- (٥) الأحلاس: جمع حِلَس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت القتب والرحل والسرّج، وقوله: أحلاس لظهور الخيل، أي أنهم يلازمون ظهورها، كناية عن شجاعتهم وفروسيّتهم.
- (٦) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ضد السهل.
- (٧) يَجْدُ: يقطع.
- (٨) خَدَّ الأرض خَدًا: حضرها.

سلاحه، فإذا الأسد في فَرَوَة الموت، قد طلع من غابه، منتفخاً في إهابه، كاشراً عن أنيابه، بطَرْفٍ قد ملئ صلفاً، وأنف قد حشى أنفاً. وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرُّعب، فقلنا: خَطَبَ والله ملَم، وحادثٌ مهَم، وتبادرنا إليه من سَرَعان الرُّفقة فتى:

أخضر الجِلدة من بَيْتِ العَرَبِ يملأ الدَّلَو إلى عقد الكَرَبِ

بقلبٍ ساقه قدرٌ، وسيفٍ كله أثرٌ، فملكته سورة الأسد، فخاته أرضٌ قدمه، حتى سقط ليدِه وفمه، وتجاوز الأسد مَصْرَعه، إلى مَنْ كان معه، ودعا الحينُ أخاه، إلى مثل ما دعاه، فسار إليه، وعقل الرُّعب يديه، فأخذ أرضه وافترس الليث صدره، ولكن شغلَتْ بعمامتي فمه، حتى حقنْتُ دمه، وقام الفتى قَوْجاً بطنه حتى هلك من خوفه^(١)، والأسد بالوجاء في جوفه، ونهضنا على أثر الخيل، فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه.

فلما حَثَوْنَا الثُّرْبَ فوقَ رفيقنا جَزَعْنَا ولكن أَيَّ سَاعَةٍ مَجْزِعِ

وعدنا إلى الفلاة، فهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفد الزاد، أو كاد يلركه النفاذ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع، عن لنا فارسٌ قَصَمَدْنَا صَمَدَه، وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزلَ عن حاذ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقي التراب بيديه، وعمدني من بين الجماعة، فقبل ركابي، وتحرم بشيبي، ونظرتُ فإذا وجه يبرق برق العارض المتهلل، وفرس متى ما ترق العينُ فيه تسهل، وعارضٌ قد اخضر، وشاربٌ قد طر، وساعدٌ ملآن، وقضيب رَيَّان، ونجار تركي، وزبي ملكي، فقلت: ما جاء بك؟ لا أبالك! فقال: أنا عبد بعض الملوك، هم من قتلي بهم، فهمت على وجهي إلى حيث تراني، وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالي مالك، فقلت: بشرى لك وبك، أذاك سيرُك إلى فناء رَحْب، وعيش رَطْب، وهنأتني الجماعة، بحسب الاستطاعة، وجعل ينظرُ فتقتلنا أَلحاظه، وينطقُ فتفتننا أَلفاظه، والنفسُ تناجيني فيه بالمحذور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: يا سادة، إنَّ في سفح هذا الجبل عيناً، وقد ركبتم فلاة عَوْرَاء^(٢)، فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعتة إلى حيث أشار،

(١) وَجَأَ فَلَانًا وَجْئًا وَوَجَاءَ: دفعه بِجُمُعِ كَفَّه في الصدر أو العنق، ويقال: وجأ باليد والسكين: ضربه.

(٢) فلاة عوراء: صحراء ليس بها ماء.

وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادب العيدان^(١)، فقال: ألا تقيلون في هذا الظل الرَّحْب، على هذا الماء العذب؟ فقلنا: أنت وذاك، فنزل عن فَرْسِهِ، ونحى منطقته، وحلَّ قرطقه^(٢)، فما استتر عنا إلا بغلالة [تنم] على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطَّها، وإلى الأفراس فحشَّها^(٣)، وإلى الأمكنة ففرشها، وقد حاربت البصائر فيه، ووقعت الأبصار عليه، ووتد كل منا شبقاً، وخنث اللفظ ملقاً. وقلت: يا فتى، ما أَلْطَفَكَ في الخِدْمَة! وأحسَّنَكَ في الجملة! فالويل لمن فارَّقته، وطوبى لمن رافقته، فكيف تشكُر الله على النعمة بك؟! فقال: ما سترَّونه أكثر، أنعجبكم خفتي في الخِدْمَة، فكيف لو رأيتموني في الرُّفْقَة؟ أُرِيكم من حِذْقِي طُرفاً، لتزدادوا بي شغفاً؟ فقلنا: هات، فعمد إلى قوس [أحدنا] فأوترته؛ وفوق سَهْمًا فرماه في السماء، وأتبعه بآخر فشقه في الهواء، وقال: سأريكم نوعاً آخر، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها، وإلى فرسي فعلاه، ورمى أحداً بهم أثبتة في صدره، وآخر طيره سن ظهره، فقلت: ويحك! ما تصنع؟ قال: اسكت يا لُكْع، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه، أو لأغصته بريقه، فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسرُوجنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها^(٤) البطون والصدور، وحين رأينا منه الجِدَّ، أخذنا القَدَّ^(٥)، فشذ بعضنا بعضاً، وبقيت وحدي لا أجد من يشدني، فقال: اخرج بإهابك^(٦)، عن ثيابك، ثم نزل عن فرسه، وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر، ويقول: أقمت قضيك، فخذ نصيبك، [ونزع ثيابه] وصار إليّ وعليّ خُفَّان جديان فقال: اخلعهما لا أم لك، فقلت: هذا خفت لبسته رطباً، فليس يمكنني خلعه فقال: عليّ نزعهُ، ثم دنا لينزع الخُفَّ، ومددت يدي إلى سكين فيه وهو مشغول، فأثبتته في بطنه، وأثبتته من مَنَّتِهِ^(٧). فما زاد على فَمَ فغره^(٨)، وألقمه حجره، وقممت إلى أصحابي فحللت أيديهم، وتوزعنا سلب المقتولين، وأدركنا الرفيق، وقد جاد بنفسه،

(١) ركب الجنادب العيدان: كناية عن اشتداد الحر.

(٢) القرطق: ضرب من الكساء.

(٣) حشها: قدَّم لها الحشيش.

(٤) يمشق: يضرب في سرعة.

(٥) القَد: السير من جلد يُربط به الأسير.

(٦) الإهاب: الجلد.

(٧) أثبتته: أظهرته، وأراد: أنفذته. والمنت: الظهر.

(٨) فغره فمه: فتحه.

وصار إلى رَمِيهِ^(١)، وصِرْنَا إلى الطريق فوردنا حِمَصَ بعد ليل، فلما انتهينا إلى فُرْصَةٍ من سُوقِهَا رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبُيَّة، بِجِرَابٍ وَعُصِيَّةٍ، وهو يقول:

رَحِمَ اللَّهُ مَنْ حَشَا فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ رَتَّى لِسَعِيدٍ وَفَاطِمَهُ
إِنَّهُ خَسَادٌ لَكُمْ وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَهُ

قال عيسى بن هشام: فقلت: إنَّ هذا الرجل هو الإسكندري الذي سَمِعْتُ به وسألتُ عنه فإذا هو هو، فدلَّغْتُ إليه، فقلت له: أحكمك حكمك، فقال: درهم، فقلت:

لَكَ دِرْهَمٌ فِي مِثْلِهِ مَا دَامَ يُسْعِدُنِي التَّقَمُّسُ
فَاحْسِبْ حَسَابَكَ وَالتَّمَنُّ كَيْمَا تَنَالِ الْمُتَمَنُّسُ

لك درهم في اثنين، وفي ثلاثة، وفي أربعة، وفي خمسة حتى بلغت العشرين، ثم قلت: كم معك؟ قال: عشرون رغيفاً، فأمرتُ له بها، وقلت: لا نصرة مع الخِذْلَانِ، ولا حيلة مع الحِرْمَانِ.

لأبي فراس الحمداني يتغزل

وقال أبو فراس الحمداني: (٢)

سَكِرْتُ مَنْ لَحَظَهُ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ وَمَا بِالنَّوْمِ عَنْ عَيْنِي تَمَائِلُهُ
وَمَا السُّلَافُ دَهَنَتْنِي بِلِ سَوَالِفِهِ وَلَا الشُّمُولُ دَهَنَتْنِي بِلِ شَمَائِلِهِ^(٣)
أَلْوَى بِصَبْرِي أَصْدَاغُ لُؤَيْسَ لَهُ وَغَالِ عَقْلِي بِمَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ^(٤)

لأبن المعتز في الغزل

وقال ابنُ المعتز، وقد تقدَّم عنه في هذه الألفاظ:

(١) الرمس: القبر.

(٢) أبو فراس الحمداني، الديوان: ص ٢٢٥.

(٣) السُّلَاف: أفضل الخمر وأخلصها. وفي الديوان: «ولا الشمول ازدهنتي».

(٤) ألوى به: ذهب، وغال عقلي: أضاعه وأهلكه.

وفي الديوان:

أَلْوَى بِعَزْمِي أَصْدَاغُ لُؤَيْسَ لَهُ وَغَالِ صَبْرِي مَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ

وَيَوْمَ فَاخِثِي الدَّجْنَ مُرْخٍ عَزَالِيَهْ يَهْطَلِيْ وَانْهَمَالِ^(١)
 أَبْحَثُ سُورَوَهْ وَظَلَلْتُ فِيْهِ بِرَغَمِ الْعَاذِلَاتِ رَخِيَّ بَالِ
 وَسَاقِي يَجْعَلُ الْمُنْدِيلَ مِنْهُ مَكَانَ حَمَائِلِ السِّيفِ الطَّوَالِ
 غِلَالَةُ خَدَهْ صُبِغَتْ بِوَرْدِ وَنُونُ الصُّدُغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالِ
 بَدَا وَالصَّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بِإِدِ كَطَرْفِ أَلْبَقِي مُرْخَى الْجِلَالِ^(٢)
 بِكَأْسٍ مِنْ زَجَاجٍ فِيْهِ أَشَدُّ فَرَائِسَهِنَّ أَلْبَابُ الرِّجَالِ
 أَقُولُ وَقَدْ أَخَذْتُ الْكَأْسَ مِنْهُ وَقَتْلِكَ السَّوَاءَ رِيَاثُ الْحِجَالِ

وقد أحسن ما شاء في قوله: «فرائسهن ألباب الرجال» وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكاس.

لأبي نواس في وصف يوم شرب

قال الصولي: مرَّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلى ساباط^(٣)، فقال بعض أصحابه: ندخل إيوان كسرى؛ فرأينا آثاراً في مكان حسن تدلُّ على اجتماع كان لقوم قبلنا، فأقمنا خمسة أيام نشربُ هناك، وسألنا أبا نواس صفة الحال، فقال: ^(٤)

وَدَارِ نَدَايَ عَطَّلُوهَا وَأَذْلَجُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ^(٥)
 مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيِّ وَسَابِسُ^(٦)
 وَلَمْ أَرْ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ بِشَرْقِيِّ سَابَاطِ الدِّيَارِ الْبَسَابِسُ^(٧)

(١) فاختي: منسوب إلى الفاخنة، واحدة الفواخت، وهي من ذوات الأطواق من الحمام، يشبه لونها ضوء القمر. والدَّجْنُ: لباس الغيم الأرض وأقطار السماء. والعزالي: جمع عزلاء، وأصلها مصب الماء من الراوية، ويقال: أرخت السماء عزاليها: إذا أريد الكناية عن اشتداد المطر.
 (٢) الطَّرْفُ: الكريم من الناس والخيول ونحوها. وقد بلق الفرس بَلَقًا وَبَلُقَةً: كان فيه سواد وبياض، فهو أبلق، وهي بقاء، والجمع بُلُقٌ. والجِلَالُ: الغطاء.

(٣) ساباط: موضع بمدائن كسرى.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٣٧.

(٥) أدلجوا: ساروا من أول الليل. دارس: من درس الرسم: عفا وتغير.

(٦) مساحب: بدل من أثر في البيت السابق. الزقاق: أوعية الخمر. أضغاث ريحان: جمع ضغث، والضغث: القبضة منه.

(٧) في الديوان: «ولم أدر من هم». البَسَابِسُ: جمع بسيس: القفر الخالي.

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَمَعْتُ شَمْلَهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ^(١)
 أَقْنَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمٌ لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ^(٢)
 تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ^(٣)
 قَرَارُتُهَا كَسْرَى وَفِي جَبَانِهَا مَهَى تَذَرِيهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسُ^(٤)
 فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ^(٥)

وقال علي بن العباس النوبختي: قال لي البحري: أتدري من أين أخذ الحسن قوله: «ولم أر منهم غير ما شهدت به»؟... البيت - فقلت: لا، قال: من قول أبي خراش:^(٦)

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِذَاءُهُ سِوَى أَنَّهُ قَدْ سُلِّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضٍ

فقلت: المعنى مختلف، فقال: أما ترى حَذَوْ الكلامِ واحداً، وإن اختلف المعنى؟!

قال الجاحظ: نَظَرْنَا فِي الشعر القديم والمُحَدَّث فوجدنا المعاني تَقْلَبُ ويؤخذ بعضها من بعض، غير قول عَتْرَةَ فِي الأوائل:^(٧)

وَخَلَا الذَّبَابُ بِهَا يُغْنِي وَحْدَهُ غَسِرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ^(٨)

- (١) في الديوان: «فَجَدَّدْتُ عهدهم».
- (٢) في الديوان: «ويوماً له يوم الترحل خامس».
- (٣) في الديوان: «حَبَّتْهَا بِالْوَانِ التَّصَاوِيرِ». وفي عسجدية: في كؤوس عسجدية، والعسجد: الذهب.
- (٤) قرارتها كسرى: يريد أن في قرارة الكأس صورة كسرى، وفي جوانبها صور مهى. والمهى: البقر الوحشي، الواحدة مهاة. وتذريها: تختلها لتصطادها من غير أن تشعر. والقسي: جمع قوس. والفوارس: جمع فارس.
- (٥) القلانس: أغطية الرؤوس الشائعة في ذلك الحين.
- (٦) أبو خراش: هو خويلد بن مرة، أحد بني قرد بن عمرو بن سعد بن هذيل: شاعر مخضرم، وفاتك مشهور، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وهو شيخ كبير، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله معه أخبار. واشتهر بالعدو، فكان يسبق الخيل، وشعره سهل متين. توفي نحو ١٥ هـ/ نحو ٦٣٦ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٥٥٤/٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢١/٢٢٩).
- (٧) عترة بن شداد: الديوان: ص ١٩٧.
- (٨) في شرح المعلقات العشر للهوراري: «وخلَا الذبابُ بها فليس بيارح». خلا: انفرد. بيارح: بترك، والبراح: الزوال، يقال: ما برحت قائماً، أي: ما زلت. والغرد: المطرب بصوته. والمترنم: الذي يُرْجَعُ الصوت بينه وبين نفسه. وفي الديوان: «هزجاً كفعل الشارب المترنم». والهجز: سريع الصوت مُتَدَارِكُهُ.

هَزَجَا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمُكِبِّ عَلَى الزِنَادِ الْأَجْذَمِ^(١)
وقول أبي نواس في المحدثين:

قَرَارَتُهَا كَسْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقَسَى الْفَوَارِسُ
فَلِلرَّاحِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

أبي العباس الناشيء

أخذه أبو العباس الناشيء فقال وولّد معنَى زائداً:

وَمُدَامَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ مِنْ رَبِّهِ أَحَدٌ حَبَاهُ بِهَا لَدَيْهِ مَزِيدَا
فِي كَأْسِهَا صُورٌ تَظُنُّ لِحُسْنِهَا عُرْباً بَرَزْنَ مِنَ الْخِيَامِ وَغِيدَا^(٢)
وَإِذَا الْمَزَاجُ أَثَارَهَا فَتَقَسَّمَتْ ذَهَباً وَدُرّاً تَوَامُاً وَفَرِيدَا
فَكَأَنَّهُنَّ لَيْسَنَ ذَاكَ مَجَاسِدَا وَجَعَلْنَ ذَا لِنُحُورِهِنَّ عُقُودَا^(٣)

أبي خراش

وأبيات أبي خراش، وكان خراش وعروة غزوا ثمالة فأَسْرَوْهُمَا، وأخذوهما وهما يقتلهما، فنهاهم بنو رزام، وأبى بنو هلال إلا قَتَلَهُمَا، وأقبل رجل من بني رزام فألقى على خراش رداءه، وشغل القوم بقتل عروة، وقال الرجل لخراش: انجُ، فنجّا إلى أبيه، فأخبره الخبر، ولا تعرف العرب رجلاً مدح من لا يعرفه غيره:

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا خَرَّاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ^(٤)

(١) في الديوان: «غَرِدَا يَسْنُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ». يَسْنُ: يحدد، ومنه: سَنَّ السَّكِينُ: حَدَّهَا، وَسَنَّ الثَّوْبَ: صَقَلَهُ. ومعنى يحك ذراعه بذراعه: يَمْزُجُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى. الْمُكِبُّ: الْمُثْقِلُ عَلَى الشَّيْءِ. الْأَجْذَمُ: الْمَقْطُوعُ الْيَدِ.

(٢) عُرْبٌ: جَمْعُ عَرُوبٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْمُتَحِيَّةُ إِلَى زَوْجِهَا.

(٣) الْمَجَاسِدُ: جَمْعُ مَجْسَدٍ، وَهُوَ الثَّوْبُ الْمَلَامَسُ لِلْجَسَدِ.

(٤) «وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ»: مِثْلُ يُضْرَبُ عِنْدَ ظَهْرِ الشَّرِّينِ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ (الْمِيدَانِي، مَجْمَعُ

الْأَمْثَالِ: ٩٤/١)، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ وَقَدْ أَمَرَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ بِقَتْلِهِ:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْتَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضَنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

(ديوانه: ص ٦٦).

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى قِيلاً رُزْتُهُ
بِجَانِبِ قَوْسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ^(١)
بَلَى إِنَّهَا تَغْفُو الْكُلُومَ، وَإِنَّمَا
نُوكِّلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وَلَمْ أَذِرْ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ
سَوَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَخْضٍ
وَلَسَمَ يَكُ مَثْلُوجَ الْفُؤَادِ مُهَبَّجاً^(٢)
وَلَكِنَّهُ قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخَامِصُ
عَلَى أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ^(٣)
كَأَنَّهُمْ يَثْبَثُونَ بِطَائِرٍ
خَفِيفِ الْمَشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضٍ^(٤)
يُيَادِرُ فَوْتَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِدٌ^(٥)
الرَّيْلَةُ: الْخَفْضُ وَالِدَعَةُ، وَالْمُهَابِدُ: الْمَجْتَهِدُ فِي الْعَدُوِّ وَالطَّيْرَانِ.

أَبُو خِرَاشٍ يَرِثِي أَخَاهُ عُرْوَةَ

وَقَالَ أَبُو خِرَاشٍ يَرِثِي أَخَاهُ عُرْوَةَ:
تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ عُرْوَةٍ لَاهِيَاً
وَذَلِكَ رُزَّةً لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ
وَلَكِنَّ صَبْرِي يَا أُمَيْمَ جَمِيلُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلَنَا
خَلِيلاً صَفَاءً مَالِكٌ وَعَقِيلُ
وَأَنِّي إِذَا مَا الصَّبْحُ أُنْسِيتُ ضَوْؤَهُ
يُعَاوِدُنِي قِطْعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ
[أَبَى الصَّبْرُ أَنِّي لَا أَزَالُ يُهَيِّجُنِي
مَيْتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ]

مَالِكٌ وَعَقِيلُ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا نَدِيمَا جَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ، وَكَانَا أُتَيَاهُ بَابِنِ أَخْتِهِ عَمْرُو،
وَكَانَ قَدْ اسْتَهْوَتْهُ الْجِنُّ، فَمَنَاهُمَا فَتَمَنِّيَا مُتَادِمَتَهُ، وَهُمَا اللَّذَانِ عَنِ مَتَمِّمِ بْنِ نُؤَيْرَةَ فِي
مَرثِيَةِ أَخِيهِ مَالِكٍ:

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

- (١) فِي الْأَغَانِي (٢٤٣/٢١): «مَا حَيْثُ عَلَى الْأَرْضِ». قَوْسَى: بِيْلَادُ السَّرَاةِ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ.
- (٢) مَثْلُوجُ الْفُؤَادِ: ضَعِيفُ الْفُؤَادِ، بَارِدُ الْقَلْبِ. مُهَبَّجٌ: مُثْقَلٌ. وَالرَّيْلَةُ: كَثْرَةُ اللَّحْمِ وَتَمَامُهُ. أَي: لَمْ يَكُنْ مُتَاقِلاً إِذَا دَعِيَ، وَلَمْ يُضَيِّعْ أَيَّامَهُ فِي اكْتِسَابِ اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ.
- (٣) فِي الْأَغَانِي: «قَدْ نَازَعَتْهُ مَجَاوِعٌ». وَالْمَخَامِصُ: الْمَجَاوِعُ، الْوَاحِدَةُ: مَخْمَصَةٌ. ذُو مِرَّةٍ: ذُو عَقْلٍ وَأَصَالَةٍ وَإِحْكَامٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ (سُورَةُ النِّجْمِ، الْآيَتَانِ ٥، ٦).
- (٤) الْمُشَاشُ: الْعَظْمُ لَا مُخٌّ فِيهِ. وَالتَّخْضُ: اللَّحْمُ الْمُكْتَنَزُ.
- (٥) مُهَابِدٌ: مَنْ هَبَذَ هَبْذًا: أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ أَوْ طَيْرَانِهِ

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَا لِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

لابن الرومي

وقول عترة في وَصَفِ الذبابِ أَوْحَدَ فرد، ویتیم فذ، وقد تعلق ابن الرومي بذيله وزاد معنی آخر في قوله: (١)

إِذَا رَنَّقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَضَتْ
وَلَا حَظَّ لِلتُّوَارِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ
كَمَا لَا حَظَّ لِعُودَاهَا عَيْنُ مُدْنِفٍ
وَيَبْنَ إِغْضَاءُ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا
وَقَدْ ضَرَبْتُ فِي خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرَةً
وَوَظَلْتُ عُيُونَ النُّورِ نَخْضَلُ بِالنَّدَى
وَأَذْكَى نَسِيمِ الرَّوْضِ رَيْعَانُ ظِلِّهِ
وَعَرْدَ رَيْعِي الذَّبَابُ خِلَالَهُ
فَكَانَتْ أَرَانِيْنَ الذَّبَابُ هُنَاكُمُ
عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ وَرْسًا مُزْعَرَعًا (٢)
وَقَدْ وَضَعْتُ خَدًّا عَلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا (٣)
تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعًا (٤)
كَأَنَّهُمَا خِلَا صَفَاءِ تَوَدَّعَا
مِنَ الشَّمْسِ فَاخْضَرَّ اخْضِرَارًا مُشْعَشَعَا
كَمَا اغْرُورِقَتْ عَيْنُ الشَّجِي لِتَدْمَعَا
وَعَتَّى مُعْنِي الطَّيْرِ فِيهِ مُرَجَّعًا (٥)
كَمَا حَثَّ الشَّوَّانُ صَنْجًا مُثْرَعًا (٦)
عَلَى شَدَوَاتِ الطَّيْرِ ضَرْبًا مُوَقَّعًا (٧)

لأبي نواس

وذكر أبو نواس معنى قوله في تصاوير الكؤوس في مواضع من شعره فمن ذلك: (٨)

- (١) ابن الرومي، الديوان: ١١٦/٤. والأبيات من قصيدة طويلة اسمها «رمي البندق».
- (٢) رَنَّقَتْ الشمس: مالت للغروب. الورس: الزعفران (نبت ذو نور أصفر يُصْبَغُ به). مززعع: مفرق، وفي الديوان: «مدععا». يشبه منظر مغيب الشمس بالزعفران الأصفر وقد تفرق متبدداً. وفي رواية: (شرح المقامات للشريشي).
- (٣) إِذَا ارْتَعَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَفَيْضَتْ: على الأفق الغربي وَرْسًا مُرْصَعًا. وفي الديوان: «إلى الأرض».
- (٤) المدنف: المريض. الأوصاب: جمع وصب: التعب. وفي الديوان: «عَوَادَة».
- (٥) فِي الدِّوَانِ: «فَجَّعًا».
- (٦) حَثَّ الشَّيْءَ: حَرَّكَهُ. الصَّنَجُ: صفائح صفر صغيرة مستديرة تُثَبَّتُ في أطراف الدف، أو في أصابع الراقصة، يُلْقَى بها عند الطرب.
- (٧) وفي رواية: «وكانت أهازيج الذباب».
- (٨) أبو نواس، الديوان: ص ٤٤٨.

بَنَيْنَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ^(١)
 فَلَوْ رُدَّ فِي كِسْرَى بَنٍ مِثْلَ رُوحِهِ إِذَا لَاصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ^(٢)

[وصف الدمن والأطلال]

وأول هذا الشعر:

لِمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمٍ عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنِ رُسُومٍ^(٣)
 تَجَافَى إِلَيَّ عَنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّمَا لَيْسَنَ عَلَى الْإِقْوَاءِ ثُوبٌ نَعِيمٍ

وهذا معنى مليح وإن أخذه من قول أعرابي:

شَطَّتْ بِهِمْ عَنْكَ نِيَةٌ قُذِفَتْ غَادَرَتِ الشَّعْبَ غَيْرَ مُلْتَمِسٍ^(٤)
 وَاسْتَوْدَعَتْ سِرَّهَا الدِّيَارَ فَمَا تَزْدَادُ طِيْبًا إِلَّا عَلَى الْقَدَمِ

لابن وهيب

وهذا ضد قول محمد بن وهيب:

طَلَّانٍ طَالَ عَلَيْهِمَا الْأَمْدُ دَرَسَا فَلَا عَلَمٌ وَلَا قَصْدُ^(٥)
 لَيْسَا إِلَيَّ فَكَأَنَّمَا وَجَدَا بَعْدَ الْأَحِبَّةِ مِثْلَ مَا وَجَدُوا

للأخطل

وقال الأخطل:

لِأَسْمَاءَ مُحَلَّلٌ بِنَازِرَةِ الْبُشْرِ قَدِيمٌ وَلَمَّا يَغْفُهُ سَالِفُ الدَّهْرِ
 يَكَادُ مِنَ الْعِرْفَانِ يَضْحَكُ رَسْمُهُ وَكَمْ مِنْ لَيْالٍ لِلدِّيَارِ وَمِنْ شَهْرِ

(١) مكلفة: محفوفة ومحاطة، والمراد بالنجوم: الحجب.

(٢) اصطفاني: اختارني.

(٣) الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار. وأقوت: أقفرت.

(٤) النية: المكان الذي ينوي المسافر إليه، ونية قذف: بعيدة، وشطت: بعدت، والشعب: الجماعة الكبيرة من الناس، أو الجماعة تتكلم لساناً واحداً.

(٥) القصد: استقامة الطريق، يقال: هو على القصد، وعلى قصد السبيل: إذا كان راشداً، وقد حرك للضرورة الشعرية.

لأبي صخر

هذا أيضاً كقول أبي صخر الهذلي:
لِلَّيْلِ بِذَاتِ الْجَيْشِ دَارٌ عَرَفْتُهَا وَأُخْرَى بِذَاتِ الْيَمِّنِ آيَاتُهَا سَطُرٌ
كَأَنَّهُمَا مِ الْآنَ لَمْ يَتَغَيَّرَا وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِنَا عَصْرٌ^(١)

لمزاحم العقيلي

وقد قال مُزَاحِمُ الْعُقَيْلِيِّ: ^(٢)
تَرَاهَا عَلَى طُولِ الْقَوَاءِ جَدِيدَةٌ وَعَهْدُ الْمَغَانِي بِالْحُلُولِ قَدِيمٌ
وقرأ الزبير بن بكار أخبار أبي السائب [المخزومي] فلما بلغ إلى قول مالك بن أسماء
الفزاري: ^(٣)

بَكَتِ الدِّيارُ لِفَقْدِ سَاكِنِهَا أَفَعِنَدَ قَلْبِي أَبْتَغِي الصَّبْرَا؟

لابن وهيب

هذا البيت نظير قول ابن وهيب:
بَيْنَاهُمْ سَكَنٌ بِجِوَرَتِهِمْ ذَكَرُوا الْفِرَاقَ فَأَصْبَحُوا سَفْرَا
فَظَلَلْتُ ذَا وَلَهٍ يُعَاثِي مَنُ لَا يَرَى أَمْرِي لَهُ أَمْرَا

- (١) «مِ الْآنَ»: أصله من الآن فحذف النون للتخفيف، ومثله قول المتنبي:
نَحْنُ رُكْبٌ مِ الْجَنِّ فِي زِيٍّ نَاسٍ فَسَوْقَ طَيْرٍ لَهَا مَشْخُوصُ الْمَالِ
(ديوانه: ٢٥٥/١). وبيتا أبي صخر من قصيدة قالها في أم حكيم ليلي بنت سعد القضاية،
وكانا يتواصلان برهة من دهرهما، رُؤِجت بغيره، ورحل بها زوجها إلى قومه، (الهواري أحلى
قصائد الغزل في العصر الأموي: ٣٩).
- (٢) هو مزاحم بن عمرو بن الحارث من بني عامر بن عقيل: شاعر كان يسكن الروضات من بلاد بني
عقيل. شعره فصيح الألفاظ، سهل التراكيب، متين البك. توفي بَعْدَ سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م.
(فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٥٢٠/١).
- (٣) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري: شاعر إسلامي غزل، وأخته
هند بنت أسماء زوج الحجاج، وهو ممن عُرف بالجمال في العرب. حبسه الحجاج وعذبه
لخيانة ظهرت عليه، ويقال: إنه هرب من السجن وظل متوارياً حتى مات الحجاج.
(الأصفهاني، الأغاني: ١٦٩/١٧).

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط: ما أسرع هذا! أما اهتَدَوْا! أما قَدَمُوا ركباً! أما ودَّعُوا صديقاً! فقال الزبير: رحم الله أبا السائب! فكيف لو سمع قول العباس بن الأحنف:

سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ فَقَرَّرْنَا وَدَاعَنَّا بِالسُّؤَالِ
مَا أَنْخَنَّا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا فَد رَقْنًا بَيْنَ النَّزُولِ وَالْإِرْتِحَالِ^(١)

هكذا رواه الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب الباهلي.

ومن ألقاظ أهل العصر، في صفة الديار الخالية

دارٌ لَيْسَتْ الْبِلَى، وتَعَطَّلَتْ مِنَ الْحُلَى. دار قد صارت من أهلها خالية، بعد ما كانت بهم حالية. دار قد أَفْقَدَ الْبَيْنَ سَكَانَهَا، وأَعْدَدَ حَيْطَانَهَا، شاهد اليأس منها يَنْطِقُ، وَحَبْلُ الرِّجَاءِ فِيهَا يَقْصُرُ. كَأَنَّ عُمْرَانَهَا يُطَوِّى وَخِرَابُهَا يُنْشَرُ، أَرْكَانُهَا قِيَامٌ وَقَعُودٌ، وَحَيْطَانُهَا رَكْعٌ وَهُجُودٌ.

يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلي:

بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ فَقْدِهِمْ فَتَهَلَّلَتْ دُمُوعِي، فَأَيُّ الْجَارِعَيْنِ أَلُومٌ؟^(٢)
أَمْسَتَعْبُرُ بِيَكِّي عَلَى الْهَوْنِ وَالْبِلَى أَمْ آخِرَ يَبْكِي شَجْوَهُ فَيَهِيْمُ

للمتنبى

أبو الطيب المتنبى: ^(٣)

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَفْقَرْتُ أَنْتِ وَهَنْ مِنْكَ أَوَاهِلُ
يَعْلَمَنَّ ذَاكَ، وَمَا عَلِمْتَ، وَإِنَّمَا أَوْلَا كُماً يُبْكِي عَلَيْهِ الْعَاقِلُ^(٤)

(١) الإرتحال: هكذا وردت بهزمة قطع، لضرورة إقامة الوزن، والصواب أنها بهمة وصل.

(٢) تهلت دموعي: انتهت وانصبت.

(٣) المتنبى، الديوان: ٣٢٦/١. والبيتان مطلع قصيدة يمدح بها أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي.

(٤) يقول: إن القلوب التي هي منازل لديار الأحبة تعلم أن الأحبة قد رحلوا وتركوها خالية، ولكن الديار لا تعلم ذلك، فالذي يعلمه هو الأولى بالبكاء عليه لعلمه بما أصابه.

لعلي بن جبلة

وقال علي بن جبلة^(١)، في معنى قول العباس بن الأحنف:

زائرٌ نَمَّ عليه حُسْنُهُ كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْرًا طَلَعَا
بأبي مَنْ زَارَنِي مُكْتَمًا خَائِفًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَزَعَا
رَصَدَ الْغَفْلَةَ حَتَّى أَمَكَّنْتُ وَرَعَى الْحَارِسَ حَتَّى هَجَعَا
رَكِبَ الْأَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ ثُمَّ مَا سَلَمَ حَتَّى وَدَّعَا

للحسين بن الضحاك

وقال الحسين بن الضحاك:

[بأبي زورٌ تَلَفْتُ لَهُ فَتَنَسْتُ عَلَيْهِ الصُّعْدَا^(٢)
يَنِمَا أَضْحَكَ مَسْرُورًا بِهِ إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَمَدَا^(٣)

للمتنبى

[أبو الطيب المتنبى]:^(٤)

بأبي مَنْ وَدِدْتُه فَافْتَرَقْنَا وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعَا
فَافْتَرَقْنَا حَوْلًا، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ الْوَدَاعَا^(٥)

وقال أبو الحسن جحظة: قال لي خالد الكاتب: دخلتُ يوماً بعض الدِّيارَاتِ فإذا أنا بشابٍّ مُوثِقٍ فِي صِفَادِ حَسَنِ الْوَجْهِ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، فَقَالَ: صَاحِبُ الْمَقْطَعَاتِ الرَّقِيقَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ! فَقَالَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَفْرَجَ عَنِّي بَعْضُ مَا تَتَشَدَّنِي مِنْ شَعْرِكَ فَافْعَلْ، فَأَنْشَدْتُهُ:

(١) هو أبو الحسن، علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن: شاعر مطبوع، مجيد، فصيح، وكان أعمى، أسود، أبرص. ولد ببغداد، واشتهر بمدح القائدين أبي دلف العجلي، وحמיד الطوسي، وقيل: إنه مات ميتة شنيعة سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٧١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٥٩/١١).

(٢) الزور: الزائر، وأصله مصدر فوصف به. والصُّعْدَا: أصله الصعداء ممدوداً، فقصره للضرورة.

(٣) الكمد: الحزن.

(٤) المتنبى، الديوان: ١١٧/١. والبيتان مما نظمهما الشاعر ارتجالاً وهو صبي.

(٥) الحول: العام.

تَرَشَّفْتُ مِنْ شَفْتَيْهَا عُقَاراً وَقَبَّلْتُ مِنْ خَدِّهَا جُلْنَاراً^(١)
وَعَانَقْتُ مِنْهَا كَثِيباً مَهِيلاً وَغَضَّنَا رَطِيباً وَبَدراً أَنَاراً
وَأَبْصَرْتُ مِنْ نُورِهَا فِي الظَّلَامِ لِكُلِّ مَكَانٍ بِلَيْلٍ نَهَاراً
فَقَالَ: أَحْسَنْتَ! لَا يَقْضِي اللهُ فَاكْ، ثُمَّ قَالَ: أَجِزْ لِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدٌّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شِقْ طُولاَ قَطَعْتُهُ بِاتِّحَابِ
وَحَدِيثِ الْذِّمَنِ نَظَرِ الْوَا مَقْ بَدَلْتُهُ بِسُوءِ الْعِتَابِ
فَوَاللهُ لَقَدْ أَعْمَلْتُ فِكْرِي فَمَا قَدَرْتُ أَنْ أَجِزَهُمَا. [ويمكن أن يجازا بهذا البيت:
وَوَصَالٍ أَقْلٍ مِنْ لَمَحَةِ الْبَا رِقْ عَوَّضْتُ عَنْهُ طُولاَ اجْتِنَابِ]

[طول الليل]

لابن الرومي

وقال ابن الرومي في طول الليل: ^(٢)
رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الدَّهْرُ طُولاَ قَدْ تَنَاهَى فَلَيْسَ فِيهِ مَزِيدُ^(٣)
ذِي نَجُومٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومُ الشَّ يُبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ لَكِنْ تَزِيدُ^(٤)

لبشار

وهذا من أجود ما جاء في هذا المعنى، وقد قال بشار: ^(٥)
لِخَدَّيْكَ مِنْ كَفِّكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى أَنْ تَرَى وَجْهَ الصَّبَاحِ وَسَادُ^(٦)
تَبَيْتُ تُرَاعِي اللَّيْلَ تَرْجُو نَفَادَهُ وَلَيْسَ لِلَّيْلِ الْعَاشِقِينَ نَفَادُ^(٧)

(١) العقار: الخمر. الجلنار: زهر الرمان.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٣٠٢/٢.

(٣) في الديوان: «رب ليل تراه كالدهر طويلاً».

(٤) في الديوان: «ليست تغور».

(٥) بشار بن برد، الديوان: ٤٤/٤.

(٦) أي تبئت متوسداً كفيفاً من غير اضطجاع، حتى يطلع الصباح.

(٧) تراعي الليل: تشايحه بالنظر، وأصله من رَعَى الإبل. وترجو نفاذه: تمنى زواله أو انتهاءه. والخطاب في البيتين لنفسه على طريقة التجريد.

وقال: (١)

خَلِيلِي مَا بَالُ الدُّجَى لَا تَزْحَرْحُ وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّعُ (٢)
أَضَلَّ النَّهَارُ الْمُسْتَتِيرُ سَبِيلَهُ أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ
كَأَنَّ الدُّجَى زَادَتْ وَمَا زَادَتْ الدُّجَى وَلَكِنْ أَطَالَ اللَّيْلَ هَمٌّ مُبْرِحُ (٣)

وقال [أيضاً]: (٤)

طَالَ هَذَا اللَّيْلُ، بَلْ طَالَ الشَّهْرُ وَلَقَدْ أَعْرِفُ لَيْلِي بِالْقِصَرِ
لَمْ يَطُلْ حَتَّى جَفَانِي شَادِنٌ نَاعِمُ الْأَطْرَافِ فَكُنُ النَّظَرُ (٥)
لِي فِي لَيْلِي مِنْهُ لَوْعَةٌ مَلَكَتْ قَلْبِي وَسَمِعِي وَالْبَصَرُ (٦)
فَكَأَنَّ الْهَمَّ شَخْصٌ مَسَائِلُ كُلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَقَرَ (٧)

وقال أيضاً: (٨)

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُورَةٌ تَنْزَى حِذَارَ الْيُسْنِ إِنْ نَفَعَ الْحِذَارُ (٩)
يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ شَيْءٍ مَخَافَةٌ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ (١٠)

- (١) بشار بن برد، الديوان: ٩٦/٢. والأبيات من قصيدة قالها في النيب بمحبوبته «سعدى».
- (٢) الدجى: سواد الليل وظلمته. وضع الصبح: ظهر.
- (٣) يقول: لم يطل الليل حقيقة، ولكن همًّا شديد الوطأة على النفس أشعرنى بطوله.
- (٤) بشار بن برد، الديوان: ٥٩/٤.
- (٥) الشادن: الظلي إذا قوي وترعرع واستغنى عن أمه.
- (٦) في الديوان: «لي في قلبي منه لوعة». واللوعة: وجع القلب من المرض والحب والحزن، وقيل: هي حرقه الحزن والهوى والوجد.
- (٧) شخص مائل: قائم. وضمير «نفر» عائذ إلى النوم، وهو من قولهم: نفر الظبي إذا شرد.
- (٨) بشار بن برد، الديوان: ٢١٥/٣. والأبيات من قصيدة طويلة يقتخر فيها بمُضر وانتصارهم لخلفاء بني أمية، وذلك قبل قيام الخلافة العباسية.
- (٩) في الديوان: «كأن فؤاده ينزى حذاراً». وتنزى: تشب، وأصله تنزى. والحذار: التيقظ والاحتراز. والبين: الفراق.
- (١٠) في الديوان: «بكل أمر». يردعه: يفزعه. الرار: المحادثة السرية. وأصل قول بشار من قوله تعالى: ﴿وَيَحْشَبُونَ كُلَّ صَبَاحٍ عَلَيْهِمْ، هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ﴾. (سورة المنافقون، آية ٤٤).

[كَأَنَّ جُفُونَهُ سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَلَيْسَ لِنَوْمِهِ فِيهَا قَرَارٌ^(١)
أَقُولُ وَلَيْلَتِي تَزْدَادُ طُولًا: أَمَا لِلَّيْلِ بَعْدَهُمْ نَهَارٌ
جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جُفُونَهَا فِيهَا قِصَارٌ^(٢)
قِيلَ لِبَشَارٍ: مَنْ أَيْنَ سَرَقْتَ قَوْلَكَ:

يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ شَيْءٍ

فقال: مَنْ قَوْلِ أَشْعَثِ الطَّمْعِ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: مَا بَلَغَ مِنْ طَمَعِكَ؟ قَالَ: مَا رَأَيْتُ اثْنَيْنِ
يَتَسَارَّانِ إِلَّا ظَنَنْتَهُمَا يُرِيدَانِ أَنْ يَأْمُرَا لِي بِشَيْءٍ. وَأَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ فَقَالَ: ^(٣)

لَا يُبَيِّحَنَّ حُرْمَةَ الْكُتْمَانِ رَاحَةَ الْمُسْتَهَامِ فِي الْإِعْلَانِ^(٤)
قَدْ تَسَرَّعْتُ بِالسَّكُوتِ وَبِالْإِطْ رَاقِ جَهْدِي فَنَمَّتِ الْعَيْنَانِ^(٥)
تَرَكَتَنِي الْوُشَاةُ نُصَبَ الْمُشِيرِ مِنْ وَأَحْدُوثةً بِكُلِّ مَكَانٍ^(٦)
مَا نَرَى خَالِيَيْنِ فِي النَّاسِ إِلَّا قُلْتُ مَا يَخْلُوانِ إِلَّا لِشَانِي
وَمِثْلُ قَوْلِ بَشَارٍ:

جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ

الْبَيْت، قَوْلُ الْآخَرِ:

كَأَنَّ الْمُحِبَّ بِطُولِ الشَّهَادِ قَصِيرُ الْجَفُونِ وَلَمْ تَقْصُرِ
وَقَدْ تَنَاولَ هَذَا الْمَعْنَى الْعَتَابِيُّ [فَأَفْسَدَهُ وَقَالَ]:

وَفِي الْمَاقِي انْقِبَاضٌ عَنْ جُفُونِهِمَا وَفِي الْجَفُونِ عَنِ الْآمَاقِ تَقْصِيرُ

- (١) فِي الدِّيَوَانِ: «فَلَيْسَ لِنَوْمِهِ فِيهَا قَرَارٌ». وَسَمِلَ الْعَيْنَ: فَقَّأَهَا بِمِسْمَارٍ أَوْ حَدِيدٍ مَحْمَاةٍ. وَالْوَسْطَةُ: الْغَقْلَةُ، النَّعَاسُ، وَمِنْهُ امْرَأَةٌ وَسَنَانَةٌ: فَاتِرَةُ الطَّرْفِ. وَالْقَرَارُ: الْهَدْوُ وَالِاسْتَقْرَارُ.
- (٢) جَفَّتْ: بَعْدَتْ. التَّغْمِيزُ: إِطْبَاقُ الْجَفُونِ، النَّوْمُ.
- (٣) أَبُو نَوَاسٍ، الدِّيَوَانُ: ٢٤٦.
- (٤) فِي الدِّيَوَانِ: «لَا يُبَيِّحَنَّ».
- (٥) جَهْدِي: طَاقَتِي.
- (٦) نُصَبَ: أَمَامَ وَنَجَاهُ.

وقال المتنبي: (١)

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَّ عِنْدَ الْكَوَاكِبِ وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَّ لَحْظُ الْحَبَائِبِ (٢)
كَأَنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مُدْلِهَمَةٌ عَلَى مُقَلَّةٍ مِنْ فَقْدِكُمْ فِي غِيَابِي (٣)
بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْجَفُونِ كَأَنَّمَا عَقَدْتُمْ أَعَالِي كُلِّ هُذْبٍ بِحَاجِبِي (٤)

أيهما أوصف لطول الليل؟

وقال الشعبي: تشاجر الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابعة في طول الليل، أيهما أشعر؟ فقال الوليد: النابعة أشعر، وقال مسلمة: بل امرؤ القيس، فرضيا بالشعبي؟ فأحضراه، فأنشده الوليد: (٥)

كَلَيْنِي لِهَمٍّ يَا أُمِيمَةً نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ (٦)
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيٍ (٧)
وَصَدِيرُ أَرَاخِ اللَّيْلِ عَازِبٌ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)
وَأَنشده مسلمة قول امرئ القيس: (٩)
وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لَيْتَلِي (١٠)

- (١) المتنبي، الديوان: ٣٨٧/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي.
- (٢) الكواكب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهض ثديها. والحبايب: جمع حبيبة. ولحظهن: بمعنى رؤيتهن. يقول: رُدُّوهن عليّ حتى يترد صباحي ورقادي.
- (٣) في الديوان: «فإن نهاري». مدلهمة: شديدة السواد. والغياب: الظلمات.
- (٤) الهذّب: الشعر النابت على أشجار العين، والمراد بأعالي الهذّب، ما نبت منه على الجفن الأعلى.
- (٥) النابعة الذبياني، الديوان: ص ٩.
- (٦) كليني: دعيني. اتركيني. أميمة بالفتح، والأحسن بالضم، قال الخليل بن أحمد: من عادة العرب أن تتادي المؤنث بالترخيم، فلما لم يرخم هنا، بسبب الوزن، أجراها على لفظها مرخمة، وأتى بها بالفتح. ناصب: متعب، أو صاحب تعب، على النسب، والنصب: التعب.
- (٧) آيب: راجع، والقياس أن يقال: آتب، ولكنهم قد يخففون الهمزة بقلبها ياءً لأن الياء تجانس الكسرة. وأراد بالذي يرعى النجوم نفسه، وقيل: أراد به الصبح.
- (٨) أراح الهم: رده إليه. العازب: البعيد.
- (٩) امرؤ القيس، الديوان: ص ٤٨. والأبيات من قصيدته المعلقة.
- (١٠) الإرخاء: الستر وغيره. السدول: الستور، واحداً سَدَلٌ. والابتلاء: الاختبار. وقوله: «بأنواع الهموم» أي: بضروب الهموم.

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِجَوْرِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكُلِّكَلٍ^(١)
 أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبحٍ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ^(٢)
 فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شُدَّتْ يَسْذُبِلُ^(٣)
 فطرب الوليد طرباً، فقال الشعبي: بانث القضية.
 معنى قول النابغة:

وَصَدْرُ أَرَاخِ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ

أنه جعل صدره مأوى للهموم، وجعل الهموم كالنعم السارحة الغادية، تروح نهاراً ثم تأتي إلى مكانها ليلاً. وهو أول من استأثر هذا المعنى، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقييد الألفاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار، واشتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر، وأمرؤ القيس كره أن يقول: إن الهم يخف عليه في وقت من الأوقات فقال: وما الإصباح منك بأمثل.

للطرماح

وقال الطرماح بن حكيم الطائي:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الَّذِي طَالَ أَصْبَحُ يَوْمٌ، وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَرْوَحَ
 عَلَى أَنَّ لِلْعَيْنَيْنِ فِي الصُّبْحِ رَاحَةً لِيَطْرَحِيهِمَا طَرْفِيهِمَا كُلَّ مَطْرَحٍ

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فحش السرقة وإنما تنبه عليه من قول النابغة، إلا أن النابغة لوح، وهذا صرح.

لابن بسام

وقال ابن بسام:

- (١) في شرح المعلقات: «لما تمطى بصلبه» أي: لما تمدد بظهره، وتمطى الرجل: مَدَّ مطاه، أي ظهره. والصلب: الظهر، والجوز: الوسط. والأعجاز: الأواخر. والكلكل: الصدر.
- (٢) الانجلاء: الانكشاف، يقال: جلوته فانجلي، أي كشفته فانكشف. والأمثل: الأفضل. وفي شرح المعلقات: «وما الإصباح فيك».
- (٣) المغار: المحكم الفتل. يذبل: جبل بعينه. والأمراس: جمع مرس، وهو الحبل. وفي شرح المعلقات للزوزني: ص ٢٧: «كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جدل». الصم: جمع أصم: الصلب. والجدل: الصخرة.

لا أَظْلُمُ اللَّيْلَ ولا أَدْعِي أَنْ نَجُومَ اللَّيْلَ لَيْسَتْ تَغُورُ^(١)
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ، فَإِنْ لَمْ تَزُرْ طَالَ، وَإِنْ زَارَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ
وإنما أغار ابنُ بسام على قولِ علي بن الخليل فلم يغير إلا القافية:

لعلي بن الخليل

لا أَظْلُمُ اللَّيْلَ ولا أَدْعِي أَنْ نَجُومَ اللَّيْلَ لَيْسَتْ تَزُولُ
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ، قَصِيرٌ إِذَا جَاءَتْ، وَإِنْ ضَنْتَ فَلَيْلِي طَوِيلُ

وهذه السَّرْقَةُ كما قال البديعُ في التنبيه على أبي بكر الخوارزمي في بيت أخذ رويته وبعض لفظه: «وإن كانت قضية القطع تجب في الربع، فما أشد شفتي على جوارحه [أجمع]؛ ولعمري إن هذه ليست سرقة، وإنما هي مكابرة محضة، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، فحسبت أن ربيعة بن مكرم وعُتبية بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلان من البيت ما استحلّه، فإنهما كانا يأخذان جُلَّةً^(٢)، وهذا الفاضل قد أخذ كله، وقد أخذ علي بن الخليل من قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: ^(٣)

لا أَسْأَلُ اللَّهَ تَغْيِيراً لِمَا صَنَعْتُ نَامَتْ وَإِنْ أَسْهَرَتْ عَيْنِي عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقِدُهَا وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

وابن بسام في هذا [الشعر] كما قال الشاعر:

فَكَى يَقُولُ الشَّعْرَ إِلَّا أَنَّهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَسْرِقُ الْمَسْرُوقَا

ألفاظ لأهل العصر في طول الليل والسهر

وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غُصَصِ الصَّدْرِ، ونَقَمِ الدَّهْرِ. ليلة هموم وغموم، كما شاء الحسود، وساء

(١) تغور: تغرب.

(٢) جُلَّةٌ: معظمه.

(٣) هو أبو العباس، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الحادي عشر. كان منهمكاً في اللهو، وحين ولي الخلافة أمعن في التهلك والاستهتار، وترك أمر الدولة، فاء الناس ذلك منه، وأطمع به الطامحين إلى الخلافة فقتلوه سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م. له شعر جيد أكثره في الخمر. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٦٨٩/١).

الودود. ليلة قصّ جناحها، وضلّ صباحها. ليل ثابت الأطناب، طامي الغوارب، طامح الأمواج^(١)، وافى الذّوائب. ليال ليست لها أسحار، وظلمات لا تتخللها أنوار. بات بليلة نابغة^(٢)، يُراد قوله: (٣)

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا الشَّمُّ نَاقِعٌ^(٤)
[يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقُعُ]^(٥)

بات في الصيف بليلة شتوية. سامرته الهموم، وعانقته الغيوم، واكنحل الشهاد، واقتصر القتاد^(٦)، فاكحل بملئول السهر، وتململ على فراش الفكر. قد أفضّ مهاده، وقيلق وساده. هموم تفرق بين الجنب والمهاد، وتجمع بين العين والشهاد. طُرف برعي النجوم مطروف، وفراش بشعار الهمم محفوف. كأنه على التجوم رقيب، وللظلام نقيب.

ولهم فيما يتصل بضد ذلك من ذكر [إقبال] الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب

أقبلت عساكر الليل، وخفقت رايات الظلام. وقد أرخى الليل علينا سدوله، وسحب الظلام فينا ذبوله. توقد الشفق في ثوب الغسق. أقبلت وفود النجوم [وجاءت مواكب الكواكب. تفتحت أزاخير النجوم]، وتوردت حدائق الجو، وأدرك الفلك مصايحه. قد طفت النجوم في بحر الدجى، ولبس الظلام جلباباً من القار. ليلة كغراب الشباب، وحدق الحسان، وذوائب العذارى. ليلة كأنها في لباس بني العباس^(٧) ليلة كأنها في لباس

(١) في نسخة: «طاغي الأمواج».

(٢) نابغة: نسبة إلى النابغة الذبياني.

(٣) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٨٠. والبيتان من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه، ويهجو مرة بن ربيع بن قريع.

(٤) ساورتني: واثبنتي. ضيلة: أفعى دقيقة اللحم. الرقش: جمع رقشاء: التي فيها نقط بيض وسود. الناقع: القاتل، الثابت.

(٥) يُسهد: يمنع من النوم. ليل التمام: ليالي الشتاء الطوال. السليم: الملدوغ، تفاؤلاً له بالسلامة. ققاع: أصوات. وكان من عادتهم في الجاهلية أن يجعلوا الحلّي والخلائل في يد الملدوغ ويحركونها لثلاثين يوم فيدب السم فيه.

(٦) القتاد: الشوك.

(٧) كان بنو العباس قد اتخذوا السواد شعاراً في لباسهم، وفي راياتهم وبنودهم.

الشكالى. وكأنها من الغَبَس في مواكب الحَبَس. ليلة قد حلك إهابها، فكأن البحر بهاها.

ولهم في ذكر النوم والنعاس

شَرِبَ كَأْسَ النعاس، وانتشى من خَمَرِ الكرى^(١)؛ قد عَسَكَرَ الثُعَاسُ بِطَرَفِهِ، وخَيَّمَ بين عينيه. غرق في لُجَّةِ الكرى، ونمايل في سَكْرَةِ النوم. قد كحل الليلُ الورى بالرفاد، وشامت الأعين أجفانها في الأغماد.

وفي انتصاف الليل وتناهيه، وانتشار النور، وأقول النجوم

قد اكتمل الظلامُ. قد انتصفنا عُمَرَ الليل، واستغرقتنا شبابه. قد شاب رأسُ الليل، كاد ينمُ النسيمُ بالسَّحَر. قد انكشفَ غطاءُ الليل. انْهَتَكَ سَرُّ الدجى، وَشَمِطْتَ ذَوَائِيهِ، وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ وَنَهَضَ عُمُرُهُ. قَوَّضَتْ خِيَامُ الليل، وخلع الأفقُ ثوبَ الدجى. أَعْرَضَ الظلامُ وتولى، [وتدلى] عَنقودُ الثريا. طُرَّزَ قَمِيصُ الليل بغرَّةِ الصبح، وباح الصبحُ بِسِرِّهِ. خلع الليلُ ثيابه، وَحَدَرَ الصبحُ نِقَابَهُ. لاحَتِ تَبَاشِيرُ الصبح، وافترَّ الفَجْرُ عن نواجذه، وضرب النورُ في الدجى بعمود. بَثَّ الصبحُ طَلَائِعَهُ. تبرقعَ الليلُ بغرَّةِ الصبح. أطار بازِي الصبح غرابَ الليل، وعزلت نوافج الليل^(٢) بجاماتِ الكافور^(٣)، وانهزم جُنْدُ الظلام عن عَسْكَرِ النور. خلَعْنَا خِلْعَةَ الظلام، ولبسنا رداء الصبح، وملأ الآذان بَرْقِ الصبح، وسطع الضوء، وطلع النور، وأشرقت الدنيا، وأضاءت الآفاق. مالت الجَوَازُ للغروب، وولت مواكبُ الكواكب، وتناثرت عقودُ النجوم، وفَرَّتْ أسرابُ النجوم من حَدَقِ الأنام، وَهَى نِطاقُ الجوزاء، وانطفأ قنديل الثريا. قال بعضُ الأعراب: خرجنا في ليلة حِنْدِس^(٤) قد أَلْقَتْ على الأرض أكارِعَهَا^(٥)، فَمَحَتْ صورة الأبدان، فما كُنَّا نتعارف إلا بالآذان.

قال ابن محكان السعدي^(٦):

- (١) الكرى: النوم.
- (٢) النوافج: جمع تافجة: الريح الشديدة الهبوب، أو وعاء المك في جسم الظلي.
- (٣) جامات: جمع جام: إناء للشراب والطعام من فضة وغيرها.
- (٤) الحندس: الظلمة أو الليل الشديد الظلمة.
- (٥) الأكارع: جمع كراع، وهو من الإنسان ما دون الركبة إلى الكعب، ومن البقر والغنم: مستدق الساق العاري من اللحم.
- (٦) هو أبو الأضياف، مرة بن محكان، من سعد بن زيد مائة، من بطن يقال لهم بنو ربيع: شاعر =

وَلَيْلٌ يَقُولُ النَّاسُ فِي ظُلُمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْعَيُونِ وَعُورُهَا
كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ يَوْمَتَا حَصِينَةٍ مُسُوْحَا أَعَالِيهَا وَسَاجَا سُتُورُهَا^(١)
وهذا بارع جداً، أراد أن أعلاه أشدُّ ظلاماً من جوانبه.

وقال أعرابي في صفته: خرجت حين انحدرت النجوم، وشالت أرجلها، فما زلت
أصدع الليل حتى انصدع الفجر.

ومن بديع الشعر في صفة الليل قول الأعرابي:

والليل يطرده النهار ولا ترى كالليل يطرده النهار طريداً
فقراء مثل البيت مال رواقه هتك المقوض ستره الممدوداً^(٢)

ومن البديع:

على حين أتى القوم خيراً على الشرى وطارت بأخرى الليل أجنحة الفجر
آخر:

وليل ذي غياطل مُدْلَهْمٌ رَمِيَتْ بَنَجْمِهِ عَرْضَ الْأَفُولِ^(٣)
يَرُدُّ الطَّرْفَ مُنْقَبِضاً كَلِيلًا وَيَمْلَأُ هَوْلُهُ صَدْرَ الدَّلِيلِ

ابن المعتز:

هَامَتْ رَكَائِنَا إِلَيْكَ بِنَا بِظُلَيْلِ أَهْلِ النَّارِ وَالْمَنَحِ

= إسلامي مقل، من شعراء الدولة الأموية. عاصر الفرزدق وجريز، فأخملا ذكره لنباهتهما في
الشعر، وكان شريفاً خجولاً جواداً. حبسه مصعب بن الزبير، ثم أمر بقتله سنة ٧٠ هـ/ ٦٩٠ م.
(ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٥٧٦/٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٣٤٨/٢٢).

(١) المسوح: جمع مسح، وهو ثوب من شعر أسود يشبه ثوب الرهبان. والساج: خشب شجر ينبت
بالهند، ولونه أسود.

(٢) رواق البيت: مُقَدَّمُهُ.

(٣) الغياطل: جمع غيطلة: الظلمة المتراكمة، وغيطلة الليل: التجاج سواده. والغيطلة أيضاً: التباس

الظلام وتراكمه، والشجر الكثيف الملتف. قال الفرزدق في الغيطلة الظلمة: (ديوانه: ١١٨/٢).

يَبْكُ ابْنُ لَيْلَى كُلُّ سَارٍ لِنَائِلٍ عَلَى عَرْضِ لَيْلٍ مُدْلَهْمٍ الْغَيَاطِلِ
وقال امرؤ القيس في الغيطل والغيطلة بمعنى الشجر الملتف: (ديوانه: ص ١١١).

وظَلَّ يُرْنَحُ فِي غَيْطَلٍ كَمَا يَسْتَدِيرُ الْجَمَارُ الْقُورَ

فَكَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ دَائِبَةٌ يَفْخَصْنَ لَيْلَتَهُنَّ عَنْ صُبْحِ

وقال كشاجم:

سَقِيًّا لِلَّيْلِ قَصَرْتُ مُدَّتَهُ بِدِيرِ مَرَّانَ مَرَّ مَشْكُورَا
وَبَاتَ بَذْرُ الدُّجَى يُشْعِشِعُهَا ثُورِيَّةً تَمَلُّ الدُّجَى نُورَا^(١)
غَارَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَقَدْ سَفَرَتْ فَعَادَ جَيْبُ الْحَبَابِ مَزْرُورَا
حَتَّى رَأَيْتُ الظَّلَامَ يَدْرَجُهُ الـ غَرِبَ وَدَزَجَ الصَّبَاحُ مَشُورَا^(٢)
فَاخْتَلَطَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ كَمَا تَخْلِطُ كَفًّا مِسْكَاً وَكَافُورَا

وقال علي بن محمد الكوفي:

مَتَى أَرْتَجِي يَوْمًا شِفَاءً مِنَ الضَّنَا إِذَا كَانَ جَانِبِهِ عَلَيَّ طَيِّبِي
وَلِي عَائِدَاتٌ ضِيفْتُهُنَّ فَجِئْنَ فِي لِبَاسِ سَوَادٍ فِي الظَّلَامِ قَشِيبِ^(٣)
نُجُومٍ أُرَاعِي طَوْلَ لَيْلِي بُرُوجَهَا وَهِنَّ لِبُعْدِ السَّيْرِ ذَاتُ لُغُوبِ^(٤)
خَوَافِقُ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ كَأَنَّهَُا قُلُوبٌ مُعْنَاةٌ بِطَوْلٍ وَجِيبِ^(٥)
تَرَى حُوتَهَا فِي الشَّرْقِ ذَاتَ سَبَاحَةٍ وَعَقَرِبَهَا فِي الْغَرْبِ ذَاتَ دَيْبِ^(٦)
إِذَا مَا هَوَى الْإِكْلِيلُ مِنْهَا حَسِبْتُهُ تَهْدُلُ غُصْنٍ فِي الرِّيَاضِ رَطِيبِ
كَأَنَّ الَّتِي حَوْلَ الْمَجَرَّةِ أوردَتْ لَتَكْرَعُ فِي مَاءٍ هُنَاكَ صَبِيبِ
كَأَنَّ رَسُولَ الصُّبْحِ يَخْلُطُ فِي الدُّجَى شَجَاعَةً مِقْدَامِ بِجُبْنِ هَيُوبِ
كَأَنَّ اخْضِرَارَ الْبَحْرِ صَرَحَ مُمَرَّدٌ وَفِيهِ لَالٍ لَمْ تُثْنِ بِثُقُوبِ^(٧)
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صُبْحِهِ سَوَادُ شَبَابٍ فِي بَيَاضِ مَشِيبِ
كَأَنَّ نَذِيرَ الشَّمْسِ يَحْكِي بِشِرِّهِ عَلَيَّ بَنَ دَاوُدَ أَخِي وَنَسِيبِي

(١) يشعشعها: يمزجها، وأراد الخمر.

(٢) وفي نسخة: «ويرد الصباح منشورا».

(٣) القشيب: الجديد.

(٤) اللُّغُوبُ: التعب والإعياء.

(٥) الوجيب: خفقان القلب واضطرابه.

(٦) الحوت والعقرب والإكليل والمجرة: نجوم في السماء.

(٧) صرح: قصر عالٍ. مُمَرَّدٌ: مُطْوَلٌ، أي عالٍ. لَمْ تُثْنِ: لَمْ تُعَبِّ.

وَلَوْلَا اتَّقَائِي عَتَبُهُ قَلْتُ سِيدِي وَلَكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجَلِ ذَنْبِي
جَوَادٌ بِمَا تَحْوِي يَدَاهُ مُهَذَّبٌ أَدِيبٌ غَدَا خِلًا لِكُلِّ أَدِيبٍ
نَسِيبُ إِخَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ مَنَاسِبٍ قَرِيبٌ صَفَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبٍ
وَنَسَبُهُ مَا بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَحُشَّةٌ إِذَا لَمْ يُؤْتَسَّهَا انْتَسَابُ قُلُوبٍ

[أخو الصفاء قريب]

وهذا البيت كقول الطائي^(١):

وَقُلْتُ أَخِي قَالُوا أَخٌ مِنْ قَرَابَةٍ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الشُّكُولَ أَقَارِبُ^(٢)
[نَسِيبِي فِي رَأْيِي وَعَزْمِي وَمَذْهَبِي وَإِنْ بَاعَدْتُنَا فِي الْأَصُولِ الْمَنَاسِبُ]^(٣)

وقال عبد السلام بن رغبان^(٤)، وسلك طريق الطائي [فما ضلَّ عنها]:

أَخُ كُنْتُ أَبْكِيهِ دَمًا وَهُوَ حَاضِرٌ حِذَارًا، وَتَعَمَّى مُقْلَتِي وَهُوَ غَائِبٌ
بِكَاءِ أَخٍ لَمْ تَحْوِهِ بِقَرَابَةٍ بَلَى إِنَّ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ أَقَارِبُ
فَمَاتَ فَمَا شَوْقِي إِلَى الْأَجْرِ وَقَفْتُ وَلَا أَنَا فِي عُمْرِي إِلَى اللَّهِ رَاغِبُ
وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتَ نُورُهَا كَأَنَّكَ لِلدُّنْيَا أَخٌ وَمُنَاسِبُ
يُرَدُّ نِيرَانُ الْمَصَائِبِ أَنْسِي أَرَى زَمَنًا لَمْ يَتَّقَ فِيهِ مَصَائِبُ

وفي هذه القصيدة:

تَرَشَّفْتُ أَيَّامِي وَهَنْ كَوَالِحُ إِلَيْكَ، وَغَالَبْتُ الرَّدَى وَهُوَ غَالِبُ
وَدَافَعْتُ فِي كَيْدِ الزَّمَانِ وَنَحْرِهِ وَأَيُّ يَدٍ لِي وَالزَّمَانُ الْمُحَارِبُ؟
وَقُلْتُ لَهُ: خَلَّ ابْنُ أُمِّي لِعُضْبَةٍ وَهَانَا أَوْ فَازَدَدَ فَإِنَّا عَصَائِبُ
فَوَاللَّهِ إِخْلَاصًا مِنَ الْقَوْلِ صَادِقًا وَالْأَفْحُبِّي آلَ أَحْمَدَ كَاذِبُ

(١) أبو تمام، الديوان: ٢٨١/٢. والبيتان من قصيدة يرثي بها غالب بن السَّعْدِي.

(٢) الشُّكُولُ: جمع شَكْلٍ: المثلث المشابه. وفي الديوان: «قالوا أخ ذو قرابة» و«فقلت ولكن الشُّكُولَ».

(٣) في الديوان: «نسيبي في عزم ورأي ومذهب».

(٤) هو الشاعر المعروف بديك الجَنِّ الحمصي.

لَوْ أَنَّ يَدَيَّ كَانَتْ شِفَاءَكَ أَوْ دَمِي
دَمَ الْقَلْبِ حَتَّى يَقْضِبَ الْحَبْلَ قَاضِبٌ^(١)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الرِّضَا وَاتَّخَذْتُهَا
يَدًا لِلرَّدَى مَا حَاجَّ لِلَّهِ رَاكِبٌ
فَتَى كَانَ مِثْلَ السِّيفِ مِنْ حَيْثُ جِئْتُهُ
لِنَائِبَةِ نَابِتِكَ فَهَوَ مُضَارِبٌ
فَتَى هَمُّهُ حَمْدٌ عَلَى الدَّهْرِ رَائِحٌ
وَإِنْ نَابَ عَنْهُ مَالُهُ وَهُوَ عَازِبٌ^(٢)
شَمَائِلُ إِنْ تَشْهَدُ فَهَنْ مَشَاهِدُ
عِظَامٌ، وَإِنْ تَرْحَلْ فَهَنْ رَكَائِبُ
وَقَالَ الطَّائِي لِعَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ^(٣):

إِنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الْإِخَاءِ فَإِنَّا
نَغْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدٍ^(٤)
أَوْ يَقْتَرِقُ نَسَبٌ يُؤْلَفُ بَيْنَا
أَدَبٌ أَقْمَنَاهُ مُقَامَ السَّوَالِدِ
أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوِصَالِ فَمَاؤُنَا
عَذْبٌ تَحَلَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنِ حَمَادٍ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ، وَذَكَرَ دِعْبِلًا فَلَعَنَهُ، وَكَفَرَهُ، وَقَالَ: وَكَانَ يَطْعَنُ عَلَى أَبِي تَمَامٍ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ دِينًا وَشِعْرًا، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ كَانَ أَبُو تَمَامٍ أَخَاكَ مَا زِدْتَ عَلَى مَدْحِكَ لَهُ. فَقَالَ: إِلَّا يَكُنْ أَخَا نَسَبٍ فَهُوَ أَخُو آدَبٍ، أَمَا سَمِعْتَ مَا خَاطَبَنِي بِهِ؟ وَأَشْدُّ الْأَبْيَاتِ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ: إِذَا لَمْ يَكُنْ أَخِي صَدِيقِي لَمْ أَحْبِبْهُ، قَالَ: نَعَمْ صَدَقْتَ، الْأَخُ نَسِيبُ الْجِسْمِ، وَالصَّدِيقُ نَسِيبُ الرُّوحِ.

وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ يَخَاطَبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ^(٥):

- (١) يَقْضِبُ: يَقْطَعُ.
- (٢) عَازِبٌ: بَعِيدٌ.
- (٣) أَبُو تَمَامٍ، الدِّيَّانُ: ٢٢٥/١. وَالْأَبْيَاتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ الْقُرَشِيَّ الشَّاعِرَ وَقَدْ جَاءَ يُوَدِّعُهُ لِفِرَارِهِ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا.
- (٤) إِنْ يُكْدِ: إِنْ يَقْلُ خَيْرُهُ. الْمُطَّرَفُ: الْمُسْتَحْدَثُ. التَالِدُ: الْقَدِيمُ. أَي: إِنْ لَمْ يَشْمُرِ الْإِخَاءَ الْحَدِيثَ، فَإِنَّ إِخَاءَنَا قَدِيمٌ.
- (٥) أَبُو تَمَامٍ، الدِّيَّانُ: ٥٤/٢. وَالْأَبْيَاتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ، وَيُقَالُ: إِنْ الزِّيَّاتِ لَمَا قَرَأَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ اسْتَحْيَى مِنْ جَفَائِهِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مَدَحَ غَيْرَهُ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ، وَأَنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَعْطَاهُ وَأَغْنَاهُ.

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ الْجَهْلَ أَمَّهَا وَلَوْ، وَأُمُّ الْعِلْمِ جَدَّاءُ حَائِلٌ^(١)
 أَرَى الْحَشَوَ وَالْدهُمَّاءَ أَضْحَوْا كَانْتَهُم شُعُوبٌ تَلَاقَتْ دُونَنَا وَقَبَائِلٌ^(٢)
 عَدَوْا وَكَأَنَّ الْجَهْلَ يَجْمَعُهُمْ أَبَا وَحَظُّ ذَوِي الْآدَابِ فِيهِمْ نَوَافِلٌ^(٣)
 فَكُنْ هَضْبَةً نَأْوِي إِلَيْهَا وَحَرَّةً يُعَرِّدُ عَنْهَا الْأَعْوَجِي الْمُنَافِلُ^(٤)
 فَإِنْ الْفَتَى فِي كُلِّ حَالٍ مُنَاسِبٌ مُنَاسِبٌ رُوحَانِيَّةً مَنْ يُشَاكِلُ^(٥)

وقال البحرني لأبي القاسم بن خرداذبه^(٦):

إِنْ كُنْتُ مِنْ فَارِسٍ فِي بَيْتٍ سُودِدَهَا وَكُنْتُ مِنْ بُحْثَرِي الْبَيْتِ وَالنَّسَبِ^(٧)
 فَلَمْ يَضُرَّنَا نَسَائِي الْمُنْصِبِينَ وَقَدْ رُحْنَا نَسِيبِينَ فِي عِلْمٍ وَفِي أدَبٍ^(٨)
 إِذَا تَقَارَبَتِ الْآدَابُ وَالتَّأَمَّتْ دَنَتْ مَسَافَةٌ بَيْنَ الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ^(٩)

(١) جَدَّاءُ: صغيرة الثدي. الحائل: التي مضى عليها سنون لا تحمل فيها ولا تلد. يقول: إن الجهل يتناسل ويتشر، في حين أن العلم عقيم يتلاشى ويندثر.

(٢) الحشو: صغار الإبل، وأراد بها: صغار الناس. والدهماء: عامة الناس. دوننا: أي دون العلماء والأدباء. يقول: هم على اتصال وتعارف، على حين أهل العلم غرباء عنهم.

(٣) في الديوان:

عَدَاوًا وَكَأَنَّ الْجَهْلَ يَجْمَعُهُمْ بِهِ أَبٌ وَذَوُوا الْآدَابِ فِيهِمْ نَوَافِلُ
 نَوَافِلُ: مفردتها ناقلة، ويقال: بنو فلان ناقلة في بني فلان، أي ضلُّوا قومهم وانتقلوا إليهم. والناقلة في الأصل: شبه زيارة يلحق بالصميم ولا يحتاج إليه. والنوافل: جمع نافلة، وهي بمعنى نافلة. أي إن الجهال يجتمعون وكأنهم أخوة، أما الأدباء فأشبهه بالطفيليين.

(٤) الحرَّة: الأرض البركانية ذات الحجارة السوداء. يُعَرِّدُ: يهرب. الأعوجي: المنسوب إلى أعوج، وهو فرس من خيول العرب المشهورة. المناقل: السريع نقل القوائم. يقول: كن للأدباء موئلاً منيعاً لا تغير عليه خيول الحشو والدهماء.

(٥) في الديوان: «إِنْ الْفَتَى فِي كُلِّ ضَرْبٍ مُنَاسِبٌ». والضرب: النوع. يشاكل: يماثل.

(٦) البحرني، الديوان: ٢٢/٢.

(٧) في الديوان: «إِذَا كَانَ مِنْ فَارِسٍ» و«وَكُنْتُ مِنْ طِيٍّ فِي الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ».

(٨) في الديوان: «رُحْنَا نَسِيبِينَ فِي خُلُقٍ وَفِي أدَبٍ».

(٩) في الديوان: «إِذَا تَشَاكَلَتِ الْأَخْلَاقُ وَاقْتَرَبَتْ».

[وصف النجوم]

لابن هانيء الأندلسي

وقد احتدى طريقه أبو القاسم محمد بن هانيء، فقال يمدح جعفر بن علي، وذكر النجوم، فقال:

جَعَلْنَا حَاشِيَانَا ثِيَابَ مُدَامِنَا وَقَدَّتْ لَنَا الظُّلْمَاءُ مِنْ جِلْدِهَا لُحْفَا
فَمَنْ كَبِدٍ تُدْنِي إِلَى كَبِدِ هَوَى وَمِنْ شَفَةِ تُوحِي إِلَى شَفَةِ رَشْفَا
بِعَيْشِلِكُ نَبَهُ كَأَسَهُ وَجُفُونَهُ فَقَدِ نَبَهُ الْإِيرِيقُ مِنْ بَعْدِ مَا أَغْفَى
وَقَدْ فَكَّتِ الظُّلْمَاءُ بَعْضَ قِيُودِهَا وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلْفَجْرِ فَاصْطَفَا
وَوَلَّتْ نُجُومٌ لِلشَّرِيبَا كَأَنَّهَا خَوَاتِمُ تَبْدُو فِي بَنَانٍ يَدٍ تَخْفَى
وَمَرَّ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا كَصَاحِبِ رِذْءٍ أَكَمَّتْ خَيْلَهُ خُلْفَا^(١)
وَأَبْلَتِ الشَّعْرَى الْعَبُورُ مُلْبَةً بِمِرْزَمِهَا الْيَعُوبُ تَجْنِبُهُ طَرْفَا^(٢)
وَقَدْ بَادَرَتْهَا أَخْتُهَا مِنْ وَرَائِهَا لِتَخْرُقَ مِنْ ثِيَابِي مَجَرَّتَهَا سِجْفَا^(٣)
تَخَافُ زَيْرَ اللَّيْثِ يَقْدُمُ نَثْرَةً وَبَرَبِرَ فِي الظُّلْمَاءِ يُسِفُّهَا نَشْفَا
كَأَنَّ السَّمَائِكِينَ اللَّذِينَ تَظَاهَرَا عَلَى لِيذَتَيْهِ ضَامِنَانِ لَهُ الْحَقْفَا^(٤)
فَذَا رَامِحٌ يَهْوِي إِلَيْهِ سِنَانُهُ وَذَا أَعَزَلٌ قَدْ عَضَّ أُنْمَلَهُ لَهْفَا
كَأَنَّ رَقِيبَ النِّجْمِ أَجْدَلُ مَرْقَبٍ يَقْلَبُ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي رِيَشَةٍ طَرْفَا
كَأَنَّ سَهِيلًا فِي مَطَالِعِ أَفْقِهِ مُفَارِقُ الْفِ لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ الْفَا
كَأَنَّ بَنِي تَعَشٍ وَتَعَشَا مَطَافِلُ بِوَجْرَةٍ قَدْ أَضَلَّلْنَ فِي مَهْمِهِ خَشْفَا^(٥)
كَأَنَّ سُهَاهَا عَاشِقٌ يَنْ عُوْدٍ فَاوْنَةً يَيْدُو وَآوْنَةً يَخْفَى
كَأَنَّ مُعَلَّى قُطْبِهَا فَارِسٌ لَهُ لَوَاءَانِ مَرْكُوزَانِ قَدْ كَرِهَ الزَّحْفَا

(١) الدبران: منزل القمر.

(٢) الشعري العبور: نجم.

(٣) السجف: أحد السترين المقرونين، بينهما فرجة.

(٤) اللبدة: الشعر المتركب بين كفتي الأسد، وفي المثل: هو أمتع من لبدة الأسد.

(٥) الخشف: ولد الظبية أول ما يولد.

كَأَنَّ قُدَامِي النَّسْرِ وَالنَّسْرُ وَقَعَ قُضِضْنَ فَلَمْ تَسْمُ الْخَوَافِي بِهِ ضَعْفًا
كَأَنَّ أَخَاهُ حِينَ دَوَّمَ طَائِرًا أَتَى دُونَ نَصْفِ الْبَكْرِ فَاخْتَطَفَ التَّصْفَا
كَأَنَّ الْهَزِيعَ الْآبَنُوسِيَّ مَوْهِنَا سَرَى بِالنَّسِيجِ الْخُسْرُوَانِيَّ مُلْتَقًا^(١)
كَأَنَّ ظِلَامَ اللَّيْلِ إِذْ مَالَ مِيلَةً صَرِيعُ مُدَامٍ بَاتَ يَشْرِبُهَا صِرْفًا
كَأَنَّ عَمُودَ الْفَجْرِ خَاقَانُ عَسْكَرٍ مِنَ التَّرِكِ نَادَى بِالنَّجَاشِيِّ فَاسْتَخْفَى
كَأَنَّ لِسَاءَ الشَّمْسِ غُرَّةُ جَعْفَرٍ رَأَى الْقِرْنَ فَازْدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضِعْفًا^(٢)

لابن طباطبا العلوي

وقال ابن طباطبا [العلوي]^(٣):

كَأَنَّ اكْتِسَامَ الْمُشْتَرِي فِي سَحَابِهِ وَدِيعَةً سَرًّا فِي ضَمِيرٍ مُذِيعٍ
كَأَنَّ سَهْلًا وَالنَّجُومُ أَمَامَهُ يُعَارِضُهَا رَاغٍ وَرَاءَ قَطِيعٍ
وَقَدْ لَاحَتِ الشَّعْرَى الْعَبُورُ كَأَنَّهَا تَقْلُبُ طَرْفٍ بِالدَّمُوعِ هَمُوعٍ^(٤)
وَأَضْجَعَتِ الْجُوزَاءُ فِي أَفْقٍ غَرِبَهَا فَبَاتَتْ كَتَشْوَانٍ هُنَاكَ صَرِيعٍ
إِلَى أَنْ أَجَابَ اللَّيْلُ دَاعِي صُبْحِهِ وَكَانَ يُنَادِي مِنْهُ غَيْرَ سَمِيعٍ

وقال:

وَكَأَنَّ الْهَلَالَ لَمَّا تَبَدَّى شَطَرَ طَوْقِ الْمَرَاةِ ذِي التَّذْهِيبِ
أَوْ كَقَوْسٍ قَدْ انْحَنَتْ طَرْفَاهُ أَوْ كُنُونٍ فِي مُهَرَّقٍ مَكْتُوبٍ

لعلي بن محمد العلوي

وقال علي بن محمد العلوي يصف القمر، وقد طرح جرمه على دجلة:

- (١) الهزيع: الجزء من الليل. الموهن: نحو من منتصف الليل، أو بعد ساعة منه. والآبَنُوسِي: أراد الأسود.
- (٢) الْقِرْنَ: البطل المماثل في القتال.
- (٣) هو أبو الحسن، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العلوي، المعروف بابن طباطبا: شاعر، أديب، عالم. ولد بأصبهان وتوفي بها. من تصانيفه: كتاب «عيار الشعر». و«العروض». توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م. (المرزباني، معجم الشعراء: ٤٤٧).
- (٤) الْهَمُوعُ: مبالغة في الهامع، ويقال: دمع هموع: سيال، وقد همعت العين هَمْعًا وَهْمُوعًا: دمعت..

لَمْ أُنْسَ دِجْلَةَ وَالذُّجَى مُتَصَرِّمٌ وَالْبَلَدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ مُعَرَّبٌ
فَكَأَنَّهَا فِيهِ رِداءٌ أَرْقٌ وَكَأَنَّهُ فِيهَا طَرَاظٌ مُذْهَبٌ

لتميم بن المعز

وقال [الأمير] تميم بن المعز، وكان يحتذي مثل ابن المعتز، ويقف في التشبيهات بجانبه، ويفرغ فيها على قلبه، ويتبعه [في] سلوك ألفاظ الملوك:

اسْقِيَانِي فَلَسْتُ أَصْغِي لِعَذْلٍ لَيْسَ إِلَّا تَعَلَّةَ النَّفْسِ شُغْلِي
أَطِيعُ الْعَذُولَ فِي تَرْكِ مَا أَهْـ كَأَنِّي أَتَهَمْتُ رَأْيِي وَعَقْلِي
عَلَّلَانِي بِهَا فَقَدْ أَقْبَلَ اللَّيْلُ كَلَوْنِ الصَّدُودِ مِنْ بَعْدِ وَصْلِي
وَأَنْجَلَى الْغَيْمُ بَعْدَ مَا أَضْحَكَ الرَّؤُ ضَ بَكَاءِ السَّحَابِ جَادَ بِوَبْلِي^(١)
عَنْ هَلَالٍ كَصَوْلُجَانٍ نَضَارٍ فِي سَمَاءٍ كَأَنَّهَا جَامٌ ذَبْلِي^(٢)

وقال:

رُبَّ صَفْرَاءٍ عَلَّلَتْني بِصَفْرَا ءَ وَجُنَحِ الظَّلَامِ مُرْخَى الْإِزَارِ
بَيْنَ مَاءٍ وَرَوْضَةٍ وَكَرُومٍ وَرَوَابٍ مُنْفِةٍ وَصَحَارِ^(٣)
تَشْتَى بِهِ الْعُصُورُ عَلَيْنَا وَتُجِيبُ الْقِيَانُ فِيهَا الْقَمَارِي^(٤)
وَكَأَنَّ الذُّجَى غَدَائِرُ شَعْرِ وَكَأَنَّ النُّجُومَ فِيهَا مَدَارِي^(٥)
وَأَنْجَلَى الْغَيْمُ عَنْ هَلَالٍ تَبْدَى فِي يَدِ الْأَفْقِ مِثْلَ نِصْفِ سِوَارِ

وقال:

عَبَيْتُ فَاثْنَى عَلَيْهَا الْعِتَابُ وَدَعَا دَمْعَ مُقْلَتَيْهَا أَنْسِكَابُ

- (١) الويل: المطر الشديد القطر.
- (٢) الذَّبْلُ: جلد السلحفاة البرية أو البحرية، يتخذ منه السوار والأمشاط. والذابل: الرمح الدقيق، والذباله: الفتيلة التي تُسْرَج.
- (٣) الروابي: جمع رابية: ما ارتفع من الأرض.
- (٤) تشنى: تمايل، والقيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية. والقماري: جمع قمري، وهو ضرب من الحمام.
- (٥) المداري: جمع مدرى، وهي خشبة أو حديدة يمشط بها الشعر.

وَضَعْتُ نَحْوَ خَدِّهَا يَدَيَّهَا فَالتَّقَى الْيَاسَمِينَ وَالْعُنَابُ
رُبَّ مُبْدِي تَعْتَبٍ جَعَلَ الْعَدُوَّ رَبَّ رِيَاءٍ وَهَمَّهِ الْإِعْتَابُ
فَاسْقِنِيهَا مُدَامَةَ تَضْبُغِ الْكَأِ سَ كَمَا يَضْبُغُ الْخُدُودَ الشَّبَابُ
مَا تَرَى اللَّيْلَ كَيْفَ رَقَّ دُجَاهُ وَبَدَا طِيلَسَانُهُ يَنْجَابُ؟
وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ فِي الْأَفْقِ بَازٍ وَالذُّجَى بَيْنَ مِخْلَبَيْهِ غُرَابُ
وَكَأَنَّ السَّمَاءَ لُجَّةً بَحْرٍ وَكَأَنَّ النُّجُومَ فِيهَا حَبَابُ
وَكَأَنَّ الْجُوزَاءَ سَيْفٌ صَقِيلٌ وَكَأَنَّ السُّجَى عَلَيْهَا قِرَابُ^(١)

من وصف الشراب والكؤوس والسقاة في الليل

وقال:

وَزَنَجِيَّةُ الْأَبَاءِ كَرْنِجِيَّةُ الْجَلَبِ عَيْرِيَّةُ الْأَنْفَاسِ كَرْمِيَّةُ النَّسَبِ
كُمِيتَ بَزْلُنَا دَنْهَا فَتَفَجَّرَتْ بِأَحْمَرَ قَانَ مِثْلَ مَا قَطَرَ الذَّهَبُ^(٢)
فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا صَبَوْنَا كَأَنَّنَا شَرِبْنَا السُّرُورَ الْمَحْضَ وَاللَّهُوَ وَالطَّرَبُ
وَلَمْ نَأْتِ شَيْئاً يَسْخَطُ الْمَجْدَ فَعَلُهُ سَوَى أَنَّنَا بَعْنَا الْوَقَارَ مِنَ اللَّعِبِ
كَأَنَّ كُؤُوسَ الشَّرْبِ وَهِيَ دَوَائِرُ قَطَائِعِ مَاءٍ جَامِدٍ تَحْمِلُ اللَّهَبِ
يَمْدُ بِهَا كَفَا خُضِيصاً مُدِيرُهَا وَلَيْسَ بِشَيْءٍ غَيْرُهَا هُوَ مُخْتَضِبُ
فَبِتْنَا نُسْقَى الشَّمْسَ وَاللَّيْلَ رَاكِدُ وَنَقْرُبُ مِنْ بَلَرِ السَّمَاءِ وَمَا قَرُبُ
وَقَدْ حَبَّبَ الْغَيْمُ الْهَلَالَ كَأَنَّهُ سِتَارَةُ شَرْبٍ خَلْفَهَا وَجْهُ مِنْ أَحَبِ
[كَأَنَّ الشَّرِيَّاتِ تَحْتَ حُلْكَةِ لَوْنِهَا مَدَاهِنُ بَلُورٍ عَلَى الْأَرْضِ تَضْطَرِبُ]

وقال:

كَأَنَّ السَّحَابَ الْغَرَّ أَصْبَحْنَ أَكُؤُوسَا لَنَا، وَكَأَنَّ الرَّاحَ فِيهَا سَنَا الْبَرَقِ
إِلَى أَنْ رَأَيْتُ النُّجْمَ وَهُوَ مُغْرَبٌ وَأَقْبَلَ رَايَاتُ الصَّبَاحِ مِنَ الشَّرْقِ
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَالصَّبْحُ طَالِعُ بَقَايَا مَجَالِ الْكُحْلِ فِي الْأَعْيُنِ الزُّرْقِ

(١) القِرَابُ: غمد السيف.

(٢) يَزْلُ الشَّيْءُ بَزْلاً: شَقَّه، وَيَزْلُ الشَّرَابُ: شَقَّ إِنَاءَهُ لِيَسِيلَ.

وقال:

وَكَأْسٌ يُعِيدُ الْعُسْرَ يُسْرًا، وَيَجَنِّي
يَوْلَدُ فِيهَا الْمَرْجُ دُرًّا مُنْضَدًّا
صِغَارٌ وَكُبْرَى فِي الْكُؤُوسِ كَأَنَّهَا
إِذَا حَثَّهَا السَّاقِي الْأَغْرَحَ حَبِثَهَا
صَبَحْتُ بِهَا صَحْبِي وَقَدْ رَنَدَجَ الدُّجَى
وَقَدْ أَزْهَرَتْ بِيضُ النُّجُومِ كَأَنَّهَا

وقال:

أَلَا فَاسْتَقْبَانِي فَهَوَّةٌ ذَهِيَّةٌ
كَأَنَّ الثَّرِيَّا وَالظَّلَامُ يَحُفُّهَا
كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ تَحْتَ سَوَادِهِ

وقال:

أَيَا دَيْرٍ مَرَحْنَا سَقَتَكَ رُعُودُ
فَكَمْ وَاصِلَتْنَا فِي رَبَّاكَ أَوَانِسُ
[وَكَمْ نَابَ عَنْ نُورِ الضَّحَى فِيكَ مَبْسَمُ
وَمَا سَتَ عَلَى الْكُتْبَانِ قُضْبَانُ فِضَّةٍ
وَإِذَا لِمَتْنِي لَمْ يُوقِظْ الشَّيْبُ لَيْلَهَا
لِيَالِي أَغْدُو بَيْنَ ثَوْبِي صَبَابَةٍ
مِنَ الْغَيْمِ يَهْمِي مُزْنُهَا وَيَجُودُ
يَطْفُنَ عَلَيْنَا بِالْمُدَامَةِ غَيْدُ^(١)
وَنَابَتْ عَنِ السُّورِ الْجَنِيِّ خُدُودُ^(٢)
فَأَثَقَلَهَا مِنْ حَمَلِهَا نُهُودُ^(٣)
وَإِذَا أَثَرِي فِي الْغَانِيَاتِ حَمِيدُ^(٤)
وَلَهُوٍ، وَأَيَّامُ الزَّمَانِ هُجُودُ^(٥)

(١) القطر: المطر. وفي نسخة: «نقطة القطر».

(٢) رندج: سَوْد، من اليرندج، وهو ما يُسَوَّد به الخف.

(٣) السيج: خرز أسود.

(٤) أوانس: جمع آنة، وهي الفتاة التي يؤنس بها أو بحديثها. غيد: جمع غداء، وهي الشابة الجميلة الناعمة.

(٥) ماس فلان ميساً وميساناً: تبخر واختال. الكتبان: جمع كتيب، وهو الرمل المستطيل المحدودب.

(٦) اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن، الجمع لِمَمٌ وَلِمَامٌ.

(٧) هُجُودٌ: نيام.

وقال :

سَأَلْتُهُ قُبْلَةً مِنْهُ عَلَى عَجَلٍ فَأَحْمَرَّ مِنْ خَجَلٍ وَاصْفَرَّ مِنْ وَجَلٍ^(١)
وَأَعْتَلَّ مَا بَيْنَ إِسْعَافٍ يُرَقِّقُهُ وَبَيْنَ مَنَعٍ تَمَادَى فِيهِ بِالْعِلَلِ^(٢)
وَقَالَ : وَجْهِي بَذْرٌ لَا خِفَاءَ بِهِ وَمُبْصِرُ الْبَذْرِ لَا يَدْعُوهُ لِلْقَبْلِ

وهذا ينظر إلى قوله :

أَبْسَاحٌ لِمُقْلَتِي السَّهَرَا وَجَارٌ عَلَيَّ وَأَقْتَسَدَرَا
غَزَالٌ لَوْ جَرَى نَفْسِي عَلَيْهِ لَذَابٌ وَأَنْفَطَرَا^(٣)
وَلَكِنْ عَيْنُهُ حَشَدَتْ عَلَيَّ الْغُنْجُ وَالْحَوْرَا
وَمَنْ أُوْدَى بِهِ قَمَرٌ فَكَيْفَ يُعَاتَبُ الْقَمَرَا^(٤)

كانه ذهب إلى قول أبي نُوَاس^(٥) :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَدَ عَنْ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرَا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا
بِعَيْنٍ خَالِطَ التَّقِي رُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهِ سَابِرِي لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قَطَرَا^(٦)

قيل للجاحظ : مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ وَأَشْعَرُهُمْ؟ قال : الذي يقول : وأنشد هذه الأبيات .

ونظير قوله :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَدَ عَنْ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرَا

قول الحكم بن قَنْبَر المازني :

وَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النَّوْمَ فَاْمَتَّنَا وَزَادَ قَلْبِي إِلَى أَوْجَاعِهِ وَجَعَا

(١) الْوَجَلُ : الخوف والفرع .

(٢) أَسْعَفُ فُلَانٌ : دنا وقرب ، وأسعف فلاناً : واتاه وقرب منه في مصافاة ومعاونة .

(٣) انْفَطَرَ الشَّيْءُ : انشَقَّ .

(٤) أُوْدَى بِهِ : أهلكه .

(٥) الأبيات في العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق : ١٢١/٢ ، ولم نجد لها في ديوانه .

(٦) السابري : أصله الثوب الرقيق الجيد ، شبه به الوجه في ملاسته ونعومته .

وقال تميم:

نَقَبْتُ وَجْهَهَا بِخَرٍّ وَجَاءَتْ بِمُدَامٍ مُقَبِّ بِزُجَاجٍ
فَسَأَمْتُ فِي النِّقَاسَيْنِ مِنْهَا قَمَرًا طَالِعًا وَضَوْءَ سِرَاجٍ
فَاسْقِيَانِي بِلَا مِزَاجٍ فَإِنِّي فِي الْمَعَالِي صِرْفٌ بَغِيرِ مِزَاجٍ
وَانْظُرَا الْأَفْقَ كَيْفَ بَذَلُهُ الْإِصْبَ جَاحٌ مِنْ بَعْدِ أَبْنُوسٍ بِعَاجٍ^(١)

وقال:

إِذَا حَزِنْتَ زَمَانًا لَا تُسَرُّ بِهِ كَمْ قَدْ أَتَى سَهْلٌ دَهْرٌ بَعْدَ أَضْعَبِهِ
فَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَعْطَاكَ مُخْتَلَطًا لَعَلَّ مُرَّكَ يَحْلُو فِي تَقْلِبِهِ
خُذْهَا إِلَيْكَ، وَدَعْ لَوْمِي، مُشْعَشَعَةً مِنْ كَفِّ أَقْنَى أُسَيْلِ الْخَدِّ مُذْهِبِهِ^(٢)
فِي كُلِّ مَقْعِدٍ حُسْنٍ فِيهِ مُعْتَرِضٌ عَلَيْهِ يَحْمِيهِ مَنْ أَنْ تَسْبُدَ بِهِ
فَكُحْلٌ عَيْنِيهِ مَمْنُوعٌ بِخَنْجَرِهِ وَوَرْدٌ خَدَيْهِ مَحْمِيٌّ بِعَقْرَبِهِ
لَا تُسَرِّكُ الْقَدَحَ الْمَلَانَ فِي يَدِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ تَلْهُبِهِ
فَصُنْهُ عَنْ سَقِينَا؛ إِنِّي أَعَارُ بِهِ وَسَقَمَهُ وَاسْقِنِي مِنْ فَضْلِ مَشْرَبِهِ
وَانْظُرْ إِلَى اللَّيْلِ كَالزَّنَجِيِّ مُنْهَزِمًا وَالصَّبْحُ فِي إِثَرِهِ يَعْدُو بِأَشْهَبِهِ
وَالْبَدْرُ مُتَصِيبٌ مَا بَيْنَ أَنْجُمِهِ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مَا يَبْنِ مَوْكِبِهِ

من المختار من شعر تميم بن المعز

وإذا أفضيت إلى ذكره، فهناك من مختار شعره، [قال]:

مُسْتَقْبَلٌ بِالَّذِي يَهْوَى وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَقْبُولٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ مِنَ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثَمَا شَفَعَا
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ مِنْ أَثَوَابِهِ بَرَزَتْ حَسَنًا، أَوْ الْبَدْرُ مِنْ أَرْزَارِهِ طَلَعَا

استعارة [مأخوذة] من قول الآخر، وهو ابن زريق^(٣):

- (١) أراد بالآبنوس: السواد والظلمة، وبالعاج: البياض والنور.
(٢) الأفق: وصف من القنا، وهو ارتفاع قصبه الأنف. وَخَدُّ أُسَيْلٍ: مستطيل في رقة ونعومة.
(٣) هو أبو علي الحسن بن زريق الكوفي: شاعر، كاتب، عاش في الكرخ (الجانب الغربي من بغداد).
ويبدو أن حاله في بغداد رَقَّتْ، فرحل إلى الأندلس متكياً بشعره، فأخفق. ويقال: إنه مات هناك =

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا
ومن قول أحمد بن يحيى الفران:

بَسَدًا فَكَأَنَّمَا قَمَرٌ
يَحُثُّ الْمِسْكَ مِنْ عَرَقِ الدَّ
وقال أبو ذر أستاذ سيف الدولة:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِمَنْ عَصَبْتُ عَوَازِلِي
الْشَّمْسُ تَظْهَرُ فِي أَسْرَةٍ وَجْهِي
وقال نعيم:

أَعَذَلُ قَلْبِي وَهُوَ لِي غَيْرُ عَاذِلٍ
وَمَنْ لِي بِصَبْرٍ أَسْتَزِيلُ بِهِ الْجَوَى
فَأَوَّلُ شَوْقِي كَانَ آخِرَ سَلَوَتِي
وقال:

وَرَدَ الْخُدُودِ أَرْقُ مِنْ
هَذَا تَشَفُّهُ الْأَنْوِ
وَإِذَا عَدَلْتُ فَأَفْضَلُ الدَّ
لَا وَرَدَ إِلَّا مَا نَسَوْتُ
هَذَا يُشْمُ وَلَا يُضَمُّ
سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخُدُودَ
وَرَدَ الرِّيَاضِ وَأَنْعَمُ
فُ وَذَا يُقْبَلُهُ الْفَقْمُ
وَرَدَيْنِ وَرَدَ يُلْثَمُ
لِي صَبَغَ حُمْرَتِهِ السَّدَمُ
وَذَا يُضَمُّ وَيُشْمُ (٢)
دَشَقَاتُكَ تَنْسَقُ

= كمدًا، في خان كان ينزل فيه نحو ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٩٠/٣).
(١) البيت من قصيدة طويلة (أربعون بيتًا) اهتم بها الأدباء اهتمامًا كبيرًا، عارضها أحمد بن جعفر الواسطي، وأبو بكر العيدي (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، وخشها أحمد بن ناصر الباعوني (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، وشرحها علي بن عبد الله العطوي (ت ١١١٩هـ/ ١٧٠١م) وولي الدين يكن (ت ١٩٢٠هـ/ ١٣٣٨م).

(٢) القَبَاءُ: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص، وَيَتَمَنَّقُ به.

(٣) يُشْمُ: أصلها يُشْمُ، لكنه فكَّ الإدغام لإقامة الوزن.

وأَعَارَهَا الْأَصْدَاغَ فَهْوَ
وَأَسْتَظَنُّ الْأَجْفَانِ فَهِيَ
وَتَيَّيْنُ لِلْمَحْبُوبِ عَنِّي
وَتَشِيرُ إِن رَأَتْ السَّرِيبَ
وَأَعَارَهَا مَرَضاً تَصْحُّ بِهِ
فَتَنُّ الْعُيُونِ أَجَلٌ مِنْ
وَقَالَ:

إِن كَانَتِ الْأَلْحَاظُ رُسُلَ الْقُلُوبِ
قَبَلْتُ مَنْ أَهْوَى بَعِينِي وَلَمْ
لَكُنْهُ قَدْ فَطَنْتُ عَيْنَهُ
إِن كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ مُسْتَحْفِياً
وَقَالَ:

قَالُوا الرِّحِيلُ لِخَمْسَةِ
فَأَجَبْتُهُمْ إِنِّي أَخَذْتُ
سَبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْأَسَى
وَأَعَارَ لِلْأَجْفَانِ حُنداً
وَقَالَ:

عَقَرْتُ الصُّدُغَ فَوْقَ تَفَاحَةِ الْخَدِّ
وَسَيْوْفُ اللَّحَاطِ فِي كُلِّ حِينٍ
وَعُيُونُ الْوَشَاةِ يُقْسِمُنَ بِالرَّقْدِ
فَمَتَى يَشْتَقِي الْمُحِبُّ وَتُظْفَى

نَعِيمٌ مُطَرَّرٌ بِعَذَابٍ
مَانَعَاتُ جَنَى الثَّيَابِ الْعَذَابِ^(١)
جِسْمٍ وَالْمَنْعِ رُؤْيَا الْأَحْبَابِ^(٢)
بِالسَّادَةِ حَرَارَةُ الْإِكْتَابِ

(١) الأسى: الحزن الشديد.

(٢) تستعبد.

(٣) جنى الثياب: أراد به الريق. والثياب: جمع ثنية، وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثتان من فوق وثنان من تحت.

(٤) الرقبة: المراقبة.

وقال:

تَرَى عِذَارِيَّهَ قَدْ قَامَا بِمَعْدِرَتِي عِنْدَ الْعَذُولِ فَيَعْدُو وَهُوَ يَغْدِرُنِي ^(١)
رِيمٌ كَأَنَّ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ عَقْدًا مِنَ الْحُسْنِ أَوْ نَوْعًا مِنَ الْفِتَنِ ^(٢)
كَأَنَّ جَوْهَرَهُ مِنْ لُطْفِهِ عَرَضٌ فَلَيْسَ تَحْوِيهِ إِلَّا أَعْيُنُ الْفَطَنِ
وَاللَّهِ مَا فَتَنْتُ عَيْنِي مَحَاسِنُهُ إِلَّا وَقَدْ سَحَرَتْ أَلْفَاظُهُ أَذْنِي
مَا تَصُدَّرُ الْعَيْنُ عَنْهُ لَحْظَهَا مَلَأَ لِأَنَّهُ كُلَّ شَخْصٍ مُرْتَضًى حَسَنِ
يَا مُشْتَهَى أَمَلِي لَا تُدْنِ لِي أَجْلِي وَلَا تُعَذِّبْ ظَنُونِي فِيكَ بِالظَّنَنِ
إِنْ كَانَ وَجْهَكَ وَجْهًا صَيَغَ مِنْ قَمَرٍ فَإِنَّ قَدَّكَ قَدْ قَدْ مِنْ غُصَنِ ^(٣)

وقال:

أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ عَرَّجَ مُسَلِّمًا عَلَى ذَلِكَ الشَّخْصِ الْبَعِيدِ الْمُودِعِ
وَهُبَّ عَلَى مَنْ شَفَّ جِسْمِي بَعَادُهُ سَمُومًا بِمَا اسْتَمَلَيْتَ مِنْ نَارِ أَضْلُعِي ^(٤)
فَإِنْ قَالَ: مَا هَذَا الْحَرُورُ؟ فَقُلْ لَهُ: تَنْفُسُ مُشْتَقٍ بِحُبِّكَ مُوجِعِ ^(٥)

ومختار شعره كثير، وقد تفرَّق منه قطعةٌ كافيةٌ في أعراض الكتاب.

[عَوْدٌ إِلَى وَصْفِ النُّجُومِ] رَجَعَ مَا انْقَطَعَ

لِلصَّاحِبِ بْنِ عِبَادٍ

قال الصَّاحِبُ أَبُو الْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِبَادٍ:

لَقَدْ رَحَلْتَ سَعْدِي فَهَلْ لَكَ مُسْعِدٌ؟ وَقَدْ أَنْجَدْتَ دَارًا فَهَلْ أَنْتَ مُنْجِدٌ؟ ^(٦)

- (١) العذار: جانب اللحية، ومنه: خلع فلان عذاره: انهلك في الغي ولم يَسْخَ.
- (٢) الريم: الرثم: الطيبي الخالص البياض، أو ولد الطيبي، الجمع أَرَامَ وأَرَامَ، وهي رثمة. وتشبه به الحسناء من النساء.
- (٣) قَدْ: شَقٌّ، وقد قَدَّ القلم أو الثوب ونحوهما قَدًّا: شَقَّ طَوْلًا.
- (٤) السُّمُوم: الريح الحارة، أو الحر الشديد النافذ في الصَّامِ، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ (سورة الواقعة، آية ٤٢).
- (٥) الحرور: حرُّ الشمس، والحر الدائم، والنار، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (سورة فاطر، آية ٢١).
- (٦) أنجد: ارتفع، أو أتى نَجْدًا، والنَّجْدُ: ما ارتفع من الأرض وصلب. ونَجْدُ: قسم من الجزيرة =

رَعِبْتُ بِطَرْفِي النَّجْمَ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَبَاعَدَ بَعْدَ النَّجْمِ بَلْ هِيَ أَبْعَدُ
 تُبِيرُ الثَّرِيَّا وَهِيَ قُرْطٌ مُسْلَسَلٌ وَيَشْغُلُ مِنْهَا الطَّرْفَ دُرٌّ مَبْدُدٌ^(١)
 وَتَعْتَرِضُ الْجُوزَاءَ وَهِيَ كَكَاعِبٍ تَمِيلُ مِنْ سُكْرِ بِهَا وَتَمِيدُ^(٢)
 وَتَحْسِبُهَا طَوْرًا أَسِيرَ جِنَايَةِ تَرَشَّحَ بَعْدَ الْمَشْيِ وَهُوَ مُقَيَّدُ
 وَلَا حَ سُهَيْلٌ وَهُوَ لِلصُّبْحِ رَاقِبٌ كَمَا سُلَّ مِنْ غَمْدٍ جُرَازٌ مُهْتَدٌ^(٣)
 أَرَدُّ طَرْفِي فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا دَنَابِيرُ لَكِنَّ السَّمَاءَ زَبَرَجَدُ
 رَأَيْتُ بِهَا، وَالصُّبْحُ مَا حَانَ وَزُدُّهُ، فَنَادِيلَ وَالْخَضِرَاءُ صَرَّحٌ مُمَرَّدٌ^(٤)
 وَفِيهِ لَنَا مِنْ مَرَبِطِ الشَّمْسِ أَشَقَرُّ إِذَا مَا جَرَى فَالْرِيحُ تَكْبُو وَتَرْكُدُ

لأبي علي الحاتمي

وقال أبو علي الحاتمي:

وَلَيْلٍ أَقْمَنَا فِيهِ نُعْمِلُ كَأَنَّنا إِلَى أَنْ بَدَأَ لِلصُّبْحِ فِي اللَّيْلِ عَسْكَرُ
 وَنَجْمُ الثَّرِيَّا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ عَلَى حُلَّةٍ زَرْقَاءَ جَيْبٌ مُدَثَّرُ

للبحثري

البحثري: (٥)

وَلَقَدْ سَرَّيْتُ مَعَ الْكَوَاكِبِ رَاكِبًا أَعْجَازُهَا بِعَزِيمَةٍ كَالْكَوْكَبِ^(٦)
 وَاللَّيْلُ فِي لَوْنِ الْغُرَابِ كَأَنَّهُ هُوَ فِي حُلُوكَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْعَبِ^(٧)
 وَالْعَيْسُ تَنْصَلُّ مِنْ دُجَاهٍ كَمَا انْجَلَى صَبِغُ الْخِضَابِ عَنِ الْقَدَالِ الْأَشْبَبِ^(٨)

- = العربية، بين الحجاز والعراق، أكثر شعراء العربية القول في طيب هوائه، وحسن نباته.
- (١) في نسخة: «ويطرف عنها الطرف در مبدد».
- (٢) ماد الشيء مبدأ، وميداناً: تحرك واضطرب، وماد الغصن: تمايل، وماد فلان: تشق وتبخر.
- (٣) الجراز: السيف القاطع، والمهند: المصنوع في الهند.
- (٤) الخضراء: السماء. والصرح الممرد: القصر الرفيع.
- (٥) البحثري، الديوان: ٢٢٩/٢. والأبيات من قصيدة يمدح بها مالك بن طوف.
- (٦) في الديوان: «ولقد أبيت».
- (٧) حلك حلكاً، وحلكة: اشد سواده. ونعب الغراب نعباً، ونعباً، ونعباً: صاح وصوت.
- (٨) تنصل: نخرج، ونصل اللون نصلاً ونصلاً: زال، ويقال: نصل الخضاب، ونصل الشعر أو =

حَتَّى تَبْدَى الْفَجْرُ مِنْ جَنَبَاتِهِ كَالْمَاءِ يَلْمَعُ مِنْ خِلَالِ الطُّحْلِبِ^(١)

للميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

أَهْلًا بِفَجْرِ قَدْ نَضَى ثَوْبَ الدُّجَى كَالسِّيفِ جُرَّدَ مِنْ سَوَادِ قِرَابٍ^(٢)
أَوْ غَادَةٍ شَقَّتْ صِدَارًا أَزْرَقًا مَا بَيْنَ ثَغْرِهَا إِلَى الْأَثَرِ^(٣)

لرجل من بني الحارث بن كعب

وقال رجلٌ من بني الحارث بن كعب يصف الشمس:

مُخْبِأَةٌ أَمَّا إِذَا اللَّيْلُ جَهَّهَا فَتَخَفَى وَأَمَّا بِالنَّهَارِ فَتَظْهَرُ^(٤)
إِذَا انْشَقَّ عَنْهَا سَاطِعُ الْفَجْرِ وَانْجَلَى دُجَى اللَّيْلِ وَانْجَابَ الْحِجَابُ الْمُسْتَرْ^(٥)
وَأَلْبَسَ عَرْضَ الْأَرْضِ لَوْنًا كَأَنَّهُ عَلَى الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ ثَوْبٌ مُعْصَفَرُ
تَجَلَّتْ فِيهَا حِينَ يَبْدُو شِعَاعُهَا وَلَمْ يَعْلُ لِلْعَيْنِ الْقَصِيرَةِ مَنَظَرُ
عَلَيْهَا كَرْدَعُ الزَّعْفَرَانِ يَشْبُهُ شِعَاعٌ تَلَالًا فَهُوَ أَيْضُ أَصْفَرُ^(٦)
فَلَمَّا عَلَتْ وَأَبْيَضَ مِنْهَا أَصْفَرَارُهَا وَجَالَتْ كَمَا جَالَ الْمَنِيعُ الْمُشَهَّرُ^(٧)
وَجَلَلَتْ الْآفَاقَ ضَوْءًا يُبِيرُهَا بِحَرَ لَهَا وَجْهَ الضُّحَى تَسْعَرُ^(٨)
تَرَى الظِّلَ يُطَوِّى حِينَ تَبْدُو وَتَارَةً تَرَاهُ إِذَا زَالَتْ عَنِ الْأَرْضِ يُنْشَرُ

= الثوب: زال عنه خضابه أو لونه. والقدال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا.

(١) في الديوان: «حتى تجلّى». والطحلب: خضرة تعلو الماء الآسن.

(٢) قراب السيف: غمده.

(٣) الثغرة: نفرة النحر. الأثراب: أراد الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين، موضع القلادة.

(٤) جنّها: سترها.

(٥) انجاب الظلام: انقشع وزال، وانجاب السحاب: انكشف.

(٦) في نسخة: «كردع الزعفران».

(٧) جال النطاق ونحوه: تحرك واضطرب لسعته، وجال التراب: ارتفع، وجال في الأرض: طاف

غير مستقرّ فيها. المنيح: أحد ثلاثة أقداح من أقداح المير لا نصيب لواحد منها، والآخران: السفيح والوغد.

(٨) وجه الضحى: أوله، وانتصابه على الظرفية.

كما بدأت إذ أشرقَتْ في مَعيها تعودُ كما عادَ الكبيرُ المُعمرُ
وَنَدَنَفُ حتى ما يكادُ شعاعُها يبينُ إذا وَلَّتْ لِمَنْ يَبْصُرُ^(١)
فَأَفْنَتْ قُرُوناً وَهِيَ في ذاكَ لَمْ تَزَلْ تَمُوتُ وَتَحْيَا كُلَّ يَوْمٍ وَتُشْرُ^(٢)

[أجمل ما قال العرب]

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده:

مَنَعَ البقاءَ تَقَلُّبُ الشمسِ وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُشِى
وَطُلُوعُهَا بَيضاءَ صافيةً وَغُيُوبُهَا صَفراءَ كالوَرَسِ^(٣)
تَجْرِي على كِبِدِ السماءِ كما يَجْرِي حِمَامُ المَوْتِ في النَّفْسِ
اليومَ تَعْلَمُ ما يجيءُ بِهِ وَمَضَى بِفَضْلِ قَضَائِهِ أَمْسٍ

قال: أحسنت، فأخبرني بأمدح بيتٍ قالتُهُ العرب في الشجاعة، قال: قول كعب بن مالك الأنصاري:

نَصِلُ السِّوْفَ إِذَا قُضِرْنَ بِحَظُونَا قُدُماً، وَنَلْحَقُهَا إِذَا لَمْ تُلْحَقِ

قال: فأخبرني بأفضل بيتٍ قيل في الجود، فأنشده لحاتم طي:

أماويُّ ما يُغْنِي الثراءَ عن الفتى إِذَا حَشَرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ^(٤)
تَرَيَّ أَنَّ ما أَبْقَيْتُ لِمِ أَلْكَ رَيْئَهُ وَأَنَّ بَدِي مما بَخِلْتُ بِهِ صِفْرُ^(٥)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ غَادٍ وَرائِحُ وَيَبْقَى مِنَ المَالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ^(٦)

(١) تدنف: تمرض.

(٢) تُشْرُ: تُبْعَثُ.

(٣) الورس: نبت من الفصيلة القرنية، ثمرته قرن مُعْطَى عند نضجه يَغْدِدُ حمراء، يتعمل لتلوين الملابس الحريرية.

(٤) أماويُّ: أراد أماوية فرحَم. ومأوية: هي زوجة حاتم، وكانت من أجل نساء العرب، وكان تزوجها بعد وفاة زوجته النوار. وحشرج فلان: رَدَدَ نَفْسَهُ في حلقه، وحشرجت روحه في صدره: أوشك أن يموت.

(٥) في الأغاني (١٧/٢٩٥): «تَرَيَّ أَنَّ ما أَنْفَقْتُ لِمِ بِكَ ضَرَرِي».

(٦) في الأغاني: «أماويُّ إِنَّ المَالَ غَادٍ وَرائِحُ».

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالْغِنَى فَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ^(١)

فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا، وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ^(٢)

قال: فأخبرني عن أحسن الناس وصفاً، قال: الذي^(٣) يقول: ^(٤)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي^(٥)

والذي يقول: ^(٦)

كَأَنَّ عُمُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ^(٧)

والذي يقول: ^(٨)

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجْرٍ

سَمَاحَةً ذَا، مَعَ بَرِّذَا، وَوَفَاءٍ ذَا وَنَائِلٍ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرَ

يريد امرأ القيس.

(١) في الأغاني:

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالْغِنَى كَمَا الدَّهْرُ فِي أَيَّامِهِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
لَيْسَنَا صُرُوفَ الدَّهْرِ لَنَا وَغِلَظَةً وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الْعُسْرُ

(٢) وفي رواية: «فما زادنا بأوا»، والبأو: الفخر والتكبر.

(٣) يريد امرأ القيس بن حجر الكندي.

(٤) امرؤ القيس، الديوان: ص ١٤٥.

(٥) الحشف من التمر: أردؤه، وهو الذي يجف ويصلب ويتقبض قبل نضجه فلا يكون له نوى ولا لحاء ولا لحم، ويقال: «أحشفاً وسوء كيلة» لمن يجمع خصلتين مكروهتين. وأشار بقوله: رطباً ويابساً إلى كثرة ما تأتي به من القلوب حتى تفضل عن الفراخ، وقد قيل: إن الجوارح لا تأكل قلوب الطير ولا سائر حشوة بطونها.

(٦) امرؤ القيس، الديوان: ص ٧٠.

(٧) العجز: الخرز.

شبه عيون الوحش لما فيها من السواد والبياض بالخرز. وجعله مثقياً لأن ذلك أصفى له وأتم لحسنه. وإنما شبه عيونها وهي سود كلها لا يرى فيها بياض بالعجز، وهو أسود مجزع بالبياض لأنه أراد عيونها وهي ميتة وقد انقلبت فيرى فيها البياض والسواد.

(٨) امرؤ القيس، الديوان: ص ١٠١.

ومن ألفاظ أهل العصر في طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار^(١) وانتصافه، وابتدائه، وانتهائه

بدا حاجبُ الشمس، ولمعت في أجنحة الطير، وكشفت قناعها، ونثرت شعاعها، وارتفع شراذمها، وأضاءت مشارقها، وانتشر جناح الضوء في أفق الجو. طنّب شعاع الشمس في الآفاق، وذقبت أطراف الجدران. أነع النهار وارتفع. استوى شبابُ النهار، وعلا رونق الضحى، وبلغت الشمسُ كبد السماء. انتعل كل شيء ظله، وقام قائم الهاجرة، ورمّت الشمس بجمرات الظهر. اصفرّت غلالة الشمس، وصارت كأنها الدينارُ يلمع في قرار الماء، ونفضت تيراً على الأصيل، وشدّت رَحْلَهَا للرحيل، وتصوّبت الشمس للمغيب، وتضيّقت للغروب^(٢) فأذن جَبَّهَا للوجوب^(٣). شاب النهار، وأقبل شبابُ الليل، ووقفت الشمس للعيان، وشافه الليلُ لسان النهار. الشمسُ قد أشرقت بروحها، وجنحت للغروب، وشافهت درج الوجوب. الجوُّ في أظمار منهجة من أصائله^(٤)، وشفوف مورّسة من غلالته^(٥). استتر وجهُ الشمس بالثّقاب، وتوارت بالحجاب. كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق، إلى مجتمع الغسق. فلان يركبُ في مقدمة الصُّبح، ويرجع في ساقه الشفق، ومن حين تفتح الشمس جفّتها، إلى أن تغمض طرفها، ومن حين تسكن الطير أوكارها، إلى حين ينزل السّراة من أكواريها.

المقامة الكوفية

مقامة لأبي الفتح الإسكندري من إنشاء البديع، اتّصلت بذكر الليل والنهار.

قال عيسى بن هشام: كنت وأنا فتى السنُّ أشدَّ رَحْلِي لكلِّ عَمَاية، وأركضُ طِرْفِي لكلِّ غَوَاية، حتى شربتُ من العُمَر سائعه، ولَبَسْتُ من الدهر سابغه، فلما صاح النهارُ

(١) متوع النهار: يقال: متع النهار إذا ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢) تصوّبت للمغيب: انحدرت.

(٣) الوجوب: الغياب، يقال: وجبت الشمس وجباً، ووجوباً: غابت.

(٤) الأظمار: جمع طمر، وهو الثوب الخلق البالي.

(٥) الشُّفوف: جمع شَفْت، وهو ستر رقيق يُستشَفُّ ما وراءه، ويقال: ثوب شَفْت: رقيق. مُورّسة: مصبوغة باللّوز، وهو نبت تستخدم عصارته لتلوين الملابس الحريرية. والغلائل: جمع غلالة، وهي ثوب رقيق يلبس تحت الدّثار.

بجانب ليلي، وجمعت للمعاد ذيلي، وطئت ظهر المروضة، لأداء المفروضة، وصحبتني في الطريق رجل لم أكره من سوء، فلما تخالينا، وحين تجالينا، سفرته القصّة عن أصل كوفي، ومذهب صوفي، وسرنا فلما حللنا الكوفة ملنا إلى داره [ودخلناها] وقد بقل وجه النهار^(١)، واخضر جانب، ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شارب^(٢) قرع علينا الباب، فقلنا: من القارع المتأب؟ فقال: وفد الليل ويريده، وفلّ الجوع وطريده، وأسير الضر، والزمن المر، وضيف وطؤه خفيف، وضالته رغيغ، وجارّ يستعدي على الجوع، والجيب المرقوع، وغريب أوقدت النار على سفره، ونبح العواء في أثره^(٣)، ونبذت خلفه الحصى، وكسبت بعده العرصات، فنضوه طليح، وعيشه تبريح^(٤)، ومن دون أفراخه مهامه فيح^(٥).

قال عيسى بن هشام: فقبضت من كيسي قبضة الليث وبعثتها إليه، وقلت: زدنا سؤالاً نذك نوالاً، فقال: ما عرض عرف العود، على أحر من نار الجود، ولا لقي وفد البر، فأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفضل فليواس، فلا يذهب العرف بين الله والناس^(٦)، وأما أنت فحقق الله أملك، وجعل اليد العليا لك.

قال عيسى بن هشام: ففتحنا الباب، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلنا: يا أبا الفتح، شد ما بلغت بك الخصاصة، وهذا الزي خاصة! فبسم وأنشأ يقول:

لا يغررّك الذي	أنا فيه من الطلب
أنا في بردة تشق لها	بُرْدَةُ الطرب
أنا لو شئت لاتخذ	ت شقاقاً من الذهب

(١) بقل وجه النهار: ظهر.

(٢) طرّ شارب: نبت.

(٣) العواء: الكثير العواء، والمراد الكلب. وقد نبح الكلب نباحاً: صاح، وعوى عواء: لوى خطمه ثم صاح صياحاً ممدوداً ليس بنباح، فهو عاو وعواء.

(٤) النضو هنا: المطية. طليح: هزيل، مريض. وتبريح: من قولهم: «برّح به المرض» إذا شقّ عليه وأجهده.

(٥) المهامه: جمع مهمه، وهي الصحراء. الفيح: جمع فيحاء: واسعة.

(٦) هذا من قول الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
(العمدة: ٢٨٣/١). والعرف: المعروف.

[من رسائل البديع]

من البديع إلى بعض إخوانه

وكتب البديع إلى بعض إخوانه: غضبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن يَنْتَظِرَ عُذْراً، وإن كان في الظاهر مَهَابَةً سَيْفٍ، إنه في الباطن سحابةٌ صَيْفٍ، وقد رَأَيْتِي إِعْرَاضَهُ صَفْحاً، أَفْجَدًا قَصْدَ أُمِّ مَرْحَأٍ، ولو التَّبَسُّ الْقَلْبَانِ حَقَّ التَّبَاسُّمَا ما وجد الشيطانُ بينهما مَسَاغاً، ولا والله لا أُرِيكَ رَدًّا، أَجْدُ مِنْهُ بَدًّا، وإن محبةٌ تحتُمَلْ شَكًّا لأَجْدَرُ محبةً، أَلَّا تُشْتَرَى بِحَبَّةٍ، وإن كان قَصْدُ مَرْحَأٍ فَمَا أَغْنَانَا عَنْ مَرْحٍ يَحُلُّ عُقْدَ الْفَوَادِ [حتى نقف على المراد، ولا تسعنا إلا العافية] والسلام.

رسالة أخرى من البديع إلى صديق!

وله إليه: المودة - أعزُّك الله - غَيْبٌ، وهو في مكانٍ من الصُّدُرِ، لا يَنْفِذُهُ بَصَرٌ، ولا يُنْزِرُهُ نَظَرٌ، ولكنها تُعَرَّفُ ضرورةً، وإن لم تظهر صُورَةً، ويدركها الناسُ، وإن لم تدركها الحَوَاسُّ، وَيَسْتَمْلِي المَرْءُ صَحِيفَتَهَا من صدره، ويعلم حالَ غيره من نفسه، ويعلم أنها حَبٌّ وراء القلب، وقلب وراء الخَلْبِ^(١)، وخَلْبٌ وراء العَظَمِ، وَعَظْمٌ وراء اللحم، ولحم وراء الجلد، وجلد وراء البُرْدِ، وبُرْدٌ وراء البَعْدِ. ولو كانت هذه الحُجُبُ قَوَارِيرَ لم يَنْفِذْهَا نَظَرٌ، فَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِغَيْرِ هذه الحَاسَّةِ بِدَلِيلٍ إِلَّا أَنْ أَزُورَهُ، والله لو التَّبَسَّتْ بِهِ التَّبَاسُّاءُ، يجعل رأسينا رأساً، ما زِدْتُهُ وَدًّا، ولو حال بيني وبينه سُورُ الْأَعْرَافِ، وَرَمَلُ الْأَحْقَافِ، ما نَقَصْتُهُ حَقًّا.

أبي الفضل الميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

وَعَزَّالٍ مَنَحْتُهُ ظَاهِرَ
الْوَدِّ فَجَازَى بِالْصَدِّ وَالْإِنْتِحَابِ^(٢)
لَمْ أَلْمُهُ إِنْ رَدَّنِي لِحِجَابِ
رَدَّنِي وَإِلَى الْفَوَادِ لِمَا بِي^(٣)

(١) الخَلْبُ: لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع.

(٢) في يتيمة الدهر (٤/٤٢٧): «منحته خالص الود».

(٣) في نسخة:

لَمْ أَلْمُهُ إِذْ انْزَوَى فِي حِجَابِ رَدَّنِي وَإِلَى الْحَسَاذَا التَّهَابِ
وفي يتيمة الدهر (٤/٤٢٧): «لم ألمه أَنْ اتَّقَى بِحِجَابٍ».

هُوَ رُوحٌ وَلَيْسَ يُتَكْسَرُ لِلرُّوْحِ تَسْوِيرٌ عَنِ الْوَرَى بِحِجَابٍ^(١)

من البديع إلى أخيه

وللبديع إلى أخيه:

كتابي أطال الله بقاءك، ونحن وإن بُعدت الدارُ فرعاً نَبْعَةً، فلا يَجْنِينُ بُعْدِي عَلَى قُرْبِكَ، ولا تَمَحْوَنَ ذِكْرِي مِنْ قَلْبِكَ، فالأَخَوَانِ، وإن كان أحدهما بخراسان والآخر بالحجاز، مجتمعان على الحقيقة مفترقان على المجاز، والاثنان، في المعنى واحد وفي اللفظ اثنتان، وما بيني وبينك إلا ستر، طوله فِترٌ، وإن صاحبنِي رَفِيقٌ، اسمه توفيق، لِنَلْتَقِيَنَّ سَرِيعاً وَلِنَسْعِدَنَّ جَمِيعاً، والله وليُّ المأمول.

من ابن العميد لبعض إخوانه

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه:

قد قَرَّبَ - أيدك الله - محلِكَ على تَرَاجِيهِ، وَتَصَاقَبَ مُسْتَقَرُّكَ عَلَى تَنَائِيهِ؛ لِأَنَّ الشَوْقَ يُمَثِّلُكَ، وَالذِّكْرَ يَخْتَلِكُ؛ فَنَحْنُ فِي الظَّاهِرِ عَلَى افْتِرَاقٍ، وَفِي الْبَاطِنِ عَلَى تِلَاقٍ، وَفِي التَّسْمِيَةِ مُتَبَايِنُونَ، وَفِي الْمَعْنَى مُتَوَاصِلُونَ، وَإِنْ تَفَارَقَتِ الْأَشْبَاحُ، لَقَدْ تَعَانَقَتِ الْأَرْوَاحُ.

جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوُتْبَةِ، شَنِيعُ الْعَثْرَةِ. أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يُسَارُّ بِهِمْ وَهَمٌ يَنَامُ. وَالنَّاسُ وَفْدُ الْبَلَى، وَسَكَانُ الشَّرَى، وَأَقْرَانُ الرَّدَى. الْمَرْءُ نُصَبُ الْحَوَادِثِ وَأَسِيرُ الْاِغْتِرَارِ. الْأَمَالُ حَصَائِدُ^(٢) الرِّجَالِ. الْحِرْصُ يَنْقُصُ الْمَرْءَ مِنْ قَدْرِهِ، وَلَا يَزِيدُ فِي رِزْقِهِ. الْكَذِبُ وَالْحَسَدُ وَالتَّفَاقُ أَثَافِي الدَّلِّ^(٣). التَّمَامُ جِسْرُ الشَّرِّ. الْحَاسِدُ أَسْمُهُ صَدِيقٌ وَمَعْنَاهُ عَدُوٌّ. الْحَاسِدُ سَاخِطٌ عَلَى الْقَدْرِ، مَغْتَاطٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، بِخَيْلٍ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ، يَشْفِيكَ [منه] أَنَّهُ يَغْتَنَّمُ فِي

(١) في يتيمة الدهر: «هو روحي». توار: اختفاء.

(٢) الحصائد: جمع حصيد، وهو الزرع المحصود، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (سورة ق، آية ٩). وحصائد الألسنة: الكلام لا خير فيه، وفي الحديث: «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

(٣) الأثافي: جمع أثفية، وهي أحد أحجار ثلاثة تُوضع عليها القدر، وثلاثة الأثافي: حرف الجبل يجعل إلى جنبه أثفيتان، ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: بداهية كالجبل.

وَقَتِ سرورِكَ. الْفُرْصَةُ سَرِيعَةُ الْفَوْتِ بِطَيْئَةِ الْعَوْدِ. الصَّبْرُ مِنْ ذِي الْمَصِيبَةِ مَصِيبَةٌ عَلَى ذَوِي الشَّمَاتِ. التَّوَاضُّعُ سُلَّمُ الشَّرَفِ، وَالْجُودُ صَوَانُ الْعَرَضِ مِنَ الدَّمِ. الْعَدْرُ قَاطِعُ [الْأَسْرَارِ] إِذَا كَثُرَ خَزَائِنُهَا أَزْدَادَتْ ضَيَاعاً. السُّوءُ كَشَجَرَةِ النَّارِ يَحْرِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً. عَيْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ. وَعَاءُ الْخَطَا بِالصَّمْتِ يَخْتِمُ، وَالْخَرَقُ بِالرَّفْقِ يُلْحِمُ^(١). الْوَعْدُ مَرَضُ الْمَعْرُوضِ، وَالْإِنْجَازُ بَرُّهُ، وَالْمَطْلُ تَلْفُهُ. إِذَا حَضَرَ الْأَجَلَ، افْتَضَحَ الْأَمَلُ. لَا تَتَشَنَّ وَجْهَ الْعَفْوِ بِالتَّفْرِيعِ^(٢). لَا تَنْكُحْ خَاطِبَ سِرِّكَ. وَمَنْ زَادَ أَدْبَهُ عَلَى عَقْلِهِ كَانَ كَالرَّاعِي الضَّعِيفِ مَعَ شَاءٍ كَثِيرَةٍ.

قال أبو العباس الناشيء لأبي سهل بن نوبخت:

زَعَمْتَ أبا سهل بأنك جامعٌ ضُروباً من الآداب يَجْمَعُهَا الْكَهْلُ
وَهَبِكَ تَقُولُ الْحَقَّ أَيُّ فَضِيلَةٍ تَكُونُ لِذِي عِلْمٍ وَلَيْسَ لَهُ عَقْلُ

وَالْهَمُّ حَبْسُ الرُّوحِ. قُلُوبُ الْعُقَلَاءِ حِصُونُ الْأَسْرَارِ. مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَ عَلَيْهِ مَالُهُ. مَنْ جَرَى فِي عَنَانِ أَمَلِهِ، عَثَرَ بِأَجَلِهِ. مَا كُلُّ مَنْ [يُحْسِنُ] وَعَدَهُ يَحْسُنُ إِنْجَازَهُ. رُبَّمَا أَوْرَدَ الطَّمَعُ وَلَمْ يُصْدِرْ، وَضَمِنَ وَلَمْ يُوفِ. وَرُبَّمَا شَرِقَ شَارِبُ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ. مَنْ تَجَاوَزَ الْكَفَافَ لَمْ يَقْنَعْهُ إِكْثَارٌ. كُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الْمُتَأَنِّسِ فِيهِ عَظُمَتِ الْفَجِيعَةُ بِفَقْدِهِ، وَمَنْ أَرْحَلَهُ الْحِرْصُ أَنْضَاهُ الطَّلَبِ. الْأَمَانِيُّ تَعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لَمْ يَوْمِهِ. وَرُبَّمَا كَانَ الطَّمَعُ وَعَاءً حَشْوُهُ الْمَتَالِفُ، وَسَائِقاً يَدْعُو إِلَى النَّدَامَةِ. مَا أَحْلَى تَلْقَى الْبَغْيَةِ، وَأَمَرٌ عَاقِبَةُ الْفِرَاقِ. مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلِ الْأَمْرَ بَعَيْنَ عَقْلِهِ، لَمْ تَقَعْ حِيلَتُهُ إِلَّا عَلَى مَقَاتِلِهِ.

[رثاء المعتضد، وتعزيتة]

وقال أبو العباس^(٣) يرثي المعتضد: ^(٤)

قَضَوْا مَا قَضَوْا مِنْ أَمْرِهِمْ ثُمَّ قَدَّمُوا إِمَاماً لِمَامِ الْخَلْقِ بَيْنَ يَدَيْهِ^(٥)

(١) يُلْحِمُ: يُلَاحِظُ، وَمِنْهُ لَحْمُ الْأَمْرِ: أَحْكَمُهُ وَأَصْلَحُهُ.

(٢) شَانَ الشَّيْءِ: شَوْهَهُ، وَعَابَهُ. وَالتَّفْرِيعُ: اللُّومُ وَالْعِتَابُ.

(٣) هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَصِمِ بِاللَّهِ بْنِ هَارُونَ الرَّشِيدِ الْعَبَّاسِيِّ.

(٤) ابْنُ الْمُعْتَزِ، الدِّيَوَانُ: ص ٧٢٣.

(٥) فِي الدِّيَوَانِ:

قَضَوْا مَا قَضَوْا مِنْ أَمْرِهِ ثُمَّ قَدَّمُوا إِمَاماً لَهُمْ وَالنَّعْشُ بَيْنَ يَدَيْهِ

وَصَلُّوا عَلَيْهِ خَاشِعِينَ كَأَنَّهُمْ
وَقَالَ يَرِثِيهِ: (٢)

قَالَتْ شُرَيْرَةُ مَا لَجَفْنِكَ سَاهِرًا
مَا قَدْ رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ أَحَلَّ بِي
يَا نَفْسُ صَبْرًا لِلزَّمَانِ وَرِثِيهِ
إِنَّ الَّذِي حَازَ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا
أَمَّا السُّيُوفُ فَمِنْ صَنَائِعِ بَأْسِهِ
وَكَأَنَّ أَحْدَاثَ الزَّمَانِ عَيْدُهُ
يَقْظَانُ مِنْ سِنَةِ الْمُضْيِيعِ قَلْبُهُ
يَرْعَى الضَّغَائِنَ قَبْلَ سَاعَةِ فُرْصَةٍ
كَمْ فُرْصَةٍ تُرَكَّتْ فَصَارَتْ غَصَّةً
وَلَرَبَّ كَيْدٍ ظَلَّ يَسْجُدُ بَعْدَهَا
وَهِيَ الْمَنَايَا إِنْ رَمِينَ بِنَبْلِهَا
لِلَّهِ دُرُّكَ أَيُّ لَيْثٍ كَتِيْبَةٍ
وَلَقَدْ عَمِرْتَ وَلَا حَرِيْمَ مُعَانِدٍ
وَقَالَ لِلْمَعْتَضِدِ يَعْزِيهِ بَابُهُ هَرُونَ:

يَا نَاصِرَ الدِّينِ إِذْ هَدَّتْ قَوَاعِدُهُ
وَقَائِدَ الْخَيْلِ مَذْ شُدَّتْ مَآزِرُهُ
كَأَنَّهُنَّ قَنَاءٌ لَيْسَتْ لَهَا عُقْدٌ
وَأَصْدَقَ النَّاسِ فِي بُؤْسِي وَإِنْعَامِ
مُذَلَّلَاتٍ بِإِسْرَاجٍ وَإِلْجَامِ
يَهْزُهَا الزَّجَرُ فِي كَرٍّ وَإِقْدَامِ

(١) فِي الدِّيَوَانِ: «قِيَامٌ خُضُوعٌ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ».

(٢) «وَقَالَ يَرِثِيهِ»: عَطَفَ عَلَى مَا سَبَقَ، أَيُّ: وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ يَرِثِيهِ، وَقَدْ وَجَدْنَا الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ فِي دِيَوَانِ ابْنِ الْمَعْتَزِ، وَلَمْ نَجِدْ هَذِهِ الْمَقْطُوعَةَ وَالَّتِي تَلِيهَا فِيهِ.

(٣) فِي نَخْصَةٍ: «قَالَتْ سَرِيرَةُ» بِالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ.

(٤) رَبِيبُ الزَّمَانِ: صَرْفُهُ، وَرَبِيبُ الْمَنُونِ: حَوَادِثُ الدَّهْرِ.

(٥) عَوَّلَ الرَّجُلُ: رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ وَالصَّبَاحِ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ: اعْتَمَدَ وَاتَّكَلَ، يُقَالُ: عَوَّلْنَا عَلَى فُلَانٍ فِي حَاجَتِنَا فَوَجَدْنَاهُ نَعْمَ الْمُعَوَّلَ.

قُبْ كَطِيَّ ثِيَابِ الْعَصَبِ مُضْمَرَةٌ تَقَرَّبُ النَّارَ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْهَامِ^(١)
 وَسَائِسَ الْمَلِكِ يَرْعَاهُ وَيَكْلُوهُ إِذَا حَلَا الْغَمَضُ فِي أَجْفَانِ نَوْمِ
 تَمْرِي أَنَامِلُهُ الدُّنْيَا لِصَاحِبِهَا وَنَضْلُهُ مِنْ عَدَاهُ قَاطِرٌ دَامِي^(٢)
 كَالسَّهْمِ يَبْعَثُهُ الرَّامِي فَصَفَحَتْهُ تَلْقَى الرَّدَى دُونَهُ، وَالْفُوقُ لِلرَّامِي^(٣)
 لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ إِنْ خَطَبَ أَلَمٌ بِهِ إِلَّا إِلَى صَعْدَةٍ أَوْ حَدٍّ صَنْصَامِ^(٤)
 صَبْرًا، فَدَيْتَاكَ إِنْ الصَّبْرَ عَادَتُنَا وَإِنْ طَوِينَا عَلَى حُزْنٍ وَتَهَيَّامِ
 فَبَادِرِ الْأَجَرِ نَحْوَ الصَّبْرِ مُحْتَسِبًا إِنَّ الْجَزْوَعَ صَبُورٌ بَعْدَ أَيَّامِ

تعزيتة في جاريته دريدة

ولما ماتت دريدة^(٥)، وهي جارية [المعتضد، و] كانت مسكينةً عنده، جزع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيد الله بن سليمان: مثلك يا أمير المؤمنين تهون عليه المصائب؛ لأنك تجد من كل فقيد خلفاً، وتنال جميع ما تريد من العوض، والعوض لا يوجد منك، فلا ابتلى الله الإسلام بفقدك، وعمره بطول بقاء عمرك، وكأن الشاعر عني أمير المؤمنين بقوله:

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا تَبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَطُ أَكْبَاداً مِنَ الْإِبِلِ
 فضحك المعتضد وتسلى وعاد إلى عادته.

قال محمد بن داود الجراح: فلقيني عبيد الله فأخبرني بذلك، وقال: أردت شعراً في معنى البيت الذي أنشدته فما وجدته؛ فقلت له قد قال البطين البجلي:

طَوَى الْمَوْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَبَّةٍ بِهِمْ كُنْتُ أُعْطِي مَنْ أَشَاءُ وَأَمْنَعُ
 فَلَا يَحْسِبُ الْوَأَثُونَ أَنَّ قَاتَنَا تَلِينُ، وَلَا أَنَا مِنَ الْمَوْتِ نَجَزَعُ

(١) قُبْ: جمع أقب، وهو الذي دقَّ خصره وضمّر بطنه. والعصب: برد يمانني يجمع غزله وَيُسَدِّ ثَم يُصْبَغُ وَيُسَجَّجُ، وقيل: هو برد مُخَطَّط.

والبيض: السيوف، والهَام: الرؤوس.

(٢) تمري: من قولهم: مرى فلان الضرع إذا استخرج لبنه.

(٣) فوق السهم: موضع الوتر منه.

(٤) الصمصام: السيف.

(٥) في نسخة: «دويرة».

وَلَكِنْ لِأَلَّافٍ - لَا بَدْءَ - لَوْعَةٍ إِذَا جَعَلْتَ أَقْرَانَهَا تَطْلُعُ
فكتبه، وقال: لو حفظته لما عدلت عنه.

[من شعر ابن المعتز]

- وقال ابن المعتز، وذكر الموتى: (١)
وَسَكَّانٍ دَارٍ لَا تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ
كَأَنَّ خَوَاتِيمًا مِنَ الطِّينِ فَوْقَهُمْ
وقال يمدح عبيد الله بن سليمان: (٢)
أَيَا مُوَصِّلَ الثُّغَمَى عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
كَمَا يَلْحَقُ الْغَيْثُ الْبِلَادَ بِسَيْلِهِ
وَيَا مُقْبِلًا وَالدَّهْرُ عَنِّي مُعْرَضٌ
وَيَا مَنْ يَرَانِي حَيْثُ كُنْتُ بِقَلْبِهِ
لَقَدْ رُمْتُ بِي أَمَالَ نَفْسِي كُلِّهَا
ذَكَرْتَ مُنَى سَمْعِ الْإِمَامِ وَعَيْنِهِ
وَكَمْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ فِي صَرْفِ نِقْمَةٍ
وَمَا كُلُّ مَا تَهْوَى النُّفُوسُ بِنَافِعٍ
وقوله:

كَمَا يَلْحَقُ الْغَيْثُ الْبِلَادَ بِسَيْلِهِ

- (١) ابن المعتز، الديوان: ص ٤٣٨.
(٢) في الديوان:
(٣) في الديوان: «من الطين بينهم». وقص الشيء: فرقه، وقص الخاتم: كسره وفككه.
(٤) ابن المعتز، الديوان: ص ٣٠١.
(٥) الغيث: المطر الخير.
(٦) في الديوان: «ويا مقبل».
(٧) في الديوان: «حيث كنت بذكره»، و«لم يرني بأبصار».
(٨) لم نجد هذا البيت والبيت الذي يليه في رواية الديوان.
(٩) إمرار: من المرارة.

مأخوذ من قول نهشل بن حري^(١) وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كُسوةً ومالاً من المدينة:

جَزَى اللّهُ خيراً والجزاءُ بكفه بَنِي الصَّلْتِ إخوانَ السّماحةِ والمجدِ
أَتاني وأهلي بالعراقِ نَدَاهُمُ كما انقضَّ سبيلُ من تِهامةٍ أو نجدِ

وقال ابن المَوَلَى:

سُرِرْتُ بِجَعْفَرٍ إِذْ حَلَّ أَرْضِي كَمَا سُرَّ الْمُسَافِرُ بِالْإِيَابِ
كَمَطُورٍ بِلِدَّتِهِ فَأُضْحَى غَنِيًّا عَنْ مُطَالَعَةِ السَّحَابِ

وبعث عبدُ اللَّهِ بنُ طاهرٍ إلى أبي الجنوب بن أبي حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ درهمٍ فقال:

لَعَمْرِي لِنِعَمَ الْغَيْثُ غَيْثٌ أَصَابَنَا يَبْغِدَادَ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَابِلُهُ^(٢)
وَنِعَمَ الْفَتَى وَالْيَدُ بِنِي وَبَيْنَهُ بعشرين ألفاً صَبَحَتْنِي رَسَائِلُهُ^(٣)
فَكُنَّا كَحَيٍّ صَبَحَ الْغَيْثُ أَهْلَهُ وَلَسْمَ نَنْتَجِعُ أَطْعَامَهُ وَحَمَائِلُهُ
أَتَى جُودُ عَبْدِ اللَّهِ حَتَّى كَفَّتْ بِهِ رَوَّاحِلُنَا سَيْرَ الْفَلَاةِ رَوَّاحِلُهُ

[أبو شجاع]

وكانت بنو كلاب ومن والاها من العرب بنواحي الكوفة تجتمعوا وعزموا على أخذِ الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دِينَارَ^(٤) ابن لشكروز فأصلحهما، وكان أبو الطيب المتنبي بها فوصله وبعث إليه خلعاً وقاد إليه فرساً بسرَجٍ ثَقِيلٍ، فقال في قصيدة: ^(٥)

(١) نهشل بن حري - وقيل: ابن جُرَي - بن ضمرة، من بني دارم بن حنظلة: شاعر إسلامي مخضرم. عاش إلى أيام معاوية، وكان مع علي بن أبي طالب في حروبه. وكان أبوه حُرَي بن ضمرة، وابته حُرَي بن نهشل شاعرين. توفي سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م. (ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة: ٦/٢٦٨؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٥٣٢).

(٢) الوابل: المطر الغزير.

(٣) البید: الصحاري، مفردا بيدا.

(٤) في «العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب»: «دلير» باللام مكان النون.

(٥) المتنبي، الديوان: ٢/٣٤٠.

فَلَوْ لَمْ يَسِرْ سِرْنَا إِلَيْهِ بِأَنْفُسٍ غَرَائِبٍ يُؤَثِّرُنَ الْجِيَادَ عَلَى الْأَهْلِ^(١)
 وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدْعِي الشُّوقَ قَلْبُهُ وَيَعْتَلِّ فِي تَرْكِ الزِّيَارَةِ بِالشُّغْلِ^(٢)
 وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْفَضْلَ فِي الْقَصْدِ شِرْكَةً فَكَانَ لَكَ الْفَضْلَانِ فِي الْقَصْدِ وَالْفَضْلِ^(٣)
 وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَيْلَ رَائِدًا كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَيْلِ^(٤)

[الموفق العباسي]

وكان ابن المعتز يمدح أبا أحمد بن المتوكل، ويلقب بالناصر والموفق، وكانت حاله ترامت في أيام المعتضد إلى غاية لم يبلغها الخليفة، وقد ذكرها الصولي في قصيدة [لصاحب المغرب]، فقال وقد اقتضت خلفاء بني العباس من أولهم:

وَمُعْتَضِدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَمُؤَفَّقٍ يُرَدِّدُ مِنْ إِرْثِ الْخِلَافَةِ مَا ذَهَبَ
 مُوَازٍ لَهُمْ فِي كُلِّ فَضْلٍ وَسُودِدِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعَدِّ مِنْهُمْ لِمَنْ حَسَبَ
 وقال المعتضد، أو قيل على لسانه، لما غلب الموفق على أمره:

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ مِثْلِي يَرَى مَاهَانَ مُمْتَنِعاً عَلَيْهِ
 وَتُؤَخِّدُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا مِنْ ذَاكَ شَيْءٍ فِي يَدِيهِ
 وشعر ابن المعتز فيه^(٥):

إِلَيْكَ امْتَطَيْنَا الْعَيْسَ تَنْفُخُ فِي الْبُرَى وَلِلصُّبْحِ طَرْفٌ بِالظَّلَامِ كَحَيْلٍ^(٦)

- (١) في الديوان: «ولو لم تسر سرننا إليك». يؤثرن: يخترن. والجياد: الخيل. أي: لو لم تسر إلينا، لسرنا إليك مصاحبين لأنفس غريبة الأهواء، تختار التعب على الراحة، وصحبة الخيل في الأسفار على صحبة الأهل في المقام طلباً للمجد والعلو.
- (٢) في الديوان: «ويحتج في ترك الزيارة».
- (٣) يقول: إذا قصدناك صار لنا فضل نشاركك فيه، لأن الفضل للقاصد، ولقد قصدتنا أنت، فثبت لك الفضلان: فضل القصد وفضل الصنيع.
- (٤) الويل: المطر الغزير. الرائد: الذي يجول في طلب الكلا ومساقط الغيث. يقول: ليس من يسعى في طلب الخير كمن يأتيه الخير وهو في مكانه.
- (٥) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٦٣.
- (٦) في الديوان: «تَنْفُخُ فِي السَّرَى»، «والليل طَرْفٌ بالصباح كحيل». والعيس: النوق. والسرى: السير ليلاً.

- صَدِينٍ مِنَ التَّهَجِيرِ حَتَّى كَانَهَا
فَشْنَا ضِيَوْهَا لِلْفَلَاةِ قِرَاهُمْ
يَهْزُ بُرُودَ الْعَصَبِ فَوْقَ مُوْنِهَا
وَلَمَّا طَفَى أَمْرُ الدَّعْيِ رَمِيَتْهُ
وَجَرَّدَ مِنْ أَعْمَادِهِ كُلِّ مُرْهَفٍ
جَرَى فَوْقَ مَتْنِهِ الْفِرْنَدُ كَأَنَّمَا
وَأَعْلَمَتْهُ كَيْفَ التَّصَافُحِ بِالْقَنَا
سَرِيعٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ، أَمَا جَنَابُهُ
وَيُقَرِّي السُّؤَالَ الْعُذْرَ مِنْ بَعْدِ مَالِهِ
وَيَسْتَصْغِرُ الْمَعْرُوفَ حِينَ يُسِيلُ^(٨)

أخذ معنى قوله: «نسيم كنفث الرقيقات عليل» عبد الكريم بن إبراهيم، فقال:

- سَلَامٌ عَلَى طَيْبِ رَوْحَاتِنَا
إِلَى الْقَصْرِ وَالنَّهْرِ الْخَضْرَمِ^(٩)
إِلَى مُزِيدِ الْمَوْجِ طَامِي الْعَبَا
بِ يَقْنِفُ بِالْبَانِ وَالسَّاسِمِ^(١٠)
تَخَالٌ بِهِ قَطْمًا مُقْسَرَمًا
يَكْرَ عَلَى قَطْمٍ مُقْسَرَمِ^(١١)
وَيَسْجُو فَيَسْحَبُ فِي ذَائِلِ
يَمَانٍ تَسْهَمُ بِالْأَنْجُمِ^(١٢)

- (١) هذا البيت، والآيات الثلاثة التي تليه ليست في رواية الديوان.
(٢) العنيق والنص والذميل: ضروب من السير السريع.
(٣) العضب: السيف القاطع. والفليل: المكسور.
(٤) في الديوان: «وجرَّدت من أعماده». المرهف: السيف المُرَقَّق، المُحَدَّد. انتضته: رفعته، امتشقته، سلَّته.
(٥) في الديوان: «ترى فوق مَتْنِهِ»، وهو ثقيل. والفرند: جوهر السيف وماؤه. والقين: الحداد.
(٦) مُحُول: عطشى.
(٧) في الديوان: «أما جَنَابُهُ». والجنان: القلب.
(٨) لم نجد هذا البيت في رواية الديوان.
(٩) الخضرم: العظيم.
(١٠) الساسم: شجر أسود، ويقال: هو الآبنوس.
(١١) القَطْمُ: الغضبان، وفحل قَطْمٌ وَقَطْمٌ وَقَطِيمٌ: ضؤل، وَقَطْمَ الْفَحْلُ: احتاج وأراد الضراب. والقَرْمُ من الفحول: الذي يُتْرَك من الركوب والعمل، ويدع للضراب.
(١٢) سجا الشيء سَجَوْا وَسُجَّوْا: سَكَنَ، ويقال: سجا الليل، وسجا البحر، وسجت الرياح.

كَأَنَّ الشَّمَالَ عَلَى وَجْهِهِ يَهَا سَقَمٌ وَهِيَ لَمْ تَسَقَمِ
ضَعِيفَةٌ رَشٌّ كَنَفَتْ الرِّقَى عَلَى كَبِدِ الْمُذْنَفِ الْمُغْرَمِ
إِذَا دَرَجَتْ فَوْقَهُ دَرَجَتْ هـ فِي حَبِكَ السَّرْدِ الْمُحْكَمِ
وَقَدْ جَلَّلَتْهُ بِأَوْرَاقِهَا فُرُوعُ غَدَتِهَا نِطَافُ السِّمِ
عَلَتْهَا الْحَمَامُ بِنُغْرِيْدِهَا كَمَا سَجَعَ النَّوْحُ فِي مَائِمِ
كَأَنَّ شِعَاعَ الضُّحَى بَيْنَهَا عَلَى السَّوْسَنِ الْغَضِّ وَالْخُرْمِ^(١)
وَشَائِعٌ مِنْ ذَهَبٍ سَائِلٍ عَلَى خُسْرَوَانِيَّةٍ نَعَمِ
رُبَّاءٌ تَتَفَقَّأُ مِنْ فَوْقِهَا عَزَالِي الرِّبْعِ لَهَا الْمَرْهِمِ^(٢)
عَلَى كُلِّ مُحْيِيَّةٍ خَلِيَّةٍ تَسْدَى عَلَى جَدُولٍ مُفْعَمِ^(٣)
كَأَنَّ قَتْلَ الْوَقْفِ صَوَاغُهُ وَكَالْأَرْقَمِ أَنْسَابِ لِأَرْقَمِ

[صاحب الزنج]

وقول ابن المعتز «ولما طغا أمرُ الدعي» يريد صاحب الزنج بالبصرة، وكانت شوكته قد اشتدت وظُفر به بعد واقعة كثيرة، وفي ذلك يقول ابنُ الرومي في قصيدة طويلة جداً يمدح فيها أبا أحمد [الموفق بن المتوكل، وصاعد بن خالد، والعلاء بن صاعد ابنه، وهي من أجود شعره، فقال]:^(٤)

أَبَا أَحْمَدَ أَبْلَيْتَ أُمَّةَ أَحْمَدٍ بِلَاءَ سِيرِضَاءُ ابْنِ عَمِّكَ أَحْمَدُ
حَصَرْتُ عَمِيدَ الزَّنجِ حَتَّى تَخَاذَلَتْ فُؤَاهُ، وَأَوْدَى زَاوَهُ الْمُتَزَوُّدُ^(٥)

- (١) الخُرْمُ: نبت كاللوبياء، بنفسجي اللون، من فصيلة القرنفليات.
- (٢) العزالي: جمع عزلاء: مصب الماء من القرية ونحوها، ويقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر، وأرخت الدنيا عزاليها: كثر نعيمها.
- (٣) المفعم: المملآن.
- (٤) ابن الرومي، الديوان: ١٢٠/٢.
- (٥) عميد الزنج: صاحبهم الذي قام بالثورة المعروفة في العصر العباسي. ولد في ورنين من قرى الري، وظهر في أيام المهدي بالله سنة ٢٥٥ هـ، وكان يرى رأي الأزارقة من الخوارج. التف حوله سودان أهل البصرة ورعاؤها، فامتلكها واستولى على الأبله، وتتابعت جيوش العباسيين لقتاله، فتغلب عليها، واستولى على جنوب العراق كله، وبلغ أنصاره ثلاثمائة ألف مقاتل، واستمر أمره إلى أن ظفر به الموفق بالله في أيام المعتمد، وقتله سنة ٢٧٠ هـ. وأودى: هلك.

فَظَلَّ، وَلَمْ تَقْتُلْهُ، بَلْ لَفِظْتَ نَفْسَهُ
وَكَاثَتْ نَوَاجِيهِ كِشَافاً فَلَمْ نَزَلْ
تُفَرِّقْ عَنْهُ بِالْمَكَايِدِ جُنْدَهُ
وَلَا بَسُّ سَيْفِ الْقُرْنِ بَعْدَ اسْتِلَابِهِ
فَمَا رُمْتَهُ حَتَّى اسْتَقْلَّ بِرَأْسِهِ
وَضَلَّ، وَلَمْ تَأْسِرْهُ، وَهُوَ مُقَبَّدٌ
تَحِيْفُهَا شَحْذاً كَأَنَّكَ مِبْرَدٌ^(١)
وَيَزِدَادُهُمْ جُنْداً وَجُنْدُكَ مُحْصَدٌ^(٢)
أَضْرُّ لَهُ مِنْ كَاسِرِيهِ وَأَكِيدٌ^(٣)
مَكَانَ فَنَاءِ الظَّهْرِ أَسْمَرُ أَجْرَدُ

[هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد:

وَرَأْسُ مَهْرَاقٍ قَدْ رَكِبْتَ قُلْتَهُ
وَلَمْ تَأَلْ إِذْ بَارَأَ لَهُ غَيْرَ أَنَّهُ
سَكَنْتَ سُكُوناً كَانَ رَهْناً بِوَثْبَةٍ
عَمَاسٍ، كَذَاكَ اللَّيْثُ لِلْوَثْبِ بَلْبَدٌ^(٤)
رَأَى أَنْ مَنَّ الْبَحْرُ صَرْحَ مُمَرَّدٍ^(٥)
سَكَنْتَ سُكُوناً كَانَ رَهْناً بِوَثْبَةٍ
عَمَاسٍ، كَذَاكَ اللَّيْثُ لِلْوَثْبِ بَلْبَدٌ^(٦)

هذا مأخوذ من قول النابغة^(٧):

وَقُلْتُ بِأَقْصَى إِنْ اللَّيْثُ مُتَقَبِّضٌ
عَلَى بَرَانِيهِ لِلْوَثْبَةِ الضَّارِي^(٨)

ويقول في مدح صاعد^(٩):

يُقَرِّظُ إِلَّا أَنْ مَا قَبِلَ دُونَهُ
أَرْقَ مِنَ الْمَاءِ فِي حُسَامِهِ
وَيُوصَفُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُحَدَّدُ^(١٠)
طِبَاعاً، وَأَمْضَى مِنْ شَبَاهُ وَأَنْجَدُ^(١١)

(١) تَحِيْفُهَا: تنقصها وتأخذ من جوانبها. وفي الديوان: «تحيقها سحتاً»، والسحت: العذاب.

(٢) فِي الدِّيَوَان: «وتزدادهم جنداً وجيشك محصد». والجيش المحصد: المحكم، المجتمع المتضافر.

(٣) فِي الدِّيَوَان: «أَخْرَجَهُ مِنْ كَاسِرِيهِ».

(٤) قُلْتُ كُلَّ شَيْءٍ: فمته وأعلاه. وَاللَّيْثُ: اللب، وقناة لدنة: لينة المهزة. اللَّيْثُ: صفحة العنق.

(٥) مَرَدُّ الْبِنَاءِ: سَوَاءٌ وَمَلْسَةٌ، وَطَوْلُهُ، فَهُوَ مُمَرَّدٌ، قَالَ نَعَالِي: «إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ».

(٦) عَمَاسٍ: شديدة. ولبد بالمكان: أقام به.

(٧) النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي، الدِّيَوَان: ص ٥٥.

(٨) فِي الدِّيَوَان: «لوثة الضاري». الأسد. البرائن: الأظفار. الضاري: المنعود. يقول: إن

الملك متقبض متجمع للغزو والثوب فعل الأسد الضاري.

(٩) أَي: ابْنُ الرُّومِي.

(١٠) فِي الدِّيَوَان: «بَقَرَّصُ».

(١١) شَبَاهُ السَّيْفِ: حَدُّ طَرَفِهِ.

لَه سَوْرَةٌ مُكْتَنَّةٌ فِي سَكِينَةٍ كَمَا اِكْتَنَ فِي الْعِمْدِ الْجُرَازُ الْمُهَنْدُ^(١)
 كَأَن أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي الْمَعَالِي وَيَصْعَدُ
 [لَمَّا سَمِعَ الْبَحْتَرِي هَذَا الْبَيْتَ قَالَ: مَنِي أَخَذَهُ، فِي قَوْلِهِ فِي الْعِلَاءِ بَنَ صَاعِدًا]:^(٢)
 سَمَّاهُ أَسْرَتُهُ الْعِلَاءَ وَإِنَّمَا فَصَدُوا بِذَلِكَ أَنَّ يَوْمَ عُلَاهُ
 وَهَذَا فِي قَوْلِهِ، كَمَا قَالَ [ابن] الْمَرْزِبَانِ وَقَدْ أَشْدَّ لَابِنِ الْمَعْتَزِ فِي مَنَاقِضَةِ الطَّالِبِينَ:
 دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنْ فِي غَابِهَا وَلَا تَدْخُلُوا بَيْنَ أَنْيَابِهَا
 فَتَحْنُ وَرَثَتَنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ فَلِمَ تَجِدُبُونَنَا بِهَذَابِهَا؟
 [قَالَ:] قَدْ أَخَذَهُ مِنْ [قَوْل] بَعْضِ الْعَبَّاسِيِّينَ:
 دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنْ أَغْيَالَهَا وَلَا تَقْرُرُوهَا وَأَشْبَالَهَا^(٣)
 وَلَكِنَّهُ سَرَقَ سَاجًا، وَرَدَّ عَاجًا، وَغَلَّ قَطِيفَةً، وَرَدَّ دِيبَاجًا.

وَمِنْ قَصِيدَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ:

تَرَاهُ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَنْزِلِ وَأَثَارُهُ فِيهَا، وَإِنْ غَابَ، شُهُدُ^(٤)
 كَمَا احْتَجَبَ الْمِقْدَارُ وَالْحَكْمُ حُكْمُهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرًّا لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدُ^(٥)
 الْبَحْتَرِي: ^(٦)

وَلِيَ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِ، وَمَحَلُّهَا مُتْقَارِبٌ، وَمَرَامُهَا مُتْبَاعِدُ
 يَتَكَفَّلُ الْأَدْنَى، وَيُذَكِّرُ رَأْيَهُ الدُّ أَقْصَى، وَيَتَّبِعُهُ الْأَبْيُّ الْعَانِدُ
 إِنْ غَارَ فَهُوَ مِنَ النَّبَاهَةِ مُنْجِدُ أَوْ غَابَ فَهُوَ مِنَ الْمَهَابَةِ شَاهِدُ

(١) السَّوْرَةُ: الْحِدَّةُ. الْمَكْتَنَةُ: الْهَادِثَةُ. الْجُرَازُ: السِّيفُ الْقَاطِعُ.

(٢) الْبَحْتَرِي، الدِّيَوَانُ: ٣٣٦/١.

(٣) أَغْيَالُ: جَمْعُ غَيْلٍ: مَوْضِعُ الْأَسَدِ، وَالْغَيْلُ أَيْضًا: الشَّجَرُ الْكَثِيفُ الْمُتَلَفَ الَّذِي يُسْتَرُّ فِيهِ.

(٤) فِي الدِّيَوَانِ: «عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَنْزِلِ». وَحَرْبُ عَوَانٍ: قُوتِلَ فِيهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

(٥) فِي الدِّيَوَانِ: «عَلَى النَّاسِ طُرًّا». وَلَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ: لَيْسَ عَنْهُ مَهْرَبٌ، وَالْمُعَرَّدُ: الْمُنْحَرَفُ عَنِ الطَّرِيقِ أَوْ الْهَدَفِ.

(٦) الْبَحْتَرِي، الدِّيَوَانُ: ٢٠٦/٢. وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ يَمْلَحَ بِهَا الْحَسَنُ بْنُ مُخَلَّدٍ.

وقال أعرابي يصف رجلاً: كان إذا ولّى لم يطابق بين جفونه، ويرسل العيون على عيونه؛ فهو غائب عنهم، شاهد معهم، والمحسّن آمن، والمسيء خائف.

فَتَى رُوحُهُ رُوحٌ بَسِيطٌ كَيَانُهُ وَمَنْكَنُ ذَاكَ الرُّوحِ نُورٌ مُجَسَّدُ
صَفَا وَنَفَى عَنْهُ الْقَذَى فَكَأَنَّهُ إِذَا مَا اسْتَشَفَّنَتْهُ الْعُقُولُ مُصْعَدُ
كَرَّمْتُمْ فَجَاشَ الْمُفْحَمُونَ بِمَدْحِكُمْ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَتَبُّنُمْ فَقَصَّدُوا
أَرَى مَنْ تَعَاطَى مَا بَلَغْتُمْ كَرَائِمَ مَنَالِ الثَّرِيَّا وَهُوَ أَكْمَهُ مُقْعَدُ
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأُضْحَتْ وَعُجِبُ الطَّيْرِ فِيهَا مُعَرَّدُ
وفي هذه القصيدة يقول: (١)

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بِكَاءِ الطِّفْلِ سَاعَةً يُولَدُ
وَالَا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنِّهَا لِأَفْصَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَزْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ رَدَاهَا يُهَدَّدُ

قال الصولي: افتتح ابن الرومي هذه القصيدة على ما لا يلزمه من فتح ما قبل حَرَفِ الروي اقتداراً فحمله ذلك على أن قال:

مُتَاحٌ لَهُ مِقْدَارُهُ فَكَأَنَّمَا تَقَوَّضَ ثَهْلَانٌ عَلَيْهِ وَصَنَدُ (٢)

ثهلان: اسم جبل، وهذا لا يصح، إنما هو صندد بكسر الدال؛ لأن فعللاً لم يجرى إلا في أربعة أحرف: درهم، وهجرع [للأحمق]، وهبلع الذي يبلغ كثيراً، وقلمع للذي يقلع الأشياء.

وقول ابن المعتز في وصف السيف:

كَأَنَّمَا تَنْفَسُ فِيهِ الْقَيْنُ وَهُوَ صَقِيلُ

معنى بديع في وصف الفرند، وقد قال: (٣)

(١) صاحب القول هنا هو الشاعر ابن الرومي.

(٢) في الديوان: «مَنَّاكَ لَهُ مِقْدَارُهُ». ثهلان: جبل ضخّم بالعالية. وصندد: جبل بتهامة. والمتاح: المهيأ والمُقَدَّر.

(٣) ابن المعتز، الديوان: ص ٢٣.

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يَنْتَضِي إِلَّا لِسَفْكَ دِمَاءٍ^(١)
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنِدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءٍ
وَقَالَ أَيْضاً إِسْحَاقُ بْنُ خَلْفٍ:

أَلْقَى بِجَنَانٍ خَضِرٍ أَمْضَى مِنَ الْأَجَلِ الْمُتَخِ
وَكَلَّامًا ذَرَّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ

ولما صار سيفٌ عمرو بن معد يكرب الذي كان يسمَّى الصمصامة إلى الهادي، - وكان عمروٌ وهبه لسعيد بن العاص، فتوارثه ولده إلى أن مات المهدي، فاشتره موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان أوسع بني العباس كفاً، وأكثرهم عطاءً - ودعا بالشعراء، وبين يديه مِكتَل فيه بَدْرَةٌ، فقال: قولوا في هذا السيف؛ فبدر ابن يامين البصري فقال:

حَارَ صَمَصَامَةُ الزُّبَيْدِي مِنْ يَدِ مِنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ^(٢)
سَيْفٌ عَمَرُو وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا خَيْرَ مَا أُغْمِدَتْ عَلَيْهِ الْجُنُونُ
أَخْضَرَ اللَّوْنَ بَيْنَ خَدَّيْهِ بَرْدٌ مِنْ دُغَافٍ يَمِيسُ فِيهِ الْمُنُونُ^(٣)
أَوْقَدْتُ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَاراً ثُمَّ شَابَتْ فِيهِ الذَّعَافَ الْقَيُونُ^(٤)
فَإِذَا مَا سَلَلْتُهُ بِهَرِّ الشَّمْسِ سَنَ ضِيَاءٍ فَلَسَمَ تَكَدُ تَسْتَيِّنُ^(٥)
مَا يُيَالِي مَنْ انْتَضَاهُ لِحَرْبٍ أَشْمَالٌ سَطَطَتْ بِهِ أَوْ يَمِينُ
يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارُ كَالْقَبَسِ الْمُثَدِّ عَلِ مَا تَسْقُرُ فِيهِ الْعَيُونُ
وَكَأَنَّ الْفِرْنِدَ وَالْجَوْهَرَ وَالْجَا رِي عَلَى صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
نَعْمَ مِخْرَاقُ ذِي الْحَفِيفَةِ فِي الْهَيْ جَاءَ يَعْصِي بِهِ وَنَعْمَ الْقَرِينُ

قال موسى: أصبت ما في نفسي، واستخفَّه [الفرح] فأمر له بالمِكتَل^(٦) والسيف؛

(١) الصارم: القاطع، الباتر. وانتضى السيف: أخرجته من غمده.

(٢) الصمصامة والصمصام: السيف الصارم لا ينثني.

(٣) الذعاف: الشُّم. يَمِيسُ: يتبختر. المنون: الموت.

(٤) شابت: خلطت. القيون: جمع قين: الحداد.

(٥) بهر الشمس: غلبها ضياءٌ ولمعاناً.

(٦) المِكتَل: زَنْبِيلٌ يُعْمَلُ مِنَ الْخَوْصِ، الْجَمْعُ مَكَاتِلُ.

فلما خرج قال للشعراء: إنما حُرِّمْتُمْ من أجلي، فشأنكم المكتل وفي السيف غناي [فقام موسى] فاشترى منه السيف بمالٍ جليل.

البحثري: (١)

قَدْ جُذْتُ بِالطَّرْفِ الْجَوَادِ فَتَنَهُ
يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ الْبَعِيدَ مَنَالَهُ
بِإِنَارَةٍ فِي كُلِّ حَتَفٍ مُظْلِمٍ
يَغْشَى الْوَعْيَ فَالْتَرَسُ لَيْسَ بِجَنَّةٍ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُضْفِهِ يَدُ فَارِسٍ
مُضْغٌ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى فَإِذَا مَضَى
مُتَوَقِّدٌ يَقْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ
فَكَأَنَّ فَارِسَهُ إِذَا اسْتَعْصَى بِهِ الزَّ
فَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ
حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةَ بِقَلَّةٍ

لَأَخِيكَ مِنْ جَدَوَى يَدِيكَ بِمُنْصِلٍ (٢)
عَفَوًا، وَيَفْتَحُ فِي الْفَضَاءِ الْمُفْقِلِ
وَهِدَايَةٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ مَجْهَلٍ (٣)
مِنْ حَدِّهِ، وَالذَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلٍ (٤)
بَطْلٍ، وَمَضْفُوقٌ وَإِنْ لَمْ يُضْقَلِ
لَمْ يَلْتَفِتْ، وَإِذَا قُضِيَ لَمْ يَعْدِلِ
مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهَا فِي يَدْبُلٍ (٥)
حِفَانٍ يَعْصِي بِالسَّمَاءِ الْأَعَزَلِ (٦)
وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلٍ
مِنْ عَهْدٍ عَادٍ غَضَّةٌ لَمْ تَذْبُلِ

وقال أبو القاسم بن هانيء للمعز:

عَجَبًا لِمُنْصِلِكَ الْمَقْلَدِ كَيْفَ لَمْ
لَمْ يَخْلُ جَبَارُ الْمُلُوكِ بِذِكْرِهِ

تَسِلُ النُّفُوسُ عَلَيْكَ مِنْهُ مَسِيلًا
إِلَّا تَشْحَطَ فِي الدِّمَاءِ قَتِيلًا (٧)

(١) البحثري، الديوان: ٣٦٩/٢. والآيات من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب.

(٢) في الديوان: «لَأَخِيكَ مِنْ أَدَدِ أَبِيكَ بِمُنْصِلٍ». الطَّرْفُ: الكريم من الناس والخيال ونحوها، والمراد هنا: الجواد الكريم. والجدوى: العطاء. والمنصل: السيف.

(٣) في الديوان:

يَا نَارَةً فِي كُلِّ حَتَفٍ مُظْلِمٍ وَهِدَايَةً فِي كُلِّ أَرْضٍ مَجْهَلٍ
(٤) الْجَنَّةُ: الشَّيْءُ، وكل ما وقى من سلاح وغيره. والمعقل: الملجأ والحصن.

(٥) في الديوان: «مَتَأَلَّقٌ يَقْرِي...». يَقْرِي: يقطع. يذبل: اسم جبل في بلاد نجد.

(٦) في الديوان:

وَكَأَنَّ شَاهِرَهُ إِذَا اسْتَعْصَى بِهِ فِي الرُّوْعِ يَعْصِي بِالسَّمَاءِ الْأَعَزَلِ
(٧) تَشْحَطَ فِي دَمِهِ: اضْطَرَبَ وَتَخَبَّطَ.

فإذا رأيناهُ رأينا عِلَّةً للنيراتِ ونَيراتٍ مَعْلولا
بك حُسْنُهُ مُتَقَلِّداً وَبِهَاؤُهُ مُتَنَكِّباً وَمَضَاؤُهُ مَنَلولا
فإذا غَضِبْتَ عَلَتْهُ دُونُكَ رُبْدَةٌ يَغْدُو بِهَا طَرْفُ الزَّمانِ كَحِيلَا^(١)
وإذا طَرَبْتَ إِلَى الرِّضَا أَهْدَى إِلَى شَمْسِ الظَّهيرةِ عَارِضاً مَضْفُولا
كَتَبَ الْفِرْنَدُ عَلَيْهِ بَعْضَ صِفَاتِكُمْ فَعَرَفْتُ فِيهِ التَّاجَ وَالْإِكْلِيلَا
وقال:

هَلْ يُدَيِّنُنِي مِنْ فَنَائِكَ سَابِحٌ مَرِيحٌ وَجَائِلَةُ النَّسْوِجِ^(٢) أَمُونُ^(٣)
وَمُهَنْدٌ فِيهِ الْفِرْنَدُ كَأَنَّهُ دَرَّ لَهُ خَلْفَ الْفِرَاتِ كَمِينُ
عَضْبُ الْمَضَارِبِ مَقْفَرًا مِنْ أَعْيُنِ لَكَنَّهُ مِنْ أَنْفَسِ مَسْكُونِ^(٤)

وأهدى الكندي إلى بعض إخوانه سيفاً، فكتب إليه: «الحمد لله الذي خصك بمنافع كمنافع ما أهديت، وجعلك تهتئز للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضي في الأمور مضاء حدة المأثور، وتصون عرضك بالإرفاد^(٥)»، كما تُصَانُ السِوْفُ بِالْأَغْمَادِ، ويطرد ماء الحياء في صفحات خدك المشوف، كما يشف الرونق في صفائح السيوف، وتصل شرفك بالعطيات، كما تصقل متون المشرفيات^(٥).

[وفد الشام بين يدي المنصور]

قدم على أبي جعفر المنصور وفدٌ من الشام بعد انهزام عبد الله بن علي، وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الغفاري، فتكلم جماعة منهم، ثم قام الحارث فقال: يا أمير

- (١) الرُبْدَةُ: سوادٌ يخالطه حُمْرَةٌ، يقال: أريد وجهه: احمرَّ حُمْرَةً فيها سواد عند الغضب، وازبد الرجل وتربد: تعبس.
- (٢) سابح: أي فرس سابح، وقد سبح الفرس: مدَّ يديه في الجري، فهو سابحٌ وسبوح. النسوجُ والأنساعُ والشُّعُ: جمع نسع، وهو سير عريض تُشدُّ به الحَقائبُ أو الرِّحال. ويقال: قلقت أنساع الدابة ونسوعها: ضمرت، وجائلة النسوع: الضامرة. والأمون: المطية المأمونة لا تعثر، ولا تفتن.
- (٣) عضب: قاطع.
- (٤) الإرفاد: الإعطاء.
- (٥) المشرفيات والمشرفة: السيوف المنسوبة إلى المشارف، تُجَلَّبُ منها. قال المتنبي:
نُعِدُّ الْمَشْرِقِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِلَا قِتَالِ
(ديوانه: ١٤/٢).

المؤمنين؛ إنا لَسْنَا وَفَدَ مَبَاهَا، وَلَكِنَّا وَفَدُ تَوْبَةٍ اسْتَحَفَّتْ حَلِيمَنَا؛ فَنَحْنُ بِمَا قَدَمْنَا مَعْتَرِفُونَ، وَبِمَا سَلَفَ مِنَّا مُتَعَذِرُونَ، فَإِنْ تُعَاقِبْنَا فِيمَا أَجْرَمْنَا، وَإِنْ تَعْفُ عَنَّا فَطَالَمَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: أَنْتَ خَطِيبُ الْقَوْمِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ ضِيَاعَهُ بِالْعُوطَةِ.

وقال رجلٌ من أهل الشام للمَنْصُورِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ انْتَقَمَ فَقَدْ شَفَى غَيْظَهُ وَانْتَصَفَ، وَمَنْ عَفَا فَتَفَضَّلَ، وَمَنْ أَخَذَ حَقَّهُ لَمْ يَجِبْ شُكْرُهُ وَلَمْ يَذْكُرْ فَضْلُهُ، وَكَظُمَ الْغَيْظِ حِلْمٌ، وَالتَّشَفَّى طَرَفٌ مِنَ الْجَزَعِ، وَلَمْ يَمْدَحْ أَهْلَ التَّقَى وَالنَّهْيِ مَنْ كَانَ حَلِيمًا بِشِدَّةِ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ بِحُسْنِ الصَّفْحِ وَالِاغْتِفَارِ وَشِدَّةِ التَّغَافُلِ، وَبَعْدُ فَالْمُعَاقِبُ مُسْتَدْعٍ لِعَدَاوَةِ أَوْلِيَاءِ الْمُذْنِبِ، وَالْعَافِي مُسْتَرَعٍ لِشُكْرِهِمْ آمِنٌ مِنْ مَكَافَاتِهِمْ، وَلَأَنْ يُتْنَى عَلَيْكَ بِاتِّسَاعِ الصَّدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُوصَفَ بِضَيْقِهِ، عَلَى أَنْ إِقَالَتِكَ عَثَرَاتُ عِبَادِ اللَّهِ مُوجِبٌ لِإِقَالَةِ عَثَرَتِكَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمَوْصُولُ بَعْفُوهِ، وَعِقَابُكَ إِيَاهُمْ مَوْصُولٌ بِعِقَابِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).

[بعض ما قيل في العفو]

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه: «إِذَا كُنْتُ لَمْ تَرْضَ مِنِّي بِالْإِسَاءَةِ فَلَمْ رَضِيَتْ مِنْ نَفْسِكَ بِالْمَكَافَاةِ».

وأذنب رجلٌ من بني هاشم فقبضه المأمون، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ حَمَلَ مِثْلَ دَالَتِي، وَلَيْسَ ثَوْبٌ حَرَمَتِي، غُفِرَ لَهُ مِثْلُ زَلَّتِي، قَالَ: صَدَقْتَ وَعَفَا عَنْهُ.

ولما دخل بعض الكتاب على أميرٍ بعد نكبة نالته فرأى من الأمير بعضَ الازدراء، فقال له: لَا يَضَعُنِي عِنْدَكَ خُمُولُ التَّبَوَّةِ، وَزَوَالُ الثَّرْوَةِ؛ فَإِنَّ السِّيفَ الْعَتِيقَ إِذَا مَسَّهُ كَثِيرُ الصَّدَا أَسْتَعْنَى بِقَلِيلِ الْجَلَاءِ حَتَّى يَعُودَ حُدُّهُ، وَيُظْهَرُ فِرْنُدُّهُ؛ وَلَمْ أَصِفْ نَفْسِي عَجَبًا، لَكِنْ شُكْرًا. وقال ﷺ: «أَنَا أَشْرَفُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ؛ فَجَهَرَ بِالشُّكْرِ، وَتَرَكَ الاسْتِطَالَةَ بِالْكِبَرِ».

[تميم بن جميل والمعتصم]

وكان تميم بن جميل السدوسي [قد أقام] بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب، فَعَظُمَ أَمْرُهُ، وَبَعُدَ ذِكْرُهُ؛ فَكَتَبَ الْمَعْتَصِمُ إِلَى مَالِكِ بْنِ طَلُوقٍ فِي النُّهُوضِ إِلَيْهِ،

(١) سورة الأعراف، آية (١٩٩).

فَتَبَدَّدَ جَمْعُهُ، وظفر به فَحَمَلَهُ مَوْثِقًا إِلَى بابِ المَعْتَصِمِ، فقال أحمد بن أبي دؤاد: ما رأيت رجلاً عاين الموت، فما هالَهُ ولا شغله عما كان يَجِبُ عليه أن يفعلَه إلا تَمِيم بن جَمِيل؛ فإنه لما مَثَلَ بين يدي المَعْتَصِمِ وأحضر السيفَ والنَّطْعَ، ووقف بينهما، تأمله المَعْتَصِم - وكان جَمِيلًا وَسِيمًا - فَأَحَبَّ أن يَعْلَمَ أين لسانُهُ من منظره، فقال: تكلم يا تَمِيم، فقال: أَمَّا إِذْ أذَنْتَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا أَقُولُ: الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وِبدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، [يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:] جبر [الله] بك صَدْعَ الدِّينِ، وَلَمْ يَكْ شَعَثَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَوْضَحَ بِكَ سُبُلَ الْحَقِّ، وَأَحْمَدَ بِكَ شِهَابَ الْبَاطِلِ؛ إِنْ الذُّنُوبَ تَخْرُسُ الْأَلْسُنُ الْفَصِيحَةَ، وَتُعْيِي الْأَفْتَدَةَ الصَّحِيحَةَ، وَلَقَدْ عَظُمَتِ الْجَرِيرَةُ، وَانْقَطَعَتِ الْحَبَّةُ وَسَاءَ الظَّنُّ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَفْوُكَ وَانْتِقَامُكَ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَهُمَا مِنِّي وَأَسْرَعَهُمَا إِلَيَّ أَشْبَهُهُمَا بِكَ، وَأُولَاهُمَا بِكَرَمِكَ، ثُمَّ قَالَ:

أرى الموت بين السيف والنَّطْعِ كامناً
وأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي
وَأَيُّ امْرِئٍ يَأْتِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي
وَلَكِنْ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكْتُهُمْ
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ يَغِيظُنِي
وَكَمْ قَاتِلٍ لَا يَبْعِدُ اللَّهُ دَارَهُ
يُلاحظني مِنْ حَيْثُمَا أَتَلَقْتُ^(١)
وَأَيُّ امْرِئٍ مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُقْلِتُ^(٢)
وَسَيْفُ الْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُضَلَّتْ^(٣)
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُّوَقَّتٌ^(٤)
وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَنْفَتَتْ^(٥)
أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مَوْتُوا^(٦)
وَأَخْرَجَ جَذْلَانِ يُسْرُ وَيَسْمَتُ^(٧)

فَتَبَسَّمَ المَعْتَصِمُ وَقَالَ: يا جَمِيل، قَدْ وَهَبْتُكَ لِلصَّبِيَّةِ، وَغَفَرْتُ لَكَ الصَّبَوَةَ، ثُمَّ أَمَرَ بِفِكَ قِيودِهِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ.

- (١) النطع: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.
- (٢) في العمدة في محاسن الشعر: ١٩٤/١: «وَأَيُّ امْرِئٍ يَدْلِي بِعُذْرٍ». وسيف مُضَلَّتْ: مُخْرَجٌ مِنْ غَمَدِهِ.
- (٣) في العمدة: «وَمَا حَزَنِي أَنِّي أَمُوتُ وَإِنِّي». وَمَوْقَّتٌ: له وقت محدود، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.
- (٤) بعده في العمدة:
- (٥) في العمدة: «عاشوا خافضين».
- (٦) في العمدة: «فكم قاتل: لا أبعد الله داره».

وَقَدْ خَصَّصُوا تِلْكَ الرُّجُوعَ وَصَوَّتُوا

كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ

[من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر]

وكتب المعتصم - حين صارت إليه الخلافة - إلى عبد الله بن طاهر: عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هَنَاتٌ غفرها الاقتدار، وَبَقِيَتْ حَزَازَاتٌ أَخَافُ منها عليك عند نظري إليك؛ فإن أُنَاكَ أَلْفُ كِتَابٍ أَسْتَقْدَمُكَ فِيهِ فَلَا تَقْدَم، وَحَسْبُكَ مَعْرِفَةٌ بِمَا أَنَا مُنْطَوٍ لَكَ عَلَيْهِ إِطْلَاعِي إِيَّاكَ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِي مِنْكَ، وَالسَّلَام.

[الخليفة المعتصم]

قال العباس بن المأمون: ولما أَفْضَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُعْتَصِمِ دَخَلْتُ، فَقَالَ: هَذَا مَجْلِسٌ كُنْتُ أَكْرَهُ النَّاسَ لِمَجْلُوسِي فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَعْفُو عَمَّا تَيْقُتُهُ، فَكَيْفَ تَعَاقِبُ عَلَى مَا تَوْهَمْتَهُ؟ فَقَالَ: لَوْ أَرَدْتُ عِقَابَكَ لَتَرَكْتُ عِتَابَكَ.

وكان المعتصم شَهْمًا، شَجَاعًا، عَاقِلًا، مُقْوَاهًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي [خُلَفَاءِ] بَنِي الْعَبَّاسِ أَمِيٍّ غَيْرِهِ؛ وَقِيلَ: [بَلْ كَانَ يَكْتُبُ خَطًّا ضَعِيفًا، وَ] كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى جَنَازَةً لِبَعْضِ الْخَدَمِ، فَقَالَ: لَيْتَنِي مِثْلُهُ لَا تَخْلُصَ مِنَ الْكُتَّابِ! فَقَالَ الرَّشِيدُ: وَاللَّهِ لَا عَذْبَتَكَ بِشَيْءٍ تَخْتَارُ عَلَيْهِ الْمَوْتَ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الزَّجَاجِيُّ: وَهَذَا شَيْءٌ يُحْكِي مِنْ غَيْرِ رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ، إِلَّا أَنَّ جَمَلَتَهُ أَنَّهُ كَانَ ضَعِيفَ الْبَصَرِ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَقَرَأَ أَحْمَدُ بْنُ عِمَارٍ الْمَذْرُوبِ^(١) - وَكَانَ يَتَقَلَّدُ الْعَرَضَ عَلَيْهِ فِي الْحَضْرَةِ - كِتَابًا فِيهِ: «وَمَطَرُنَا مَطَرًا كَثُرَ عَنْهُ الْكَلَاءُ» فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ: مَا الْكَلَاءُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي. فَقَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! خَلِيفَةُ أُمِّي وَكَاتِبُ أُمِّي! ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَقْرُبُ مِنَّا مِنْ كِتَابِ الدَّارِ؟ فَعَرَفَ مَكَانَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَاتِ، وَكَانَ يَتَوَلَّى قَهْرَمَةَ^(٢) الدَّارِ، وَيُشْرِفُ عَلَى الْمَطْبَخِ، فَأَحْضَرَهُ، فَقَالَ: مَا الْكَلَاءُ؟ فَقَالَ: النَّبَاتُ كُلُّهُ رَطْبٌ وَيَابِسُهُ؛ فَالرَّطْبُ مِنْهُ خَاصَةٌ يُقَالُ لَهُ خَلَاءٌ، وَمِنْهُ سَمِيَتْ الْمُخْلَاةُ، وَالْيَابِسُ يُقَالُ لَهُ حَشِيشٌ، ثُمَّ انْدَفَعَ فِي صِفَاتِ النَّبَاتِ مِنْ ابْتِدَائِهِ إِلَى اكْتِمَالِهِ إِلَى هَيْجِهِ، فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ الْمُعْتَصِمُ، وَوَلَّاهُ الْعَرَضَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلَمْ يَزَلْ وَزِيرًا مَدَّةَ خِلَافَتِهِ [وَخِلَافَةِ الْوَاثِقِ]، حَتَّى نَكَبَهُ الْمُتَوَكِّلُ بِحَقْقِهِ حَقَّقَهَا عَلَيْهِ أَيَّامَ أَخِيهِ الْوَاثِقِ.

(١) فِي نَسْخَةٍ: «أَحْمَدُ بْنُ عِمَارٍ الشَّيْذَرِيُّ».

(٢) الْقَهْرَمَانُ: هُوَ الْمَسِيطَرُ الْحَفِيزُ عَلَى مَا تَحْتَ يَدَيْهِ (فَارْسِي مُعَرَّب). وَقِيلَ: الْقَهْرَمَانُ: مِنْ أَمْنَاءِ الْمَلِكِ وَخَاصَّتِهِ، كَالْخَازِنِ، وَالْوَكِيلِ، وَالْحَافِظِ لِمَا تَحْتَ يَدِهِ.

المعتصم يكتب لملك الروم

وقال الرياشي: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدده فيه، فأمر بجوابه، فلما قرئ عليه لم يَرْضَ ما فيه، وقال لبعض الكتاب: اكتب «أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عُقِيَ الدار».

بين الحجاج وقطري بن الفجاءة

وهذا نظير قول قَطْرِي^(١) للحجاج، وقد كتب إليه كتاباً يتهدده، فأجابه قطري: أما بعد، فالحمد لله الذي لو شاء لجمع شخصيتاً؛ فعلمت أَنَّ مُثاقفة الرجال [أقوم] مِنْ تَسْطِير المَقال، والسلام.

[كعب بن معدان الأشعري^(٢) عند الحجاج] [ووصفه بني المهلب بن أبي صفرة]

ولما افتتح المهلبُ خراسان، ونَقَى الخوارج عنها، وتفرقت الأزارقة كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لي بخبر الواقعة، وشرح لي القصة حتى كأني شاهدها؛ فبعث إليه المهلبُ كعب بن معدان الأشعري، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتاً تقتض خبرهم لا يخرم منه شيئاً؛ فقال له الحجاج: أخطيب أم شاعر؟ قال له: كلاهما، أعزَّ الله الأسير! قال: أخبرني عن بني المهلب، فقال له: المغيرةُ سيدهم، وكفك بيزيد فارساً، وما لقي الأبطال مثل حبيب، وما يستحي شجاع أن يفرَّ من مُدْرِك، وعبد الملك موتٌ [ذَعاف وسم] نافع، وحسبك بالفضل في النجدة، واستجْهز قبيصة، ومحمد ليث غاب، فقال الحجاج: ما أراك فضلت عليهم واحداً منهم؛ فأخبرني عن جملتهم ومن أفضلهم؟ فقال: هم - أعزَّ الله الأمير! - كالحلقة المُفرَّغة لا يُدْرَى أين طرفها، قال: إنَّ خبرَ حَرْبِكُم كان يبلغني عظيماً، أفكذلك كان؟ قال:

(١) هو أبو نَعامة، قَطْرِي بن الفجاءة بن مازن بن يزيد بن زيد مناة من بني كابية بن حُرْقُوص: خطيب، شاعر، فارس، شجاع، من زعماء الخوارج الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق. قُتل في إحدى معاركه مع الأمويين سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/٤٥٨).

(٢) كعب بن معدان الأشعري - والصحيح الأشقري - والأشاعر: قبيلة من الأزدي، وأمه من عبد القيس: شاعر، فارس، خطيب، شجاع، من أصحاب المهلب بن أبي صفرة. أثنى الفرزدق عليه فقال: شعراء الإسلام أربعة: أنا، وجريرو، والأخطل، وكعب الأشقري. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/٢٦٦).

نعم أيها الأمير، والسماع دون العيان. قال: أخبرني كيف رَضَا المهلبُ عن جنده ورضَا جنده عنه؟ قال: أعزَّ الله الأمير، له عليهم شفقة الوالد، ولهم به برُّ الولد. قال: أخبرني كيف فاتكم قَطْرِي؟ قال: كَذَنَاهُ فِي مَنْزِلِهِ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ، وَتَوَهَّمُ أَنَّهُ كَادَنَا بِذَلِكَ، قَالَ: فَهَلَا اتَّبَعْتُمُوهُ، قَالَ: الْكَلْبُ إِذَا أُجْحِرَ عَقَرَ، قَالَ: الْمَهْلَبُ كَانَ أَعْلَمَ بِكَ حَيْثُ أَرْسَلْتُكَ.

[بشر بن مالك عند الحجاج]

[يصف أبناء المهلب أيضاً]

وقد رُوي أَنَّ الْمَهْلَبَ لَمْ يَرِغْ مِنْ قَتْلِ عَبْدِ رَبِّهِ الْحَرُورِيِّ دَعَا بِبَشَرَ بْنِ مَالِكٍ فَأَنْفَذَهُ بِالْبَشَارَةِ إِلَى الْحَجَّاجِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ قَالَ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: بِشَرِّ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: بَشَارَةُ وَمَلِكُ! وَكَيْفَ خَلَقْتَ الْمَهْلَبَ؟ قَالَ: خَلَقْتَهُ وَقَدْ آمَنَ مَا خَافَ، وَأَدْرَكَ مَا طَلَبَ، قَالَ: كَيْفَ كَانَتْ حَالُكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ؟ قَالَ: كَانَتْ الْبِدَاءَةُ لَهُمْ، وَالْعَاقِبَةُ لَنَا، قَالَ الْحَجَّاجُ: الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا حَالُ الْجَنْدِ؟ قَالَ: وَسِعَهُمُ الْحَقُّ، وَأَغْنَاهُمُ الثَّقَلُ، وَإِنَّهُمْ لَمَعَ رَجُلٍ يَسُوْسُهُمْ سِيَاسَةَ الْمُلُوكِ، وَيَقَاتِلُ بِهِمْ قِتَالَ الصُّعْلُوكِ، فَلَهُمْ مِنْهُ بَرٌّ الْوَالِدِ، وَلَهُ مِنْهُمْ طَاعَةُ الْوَلَدِ، قَالَ: فَمَا حَالُ وَلَدِ الْمَهْلَبِ؟ قَالَ: رِعَاةُ الْبَيَّاتِ حَتَّى يُؤْمِنُوهُ، وَحُمَاةُ السَّرْحِ حَتَّى يَرُدُّوهُ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ذَلِكَ إِلَى أَبِيهِمْ، قَالَ: وَأَنْتَ أَيْضاً، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَاناً وَعِبَارَةً، قَالَ: هُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا، قَالَ: وَيَحْكُ! أَكُنْتَ أَعَدَدْتَ لِهَذَا الْمَقَامِ هَذَا الْمَقَالَ؟ قَالَ: لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ.

[أبو الصقر وصاعد بن مخلد]

وَدَخَلَ أَبُو الصَّقَرِ قَبْلَ زَوَارَتِهِ عَلَى صَاعِدِ بْنِ مَخْلَدٍ، وَهُوَ الْوَزِيرُ حِينَئِذٍ، وَفِي الْمَجْلِسِ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ ثَوْبَةَ، فَسَأَلَ الْوَزِيرُ عَنْ رَجُلٍ، فَقَالَ: أَنْفِي، يَرِيدُ نَفِي، فَقَالَ ابْنُ ثَوْبَةَ: فِي الْخَرَّةِ، فَتَضَاحَكَ بِهِ أَهْلُ الْمَجْلِسِ، فَقَامَ أَبُو الصَّقَرِ مُخْضَباً.

[أبو العيناء وابن ثوبة]

وَكَانَ أَبُو الْعَيْنَاءِ يُعَادِي ابْنَ ثَوْبَةَ لِمُعَادَاتِهِ لِأَبِي صَقَرٍ؛ فَاجْتَمَعَا فِي مَجْلِسِ صَاعِدٍ فِي غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَتَلَا حَيًّا، فَقَالَ ابْنُ ثَوْبَةَ: أَمَا تَعْرِفْنِي؟ فَقَالَ: بَلَى أَعْرِفُكَ ضَيْقَ الطَّعْنِ، كَثِيرَ الْوَسَنِ، خَارًّا عَلَى الدَّقْنِ، وَقَدْ بَلَغْنِي تَعْدِيكَ عَلَى أَبِي الصَّقَرِ، وَإِنَّمَا حَلُمْتُ عَنْكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَكَ عِزًّا فَيَذَلُّهُ، وَلَا عُلُوًّا فَيُضَعِّعُهُ، وَلَا مَجْدًا فَيَهْدِمُهُ؛ فَعَافَ لِحَمَكَ أَنْ يَأْكُلَهُ، وَدَمَكَ أَنْ

يَسْفِكْكَ، فقال ابن ثوبة: ما تسابَ إنسانان إلا غلبَ الأَمَهما، فقال أبو العِيَناءِ: فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر!

[من مكارم أبي الصقر]

مما يُعَدُّ من مكارم أبي الصقر أن ابن ثوبة دخل عليه في وزارته، فقال: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثرِبَ عليك يغفر الله لك [وهو أرحم الراحمين]، فما قَصَرَ في الإحسانِ إليه، والإنعامِ عليه، مدة وزارته.

[أبو الصقر وأبو العِيَناءِ]

ولما ولي أبو الصقر الوزارة خيّر أبا العِيَناءِ فيما يُحبُّه حتى يفعلَه به، فقال: أريد أن يكتبَ [لي الوزير] إلى أحمد بن محمد الطائي يعرفُه مكاني، ويلزمُه قضاءً حق مثلي. فكتب إليه كتاباً بخطه، فوصلَه إلى الطائي، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دينار، وعاشره أجمل عشرة، فانصرف بجميع ما يحبّه.

كتاب من أبي العِيَناءِ إلى أبي الصقر

وكتب إلى أبي الصقر كتاباً مضمّنهُ: أنا - أعزُّكَ الله - طليقُكَ من الفقر، ونقيذُكَ من البؤس، أخذتَ بيدي عند عَثَرَةِ الدهر، وكَبَوةِ الكِبَر، وعلى أية حالٍ حين فقدت الأولياء والأشكال والإخوان والأمثال، الذي يفهمون في غيرِ تعب، وهم الناسُ الذين كانوا غِيائاً للناس، فحللت عقدة الخَلَّة، ورَدَدْتُ إليّ بعد النُفُورِ النعمة، وكتبت لي كتاباً إلى الطائي، فكأنما كان منه إليك، أتيتُه وقد استصعبت عليّ الأمور، وأحاطت بي النوائِب؛ فَكَثُرَ من بَشَرِهِ، وبَدَلَ من يُسَرِّهِ، وأعطى من ماله أَكْرَمَهُ، ومن بَرَهُ أَحْكَمَهُ، مُكْرِماً لي مدة ما أَقَمْتُ، ومُثْقِلاً لي من فَوادِهِ لما ودَّعْتُ، حكمني في ماله فتحكمتُ، وأنتَ تعرفُ جَوْرِي إذا تمكَّنتُ، وزادني من طَوْلِهِ فشكَّرتُ؛ فأحسنَ اللهُ جِزاءَكَ، وأعظمَ حِباءَكَ، وقَدَمَني أَمامَكَ، وأعادَني من فَقْدِكَ وحِمايِكَ؛ فقد أنفقتَ عليّ مما ملَّكَكَ اللهُ، وأنفقتَ من الشكر ما يَسِّرُهُ اللهُ لي، واللهُ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾^(١) فالحمدُ لله الذي جعل لك اليدَ الغالبة، والرتبةَ الشريفة، لا أزالُ اللهُ عن هذه الأمة ما بَسَطَ فيها من عَدْلِكَ، وبَثَّ فيها من رِفْدِكَ.

(١) سورة الطلاق، آية (٧).

[أبو العيناء يذم ابن الخصيب]

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذي عمله أبو العيناء في ذم أحمد بن الخصيب لَمَّا
نَكِبَ على ألسنة الكتّاب والقوَاد وأرباب الدولة [في ذلك الوقت]. قال: ذكره محمد بن
عبد الله بن طاهر فقال: ما زال يَخْرُق ولا يَرْقَع. وما زِلْتُ أَتَوَقَّعُ له الذي وَقَعَ فيه.
[وذكره أنامش، فقال: عذر بمن آثره، وتخطى إلى ما لا يقدره، فحل به ما يحذره.
وذكره بُغَاءُ فقال: أَبْطَرَتْهُ النعمة، ففجأته النعمة]. وذكره وصيف فقال: تَرَكَ العقلاء على
يَأْسٍ مرتبته، والْحَمَقَى على رجاء درجته! وذكره موسى بن بُغَاء فقال: لولا أَنَّ القَدْرَ
يعشى البَصَرَ، لما نَهَى فينا ولا أمر. وذكره فارس بن بغاء فقال: لم تَمِّ له نِعْمَةٌ؛ لأنه لم
تَكُنْ له في الخير هِمَّة. وذكره الفضل بن العباس فقال: إن لم يكن تاريخ البلاء فما أعظم
البلوى. وذكره هرون بن عيسى فقال: كانت دولة من دُولِ المجانين، خرجت من الدنيا
والدين. وذكره المُعَلَّى بن أيوب، فقل له: ما أعجب بما نكَبَ، فقال: نِعْمَتُهُ أعجبُ من
نَكْبَتِهِ! وذكره ميمون بن إبراهيم، فقال: لو تأمَّلَ فعاله فاجتنبها، لاستغنى عن الآداب أن
يطلبها! وذكره محمد بن نجاح فقال: لئن كانت النعمة عَظُمَتْ على قوم خرج عنهم لقد
عَظُمَتْ المصيبة على قوم نزل فيهم! وذكره علي بن [يحيى بن] المنجم، فقال: لم يكن له
أَوَّلُ يَرْجِعُ إليه، ولا آخر يعود عليه، ولا عقل فيزكو لديه! وذكره محمد بن موسى بن
شاكر المنجم فقال: [قَبَّحَهُ الله] إن ذكرتَ ذَا فَضْلٍ تنقصه لما فيه من ضِدِّه، أذكرتَ ذَا
نَقْصٍ تولاه لما فيه من شكله. وذكره ابنُ ثَوَابَةِ فقال: امرؤُ أَسَاءَ عِشْرَةِ الأحرار، فأصبح
مُفْقِرَ الديار. وذكره حجاج بن هُرُون فقال: ما كان له في الشرف أسبابٌ مِتَانٌ، ولا في
الخير عاداتٌ حِسَانٌ. وذكره [أحمد بن حمدون فقال: إن منحته القدرة لقد حملته النكبة.
وذكره] محمد بن الفضل فقال: ما زال يستوحشُ بالنعمة حتى أنس بالنقمة. وذكره عبد
الله بن فراس فقال: كنت إذا نصحتُه زَنَانِي، وإذا غششته مَتَانِي. وذكره أبو صالح بن عمار
فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال: إذا أصاب أحجم،
وإذا أخطأ صمم.

[أبو بكر سيويه وأهل مصر]

وكان في هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسيويه ناقلة البصرة يُشَبِّهه في حضور

جوابه وخطابه، وحُسن عبارته، وكثرة رَوَايته، وكان قد تناول البلاذر^(١)؛ فعرضت له منه لُوثة^(٢)، وكان أكثرُ الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول.

قال يوماً للمصريين: يا أهل مصر، أصحابنا البغداديون أحزَمُ منكم، لا يقولون بالولد، حتى يتخذوا له العُقْد والعُدْد؛ فهم أبداً يعتزلون. ولا يقولون باتخاذ العَقَار خوفاً أن يملكهم سوء الجوار؛ فهم أبداً يكتزون. ولا يقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تتوق نفسهم إلى السَّراري^(٣)؛ فهم أبداً يتسرَّرون. ولا يقولون أبداً بإظهار الغنى [في مكان] عُرِفوا فيه بالفقر؛ فهم أبداً يسافرون.

ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلق مأخذها، فقال: يا أهل مصر، حيطان المقابر أنفعُ منكم، يُسْتَنَزَّ بها من التعب، ويُسْتَدْفَأُ بها من الريح، ويُسْتَظَلُّ بها من الشمس. والبهائم خيرُ منكم تُمتطى ظهورها، وتُحتذى جلودها، وتؤكل لحومها.

وكان أبو الفضل بن خزانة الوزير، ربما رفع أنفهَ تَبْهًا، فقال له سيويه، وقد رآه فعل ذلك: أشمَّ مني الوزيرُ رائحةَ كريهة فشمرَ أنفه، فأطرق واستعمل النهوض، فخرج سيويه، فقال له رجل: من أينَ أقبلت؟ فقال: من عند الزَّاهي بنفسه، المذلِّ بفرسه، المستطيل على أبناء جنسه.

واستأذن على مسلم بن عبيد الله العلوي، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر، فحجب عنه، فقال: قولوا له: يرجع إلى لبس العباء، ومَصَّ النوى، وسُكْنَى القَلَا، فهو أشبهُ به من نعيم الدنيا.

وكان على شُرَطِ كافور الإخشيدي أحدُ الخاصَّة، فوجد عليه سيويه في بعض الأمر، فعزل عن الشرطة، فوليها رَكِي صاحب الراضي، فلم يحمدَه أيضاً، فوقف لكافور وهو مارٌّ إلى الصلاة يوم الجمعة، فقال: أيها الأستاذ، وليت ظالماً، وعزلت ظالماً، قليل الوفاء، كثير الجفاء، غليظ القفا. فتبسم ابن بُرك البغدادِي، وكان يسائرُ كافوراً، فقال: وهذا ابن بُركٍ ممن يغرِّك، لن ينفعك ولن يضرَّك.

(١) البلاذر: شجر هندي يعلو كالجوز، ورقه عريض أغبر سبط حادَّ الرائحة، إذا نام تحته شخص سكر، وربما عرض له السبات، وهو يضر المحرورين. ويثر الفم والبدن، ويقرح، ويورث البرسام.

(٢) اللوثة: الحمق، والهيج، ومسَّ الجنون.

(٣) السَّراري: جمع سَرِيَّة، وهي الجارية المملوكة.

وَأَخْلِي الحمام لمفلح الحسيني، فأنى سيويه ليدخل، فَمُنِعَ، وقيل: الأمير مفلح به، فقال: لا أنقى الله مغسوله، ولا بلغه سوله، ولا وقاه من العذاب مهوله، وجلس حتى خرج، فقال: إن الحمام [لا يُخلى إلّا] لأحد ثلاثة: مبتلى في قبله، أو مبتلى في دبره، أو سلطان يخاف من شره، فأبي الثلاثة أنت؟ قال: أنا المُقَدَّم.

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال: قد بلغني بَدَاءُ لسانك، وقبيح معاملتك للأشراف؛ فاحذر أن تعودَ فينالك مني أشدُّ العقوبة؛ فخرج [متحزنا فكان] الولدان يتولعون به ويذكرون له الخازن، فيشتدُّ عليه ذلك، فينصرف ولا يكلمهم؛ فمرَّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبي معيط، وغلّامٌ قد ألحَّ عليه^(١) بذلك، فضحك المعيطي، فقال للغلام: ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبي ﷺ عنق عقبة بن أبي معيط على الكفر، وضرب ظَهْرَ أبيك بالسوط كما ضرب علي بن أبي طالب بأمر عثمان رضي الله عنهما ظهر الوليد بن عقبة على شُرْب الخمر، وألحقك يا صبي بالصبيّة، يريد قول النبي ﷺ، وقد قال له عقبة لما أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بقتله: «فَمَنْ لِلصَّبِيّةِ يا رسول الله؟» قال: النارُ لك ولهم، فانصرف المعيطي وبَطْنُ الأرضِ أَحَبُّ إليه من ظَهرِها.

[رجع إلى أبي العيناء]

وقال أبو العيناء: أنا أوّل من أظهر العقوقَ لوالديه بالبصرة، قال لي أبي: إن الله طاعته بطاعتي، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَسْكُرُ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ﴾^(٢)، فقلت يا أبت، إن الله تعالى قد أمني عليك ولم يأمرك عليّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِلَيْكُمْ﴾^(٣).

وقال أعرابي لأبيه: يا أبت، إن كبيرَ حقك لا يبطل صغيرُ حقّي عليك، والذي تَمَتَّ به إليّ أمتٌ بمثله إليك، ولست أزعمُ أنّا سواء، ولكن لا يحل الاعتداء.

ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمه إليه، فقال: أنا إلى ضمّ الكفاية أحوجُ مني إلى ضمّ اليدين.

وقال له مرة: أنا معك مقبوض الظاهر، مرحوم الباطن^(٤).

(١) في نسخة: «وغلّامٌ قد ألحَّ عليه بذلك».

(٢) سورة لقمان، آية (١٤).

(٣) سورة الإسراء، آية (٣١).

(٤) في نسخة: «أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن».

قال أبو الطيب المتنبّي: ^(١)

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجَبُها أتني بما أنا بأك منه محسودُ ^(٢)

وقال له رجل: يا مُحَنَّتُ، فقال: ^(٣) وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقه!

[كلمات لأبي العيناء]

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك، فقال: بأبي وأمي دَامَ الْوَجْهُ الطَّلُقُ، والقول الحقّ، والوعد الصدق، نيته أفضل من علانيته، وفعله أفضل من قوله. وقال له المتوكل: ما أشدّ ما مرّ عليك من فَقْدِ بصرك؟ فقال: ما حُرِمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير! وقال لعبيد الله بن يحيى: مسنا وأهلنا الضرّ، وبضاعتنا الحمد والشكر، وأنت الذي لا يخيب عنده حرّ. وقال له يوماً: قد اشتدّ الحجاب، وفحش الحرمان، فقال: ارفق يا أبا عبد الله، فقال: لو رفق بي فَعَلْتُكَ لرفق بك قولي! وقال له: أيها الوزير، إذا تغافل أهلُ التفضل هلك أهل التجمال. وذم رجلاً فقال: لا يعرف الحقّ فينصره، ولا الباطل فينكره. وقيل له: ما أبلغ الكلام؟ فقال: ما أسكت المُبْطِل، وخيّر المُحِقّ. وقيل له: مات الحسن بن سهل، فقال: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أُصيب بموته الأنام، وخرست بفقده الأقلام.

[مما قيل في الرثاء]

لأشجع بن عمرو السلمي

قال أشجع بن عمرو السلمي:

مَضَى ابنُ سعيدٍ حينَ لم يَتَقَ مَشْرِقُ ولا مَغْرِبُ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ
وَمَا كُنْتُ أَذْري ما فَواضِلُ كَفِهِ على النَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّفائِحُ ^(٤)

(١) المتنبّي، الديوان: ٢/ ٣٢٥. والبيت من قصيدة يهجو بها كافوراً الإخشيدي.

(٢) في الديوان: «بما أنا شاك منه محسود».

(٣) من قوله تعالى: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ». (سورة يس، آية ٧٨).

(٤) الصفائح: جمع صفيحة: كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما.

فَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ مَيِّتًا وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ^(١)
 كَأَن لَّمْ يَمُتْ مَيِّتٌ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النِّوَانُحُ
 فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعُ وَلَا يَسْرُورُ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
 لَنْ حَسِنَتْ فِيكَ الْمِرَاثِي وَذِكْرُهَا لَقَدْ حَسِنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ الْمَدَائِحُ
 سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي، فَإِنْ تَعِضُ فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تُكِنُّ الْجَوَانِحُ^(٢)

قوله:

وكانت به حيًّا تضيقُ الصحاصِحُ

للحسين بن مطير في معن بن زائدة

يتعلّق بقول الحسين بن مطير^(٣) في معن بن زائدة^(٤):

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ: سَقَّتَكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا
 فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّمَاحَةِ مَضْجَعًا^(٥)
 وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا^(٦)
 بَلَى قَدْ وَسَعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تَصْدَعَا
 فَكَيْ عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا
 وَلَمَّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الْجُودُ وَانْقَضَى وَأَصْبَحَ عَرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا^(٧)

(١) الصحاصح: ما استوى من الأرض، واحدها صحصح.

(٢) غاض الماء غِيضًا، وَمَغَاضًا، وَمَغِيضًا: نزل في الأرض وغاب فيها. تُكِنُّ: تستر، تخفي.

(٣) هو الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي: شاعر مقدم في القصيد والرجز، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية. مدح بني أمية وبني العباس، وكان كلامه وزيه يشبهان مذاهب الأعراب وأهل البادية، وذلك يبيّن في شعره. وقيل: إنه أحلق الشعراء في وصف السحاب. توفي نحو ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١١٤؛ الأصفهاني، الأغاني: ٣٣١/١٥).

(٤) في العمدة في محاسن الشعر: ١٤٨/٢، أنها تُروى لابن أبي حفصة.

(٥) في العمدة: «فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ».

(٦) وارى الشيء: ستره وأخفاه. المترع: الملآن.

(٧) العرنين: أول كل شيء، وما صَلَبَ من عظم الأنف حيث يكون الشمم. أجدع: مقطوع.

لعبد الصمد بن المعذل في عمرو بن سعيد

وهذا كقول عبد الصمد بن المعذل^(١) في عمرو بن سعيد بن سلم الباهلي:

أَقْبَرَ أَبِي أُمِّةَ لَوْ عُلَاهُ حَمَلَتْ إِذَا لَضِيقَتْ بِهِ ذِرَاعَا
حَوَيْتَ الْجُودَ وَالتَّقْوَى وَعَمْرًا فَكَيْفَ أَطَقْتَ يَا قَبْرُ اضْطِلَاعَا
لِمَوْتِهِمْ أَطَقْتَ لَهُمْ ضَمَانًا وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تُطَقِ اتِّسَاعَا

وقول أشجع:

لِئِنْ حَسَنْتَ فِيكَ الْمَرَاثِي وَذَكَرُهَا

للخنساء في أخيها صخر

من قول الخنساء: (٢)

يَا صَخْرُ بَعْدَكَ هَاجَنِي اسْتِعَارِي شَانِيكَ بَاتَ بِذَلَّتِي وَصَغَارِي
كُنَّا نَعْدُ لَكَ الْمَدَائِحَ مَدَّةً فَالْيَوْمَ صِرْتَ تُنَاحُ بِالْأَشْعَارِ

لجنوب في أخيها عمرو

وقالت جنوبُ أخت عمرو [ذي الكلب]: (٣)

سَأَلْتُ بِعَمْرٍو أَخِي صَحْبَهُ فَأَفْظَعَنِي حِينَ رَدُّوا السُّؤَالَ
فَقَالُوا: أُتِيحَ لَهُ نَائِمًا أَغْرُ السِّلَاحَ عَلَيْهِ أَجَالًا
أُتِيحَ لَهُ نِمْرًا أَجْبَلٍ فَالَا لَعَمْرُكَ مِنْهُ وَنَالَا
فَأُقْسِمُ يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهَّاكَ إِذَا نَبَّهَّا مِنْكَ دَاءَ عُضَالَا
[إِذَا نَبَّهَّا لَيْسَتْ عَرِيْسَةً مُبِيدًا مُقْنِيًا نَفُوسًا وَمَالَا]^(٤)

(١) هو أبو القاسم، عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم العبدي، من بني عبد القيس: شاعر عباسي هجاء. ولد ونشأ في البصرة. توفي نحو ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م. (الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ٢٥٤).

(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانها (دار صادر).

(٣) هي جنوب، أو ريطة الهذلية: شاعرة جاهلية، ذكرها صاحب «العمدة» في باب التسهيم (٣١/٢)، وأورد بعض أبياتها في أخيها عمرو ذي الكلب الهذلي.

(٤) في العمدة: «مُقْنِيًا مُبِيدًا نَفُوسًا وَمَالًا». والعريسة: الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد في =

إِذَا نَبَّهََا غَيْرَ رَعِيدَةٍ وَلَا طَائِشاً دَهْشاً حِينَ صَلَا
هُمَا مَعَ تَصْرِفِ رَيْبِ الْمُنُونِ مِنَ الدَّهْرِ رُكْناً شَدِيداً أَمْالَا
وَقَالُوا: قَتَلْنَاهُ فِي غَارَةٍ بِآيَةٍ أَنْ قَدْ وَرِثْنَا النَّبَالَ
فَهَلَا إِذَا قِيلَ رَيْبِ الْمُنُونِ فَقَدْ كَانَ فِذَاً وَكُنْتُمْ رِجَالاً^(١)
وَقَدْ عَلِمْتَ فَهُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِأَنَّهُمْ لَكَ كَانُوا نِفَالَا
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْثُوا بِهِ فَيَخْلُوا نِسَاءَهُمْ وَالْحِجَالَا
وَلَمْ يَنْزِلُوا بِمُحُولِ السِّنِينَ بِهِ فَيَكُونُوا عَلَيْهِ عِيَالَا
وَقَدْ عَلِمَ الضَّيْفُ وَالْمُرْمَلُونَ إِذَا اغْبَرَّ أَفْقٌ وَهَبَّتْ شِمَالَا
وَخَلَّتْ عَنْ أَوْلَادِهَا الْمَرْضِعَاتُ وَلَمْ تَرَعْ عَيْنٌ لِمُزْنٍ بِلَالَا
بِأَتِكَ كُنْتَ الرِّبِيعِ الْمُغِيثُ لِمَنْ يَعْثِيكَ وَكُنْتَ الثَّمَالَا^(٢)
وَحَرَقِ تَجَاوَزْتَ مَجْهُولَهُ بِوَجْنَاءِ حَرْفٍ تَشْكَى الْكَلَالَا^(٣)
[فَكُنْتَ النَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ وَكُنْتَ دَجَى اللَّيْلِ فِيهِ هِلَالَا
وَحَيٍّ صَبَحَتْ وَحَيٍّ أَبْحَتْ غَدَاةَ اللِّقَاءِ مَنَايَا عِجَالَا
وَكَمْ مِنْ قَبِيلٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَرَدْتَهُمْ مِنْكَ بَاتُوا وَجَالَا]

قال عمرو بن شبة: وكان عمرو بن عاصم هذا يَغْزُو فَهُمَا فَيَصِيبُ مِنْهُمْ، فَوَضَعُوا لَهُ رَصْدًا عَلَى الْمَاءِ، فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ مَرُّوا بِأَخْتِهِ جَنْوَبَ، فَقَالُوا: أَخَاكِ! فَقَالَتْ: لَنْ طَلَبْتُمُوهُ لَتَجِدُنَّهُ [مَنِيْعًا، وَلَنْ ضَفَقْتُمُوهُ لَتَجِدُنَّهُ مَرِيْعًا، وَلَنْ وَعَدْتُمُوهُ لَتَجِدُنَّهُ] سَرِيْعًا! فَقَالُوا: قَدْ أَخَذْنَاهُ فَقَتَلْنَاهُ، وَهَذَا نَبْلُهُ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَنْ سَلَبْتُمُوهُ لَا تَجِدُونَ ثَنَّتُهُ وَأَفِيْعَةً، وَلَا حَجْرَتَهُ

= خِيْسَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: كَمَبْتَعِي الصَّيْدَ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ، وَيُقَالُ: عَرِيْسٌ أَبْضًا بِلَا تَاءٍ. (١) الْفُذُّ: الْفَرْدُ.

(٢) اعْتَفَاهُ: آتَاهُ يَطْلُبُ مَعْرُوفَهُ، وَالْثَّمَالُ: الْمَلْجَأُ وَالْغِيَاثُ، قَالَ أَبُو طَالِبٍ يَمْدَحُ النَّبِيَّ ﷺ: وَأَبْيَضُ يُسْتَشْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ (ابن منظور، لسان العرب: ثمل).

(٣) الْخَرَقُ: الْمَكَانُ الْوَاسِعُ تَخْرَقُ فِيهِ الرِّيحُ، أَرَادَ الْفَلَاةَ. الْوَجْنَاءُ: النَّاقَةُ. وَالْحَرْفُ: الْمَهْزُولَةُ، وَلَا يُقَالُ: جَمَلٌ حَرْفٌ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: نَاقَةٌ حَرْفٌ، شَبَّهُوهَا إِذَا كَانَتْ ضَامِرَةً مِنَ الْهَزَالِ بِالْحَرْفِ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ، وَهُوَ الْأَلْفُ. تَشْكَى: أَصْلُهُ تَشْكَى، فَحُذِفَ إِحْدَى تَائِيهِ. وَالْكَلالُ: التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ.

جافية، ولرب ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه؛ ثم قالت الأبيات المتقدمة الذكر.

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله:

ألا في سبيل الله ماذا تَصَمَّنْتَ بطونُ الثرى واستودعَ البلدُ القفرُ
بدورٍ إذا الدنيا دَجَتْ أشرقَتْ بهم وإن أُجِدْبَتْ يوماً فأَيديهم القطرُ
فيا شامتاً بالموت لا تَشْمَتْنِ بهم حياتُهُم فخرٌ وموتُهُم ذِكرُ
أقاموا يَظْهَرُ الأرضَ فاخضرَّ عودُها وصاروا بطنَ الأرضِ فاستوحشَ الظَّهرُ

لأبي عبيد الله العتبي يرثي ابنه

وقال أبو عبيد الله العتبي، وتوفي له بنون فُجِعَ بهم ومات في آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عمرو كان يقول الشعر؛ فقال يرثيه:

لقد شَمِتَ الواشونَ بي وتَغَيَّرَتْ وُجوهٌ أراها بعدَ موتِ أبي عمرو
تَجَرَّى عَلَيَّ الدهرُ لما فَقَدْتُهُ ولو كان حياً لاجترأتُ على الدهرِ
أَسْكَنَ بطنَ الأرضِ لو يُقْبَلُ الفدى فدينا، وأعطينا بكم ساكني الظَّهرِ
فيا لَيْتَ مَنْ فيها عليها، وَلَيْتَ مَنْ عليها ثوى فيها مُقيماً إلى الحشرِ
وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بنِي مُشَاطِراً فلما توفى شطره مال في شطري
فَصَارُوا كَأَن لَمْ يَعْرِفِ الموتُ غَيْرَهُم فَكُلُّ عَلَى كُلِّ وَقَبْرٌ عَلَى قَبْرِ
وقال في ابن توفي صغيراً.

إِنْ يَكُنْ مَاتَ صَغِيرًا فالأَسَى غَيْرُ صَغِيرِ
كَانَ رَيْحَانِي فَأَمْسَى وَهُوَ رَيْحَانُ الْقُبُورِ
غَرَسْتُهُ فِي بَسَاتِي مِنَ الْبَلَى أَيْدِي السُّدُورِ

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبي قوله: ^(١)

فَإِنْ تَكُ فِي قَبْرِ فَإِنَّكَ فِي الْحَشَا وَإِنْ تَكُ طِفْلاً فَالْأَسَى لَيْسَ بِالطِّفْلِ ^(٢)

(١) المتنبي، الديوان: ٣٢/٢. والبيت من قصيدة يرثي بها أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة الحمداني.

(٢) الأسى: الحزن. يقول: إن تكن قد دُفِنْتَ في القبر فإنك مصور في القلب، وإن تكن طفلاً صغيراً، فالحزن عليك ليس بصغير.

لخلف بن خليفة الأقطع

وقال خلف بن خليفة الأقطع: ^(١)

أُعَاتِبُ نَفْسِي إِنْ تَبَسَّمتُ خَالِيَا وَقَدْ يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينُ
وَبَالِذُ أَشْجَانِي وَكَمْ مِنْ شَيْءٍ لَهُ دُوْنِ الْمُصَلَّى وَالْبَقِيعِ، شُجُونُ
رُبِّي حَوْلَهَا أَمْثَالُهَا إِنْ أَتَيْتَهَا قَرِينِكَ أَشْجَانَا وَهَنْ سُكُونُ
كَفَى الْهَجْرَ أَنَا لَمْ يَضَحْ لَكَ أَمْرُنَا وَلَمْ يَأْتْنَا عَمَّا لَدَيْكَ يَقِينُ

لأبي عطاء السندي

وقال أبو عطاء السندي ^(٢) في ابن هبيرة:

أَلَا إِنْ عَيْنَا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِيَاقِي دَمْعِيهَا لَجْمُودُ
عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّقْتُ جُيُوبَ بَأْيَدِي مَائِمٍ وَخُدُودُ
فَلِنْ تُمَسَّ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فَرِيْمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوَفُودِ وَفُودُ
فَإِنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مُعْهَدٍ بَلَى كُلُّ مَا تَحْتَ التَّرَابِ بَعِيدُ

لأعرابي

أعرابي:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ بَتَّ مُسَوِّدُ الثَّرَى وَبِتُّ بِمَا زَوَّدْتَنِي مُمْتَعَا
فَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُكَ الْوَدَّ لَمْ أَبِتَّ خِلَافَكَ حَتَّى نَنْطَوِي فِي الثَّرَى مَعَا
سَاحِمِي الْكَرَى عَيْنِي وَأَفْتَرِشُ الثَّرَى يَمِينِي إِذَا صَارَ الثَّرَى لَكَ مَضْجَعَا
وَبَعْدُكَ لَا أَسَى لِعُظْمِ رَزِيَّةٍ قَضَيْتَ فَهَوْنَتِ الْمَصَائِبِ أَجْمَعَا

- (١) هو خلف بن خليفة، من قيس بن ثعلبة بالولاء: شاعر أموي مطبوع، ظريف، راوية. قطعت يده في صباه لسرقة اتهم بها فلُقب بالأقطع. وكانت له أصابع من جلد يلبسها. توفي نحو ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٦٠٢/٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١٤٥/٦).
- (٢) هو أبو عطاء، أفلح بن يسار السندي: شاعر فحل، قوي البديهة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان عبداً أسود من موالي بني أسد. نشأ بالكوفة، وتشيع للأمويين، وهجا بني هاشم، وكانت في لسانه عجمة. توفي بعد ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م. (البغدادى، خزانة الأدب: ١٧٠/٤؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢٤٥/١).

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظماً ونثراً.

[قال أبو نواس في الأمين]:^(١)

طَوَى الموتُ ما بيني وبينَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي المنيَّةُ نَاشِرُ
لَننَ عَمِرتُ دُورَ بِمَنْ لا أَحِبُّهُ لَقَدْ عَمِرتُ مِمَّنْ أُحِبُّ المَقابِرُ^(٢)
وَكُنْتُ عليه أَحذَرُ الموتِ وَحَدَّهُ فَلَم يَبْقَ لي شيءٌ عليه أَحاذِرُ

أم الهيثم السدوسية

وقيل لأم الهيثم السدوسية: ما أسرع ما سلوت عن ابنك الهيثم! قالت: أما والله لقد رزئته كالبدل في بهائه، والرمح في استوائه، والسيف في مضاءه؛ ولقد فتئت مصيئته كبدي، وأفنى فقده جلدي، وما اعتضت من بعده إلا آمن المصائب لفقده.

أبو العيناء يعزي

وعزى أبو العيناء أحمد بن أبي دؤاد عن ولد له، فقال: ما أصيب من أثيب والله لقد هان لفقده، جليل المصائب من بعده.

لأعرابي مات بنوه بالطاعون

ودخل أعرابي من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون، فلما كان يقترنين مات بنوه بالطاعون فقال:

أبعدَ بَيِّ الدَهرِ أَرَجُو غَضارَةً من العيشِ أو آسى لما فاتَ من عُمرِي^(٣)
عَطَارِفَةً زُهرٌ مَضَوُا لِسيلِهِم فَلَهْفِي على تلكَ الغَطَارِفَةِ الزُّهرِ^(٤)
سقى اللُّهُ أجساداً ورائسي تَرَكتُها بحاضرٍ قَتَّرينَ من صَيِّبِ القَطْرِ^(٥)
يُذكِّرُنِيهِم كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وَشَرٍّ، فما أنفَكُ مِنْهُم على ذِكْرِ

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٥٨١.

(٢) في الديوان: «بِمَنْ لا أُوَدُّهُ».

(٣) الغضارة: تقول: إنهم لفي غضارة من العيش، وفي غضارة عيش: في سعة ونعمة.

(٤) الغطارفة والغطاريف: جمع غَطَارَفٍ وَغَطْرِيفٍ: السيد الكريم.

(٥) الصَّيْبُ: السحاب ذو الصوب، والمطر.

هذا البيت كقول الآخر:

رَعَاكَ ضَمَانُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَلَلَّهِ أَنْ يَرَعَاكَ أَوْلَى وَأَوْسَعُ
يُذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِي أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ

لمسلم بن الوليد

وقال مسلم بن الوليد:

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلُ يَوْمَ وَدَاعِهِ لَكَالْغَمِّدِ يَوْمَ الرَّوْعِ فَارَقَهُ النَّصْلُ
أَمَّا وَالْحَبَالَاتُ الْمَمَرَّاتُ بَيْنَنَا رَسَائِلُ أَذْنَتِهَا الْمَوْدَةُ وَالْوَصْلُ^(١)
لَمَّا خُنْتُ عَهْدًا مِنْ إِخْوَانٍ وَلَا نَأَى بِذِكْرِكَ نَأَى عَنْ ضَمِيرِي وَلَا شُغْلُ
وَإِنِّي فِي مَالِي وَأَهْلِي كَأَنِّي لِفَقْدِكَ لَا مَالَ لَدَيَّ وَلَا أَهْلُ
يُذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالْحِجَا وَقِيلُ الْخَنَى وَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ وَالْجَهْلُ^(٢)
فَالْقَاكَ عَنْ مَذْمُومِهَا مُتَنَزِّهًا وَأَلْقَاكَ فِي مَحْمُودِهَا وَلَكَ الْفَضْلُ
وَأَحْمَدُ مِنْ إِخْلَافِكَ الْبُخْلُ إِنَّهُ بِعِرْضِكَ لَا بِالْمَالِ حَاشَى لَكَ الْبُخْلُ
أَمْتَجِعًا مَرُورًا بِأَثْقَالِ هِمَّةٍ دَعِ الثَّقْلَ وَاحْمِلْ حَاجَةً مَا لَهَا ثِقْلُ
ثَنَاءً كَعَرَفِ الطَّيِّبِ يُهْدَى لِأَهْلِهِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا بَنِي بَرَمَكِ أَهْلُ
فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزُورَهُمْ فَكَالْوَحْشِ يُذْنِبُهَا مِنَ الْقَنْصِ الْمَحْلُ^(٣)

ومن ألفاظ أهل العصر في التعازي وما يتعلق بمعانيها

من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب

خَبِرٌ عَزَّ عَلَى النَّفُوسِ مَسْمَعُهُ، وَأَثَرٌ فِي الْقُلُوبِ مَوْقِعُهُ. خَبِرٌ تَصْطَلُّكَ لَهُ الْمَسَامِعُ، وَتَرْتَجُّ بِهِ الْأَضَالِعُ، وَتَسْقُطُ لَهُ الْحَبَالِيُّ، وَتَصْحُو مِنْهُ السَّكَارِيُّ خَبِرٌ كَادَتْ لَهُ الْقُلُوبُ تَطِيرُ، وَالْعُقُولُ تَطِيرُ، وَالنَّفُوسُ تَطْبِجُ. خَبِرٌ يَخْفُضُ الْبَصَرَ وَيَقْذِيهِ، وَيَقْبِضُ الْأَمَلَ وَيَقْدَحُ فِيهِ.

(١) الحبالات: جمع حباله، وهي المصيدة، يقال: حبلت فلانة فلاناً: أوقعته في شباك حبيها وسحرتة، وحبال الموت: أسبابه.

(٢) الحجا: العقل. الخنى: الفحش في الكلام.

(٣) الْقَنْصُ: الْمَصِيدُ. الْمَحْلُ: انْقِطَاعُ الْمَطَرِ وَبَيْسُ الْأَرْضِ مِنَ الْكَلَا، وَيُقَالُ: أَرْضٌ مَحْلٌ: لَا مَرعى بها.

الخبر في أثناء الرجاء قد انقطع، وأصمَّ به الناعي وقد أسمع. ناعي الفضائل قائم، وأنفُ المحاسن راغم. خبرٌ أخرج الصُّدْرَ، وأحلَّ البكاء، وحرَّم الصبر، وأطار واقع السكون، وأثار كامن الوجوم، وثقلت وطأته على أجزاء النفس، وتأذت معرفته إلى سرِّ القلب. كتبتُ والأرض واجفة، والشمسُ كاسفة، للرزء العظيم، والمُصَّاب الجسيم، في فلك الملك، ورُكنِ المجد، وقريع الشُّرْق والغرب، وما عسى أن يُقال في الفلك الأعلى إذا انهارَ من جوانبه، وتهافتَ على مناكبه. أتى الناعي^(١)، فندب المساعي، وقامت بواكي المجد، وكسفت شمس الفضل، وعاد النهارُ أسود، والعيش أنكد. غربَ لموته نجم الفضل، وكسدت سوقُ الأدب، وقامت نوادب السباحة، ووقف فلكُ الكرم، ولطمت عليه المحاسن خدودها، وشقت له المناقب جُيوبها، [ووبرودها]، قد كانت الرزية بحيث مارت السماء مؤراً، وسارت الجبال سيرا، حتى شوهدت الكواكب ظهراً، ثم تهافتت شفعاً ووترأ، فارتاعت الأمة، وانبسطت الظلمة، وارتفعت الرِّحمة، واضطربت المِلة، وقامت نوادب المجد، وأصبح الناس من القيامة على وعد. إن المجدَ بعده لجاري الدمع، وإن الفضل لمتزعج النفس، وإن الكرمَ لحرج الصدر، وإن الملكَ لواهن الظُّهر^(٢). كتابي وأنا من الحياة متدتم، وبالعيش مُتسبِّم، بعد ما ماد الطُود الشامخ، وزال الجبل الباذخ^(٣)، ونطقت نوادب المجد، وأقيمت مآثم الفضل. نعى فلان فتكرَّ وجهُ الدهر، وقبضت مُهجةُ الفخر، فلا قلب إلا قد تباين صدعه، ولا عين إلا وهي ترشحُ بالدم بعده. كتبتُ والأحشاء محترقة، والأجفان بمائها غارقة، والدمعُ واكف، والحزن عاكف. مصابٌ أطلق أسرابَ الدموع وفرقها، وألقى أعشارَ القلوب وأحرقها، مصابٌ فضَّ عقودَ الدموع، وشبَّ النارَ بين الضلوع. مصاب أذاب دموعَ الأحرار، فتحلَّت^(٤) سحائبُ الدموع الغزار، وانسدت مسالك السكون والاستقرار. كتبتُ عن عين تدمع، وقلب يجزع، ونفس تهلع^(٥)، وقد أدللت مَضُون العبرة، وحجبتُ وإفدَ الحيرة، ومدَّ الهَمُّ إلى جسمي يدَ السقم، وجرَّ الدمعُ على خذي ذبولَ الدم. لولا أن العينَ بالدمع أنطقُ من كل لسان وقلم، لأخبرتُ عن بعض ما

(١) الناعي: الذي يخبر بموت الميت.

(٢) الواهن: الضعيف، وواهن الظهر: كناية عن ضعف احتماله الأعباء.

(٣) بدَّخَ الجبل ونحوه بُدُوخاً: علا فبان علوه، فهو باذخ، والجمع: بَوَادِخُ وَيُدَّخُّ.

(٤) تحلَّت: سالت وانهمرت.

(٥) تهلع: تحزن.

أَوْهَنَ ظَهْرِي، وَأَوْهَى أَرْزِي. إِنَّ الفجیعة إذا لم تحارب بجيشٍ من البكاء، ولم يُخَفَّفَ من أثقالها بالاشتكاء، تضاعفَ دأؤها، وازدادتْ أعباؤها، وعزَّ دواؤها. قد شفیت غليلي بما استندرتُهُ^(١) من أسراب الدموع المتحيرة، وخففتُ عني بعض البرحاءِ بما امتريتُهُ من أخلافها^(٢) المتحدرة. إن في إسبال العبرة، وإطلاق الرِّفَّة، والإجهاش بالبكاء والنشيج^(٣)، وإعلان الصياح والضجيج، تنفيساً عن بُرحاءِ القلوب، وتخفيفاً من أثقالِ الكروب. قد أتى الدهرُ بما هدد الأَصْلَابَ، وأطار الألبابَ، من النازلة الهائلة، والفجیعة الفظیعة. رُزءٌ أضعفَ العزائم القویة، وأبكى العیون البکیة. مصیبةٌ زلزلت الأرضَ، وهدمت الكرم المَحْضَ، وسلبت الأحفان كراها، والأبدان قواها. فجیعةٌ لا يُدَاوِي كَلَمَها آس^(٤)، ولا یسد ثَلَمَها تَنَاسٍ^(٥). مصیبةٌ تركت العقول مُدْلَهةً، والنفوسُ مُولَهةً. رُزءٌ هَضَّ وهاض^(٦)، وأطال الانخزال والانخفاض، ولم یَرْضَ بأنْ فَضَّ الأعضاء، حتى أفاض الدماء. رُزءٌ ملأ الصدور ارتیاعاً، وقسم الألبابَ شعاعاً، وترك الجفونَ مقروحة، والدموعَ مسفوحة، والقوى مهدودة، وطرق العزاء مسدودة. رُزءٌ نكأ القلوبَ وجرحها، وأحرَّ الأکبادَ وقرحها، ما لي يدُّ تخطُّ إلا بكلفة، ولا نفس تردد إلا غصة، ولا عين تنظر إلى من وراء قذی، ولا صدر ينطوي إلا على أذى؛ فالدموعُ واكفة، والقلوبُ واجفة، والهَمُّ وارد، والانسُ شارد.

وَالنَّاسُ مَاتَهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَرَفِيرٌ

كَأَنِّي كِنْدَةٌ وَهِيَ تَلَهَّفُ عَلَى حُجْرٍ^(٧)، والخنساء تبكي على صخر. أنا بين عبيرة ورَفرة، وأنة وحسرة، وتلملُّ واضطراب، واشتعال والتهاب. مصیبةٌ أصبحتْ لِعَمَّتِها وقيدا، وَلِكُرْبَتِها أخيدا. كَتَبْتُ وقد ملك الجزعُ عزائي، وحصل ناظري في إसार بكائي، فالقلبُ دهش، والبَنانُ يرتعش، وأنا من البقاء متوحش. قد انتهى بي الهلع إلى حيث لا

(١) استندرتيه: أسلته.

(٢) البرحاء: الشدة. وامترى الشيء: استخرجه، وامترى الناقة: حلبها. والأخلاف: جمع خلف، وهو ضرع الناقة، أو حلمته.

(٣) النشيج: الصوت المتردد في الصدر.

(٤) الكَلَمُ: الجرح. والآسي: الطيب.

(٥) الثَلَمُ: يقال: ثلم الجدار وغيره ثلماً: أحدث فيه شقاً، وثلم الإناء: كسر حرفه.

(٦) هَضَّ: كسر ودق، وهاض العظم: كسره.

(٧) حجر: هو والد الشاعر الجاهلي امرئ القيس، وكان ملكاً على كندة، وقتله بنو أسد.

التَّاسِي مُصْحَب، ولا التناسي مصاحب، بي انزعاج يحلَّ عُقْدَ الْحَزْمِ، واكتئاب ينقضُّ شروط العزم. قد بلغ الحزن مبلغاً لم أبتدئه للنوائب، وإن جلت وقعا، ونالت مني مثالا لم يعتد طرق المصائب، وإن عظمت فجعا. كتبت عن اضطراب نفس، واضطراب صدر، والتهاب قلب، وانتهاب صبر؛ فما أعظمه مَقْقُوداً! وما أكرمه ملحوداً! إني لأنوح عليه نوح المناقب^(١)، وأزنيه مع النجوم الثواقب، وأبكيه مع المعالي والمحاسن، وأثنى [عليه] بثناء المساعي والمآثر. ليت يمين الزمان شلت قبل أن فتكت بمهجة الفضل، وعين الزمان كفت قبل أن رأت مَصْرَعَ الفخر. لقد رزتنا من فلان عالماً في شخص، وأمة في نفس. مضى والمحاسن تبكيه، والمناقب تعزي فيه. العيون لما قرّت به أسخنها فيه ريب المنون، ولما شُرحت به الصدور قبضها بفقده المقدور. قد ركب على الأعناق، بعد العتاق، وعلى الأجياد بعد الجياد، وفات فتيت المسك من مآثره، كما يقوُّح العنبر من مجامره. كان سنله مألّف الأضياف، ومأنس الأشراف، ومُتَجِّع الرُّكَب، ومَقْصِد الوَفْد، فاستبدل بالأشس وحشة، وبالفضارة غبرة، وبالبياض ظلمة، واعتاض من تراكُم المراكب تَلَادُم المآثم^(٢)، ومن ضجيج النداء والصهيل، عجيج البكاء والعيول. هذي المكارم تبدي شجوها لِفَقْدِهِ وتلبس حدادها من بعده، وهذي المحاسن قد قامت نوابهها مع نوابه، واقرنت مصائبها بمصائبه. لو قبِلت الفدية لوفيته بنفسي وأيام عمري، علماً بأن العيش بمثله من إخوان الصفا يصفو، وبظمنه عن الدنيا يكدر ويغفو. لو وقى من الموت عزيز قوم لعزته، أو كبير بأولاده وأسرته، أو ذو سلطان باستطالته وقدرته، أو زعيم دولة بحشده وعُدته، لكان الماضي أحق من وقي وأولى من فدي، وكنا أقدر على دفع ما حدث، وذبت ما كرت وأزهق؛ لكنه الأمر المسوى فيه بين من عز جانبُه ودلّ، وكثر ماله وقلّ، حتى لحق المفضول بالفاضل، والناقص بالكامل.

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذم الدنيا

هو الدهر لا يُعْجَب من طوارقه^(٣)، ولا ينكر هجوم بوائقه^(٤). عطاؤه في ضمان الارتجاع، وحباؤه في قران الانتزاع. من عرف الزمان لم يستشعر منه الأمان، وتصرف

(١) المناقب: جمع منقبة، وهي الخصلة من خصال الشرف.

(٢) تلادم المآثم: يقال: التدمت المرأة: ضربت صدرها ووجهها.

(٣) طوارق الدهر: حوادثه.

(٤) البوائق: الدواهي، الواحدة بائقة.

الحوادث، بين الموروث والوارث. الدهر مشحون بطوارق الغير، مشوب صفو إيامه بالكدر، ممزوج صابه بالعسل، موصولة حبال الأمن فيه بأسباب الأجل. قد جعل الله الدنيا دار قلعة^(١)، ومحل نقلة، فمن راحل ليومه ومن مؤخر لغده، وكلّ متشوف لأجله^(٢)، وجار لأمده. ما الدنيا إلا دار النقلة، ولا المقام فيها إلا للرحلة، إن المرء حقيق إذا طرقة ما يتحيف صبره [ويتطرق صدره]، أن يعود إلى علمه بالدنيا كيف نصبت على النقلة، وجنبت طويل المهلة، وابتدئت بالنفاد، وشفع كونها بالفساد، وأن الثاوي فيها راحل، والأيام فيها مراحل. موهوب الدنيا مسلوب وإن أُرِجىء إلى مهل، وممنوحها مجذوب وإن أُخِّر إلى أجل. لو خلد من سبق، لما وسعت الأرض من لحق؛ ولذلك جعلت الدنيا دار قلعة، ومحل نجعة.

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سلب

وقال عتبة بن هارون: كنت مع فضل الرقاشي، فمر بمقبرة، فقال: ياهل الديار الموحشة، والمحال المفقرة، التي نطق بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، ساكنها مغترب، ومحلها مقترب، أهل هذه المنازل متشاغلون، لا يتواصلون تواصل الإخوان، ولا يتزاورون تزاور الجيران، قد طحنهم بكليلة البلى^(٣)، وأكلهم الجندل^(٤) والثرى.

وقال خاقان بن صبيح: لوحشة الشك التمسنا أنس اليقين، ومن ذل الجهل هربنا إلى عز المعرفة، ولخوف الضلالة لزمتنا العجادة.

وقال بعض الحكماء: كُمُونُ المصائب^(٥) وسُكُونُ النوائب وبَغْتَاتُ المنايا مطويات في الساعات، متحركات في الأوقات، ورب مُغْتَبِطٍ بساعة فيها انقضاء أجله، ومُتَمَتِّعٍ بوقت صار فيه إلى قبره، ومُتَنْظِرٍ ورود يوم فيه مَنِيَّتُهُ.

ووعظ أعرابي أبنا له أفسد ماله في الشراب، فقال: لا الدهر يعظك، ولا الأيام تنذرك، والساعات تعد عليك، والأنفاس تعد منك، وأحب أمرئك إليك، أردُّهما للمضرة لديك.

(١) دار قلعة: أي دار تحوّل وانتقال.

(٢) مُشَوِّفٌ: مُنْطَلِعٌ.

(٣) الكلكل: الصدر.

(٤) الجندل: الحجارة، وقيل: صخرة مثل رأس الإنسان.

(٥) كُمُونُ المصائب: تواربها.

[من مقامات بديع الزمان الهمذاني]

المقامة الأهوازية

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات: حَدَّثَنَا عيسى بن هشام قال: كُنْتُ فِي الْأَهْوَازِ فِي رُقْفَةٍ مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِمْ تَسْهَلُ، لَيْسَ مَتَى إِلَّا أَمْرُدُ بِكُرِّ الْأَمَالِ، بَضُّ الْجَمَالِ^(١)، أَوْ مَخْتَطُّ حَسَنِ الْإِقْبَالِ، مَرْجُو الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ؛ فَأَفْضُنَا فِي الْعِشْرَةِ كَيْفَ [نَضَعُ قَوَاعِدَهَا، وَالْأُخُوَّةَ كَيْفَ] نَحْكُمُ مَعَاقِدَهَا، وَالسُّرُورَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَعَاطَاهُ، وَالْأُنْسَ كَيْفَ نَتَهَادَاهُ، وَفَائِتَ الْحِظِّ كَيْفَ نَتَلَفَاهُ، وَالشَّرَابَ [مَنْ أَيْنَ نَخْلُصُهُ، وَالْمَجْلِسَ كَيْفَ نَرْتَبُهُ؟ فَقَالَ أَحَدُنَا: عَلَى الْبَيْتِ وَالْمَنْزِلِ، وَقَالَ آخَرُ: عَلَى الشَّرَابِ وَالنَّقْلِ]، وَقَالَ بَعْضُنَا: إِلَى السَّمَاعِ وَالْجَمَاعِ، وَقَمْنَا نَجْرُ أَذْيَالَ الْفُسُوقِ، حَتَّى انْسَلَخْنَا مِنَ السُّوقِ، وَاسْتَقْبَلْنَا رَجُلٌ فِي طِمْرَيْنِ^(٢)، فِي يَمْنَاهُ عُكَّازَةٌ، وَعَلَى كَتِفِهِ جِنَازَةٌ^(٣)؛ فَتَطَيَّرْنَا لَمَّا رَأَيْنَا الْجِنَازَةَ، وَأَعْرَضْنَا عَنْهَا صَفْحًا، وَطَوَيْنَا دُونَهَا كَشْحًا، فَصَاحَ بِنَا صَبِيحَةً كَادَتْ الْأَرْضُ لَهَا تَنْفِطِرُ، وَالنَّجْمُ تَنْكَدِرُ، وَقَالَ: لَتَرَوْنَهَا صُغْرًا، وَلَتَرْكَبْنَهَا قَسْرًا. مَا لَكُمْ تَكْرَهُونَ مِطْيَةً رَكَبَهَا أَسْلَافُكُمْ، وَسِيرَكَبَهَا أَخْلَافُكُمْ، وَتَقْدِرُونَ سَرِيرًا وَطِيَّةً أَبَاؤُكُمْ، وَسَيَطُوهُ أَبْنَاؤُكُمْ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَتَحْمِلُنَّ عَلَى هَذِهِ الْعِيدَانِ، إِلَى تَلَكُمُ الدِّيدَانِ، وَلَتَسْتَقْلُنَّ بِهَذِهِ الْحِيَادِ، إِلَى تَلَكُمُ الْوِهَادِ. وَيُحْكَمُ تَطَيَّرُونَ^(٤)، كَأَنَّكُمْ مَخْيِرُونَ، وَتَكْرَهُونَ، كَأَنَّكُمْ مُتْرَهُونَ، هَلْ تَنْفَعُ هَذِهِ الطَّيْرَةَ، يَا فَجْرَةَ؟

قال عيسى بن هشام: فَقَدْ نَقَضَ عَلَيْنَا مَا كُنَّا عَقْدْنَاهُ، وَأَبْطَلْنَا مَا كُنَّا أَرَدْنَاهُ؛ فَمِلْنَا إِلَيْهِ، وَقَلْنَا: مَا أَحْوَجُنَا إِلَى وَعْظِكَ، وَأَعَشَقْنَا لِلْفُظْكِ! وَلَوْ شِئْتَ لَزِدْتِ، قَالَ: إِنْ رِوَاءَكُمْ مَوَارِدَ أَنْتُمْ وَارِدُوهَا، وَقَدْ سِرْتُمْ إِلَيْهَا عِشْرِينَ حِجَّةً:

وإِنْ امْرَأً قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّةً إِلَى مَهْلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٌ^(٥)

وفوقكم مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهْتَكِ أَسْتَارَكُمْ، يَعَامِلُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِحِلْمٍ، وَيَقْضِي عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِعِلْمٍ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ، لَثَلَا تَأْتَاؤُا بِنُكْرٍ؛ فَإِنَّكُمْ مَتَى

(١) بَضُّ: يقال: بَضَّ الْبَدَنُ بَضَاضَةً وَبُضُوضَةً: امْتَلَأَ وَنَضَّرَ، وَيُقَالُ: بَشْرَةٌ بَضَّةٌ وَبُضِيضَةٌ: رَقِيقَةٌ نَضْرَةٌ.

(٢) الطمر: الثوب الخلق البالي.

(٣) الجِنَازَةُ: سرير الميت ما دام فيه (النعل).

(٤) تطيرون: أي تتطيرون: تتشاءمون.

(٥) الحجة: السنة.

استشعرتموه لم تَجْمَعُوا، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا، وإن نسيتموه فهو ذاكركم، [وإن نمتم عنه فهو ثائركم، وإن كرهتموه فهو زائركم] قلنا: فما حاجتك؟ قال: هي أطول من أن تُحدِّد، وأكثر من أن تُعدَّ، قلنا: فسانح الوقت؟ قال: ردُّ فائت العُمر، ودفع نازل الأمر، قلنا: ما إلى ذلك سبيل، ولكن لك ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها، قال: لا حاجة لي فيها.

قوله: وإنَّ امرأ قد سارَ عِشرينَ حِجَّةً، مُحَرَّف عن قول قائله:

وإنَّ امرأ قد سارَ خَمسينَ حِجَّةً

والبيت لأبي محمد التيمي، أنشده دعبل:

إذا ما مَضَى القَرْنُ الذي أنتَ فيهِمْ وَخُلِّفَتْ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ^(١)

والبيت بعده. قال دعبل: وتزعم الرواة أنه لأعرابي من بني أسد. وقال خلاد الأرقط: كُنا على باب أبي عمرو بن العلاء ومعنا التيمي، فذكرنا كتاب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم: إني وإياك لِدَتَانِ^(٢)، وإنَّ امرأ قد سارَ خمسين حجة لَقَمِنٌ أن يَرده. فأصلحنه بيتاً، فاجتلبه التيمي في شعره.

[من رسائل بديع الزمان الهمذاني]

من البديع لأبي القاسم الكرخي

وكتب البديع إلى أبي القاسم الكرخي: أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول، وتجميل الأحرار إلا بالتجمل، أحاسب الشيخ على أخلاقه ضئلاً بما عقدت يدي عليه من الظن به، والتقدير في مذهبه، ولولا ذاك لَقَلْتُ: في الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلاله، وفي الناس واصلٌ إن رثت جباله، وأواخذه بأفعاله؛ فإن أعارني أدناً وإعياً، ونفساً مُراعياً، وقلباً متعظاً، ورجوعاً عن الذهاب، ونزوعاً عما يقرعه من هذا الباب، فرشت لِمَوَدَّتِهِ صَدْرِي، وعقدت عليه جوامع حَصْرِي، ومجامع عُمْرِي؛ وإن ركب من التعلالي غير مركب، وذهب من التعلالي في غير مذهب، أقطعته خطة أخلاقه، ووليته جانب إعراضه، فكنت امرأ:

لا أذود الطيرَ عن شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ من ثَمَرِهِ

(١) القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، والقرن من الناس: أهل زمانٍ واحد. والبيت في «لسان العرب: قرن» من غير نسبة.

(٢) لِدَةُ الإنسان: المُساوي له في السن.

فإني - أطال الله بقاء الشيخ مولاي - وإن كنت في مقبل السن والعمر، فقد حلبت شَطْرِي الدهر^(١)، وَرَكِبْتُ ظهري البرِّ والبحر، وَلَقِيتُ وَفَدَيْ الخبير والشر، وصافحتُ يدي النَّفْعَ والضَّرَّ، وَضَرَبْتُ إبطي العُسْرَ والبُسْرَ، وبلوتُ طعمي الحُلُوَّ والمرَّ، ورضعتُ ثديي العُرْفَ والتُّكْرَ؛ فما تكادُ الأيامُ تريني من أفعالها غريباً، وتُسَمِّئني من أقوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطارحتُ الآحاد؛ فما رأيتُ أحداً إلَّا ملأتُ حافتي سمعه وبصره، وشغلتُ حيزي فكره ونظره، وأثقلتُ كفه في الحُزن، وكفَّته في الوزن، وودَّ لو يارَزَ القُرْنَ^(٢) بصفحتي، أو لَقِيَ الفضل بصحيفتي، فمالني صَغُرْتُ في عينيه؟ وما الذي أزرى بي عنده؟ حتى احتجبَ وقد قَصَدْتُهُ، ولزِمَ أرضه وقد حضرته، وأنا أحاشيه أن يجهلَ قَدْرَ الفضل، أو يَجْحَدَ فضلَ العلم، أو يمتطي ظَهَرَ التَّيِّه، على أهليه، وأسأله أن يختصني من بينهم بفضل إنعام إن زلت بي مرةً قَدَمَ رأي في قَصْده، وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المُجَحِّفة^(٣)، والرتبة المُتَحَيِّفة^(٤)، وهو في جنب جفائه يسير، وإن أقلع عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته في الجفاء؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عِزَّهُ وتأييده.

كتاب آخر من البديع إلى أبي القاسم

وله إليه رقعة:

يعزُّ عليّ - أطال الله بقاء الشيخ الرئيس - أن ينوبَ في خِدْمَتِهِ قلمي، عن قَدَمِي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وُصُولِي، وَبِرِدِّ شِرْعَةِ الْأَنْسِ به كتابي، قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة:

وَعَلَيَّ أَنْ أَسْعَى وَلَيْسَ عَلَيَّ إِدْرَاكُ النِّجَاحِ

وقد حضرتُ داره، وقبَلْتُ جداره، وما بي حبُّ الجُذْرَانِ، ولكن شَغَفًا بِالْقُطَّانِ^(٥)، ولا عِشْقَ الحِيطَانِ، ولكن شوقاً إلى السَّكَّانِ، وحين عَدَّتِ العَوَادِي عنه، أُمِلْتُ ضَمِيرَ

(١) حلبت شطري الدهر: كناية عن التجربة والاختبار.

(٢) القُرْنَ للإنسان: مثله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال وغير ذلك.

(٣) أجحف به: اشتد في الإضرار به، ويقال: أجحف بهم الدهر: استأصلهم، وأجحف بهم الفقر: أذهب أموالهم.

(٤) حاف عليه حيفاً: جار وظلم، وتحيف الشيء: أخذ من حافاته وتقصه.

(٥) قُطَّانُ الدار: أهله، ساكنوه.

الشوق على لسان القلم، معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة، عن تقصير وقع، وفُتور في الخدمة عَرَض، ولكني أقول:

إِنْ يَكُنْ تَرْكِي لِقَضِيكَ ذَنْباً فَكُفْسِي أَلَا أَرَاكَ عِقَاباً

كتاب منه إلى رئيس هراة

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد: ورد كتابُ الشيخ الرئيس سيدي، فطلت وفودُ النعم تَتَرَى عليّ^(١)، ومثلت لدي وبين يدي، وقد أَخَذَ مَكَارِمَ نَفْسِهِ، فَنَجَعَلَهَا قِلَادَةً غُرْسِهِ، وَتَتَبَعَ الْمُحَاسِنَ مِنْ عِنْدِهِ، فَحَلَّى بِهَا نَحْرَ عَبْدِهِ، وَمَا أَشْبَهَ رَائِعَ حُلِيِّهِ، فِي نَحْرِ وَلِيِّهِ، إِلَّا بِالْغُرَّةِ اللَّائِحَةِ، عَلَى [الدَّهْمَةِ] الْكَالِحَةِ^(٢) لَا أَخَذَ اللَّهُ الشَّيْخَ بِوَصْفٍ نَزَعَهُ عَنْ عَرْضِهِ، وَزَرَعَهُ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ، وَنَعَتِ سَلَخَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ، وَأَهْدَاهُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحَقِّهِ، وَفَضَّلَ اسْتِفَادَهُ مِنْ فَرْعِهِ وَأَصْلِهِ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ. ذَكَرَ حَدِيثَ الشَّوْقِ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِالزِّيَارَةِ حَتْمًا، أَوْ الْإِذْنُ [جَزْمًا] أَطْلَقَ عِزْمًا، لَكَانَ آخِرُ نَظَرِي فِي الْكِتَابِ، أَوَّلُ نَظَرِي إِلَى الرِّكَابِ، وَلَا سَتَعْنَتْ عَلَى كُلِّ السَّيْرِ^(٣)، بِأَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، لَكِنَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - صَرَعَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ سَرِيعَةَ الثَّبْدِ^(٤)، وَرَجَلَ وَشَيْكَةَ الْأَخِذِ، وَأَرَانِي زَهْدًا فِي ابْتِغَاءِ، كَحَسْوٍ فِي ارْتِغَاءِ^(٥)، وَنَزَاعًا فِي نَزْوَعِ، كَذَهَابٍ فِي رُجُوعِ، وَرَغْبَةً فِي كَرْغَبَةِ عَنِي، وَكَلَامًا فِي الْغِلَافِ، كَالضَّرْبِ تَحْتَ اللَّحَافِ، فَلَمْ أَصْرُخْ بِالْإِجَابَةِ وَقَدْ عَرَّضَ بِالْدَّعَاءِ، وَلَمْ أَغْلِنَ بِالزِّيَارَةِ وَقَدْ أَسْرَّ بِالنِّدَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَدْعُنِي بِلِسَانِ الْمُحَاجَّةِ، وَلَمْ يُجَاهِرْنِي بِفَمِ الْمُنَاجَاةِ، لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ، مِنَ الْكَرَمِ إِلَى عَطْفِيهِ، وَفَكَّرْتُ فِي مُرَادِ الشَّيْخِ، فَوَجَدْتُهُ لَا يَتَعَدَّى الْكَرَمَ يَشِبُّ نَارَهُ، وَالْفَضْلُ يُدْرِكُ نَارَهُ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَا أَوْلَاهُ بِتَرْفِيهِ مَوْلَاهُ، عَنْ زَفَرَةٍ صَاعِدَةٍ، بِسَفَرَةٍ بَاعِدَةٍ، وَنُكْبَاءَ جَاهِدَةٍ^(٦). وَقَدْ زَادَ سَيِّدِي فِي أَمْرِ الْمُخَاطَبَةِ، وَمَا أَحْسَنَ الْإِعْتِدَالَ، وَقَدْ كَفَانَا مِنْهُ الْأُسْتَاذُ، وَأَسْأَلُهُ أَلَّا يَزِيدَ، وَقَدْ بَدَأَ وَيَجِبُ أَلَّا يَعِيدَ، فَلَا تَنْفَعُ كَثْرَةُ الْعَدِّ مَعَ قَلَّةِ الْمَعْدُودِ،

(١) تَتَرَى: يقال: جاءوا تَتَرَى: متواترين، وتواترت الأشياء: تتابعت.

(٢) أصل الغرة: البياض في وجه الفرس، وأراد البياض مطلقاً، واللائحة: الظاهرة، والكالحة: العابسة.

(٣) كُلِّفَ السَّيْرِ: مَشَقَّاتُهُ.

(٤) الثَّبْدُ: الطَّرْحُ، يقال: نبذ الشيء: طرحه، ونبذ الأمر: أهمله ولم يعمل به، ونبذ العهد: نقضه.

(٥) ارْتِغَاءٌ: تصويت، وهو من رغا البعير ونحوه رُغَاءٌ: صَوْتُ وَضْجٍ. ومنه: أرغاه: إذا قهره وأذله.

(٦) النُّكْبَاءُ: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالضُّبَا والشمال.

والزيادة في الحدّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود، وربّ ربح أدى إلى خُسْران، وزيادة أَفْضَتْ إلى نُقْصَان، ورأى الشيخ في تشريفه بجوابه موفق إن شاء الله تعالى.

كتاب من الصابي لبعض إخوانه

اجتَلَبَ قوله في أول هذه الرسالة من قول أبي إسحاق الصابي في جواب كتاب لبعض إخوانه :

وصل كتابك مشحوناً بلطيف برّك، موشحاً بغامر فضلك، ناطقاً بصحّة عهدك، صادقاً عن خلوص ودك، وفهمته وشكرت الله تعالى على سلامتك شكر المخصوص بها، ووقفتُ على ما وصفته من الاعتداد بي، وتناهيت إليه من التقرّظ لي، فما زدتُ على أن أعزّيتي خلالك، ونَحَلْتِي خِصَالَك، لأنّك بالفضائل أَوْلَى، وهي بك أحرى، ولو كنت في نفسي ممن يشتمل على وصفه حدّي إذا حددت، أو يحيط بكماله وَصْفِي إذا وَصَفْتُ، لَشَرَعْتُ في بلوغها والقرب منها، لكن المادح لك مُسْتَفِذٌّ لك وَسُعه وقد بَخَسَك، ومستغرق طوقه وقد نَقَصَك، فأبلغ ما يأتي به المُثْنِي عليك، ويتوصل إليه المُطَرِّي لك، الوقوف في ذلك دون متناه، والإقرار بالعجز دون غايته ومكّاه.

لابن الرومي

ونقل البديع ما ذكره من ترك السفر والبيعة بما حضر من قول ابن الرومي: ^(١)

أما حقّ حامي عِرْضِ مِثْلِكَ أن ترى	له الرّفْدَ والترفيه أوجب واجب ^(٢)
أفمتُ لكي تزداد نُعْمَاكَ نِعْمَةً	وتغنّى بوجه ناضر غير شاحب
وكي لا يقول القائلون أثابه	وعاقبه والقول جَمُّ المساعِبِ ^(٣)
وليس عجيباً أن يُثوبَ تَكْرُمٌ	عُدِيْتُ به من أملٍ لك عائب ^(٤)
ذِمَامِي ترعى لا ذِمَامَ سفينَةٍ	وحقّي لا حقّ القِلاصِ النجائبِ ^(٥)

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢١٩/١ - ٢٣٦. والبيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوبة.

(٢) في الديوان: «أن يرى». الرّفْد: الجود.

(٣) في الديوان: «جَمُّ المشاعِب». أثابه: كافأه. وجَمُّ المشاعِب: كثير الطرق.

(٤) غذيت به: نشأت عليه، أي الكرم. والآمل: المؤمل، الراجي. وفي الديوان: «عن أملٍ لك غائب».

(٥) الذمام: الحقوق. والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة الطويلة القوائم القادرة على =

بين أبي العتاهية وابنه

ودخل على أبي العتاهية ابنه، وقد تصوّف، فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أتعوّد الخير، وأنشأ عليه! فقال: يا بني، يحتاج المتصوّف إلى رقة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقیل الظل، مظلم الهواء، راكِد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك؟ فإنها أعوّد عليك. وكان بزّازاً^(١).

فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص

نور الحقيقة، أحسن من نور الحقيقة. الزهد قطع العلائق، وهجر الخلائق. الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة. التصوّف ترك التكلف. قيل لمتصوّف: أتبيع مرقعتك؟ قال: أرأيتم صياداً يبيع شبكته! وقيل لبعضهم: لو تزوّجت! قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها، وأنشد:

تجرّد من الدنيا فأنتك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام.

ذو النون: العبد بين نعمة وذنْب، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار.

غيره: ينبغي للعبد أن يكون في الدنيا كالمریض لا بد له من قوت، ولا يوافقه كل طعام. ليس في الجنة نعيم أعظم من علم أهلها أنها لا تزول.

ابن المبارك: الزهد إخفاء الزهد. إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب عنه. من أطلق طرفه كثر أسفه. من سوء القدر فضل النظر. من طأوع طرفه، تابع حقه، ومن نظر بعين الهوى حار، ومن حكم على الهوى جار، ومن أطال النظر لم يدرك الغاية، وليس لناظر نهاية. ربما أبصر الأعمى رُشدَه، وأضلّ البصير قَصْدَه. وقيل: ربّ حرب جُنيت من لفظة، وربّ حبّ غرس من لحظة، وأنشد:

نظرتُ إليها نظرةً لو كسوتها سرائل أبدان الحديد المُسرَد^(٢)

= السير. ونجائب الإبل: خيارها، الواحدة نجية. وفي الديوان: «وحتي لا حق القلاص الذعالب». والذعالب: جمع ذعلبة، وهي الناقة السريعة.

(١) البرّاز: بائع البرّ (نوع من الثياب).

(٢) سرد الشيء: ثقبه، وسرد الدرع: نجهها، فشكّ طرفي كلّ حلقتين وسمرهما.

لَرَقْتُ حَوَاشِيهَا وَفُضَّ حَدِيدُهَا وَلَا نَتْ كَمَا لَا نَتْ لِداوُدَ فِي الْيَدِ^(١)
وقال سعيد بن حميد:

نَظَرْتُ فَقَادَتْنِي إِلَى الْحَتَفِ نَظْرَةً إِلَيَّ بِمَضْمُونِ الضَّمِيرِ تُشِيرُ^(٢)
فَلَا تَصْرِفَنَّ الطَّرْفَ فِي كُلِّ مَنْظَرٍ فَإِنَّ مَعَارِضَ الْبَلَاءِ كَثِيرُ
وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْحَبِّ أَسْقَمَ ذَا هَوًى وَلَا مِثْلَ حُكْمِ الْحَبِّ كَيْفَ يَجُورُ
لَقَدْ صُنْتُ مَا بِي فِي الضَّمِيرِ لَوْ أَنَّهُ يُصَانُ لَدَى الطَّرْفِ النَّمُومِ ضَمِيرُ
غيره:

الْيَوْمَ أَقْنَيْتُ أَنَّ الْحَبَّ مَثْلَفَةٌ وَأَنْ صَاحِبَهُ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ
كَيْفَ الْحَيَاةُ لِمَنْ أَمْسَى عَلَى شَرَفٍ مِنَ الْمَنِيَّةِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ^(٣)
يَلُومُ عَيْنَهُ أَحْيَاناً بِذَنْبِهِمَا وَتَحْمِلُ الذَّنْبَ أَحْيَاناً عَلَى الْقَدْرِ
إِذَا نَأَى أَوْ دَنَا فَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ وَقَلْبُهُ أَبَدًا مِنْهُ عَلَى سَفَرٍ

ونظر محمد بن أسباط الصوفي إلى أبي المثنى الشيباني وقد نظر في وجه غلام مليح، فقال: [إياك و] إدمان النظر [فإنه] يكشف الخبر، ويفضح البشر، ويطول به المكث في سقر^(٤).

وقال المعلى الصوفي: شكوتُ إلى بعض الزهاد فسأداً أجده في قلبي، فقال: هل نظرتُ إلى شيء فتأقتُ إليه نفسك؟ قلت: نعم، قال: احفظْ عينيك؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائرَ جوارحك.

وقال مسلم الخواص لمحمد بن علي الصوفي: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله في أمرِك كله، وإيثار ما يحب على محبتك، وإياك والنظر إلى ما دعاك إليه طَرَفك، وشوقك إليه قلبك؛ فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك، حتى تبلغ لهما ما يظالمانك به، وإن ملكتهما كنت الداعي إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يرداً لك قولاً.

(١) الحواشي: جمع حاشية، وحاشية الثوب: جانيه.

(٢) الحَتَف: الموت.

(٣) الشَّرْفُ: الموضع العالي يُشرف على ما حوله، يقال: هو على شرف من كذا: مشرف عليه ومقارب له.

(٤) سقر: من أسماء جهنم.

قال بعض الحكماء: إن الله عز وجل جعل القلب أمير الجسد، ومليك الأعضاء؛ فجميع الجوارح تنقاد له، وكل الحواس تطيعه، وهو مديرها، ومصرفها، وقائدها وسائقها، وبإرادته تبع، وفي طاعته تتقلب؛ ووزيره العقل، وعاضده الفهم، ورائده العينان، وطليعته الأذنان. [وهما في النقل سواء، لا يكتمانه أمراً، ولا يطويان دونه سرّاً، يريد العين والأذن].

وقيل لأفلاطون: أيهما أشد ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟ فقال: هما للقلب كالجناحين للطائر، لا يستقل إلا بهما، ولا ينهض إلا بقوتهما، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة. قيل: فما بال الأعمى يعشق ولا يرى، والأصم يعشق ولا يسمع؟ قال: لذلك قلت: إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل^(١) بهما طيراناً، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى، و[طيرانه] أوحى^(٢).

وقال الأسود بن طالوت الجارودي: نظر إليّ أبو الغمر الصوفي وقد أطلت النظر إلى غلام جميل، فقال: ويحك! إن طرّفك لعظيم ما اجتني من البلاء قد عرّضك للمكروه وطول العناء، لقد نظرت إلى حبيب قاتل للقلوب، وبلاء مظهر للعيوب، وعار فاضح للنفوس، ومكروه مذهل للعقول، أكل هذا الاغترار بالله جراك عليه حتى أمنت مكّره، ولم تخف كيده؛ اعلم أنك لم تكن في وقت من أوقاتك، ولا حالة من حالاتك، أقرب إلى عقوبة الله منك في حالتك هذه، ولو أخذك لم يتخلصك الثقلان، ولم يقبل فيك شفاعة إنس ولا جان.

ونظر محمد بن ضوء الصوفي إلى رجل ينظر إلى غلام مليح، فقال: كفى بالعبد نقصاً عند الله، وضعة عند ذوي العقول، أن ينظر إلى كل ما سنع له من البلاء.

ونظر [أبو] مسلم الخشوعي فأطال النظر، فقال: (٣) إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب. ثم قال: سبحان الله! ما أهجّم طرّفي على مكروه نفسه، وأدمنه على تسخط سيده، وأغراه بما نهى عنه، وألهجه بما حذر منه! لقد نظرت إلى هذا نظراً شديداً خشيت أنه سيفضحني عند جميع من يعرفني في عرصة القيامة^(٤)؛ ولقد تركني نظري هذا وأنا أستحي من الله تعالى إن غفر لي! ثم صعد.

(١) يستقل: يرتفع.

(٢) أوحى: أسرع.

(٣) هذا قول الله تعالى في سورة آل عمران، آية (١٩٠).

(٤) العرصة: ساحة الدار، والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

ونظر غالبُ المضرور إلى غلام جميل على فرس رائع، فقال: لا أدري بم أداري طرفي، ولا بم أعالج قلبي؟ ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه، ولا أستغفره من أمر إلا أتيت أعظم منه، حتى لقد استحييتُ أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه، لعظيم حالي بالمنكر الذي أصنعه. فقال له قائل: وأي منكر أتيت؟ فقال: أتريدُ مني أكثر من نظري هذا! والله لقد خشيت أن يبطل كلُّ عمل قدمته، وخير أسلفتها، ثم بكى حتى ألصق خدَّه بالأرض.

ورأى بعضُ الزهاد صوفياً يضحك إلى غلام جميل، فقال له: يا خارب القلب، ويا مفتضح الطرف؛ أما استحي من كرام كاتبين، وملائكة حافظين، يحفظون الأفعال، ويكتبون الأعمال، وينظرون إليك، ويشهدون عليك، بالبلاء الظاهر، والغُل الدخيل المخامر^(١)، الذي أقمت نفسك فيه مقام مَنْ لا يبالي من وقف عليه، ونظر من الخلق إليه.

وقال أبو حمزة بن إبراهيم: قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي - وكان سيد المتصوفة، وقد رأيته يماشي غلاماً وضيعاً مدة ثم فارقه -: لِمَ هجرت ذلك الفتى بعد أن كنتَ له مواصلاً، وإليه مائلاً؟ فقال: والله لقد فارقتُه من غير قَلِي^(٢) ولا مَلَل؛ ولقد رأيْتُ قلبي يدعوني إذا خلوت به، وقربت منه، إلى أمر لو أتيتُه لسقطت من عَيْن الله عز وجل؛ فهجرتُه تنزيهاً لله ولنفسِي عن مصارع الفتن، وإني لأرجو أن يعقبني سيدي من مفارقتِه ما أعقب الصابرين عن محارمِه عند صدق الوفاء بأحسن الجزاء؛ ثم بكى حتى رحمته.

قال أبو حمزة: ورأيْتُ مع أحمد بن علي الصوفي بيت المقدس غلاماً جميلاً، فقلت: منذ كم صحبتك هذا الغلام؟ فقال: منذ سنين، فقلت: لو سرتما إلى بعضِ المنازه فكتتما فيه كان أحمد لكما من الجلوس في المسجد بحيث يراكما الناس؟ فقال: أخافُ احتيالَ الشيطان عليَّ به وقت خلوتي، وإني لأكره أن يراني الله فيه على معصية فيفرق بيني وبينه يوم يظفر المحبّون بأحبابهم.

قال أبو الفتح البستي:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِي، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَظَنُّوهُ مُشْتَقّاً مِنَ الصُّوفِ

(١) خامر به: استتر، وخامر الشيء: مارسه وخالطه، يقال: خامر فلان فلاناً، وخامره الداء، وخامره الشك. وخامر المكان: لزمه وأقام به.

(٢) القلي: البُغْضُ.

وَلَسْتُ أَنْحِلُ هَذَا الْأَسْمَ غَيْرَ فَتَى صَافِي فَصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي

ورأى بقراط رجلاً من تلامذته يتفرس في وجه أوحيا، وكانت فائقة الجمال، فقال: ما هذا الشغل الذي منعك الروية والفكرة؟ فقال: التعجب من آثار حكمة الطبيعة في صورة أوحيا، فقال: لا تجعلنَّ نظرك لشهوتك مركباً، فيجمع لك في الوحول الأذية؛ ولتكنَّ نَفْسُكَ منه على بال، إنَّ آثار الطبيعة في وجه أوحيا الظاهرة تمحق بصرك، وإن فكرت في صورتها الباطنة تحد نظرك.

وقال بعضهم: رأيت جارية حسناء الساعد؛ فقلت: يا جارية، ما أحسن ساعدك! فقالت: [أجل، لكنه] لم تختص به، ففضَّ بصرَ جسمك عما ليس لك؛ لينفتح بصرُ عقلك فترى مالك.

الرأي والهوى

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين: فضلُ ما بين الرأي والهوى أنَّ الهوى يَخُصُّ والرأي يعم، وأن الهوى في حيز العاجل، والرأي في حيز الآجل، والرأي يبقى على طول الزمان، والهوى سريع الدثور^(١) والاضمحلال، والهوى في حيز الحس، والرأي في حيز العقل.

وقال بعضُ الحكماء: من انقاد لهواه عرضته الشهوات.

وقال آخر: من جرى مع هواه طلقاً^(٢)، جعل عليه للذل طرقاً.

وقال ابنُ دُرَيْدٍ: أوصى بعضُ الحكماء رجلاً فقال: أمرك بمجاهدة هواك؛ فإنه يقال: إنَّ الهوى مفتاحُ السيئات، وخصيم الحسنيات، وكلُّ أهوائك لك عدو، وأعداهما هوى يَكْتُمُكَ نَفْسَهُ، وأعدى منه هوى يمثل لك الإثم في صورة التقوى، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بجزم لا يشوبه وهن^(٣)، وصديق لا يطمع فيه تكذيب، ومضاي لا يقاربه الشيط، وصبر لا يغتاله الجزع، وهمة لا يتقسمها التضييع.

وقال أبو العتاهية:

لَا تَأْمِنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَفِي نَفْسٍ وَلَوْ تَمَنَّيْتَ بِالْحِجَابِ وَالْحَرَسِ

(١) الدثور: الهلاك.

(٢) طلقاً: شوطاً.

(٣) الوهن: الضعف.

فَمَا تَزَالُ سِهَامُ الْمَوْتِ نَافِذَةً فِي جَنْبِ مُتَدَرِّعٍ مَنَا وَمُتَّرَسٍ^(١)
 مَا بَالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدْنِسَهُ وَثَوْبُكَ الدَّهْرَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ^(٢)
 تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى يَبَسٍ

[من البدائنه في مجالس الخلفاء]

خرج شبيب بن شيبة من دار المهدي، فقبل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً والخارج راضياً. نحا إلى هذا المعنى ربعة الرقي^(٣) فقال:

قَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ كَفَّ النَّدَى لِلنَّاسِ وَالْعَفْوُ عَنِ الظَّالِمِ
 فَالْمَرَّاحِلُ الصَّادِرُ عَنْ بَابِهِ مُبَشِّرٌ لِلْوَارِدِ الْقَادِمِ

وقال مسلم بن الوليد في نحو هذا المعنى:

جَزَيْتَ ابْنَ مَنْصُورٍ عَلَى نَأْيِ دَارِهِ جَزَاءً مُقَرَّرًا بِالصَّنِيعَةِ شَاكِرٍ
 فَتَى رَاغِمَ الْأَمْوَالِ وَاصْطَنَعَ الْعُلَا وَأَرَّتْ نِيرَانَ النَّدَى لِلْعَشَائِرِ^(٤)
 [تَرَى النَّاسَ أَرْسَالًا عَلَى بَابِ دَارِهِ] [عَلَى أَمِنْ يَحْدُو بِهِ حِمْلُ صَادِرٍ]

وقال المتنبّي:^(٥)

وَأَلْقَى الْقَمَّ الضَّحَّاكَ أَعْلَمُ أَنَّهُ قَرِيبٌ بِنِي الْكَفِّ الْمُفْدَاةِ عَهْدُهُ^(٦)

أحوال السفاح

دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح، وعنده أحواله من بني الحارث بن

(١) الْمُتَدَرِّعُ: لابس الدرع، وأصله مُتَدَرِّعٌ. والمُتَّرَسُ: لابس الترس.

(٢) الدَّنَسُ: الوسخ.

(٣) هو أبو شبابة، وقيل: أبو ثابت، ربعة بن ثابت الأنصاري الرقي: شاعر مقدم غزل، كان ينزل الرقة، وبها ولد ونشأ. أشخصه المهدي إليه فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها مالاً كثيراً. وكان الرشيد العباسي يأنس به، وله معه مُلَحٌّ كثيرة. توفي سنة ١٩٨ هـ/٨١٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٥٧؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٦/١٨٩؛ البغدادي، خزنة الأدب: ٣٠١/٦).

(٤) أَرَّتْ النَّارَ: أوقدها.

(٥) المتنبّي، الديوان: ٢٦١/٢. والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً الإخشيدي.

(٦) يقول: إذا لقيت فمأ يضحك علمت أنه قريب العهد بلثم كَفَلَكْ لنعمة بذلتها لصاحبه، فاشنى عنك مسروراً.

كَعْب، فقال: ما تقول في أخوالي؟ فقال: هم هامة الشرف، وعزّنين الكرم، وغرسُ الجود، إنَّ فيهم لخصالاً ما اجتمعت في غيرهم من قومهم؛ إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شيماً، وأطيبهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، الجمرة في الحرب، والرّفْد في الجدب، والرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العَجَب^(١). فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنت، فزاد أخواله في الفخر؛ فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أفخر يا خالد؟ قال: أعلى أخوال أمير المؤمنين! قال: وأنت من أعمامه؟ قال: كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابع جلد، دلّ عليهم هدهد، وعرقهم جُرْد، وملكتهم أم ولد! فأشرق وجه أبي العباس.

قال يموت ابن المزرع: سمعتُ خالي الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر في جَمْع معيهم، واختصار اللفظ في مثالبهم، بعد ذلك المدح المذهب سنةً لكان قليلاً، فكيف على بديهته لم يرض له فكراً.

هكذا أورد هذه الحكاية الصولي، وقد جاءت بأطول من هذا، وليس من شرطنا.

لمعن بن أوس

قال معن بن أوس الهذلي:

لَعْمُرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ	على أَيَّنا تَأْتِي المنيّةُ أَوَّلُ ^(٢)
وَإِنِّي أَخْوَك الدائمِ الدودَ لَمْ أَحُلْ	إِذَا نَابَ خَطْبٌ أَوْ نَبَا بِكَ مَنَزِلٌ
كَأَنَّكَ تَشْفِي مِنْكَ دَاءَ مَسَاءَتِي	وَسُخْطِي، وَمَا فِي رَيْبِي مَا تَعَجَّلُ
وَإِنْ سَوَّيْتَنِي يَوْمًا صَبَرْتُ إِلَى غَدٍ	لِيَعْقِبَ يَوْمًا آخِرُ مَنْكَ مُقْبِلُ
سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي	يَمِينُكَ فَاَنْظُرْ أَيَّ كَفَ تَبَدَّلُ
وَفِي النَّاسِ إِنْ رُثْتُ جِبَالُكَ وَاصِلٌ	وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلْبِ مُتَحَوِّلُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ	عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَبُ حَدَّ السِّيفِ مَنْ أَنْ تَضِيْمَهُ	إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفَرَةِ السِّيفِ مَرْحَلُ ^(٣)
وَكُنْتُ إِذَا مَا صَاحِبُ رَامٍ ظَمْتِي	وَبَدَلُ سَوْءًا بِالَّذِي كَانَ يَفْعَلُ

(١) المعجب: أصل الذنب، ومؤخرة كل شيء.

(٢) الوجل: الخوف، وأوجل: أكثر وجلاً.

(٣) رَحَلَ عن مكانه رَحْلاً وَرُحُولاً: زال، وتَنَحَّى وتباعد. والمَرْحَلُ: المكان يُرْحَلُ إليه، ويقال: إن لي عنك مَرْحَلًا: أي مُتَدَحًا.

قَلْبْتُ لَهُ ظَهَرَ الْمَجْنِّ وَلَمْ أَدُمْ عَلَيْهِ الْعَهْدَ إِلَّا رِيثَمَا أَتَحَوَّلُ^(١)
إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تَكُذَّ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبِلُ

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وأشد شعر مَعْنٍ، فقال: لمن هذا؟ فقال: لي يا أمير المؤمنين، قال: لقد شَعُرْتَ بعدي يا أبا بكر! ثم دخل عليه مَعْنٍ فأشد الشعر بعينه، فقال: يا أبا بكر، ألم تقل إنه شعرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ظنري^(٢) فما كان له فهو لي. أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر مَعْنٍ؛ ليلغ ما في نفسه، وليس ادِّعَاؤُهُ له على حقيقة منه.

وقال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، فاستدَّ ناني حتى كنت أقرب الناس إليه، ثم تنفَّس الصعداء، وقال: يا خالد، ربَّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إليّ حديثاً منك! فعلمت أنه أراد خالداً القسري، فقلت: أفلا تعيده يا أمير المؤمنين؟ فقال: هيهات؟ إن خالداً أدلَّ فأملَّ، وأوجف فأعجف، ولم يدعُ لراجع مرجعاً. وتمثل بهذا البيت:

إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تَكُذَّ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبِلُ

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: كان عبد الملك بن مروان في سَمَرِهِ مع أهل بيته وولده وخاصته، فقال لهم: لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ، وَلِيَفْضَلْ [مَنْ] رَأَى تَفْضِيلَهُ، فَأَنشَدُوا وَفَضَّلُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: [أَمْرُ الْقَيْسِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [الِنَابِغَةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [الْأَعَشَى، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ: أَشَعَرُ النَّاسِ وَاللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِي يَقُولُ، وَأَنشَدَ بَعْضُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي أَنشَدَ، وَهِيَ لِمَعْنٍ بْنِ أَوْسٍ:

وَذِي رَجِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يَحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَالْمَوْتِ عِنْدِي أَنْ يَحُلَّ بِهِ الرِّغْمُ
فَإِنْ أَغْفَ عَنْهُ أَغْضُ عَيْنًا عَلَى قَدَى وَلَيْسَ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ
وَإِنْ أَتَنَصَّرُ مِنْهُ أَكُنْ مِثْلَ رَائِشٍ سِهَامٌ عَدُوٌّ يُسْتَهَاضُ بِهَا الْعَظْمُ^(٣)
صَبَرْتُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَمَا يَسْتَوِي حَرْبُ الْأَقَارِبِ وَالسَّلْمُ
وَيَادَرْتُ مِنْهُ النَّأْيَ وَالْمَرَّةُ قَادِرٌ عَلَى سَهْمِهِ مَا كَانَ فِي كَفِّهِ السَّهْمُ

(١) المَجْنُّ: الترس، وقلب له ظهر المجن: عاداه بعد مَوَدَّة.

(٢) ظن الرجل: ابنه من الرضاع.

(٣) راش السهم: ركب عليه الريش. وَيُسْتَهَاضُ: يُكْسَرُ.

وَيَسْتَمُ عَرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا
 إِذَا سُمْتُهِ وَصَلَ الْقَرَابَةَ سَامِي
 فَإِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصَفِ يَأْبَ إِجَابَتِي
 فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ وَالرَّحِمِ الَّتِي
 إِذَا لَعَلَّاهُ بَارِقٌ وَخَطَمْتُهُ
 وَسَعَى إِذَا أَبْنَى لِيَهْدِمَ صَالِحِي
 يَوَدُّ لَوْ أَنِّي مُعْدِمٌ ذُو خِصَاصَةٍ
 وَيَعْتَدُّ غُثْمًا فِي الْحَوَادِثِ نَكِيتِي
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْنِي لَهُ وَتَعَطُّفِي
 وَخَفَافِي لَهُ مِنْ بَنِي الْجَنَاحِ تَأَلَّفًا
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِينِي
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضُّغْنَ حَتَّى اسْتَلَّتْهُ
 رَأَيْتُ انْثِلَامًا بَيْنَنَا فَرَقَعَتْهُ
 وَأَبْرَأْتُ غِلَّ الصِّلْرِ مِنْهُ تَوَشُّعًا
 فَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ

وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتَمٌ^(١)
 قَطِيعَتَهَا، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ
 وَيَدْعُو لِحُكْمٍ جَائِرٍ غَيْرُهُ الْحُكْمُ^(٢)
 رِعَايَتُهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمٌ
 بِوَسْمٍ شَنَارٍ لَا يُشَابِهُهُ وَسْمٌ^(٣)
 وَلَيْسَ الَّذِي بَيْنِي كَمَنْ شَانَهُ الْهَدْمُ
 وَأَكْرَهُ جَهْدِي أَنْ يُخَالِطَهُ الْعُدْمُ^(٤)
 وَمَا إِنْ لَهُ فِيهَا سَنَاءٌ وَلَا غُثْمٌ
 عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
 لِثُدْنِهِ مِنْ الْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ
 وَكَظْمِي عَنْ غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ
 وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَصُوبُهُ الْحَزْمُ^(٥)
 بِرَفْقِي أَحْيَانًا وَقَدْ يُرْقِعُ الثَّلْمُ^(٦)
 بِحَلْمِي كَمَا يُشْفَى بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلْمُ
 فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلَمٌ

[من رسائل أبي الفضل بن العميد]

من ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:
 وصل كتابك فصادفني قريب عهد بانطلاق، من عنتِ الفراق، وأوقفني مُسْتَرِيحَ

- (١) في المغيب: أي عندما أكون غائباً عنه.
- (٢) للنصف: أي للعدل والنصفة. ويأبى إجابتي: يرفضها ويمتنع عنها.
- (٣) خطمه: ضرب خطمه (أنفه)، وخطم ألف فلان: ألصق به عاراً. والوسم: العلامة. والشنار: الأمر المشهور بالشنعة والقيح.
- (٤) الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.
- (٥) استل الشيء: سلّه: نزعه. والضغن: الحقد الشديد.
- (٦) الثلم: الكسر أو الشق.

الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق، فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رَسْمِهِ المعروف في تبديل الأبدال، وأعطني من مخالَّتكَ عِتْقاً لا تَسْتَحِقُّ به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركاً ولا استثناء، ونزع من عُنْقِي رِبْقَةَ الذِّلِّ في إخائك بِبَيْدِي جفائك، ورش على ما كان يحتدم في ضميري من نيران الشوق ماء السلو، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فَلَأَمْ فُطُورَهَا بجميل الصبر^(١)، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صُدُوعَهَا بِحُسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوض نفسي من النزاع إليك نُزُوعاً عنك^(٢)، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصري، ورفع عنها غيابات ما سدَّله الشك دُون نظري، حتى حذر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خَلِيقَتِكَ؛ فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستكبراً، فوليتُ منها فراراً، ومكثتُ رُعباً، فاذهب فقد أَلْقَيْتَ حَبْلَكَ على غاربك، ورددتُ إليك ذمياً عهدك.

وفي فصل من هذه الرسالة: وأما عُدْرُكَ الذي رُمَتْ بَسْطُهُ فانقبض، وحاولت تمهيده وتقريره فاستوفز وأعرض، ورفعت بضبعه فانخفض، فقد ورد ولقيته بوجه يؤثر قبوله على رَدِّه، وتزكيتته على جرحه، فلم يف بما بذلته لك من نفسه، ولم يقم عند ظنك به، أتى وقد غطى التذمُّمُ وجهه، ولفَّ الحياء رأسه، وغضَّ الخجل طرفه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولَّى فلم تقدر على إيقافه، ومضى يعثر في فضول ما يغشاه من كرب حتى سقط، فقلنا: للبد والفم؛ ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلا تائباً شراً، أو تحملاً وزراً.

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول: (٣)

إقر السلام على الأمير وقُلْ لَهُ قَدْكَ اتَّيَّبَ أُرِيَّتَ فِي الْغُلُوءِ^(٤)

(١) لأم: ضم وجمع ولحم. والفتور: جمع فطر، وهو الشق.

(٢) النزاع: الشوق، والنزوع: الإنصراف.

(٣) القصيدة في «بيمة الدهر» للشعالي: ٢٠٣/٣.

(٤) في البيمة:

أبلغ رسالتي الشريف وقُلْ لَهُ قَدْكَ اتَّيَّبَ أُرِيَّتَ فِي الْغُلُوءِ

وفي البيت تضمين لصدر بيت لأبي تمام هو مطلع قصيدته التي يمدح بها محمد بن حسان الضبي، وتمامه:

قَدْكَ اتَّيَّبَ أُرِيَّتَ فِي الْغُلُوءِ كَمْ تَعْدِلُونَ وَأَنْتُمْ سُجَرَانِي

(أبو تمام، الديوان: ٨٦/١).

أَنْتَ الَّذِي شَتَّتَ شَمْلَ مَسَرَّتِي وَقَدَحْتَ نَارَ الشَّوْقِ فِي أَحْشَائِي
وَرَضَيْتَ بِالثَّمَنِ الْيَسِيرِ مَعْرُوضَةً مَنِي، فَهَلَا يَغْتَشِي بِغَلَاءِ
وَسَأَلْتُكَ الْعُتْبَى فَلَمْ تَرْنِي لَهَا أَهْلًا، فَجُدْتَ بِعِذْرَةِ شَوْهَاءِ^(١)
وَرَدَدْتَ مُمَوَّهَةً فَلَمْ يَرْفَعْ لَهَا طَرْفٌ، وَلَمْ تُرْزَقْ مِنَ الْإِصْغَاءِ
وَأَعَارَ مَنْطِقُهَا التَّذَمُّمَ سَكَنَةً فَتَرَا جَعْتَ تَمِشِي عَلَى اسْتِحْيَاءِ
لَمْ تُشَفِّ مِنْ كَمَدٍ، وَلَمْ تَبْرُدْ عَلَى كَبَدٍ، وَلَمْ تَمْسُخْ جَوَانِبَ دَاءِ^(٢)
دَاوْتُ جَوَى بِجَوَى وَلَيْسَ بِحَازِمٍ مَنْ يَسْتَكْفِ النَّارَ بِالْحَلْفَاءِ^(٣)
مَنْ يُشَفِّ مِنْ كَمَدٍ بِأَخْرٍ مِثْلِهِ أَثَرْتُ جَوَارِحُهُ عَلَى الْأَدْوَاءِ^(٤)

وله إليه رسالة: أخطب الشيخ سيدي - أطال الله بقاءه - مخاطبةً مُخَرَّجَ يروم الترويحَ عن قلبه؛ ويرى التفرُّجَ^(٥) من كربه؛ فأكاتبه مكاتبةً مصدور، يريد أن ينفث بعض ما به، ويخفف الشكوى من أوصابه، ولو بَقِيَتْ في التصبُّرِ بقيةٌ لسكت، ولو وجدت في أثناء وجدي مَخرَجةً يتحلَّلها تجلَّدُ لأمسكت؛ فقديمًا لبسْتُ الصديقَ على علاته، وصفحْتُ له عن هناته، ولكنني مغلوب على العزاء، مأخوذٌ عن عادتي في الإغضاء، فقد سلَّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاءً، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباءً، وتوالى عليَّ من قُبْحِ فعلِكَ في هجرٍ يستمر على نسق، وصدَّ مطرِدٌ مُنْسَقٍ، ما لو فُضَّ على الوري، وأفيض على البشر لامتلائت منه صدورهم، فهل أقدرُ على ألا أقول، وهل نَكِلُكَ إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الإضرار، وعقيدك على الإفساد^(٦)، وأشكوه إليك، فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رَضِيعِي لِيَانٍ، وفي استيطاء مركب العقوق شريكِي عَنَانٍ، فإنه قاصرٌ عنك في دقائق مخترعة، أنت فيها نسيجٌ وحْدِكَ، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنت فيها وحيدٌ عصرِكَ، أنتما متفقان في ظاهري يَرُّ الناظر، وباطني

(١) في البيمة: «وَجُدْتَ بِعِذْرَةِ الشَّوْهَاءِ». والعنى: الاسترضاء. والعذرة: الاعتذار.

(٢) الكمد: الحزن والغىظ.

(٣) يستكف: يمنع. والحلفاء: الحلف (لِلوَاحِدَةِ وَالْمَجْمَعِ) وواحدته أيضاً: حَلْفَاءُ. والحلفاء: الأمة الصَّخَابَةُ.

(٤) في «البيمة»: «أثَرْتُ جَوَانِحَهُ».

(٥) يروم ويرى، كلاهما بمعنى: يطلب.

(٦) عقيدك: معاهدك ومعافدك، يريد أنهما مُتَّفِقَانِ.

يسوءُ الخابر، وفي تبديل الأبدال، والتحول من حالٍ إلى حال، وفي بثِّ حبالِ الزور، ونَصَبِ أشرارِ الغرور، وفي خلف الموعود، والرجوع في الموهوب، وفي فطاعة اهتضام ما يعير، وشناعة ارتجاع ما يمنح، وقَصْدُ مُشَارَةِ الأحرار^(١)، والتحامل عند ذوي الأخطار، وفي تكذيب الظنون، والميل عن النباهة للخمول، إلى كثير من شيمكمما التي أسندتُما إليها، ومُسْتَكْمَا التي تعاقدتُما عليها، فأين هو ممن لا يجاري فيه نقض عُرى العهود، ونكت قُوى العقود؟ وأنى هو عن النسيمة والغيبة، ومشي الضراء في الغيلة^(٢)، والتنفق بالنفاق في الحيلة. وأين هو ممن ادعى ضروبَ الباطل، والتحلَّى بما هو منه عاطل، وتنقَّص العلماء والأفاضل؟ هذا إلى كثير من مساوٍ مثورة أنت ناظمُها، ومَخَازٍ متفرقة أنت جامعُها. أنت أيُّدك الله إن سَوِيَّتَه بنفسك، ووزنته بِوَزْنِكَ، أَظْلَمَ منه لذويه، وأعق منه لبنيه؛ وهَبَكَ على الجملة قد زعمت - مفترياً عليه - أنه أشدُّ منك فِدْرَةً، وأعظمُ بَسْطَةً، وأتمَّ نصرةً، وأطلق يداً في الإساءة، وأمضى في كل نكابة شِباة^(٣)، وأحد في كل عاملة شِدَاة^(٤)، وأعظم في كل مكروه مُتَغَلِّغاً، وآلف إلى كل محذور متوصلاً، إن الدهر الذي ليس بمُعْتَبٍ من يجزَع، وإن العُتْبَى منك مأمولة، ومن جهتك مرقوبة، وهيهات! فهل توهم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً في صورة إنسان، ثم كانتهُ أَسْتَعْطَفَه على الصلة، وأستعفيه من الهجر، وأذكره من المودة، وأستميل به إلى رعاية المِقة، وأستعد على ما أشاعه الفراق في نفسي من اللوعة، وأضرَمَه بالبعاد في صدري من الحرقه، كان يَسْتَحْسِنُ ما اسْتَحْسَنَتْهُ من الاضطراب عند جوابي، ويستجيز ما اسْتَجَزَتْهُ من الاستخفافِ بكتابي.

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم:

وَهَبَكَ أَفلاطون نفسه فأين ما سَنَنْتُهُ من السياسة، فقد قرأناه، أتجدُّ فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعَيْنِهِ، أين ما رَسَمْتُهُ من الأخلاق؟ فقد رأيناه فلم نَرَفِيهِ هدايةً إلى شيء من العُقُوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها إلا مَنْ

(١) المُشَارَةُ: المخاصمة.

(٢) مشى فلان الضراء: أي مشى مستخفياً فيما يواريه من شجر ونحوه، ويقال ذلك لمن يوصف بأنه يخل ويخلد. والغيلة: يقال: أضرت الغيلة بولد فلان: إذا أرضعته وهي حامل، أو أُتِيَتْ وهي مُرْضِع.

(٣) شِباة السنان: حَدَّة.

(٤) الشداة: بقية القوة، وَحَدُّ كُلِّ شَيْءٍ.

جهل مقدار نفسه، وقَدَّرَ الحقُّ عليه وله؛ بل لك في رؤساء الآداب العربية [مِنَّا ربيعٌ ومضطرب، ولسنا نُشَاخِكُ^(١)، لكن أُنحِبُ أن تتحقَّقَ بالغريب من القول، دون الغريب] من الفعل؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تُدْفَعَ عن حلق فيه، وبَصَرٍ به، وقد اختصرته أَوْجَزَ اختصار، وسهلت سبيلَ تعليمه على من يجعلك قُدْوَةً، ويرضى بك أسوَةً، فقلت: الغدْرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوعٌ، والصدق والحق وما صَاحَبَهُما مخفوض، وقد نُصِبَ الصديقُ عندك، ولكن غرضاً يُرْشَقُ بسهام الغيَّةِ، وعَلَمًا يقصد بالوقية، ولست بالعروضي ذي اللَهْجَةِ فأعرف قَدْرَ حدِّك فيه، إلا أنني لا أراك تتعرَّضُ لكاملٍ فيه، ولا وافرٍ، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شَطِّ المتقارب.

وفي فصل منها أيضاً:

وهَبْنِي سَكْتٌ لدعواك سُكُوتَ متعجب، ورضيتُ رِضاً مُسَخَّطاً، أيرضى الفضلُ اجتذابك بأهدابه، من يدي أهليه وأصحابه، وأحسبك لم تَزَاحِمِ خِطَابَه، حتى عرفت ذلةَ نَفَرِهِ وقلةَ بَصَرِهِ، فاصدقني هل أنشدك:

لَوْ بِأَبَائَيْنِ جَاءَ يَخْطِبُهَا ضَرَجَ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بَدَمٌ^(٢)

وليت شعري بأي حلى تصدَّيتَ له، وأنت لو تَتَوَجَّعَ بالثريَّا، وقلدت قِلَادَةَ الفلك، وَتَمَنَّطَقْتَ بمنطقة الجوزاء، وَتَوَشَّحْتَ بالمجرَّة لم تكن إلا عَطُلاً، ولو تَوَشَّحْتَ بأنوار الربيع الزاهر، وسرَّجت جبينك غُرَّةَ البدرِ الباهر، ما كنت إلا عَطُلاً، سيما مع قلة وفائك، وَضَعْفِ إِيخَائِكَ، وظلمة ما تتصرَّف فيه من خِصَالِكَ، وتراكم الدُّجَى على ضلالِكَ، وقد نَدِمْتُ على ما أعرتك من وُدِّي، ولكن أي ساعةَ مَنَدَمٍ، بعد إفناء الزمان في ابتلائِكَ، وَتَصَفُّحِي حالاتِ الدهر في اختيارِكَ، وبعد تضييع ما غَرَسْتُهُ، ونقض ما أَسَسْتُهُ، فإن الودادَ غرسٌ إذا لم يوافق ثرى ثريَّا، وجوًّا غَدِيًّا^(٣)، وماء رويًّا، لم يُرَجَّ زكَاؤُهُ، ولم يجر نماؤُهُ، ولم تَفْتَحْ أزهارُهُ،

(١) تَشَاخَرُوا في الأمر وعليه: تسابقوا إليه متنافسين فيه، وتشاحَّ الخصمان: بدا حرصهما على الغلبة.

(٢) البيت لمهلل بن ربيعة، وقبل هذا البيت قوله:

أُنكحَهَا فَقُدَّهَا الْأَرَاقِمَ فِي جَنِبٍ وَكَانَ الْخِبَاءُ مِنْ أَدَمِ

(لويس شيخو، شعراء النصرانية: ١/١٧٩).

وأبانان: جبلان في نواحي البحرين.

(٣) جَوًّا غَدِيًّا: طيب الهواء.

ولم تجن ثماره، وليت شعري، كيف ملك الضلالُ قيادي حتى أشكل عليَّ ما يحتاجُ إليه الممزوجان، ولا يستغنى عنه المتألفان، وهما مازجة طبع، وموافقة شكلٍ وخلق، ومطابقة خيم^(١) وخلق، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف، وَحَمَمْنَا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدين، وبين أمرين متباعدين، وإذا حصَّلت الأمرُ وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنَّجاد^(٢)، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار أقل [ما بيننا من التَّضار، وأكثر ما] بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار.

[حسن التَّأْتِي لِلأُمُور]

قال أسد بن عبد الله لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، فَرَطُ الْخِيَلَاءِ، وهِيَّةُ الْعِزَّةِ، وظلُّ الْخِلَافَةِ، يَكْفُ عَنْ الطَّلَبِ من أمير المؤمنين إِلَّا عَنْ إِذْنِهِ، فقال له: قل، فقد والله أَصَبْتَ مَسَلَّكَ الطَّلَبِ، فسأل حوائجَ كَثِيرَةً قُضِيَتْ لَهُ.

وقال عمرو بن نهيك لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، قد حضر خَدَمُكَ الْإِعْظَامُ وَالْهَيْبَةُ عَنْ ابْتِدَائِكَ بِطَلِبَاتِهِمْ، وما عاقبةُ هَٰذِينَ لَهُمْ عِنْدَكَ؟ قال: عطاءٌ يزيدهم حياءً، وإكرامٌ يكسوهم هَيْبَةً الْأَبَدِ.

قال عيسى بن علي: ما زال المنصور يشاورُنَا في أمره حتى قال إبراهيم بن هرمة فيه:

إِذَا مَا أَرَادَ الْأَمْرَ نَاجَى ضَمِيرَهُ فَنَاجَى ضَمِيرًا غَيْرَ مُخْتَلِفِ الْعَقْلِ
وَلَمْ يُشْرِكِ الْأَدْنَى فِي جُلِّ أَمْرِهِ إِذَا اخْتَلَفَتْ بِالْأَضْعَفِينَ قُوَى الْحَبْلِ

فَقَر فِي ذِكْرِ الْمَشُورَةِ

المشورةُ لِقَاحُ الْعَقْلِ، ورائدُ الصَّوَابِ، وَحَزْمُ التَّدْيِيرِ. المشاورة قبل المَسَاوَرَةِ^(٣).
والمشورة عَيْنُ الْهَدَايَةِ.

ابن المعتز: من رَضِيَ بِحَالِهِ اسْتَرَحَ، وَالْمُسْتَشِيرُ عَلَى طَرَفِ النَجَاحِ.

وله: مَنْ أَكْثَرَ الْمَشُورَةَ لَمْ يَعْدِمْ فِي الصَّوَابِ مَادِحًا، وَفِي الْخَطِإِ عَازِرًا.

(١) الخيم: الطبع والسجية.

(٢) الوهاد: جمع وهدة، وهي ما انخفض من الأرض. والنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض.

(٣) الْمَسَاوَرَةُ: الموائبة، ويقال: ساورته الهموم والهواجس والأفكار: صارعته.

بشار بن برد: المشاور بين إحدى الحسينين: صواب يفوزُ بشمرته أو خطأ يُشارك في مكروهه، وقال: ^(١)

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن بعزم نصيح أو مشورة حازم ^(٢)
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم ^(٣)
وما خير كف أسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم ^(٤)
وخل الهوى للضعيف ولا تكن نؤوما فإن الحر ليس بنائم ^(٥)
وأذن إلى القرب المقرب نفسه ولا تشهد النجوى امرأ غير كاتم ^(٦)
فإنك لا تستطرد الغم بالمنى ولا تبلغ العليا بغير المكارم ^(٧)

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب في حملات لزمته فقال: أيها الأمير، قد عظم شأنك أن يستعان بك أو يستعان عليك، ولست تفعل شيئا من المعروف إلا وأنت أكبر منه، وليس العجب من أن تفعل، بل العجب من ألا تفعل؛ فقضاها.

[تأريخ الكتب والرسائل]

استخلص القاضي أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي رجلا للأئس به، فقال: أُعير ثيابي وأعود، قال: ما أفعل، إيناسك وعد، وإحاشك نقد، وكان أبو خليفة من جلة المحدثين، وله حلاوة معنى، وحسن عبارة، وبلاغة لفظ. قال الصولي: كاتب أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلت التاريخ منها في كتابين، فكتب إلي بعد نفوذ الثاني: وصل كتابك

- (١) بشار بن برد، الديوان: ١٧٥/٤. والأبيات من قصيدة قالها في أبي مسلم الخراساني، وقبل: في الخليفة المنصور، لكنه غير فيها خشية الملاحقة والقتل.
- (٢) «إذا بلغ الرأي المشورة» أي: إذا عرض له من الأشكال ما يدعو إلى المشورة. وفي البيت إشارة إلى مشاورة المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي بشأن أبي مسلم الخراساني حين هم بقتله.
- (٣) يريد أن المشورة تقوي الرأي، مثلما تقوي خوافي الطير قواده.
- (٤) الغل: القيد. وقائم السيف: مقبضه.
- (٥) في الديوان: «فإن الحزم ليس بنائم».
- (٦) في الديوان:
- (٧) العليا (بالمد): اسم للعلو، وقصره للضرورة.

- أَعَزَّكَ اللهُ - مُبَهَّمُ الْأَوَانِ، مُظْلَمُ الْمَكَانِ، فَأَدَّى خَيْرًا مَا الْقَرَبُ فِيهِ بِأُولَى مِنَ الْبُعْدِ؛ فَإِذَا كَتَبْتَ - أَكْرَمَكَ اللهُ تَعَالَى! - فَلَتَكُنْ كِتَابُكَ مَرْسُومَةً بِتَارِيخٍ؛ لِأَعْرِفَ أَذْنَى أَثَارِكَ، وَأَقْرَبَ أَخْبَارِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمودُ اليقين، ونَافِي الشك، به تُعَرَفُ الْحَقُوقُ، وَتُحَفَظُ الْعُهُودُ.

وقال رجل لأبي خليفة سَلَّمَ عليه: ما أَحْسَبُكَ تَعْرِفُ نَسَبِي، فَقَالَ: وَجْهَكَ يَدُلُّ عَلَى نَسَبِكَ، وَالْإِكْرَامُ يَمْنَعُ مِنْ مَسْأَلَتِكَ، فَأَوْجِدْ لِي السَّبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِكَ.

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أَنْ تُفْضِيَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةَ شَيْبَةَ بْنِ شَيْبَةَ، فَانْتَسَبَ لَهُ فَعَرَفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُ شَيْبَةُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي! أَنَا أَحَبُّ الْمَعْرِفَةِ وَاجِلُكَ عَنْ الْمَسْأَلَةِ، فَتَبَسَّمَ أَبُو جَعْفَرٍ وَقَالَ: لَطَفَ أَهْلُ الْعِرَاقِ! أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ [بْنِ عَلِيٍّ] بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، فَقَالَ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي! مَا أَشْبَهَكَ بِنَسَبِكَ؛ وَأَدْلَكَ عَلَى مَنْصَبِكَ.

فَقْرٌ وَأَمْثَالٌ، يَتَدَاوَلُهَا الْعَمَالُ

الْوَلَايَةُ حُلُوةُ الرِّضَاعِ مَرَّةً الْفُطَامِ. غُبَارُ الْعَمَلِ خَيْرٌ مِنْ زَعْفَرَانِ الْعَطَلَةِ.

ابن الزيات: الإرجاف ^(١) مقدمة السكون.

عبد الله بن يحيى: الإرجاف رائد الفتنة.

حامد بن العباس: غرسُ البلوى، يشمر الشكوى.

أبو محمد المهلب: التصرف أعلى وأثنى، والتعطل أَصْفَى وَأَعْفَى.

أبو القاسم الصاحب: وَعَدُّ الْكَرِيمِ، أَلْزَمُ مِنْ دَيْنِ الْغَرِيمِ.

ابن المعتز: ذُلُّ الْعَزْلِ يَضْحَكُ مِنْ تَبِهِ الْوَلَايَةِ. وَقَالَ: ^(٢)

كَمْ تَأْتِيهِ بِوَلَايَةٍ وَيَعَزُّلُهُ رَكْضُ الْبَرِيدِ
سُكْرُ الْوَلَايَةِ طَيِّبٌ وَخُمَارُهَا صَغْبٌ شَدِيدٌ ^(٣)

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٢) ابن المعتز، الديوان: ص ٢٣٧.

(٣) الْخُمَارُ: صَدَاعُ الْخَمَرَةِ. وَقَدْ جَاءَ حَرْفُ الرَّوِيِّ فِي الدِّيَّانِ سَاكِنًا، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

وقال: من ولي ولاية فتاة فيها فأخبره أن قدره دونها. العزل طلاق الرجال وحيض العمال. وأنشدوا:

وَقَالُوا الْعَزْلُ لِلْعَمَالِ حَيْضٌ لِحَاهُ اللَّهُ مِنْ حَيْضٍ بَغِيضٍ^(١)
فَإِنْ يَكُ هَكَذَا فَأَبُو عَلِيٍّ مِنَ اللَّائِي يَسُنُّ مِنَ الْمَحِيضِ^(٢)

منصور الفقيه:

يَا مَنْ تَوَلَّى فَأَبْدَى لَنَا الْجِفَا وَتَبَدَّلَ
أَلَيْسَ مِنْكَ سَمِعْنَا مَنْ لَمْ يَمُتْ فَسَيُعَزَّلُ

وقال أيضاً:

إِذَا عَزَلَ الْمَرْءُ وَاصْلَتْهُ وَعِنْدَ الْوَلَايَةِ اسْتَكْبَرُ
لَأَنَّ الْمُتَوَلَّى لَهُ نَخْوَةٌ وَنَفْسِي عَلَى الذَّلِّ لَا تَصْبِرُ

[من ترجمة منصور الفقيه، وأخباره]

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمي^(٣)، وكان يتفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو حللو المقطعات، لا تزال تذكر له الأبيات مما يُستظرفُ معناه، ويُسْتَحْلَى مغزاه، [ويبقى ثناه]، وهو القائل لما كفَّ بصره:

مَنْ قَالَ مَاتَ وَلَمْ يَسْتَوْفِ مُدَّتَهُ لِعَظَمِ نَازِلَةِ نَالَتُهُ مَعْدُورُ
وَلَيْسَ فِي الْحَكَمِ أَنْ يَحْيَا فَتَى بَلَغَتْ بِهِ نِهَايَةَ مَا يَخْشَى الْمَقَادِيرُ
فَقُلْ لَهُ غَيْرَ مُرْتَابٍ بِغَفْلَتِهِ أَوْ سَوْءِ مَذْهَبِهِ: قَدْ عَاشَ مَنْصُورُ

وعتَبَ على بعض الأشراف، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر ديناراً، فقال:

مَنْ فَاتَنِي بِأَيِّهِ وَلَمْ يَقْنِنِي بِأُمَّهُ

(١) لِحاه الله: قبحه.

(٢) «اللّائي يسُن من المحيض»: هو من قوله تعالى: «وَاللّائِي يَسُنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ» (سورة الطلاق، آية ٤).

(٣) في نسخة: «التيمي».

وَرَامَ شَتْمِي ظُلْمًا سَكَتٌ عَنْ نِصْفِ شَتْمِهِ
وقال:

لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا مِمَّنْ حَادِثِ الْأَزْمَانِ
لَمَا أَخَذْتُ أَمَانًا إِلَّا مِمَّنِ الْإِخْوَانِ
وقال:

رَضِيتُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لِي وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى خَالِقِي
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يُخْبِنُ فِيمَا بَقِيَ
وقال:

لَوْ كُنْتُ مُتَنَفِعًا بِعِلْمِ مَكَ مَعَ مُوَاصِلَةِ الْكِبَائِرِ
مَا ضُرَّ شُرْبُ السِّمِّ وَاعْدَ لَمْ أَنْ شُرِبَ السُّمُّ ضَائِرُ
وقال:

إِذَا الْفُتُوتُ تَأْتَى لَكَ وَالصَّحَّةُ وَالْأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخًا حُزْنٍ فَلَا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

ورأيت له في أكثر النسخ - على أن أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدي، وهو الصحيح :-

لَوْ لَا الْحَيَاءُ وَأَنْتِي مَشْهُورُ وَالْعَيْبُ يَغْلَقُ بِالْكَبِيرِ كَبِيرُ
لَحَلَلْتُ سَنَزِلْنَا الَّذِي نَحْتَلُهُ وَلَكَانَ مَنَزِلُنَا هُوَ الْمَهْجُورُ
وهذا كقول صاحب أبي القاسم:

[دَعَتْنِي عَيْنَاكَ نَحْوُ الصَّبَا دُعَاءٌ يُكَرِّرُ فِي كُلِّ مَاعَةٍ
فَلَوْلَا وَحَقِّكَ عَذْرُ الْمَشِيبِ لَقُلْتُ لِعَيْنَيْكَ سَمْعًا وَطَاعَةً

وقال ابن دريد في معنى البيت الأول فأحسن :-

إِذَا رَأَيْتَ امْرَأً فِي حَالِ عُسْرَتِهِ مُصَافِيًا لَكَ مَا فِي وَدِّهِ خَلَلُ
فَلَا تَمَنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَفِيدَ غَنَى فَلِإِنَّهُ بَانْتِقَالِ الْحَالِ يَنْتَقِلُ

[تغير الحال، بكثرة الأموال]

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق قد نالته عُسرةٌ، ثم وُلِّيَ عملاً، فأتاه محمد قاضياً حقاً ومسلماً عليه، فرأى منه [نبوةً و] تغيراً، فكتب إليه:

لَئِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنَا لَتُكَ ثَرَوَةً وَأَصْبَحْتَ ذَا يُسْرٍ، وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُسْرٍ
لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ خِلَاقَةً مِنَ اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ ثَوْبٍ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أبو العتاهية في عمرو بن مسعدة، وكان له خلاً قبل ارتفاع حاله، فلما علت رُتبته مع المأمون تغير عليه:

غَنِيَتْ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ غَنِيَّتَا وَضَيَّعَتْ عَهْداً كَانَ لِي وَنَسِيَّتَا
وَقَدْ كُنْتُ لِي أَيَّامَ ضَعْفٍ مِنَ الْقَوَى أَبْسَرُ وَأَوْفَى مِنْكَ حِينَ قَوِيَّتَا
تَجَاهَلْتُ عَمَّا كُنْتُ تُحْسِنُ وَصَفَهُ وَمُتَّ عَنْ الْإِحْسَانِ حِينَ حَيِّيَّتَا

من بديع الزمان لابن المرزبان

وكتب بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان فيما ينخرط في هذا السلك: كنت - أطال الله بقاء الشيخ سيدي وأدام عزه - في قديم الزمان أتمنى الخير للإخوان، وأسأل الله تعالى أن يُدِيرَ عليهم أخلاف الرزق^(١)، ويمد لهم أكتاف العيش، ويؤتيهم أصناف الفضل، ويوطئهم أكتاف العز، وينيلهم أعراف المجد، وقصاراي الآن أن أرغب إلى الله تعالى ألا يُيَلِّهم فوق الكفاية، فشد ما يَطْفُونُ عند النعمة ينالونها، والدرجة يعلونها، وسرع ما ينظرون من عال، ويجمعون من مال، وينسون في ساعة اللدونة أوقات الخشونة^(٢)، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة، وللكتاب مزية في هذا الباب؛ فينهم في الغربة أعوان كما انفرج المشط، وفي العطلة إخوان كما انتظم السَّمُطُ، حتى إذا لحظهم الجُدُّ لحظة حمقاء بمنشور عمالة، أو صَكَ جعالة^(٣)؛ عادَ عامر مودتهم خراباً، وانقلب شرابُ عهدهم سَرَاباً، فما اتسعت دُورهم إلا ضاقت صُدُورهم، ولا علت قُدُورهم إلا خبت بُدُورهم، ولا علت أمورهم إلا أسبلت سُتُورهم، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم. ولا هَمَلَجَتْ

(١) الأخلاف: جمع خَلَف، وهي حلمة ضرع الناقة.

(٢) اللدونة: اللين، وقد لَدَنَ الشيء لدانةً ولدونةً: لان، والخشونة ضده.

(٣) الجعالة: ما جُعِلَ على العمل من أجرٍ أو رشوة، والجِعَالُ والجَعَالَةُ واحد.

عِتَاقِهِمْ^(١) إِلَّا فُظِلَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَلَا صَلَحَتْ أحوَالُهُمْ، إِلَّا فَسَدَتْ أفعالُهُمْ، وَلَا كَثُرَ مَالُهُمْ، إِلَّا قَلَّ جَمَالُهُمْ، وَعَزَّ مَعْرُوفُهُمْ، وَوَرَمَتْ أَنْوْفُهُمْ^(٢)، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَصِيرُونَ عَلَى الْإِخْوَانِ مَعَ الْخُطُوبِ خَطْبَاءً، وَعَلَى الْأَحْرَارِ مَعَ الزَّمَانِ أَلْبَاءً. قُصَّارَى أَحَدِهِمْ مِنَ الْمَجْدِ أَنْ يَنْصَبَ تَحْتَهُ تَخْتَهُ، وَأَنْ يُوَطَّىءَ اسْتِهِ دِسْتَهُ، وَحُسْبُهُ مِنَ الشَّرَفِ دَارٌ بِصَهْرُجٍ أَرْضُهَا^(٣)، وَيَزْخَرُفُ بَعْضُهَا، وَيَزُوقُ سَقُوفَهَا، وَيَعْلَقُ شَفُوفَهَا^(٤)، وَنَاهِيَهُ مِنَ الشَّرَفِ أَنْ تَعْدُو الْحَاشِيَةُ أَمَامَهُ، وَنَحْمَلُ الْغَاشِيَةَ قُدَّامَهُ، وَكَفَاهُ مِنَ الْكِرَمِ الْفَاطُ فَقَاعِيَّة^(٥)، وَثِيَابٌ قَدَاعِيَّة^(٦)، يَلْبَسُهَا مَلُومًا، وَيَحْشُوهَا لُومًا، وَهَذِهِ صِفَةُ أَفْضَلِهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَحُكَ الْوَدَّ أَيَّامَ خُشْكَارِهِ حَتَّى إِذَا أَخْصَبَ جَعَلَ مِيزَانَهُ وَكِيلَهُ، وَأَسْنَانَهُ أَرْكِيلَهُ، وَأَنْيَسَهُ كَيْسَهُ، وَأَلْفَيْهِ رَغِيفَهُ، وَأَمِينَهُ يَمِينَهُ، وَدَنَانِيرَهُ سَمِيرَهُ، وَصَنْدُوقَهُ صَدِيقَهُ، وَمِفْتَاحَهُ ضَجِيعَهُ، وَخَاتَمَهُ خَادِمَهُ، وَجَمَعَ الدَّرَّةَ إِلَى الدَّرَّةِ، وَوَضَعَ الْبَدْرَةَ عَلَى الْبَدْرَةِ، فَلَمْ تَقَعْ الْقَطْرَةُ مِنْ طَرْفِهِ، وَلَا الدَّرَّةُ مِنْ كَفِّهِ؛ وَلَا يَخْرُجُ مَالُهُ مِنْ عَهْدَةِ خَاتَمِهِ، إِلَى يَوْمِ مَاتَمِهِ، وَهُوَ يَجْمَعُ لِحَادِثِ حَيَاتِهِ، أَوْ وَارِثِ وَفَاتِهِ؛ يَسْلُكُ فِي الْغَدْرِ كُلَّ طَرِيقٍ، وَيَبِيعُ بِالْدَّرْهِمِ أَلْفَ صَدِيقٍ؛ وَقَدْ كَانَ الظَّنُّ بِصَدِيقِنَا أَبِي سَعِيدٍ - أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّهُ إِذَا أَخْصَبَ آوَانَا كُنْهًا مِنْ ظَلَمِهِ، وَحَبَانًا مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْ لَنَا الْآنَ بَعْدَهُ؟ إِنَّهُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - حِينَ طَارَتْ إِلَى أُذُنِهِ عُقَابُ الْمَخَاطَبَةِ بِالْوَزِيرِ، وَجَلَسَ مِنَ الدِّيْوَانِ فِي صَدْرِ الْإِيْوَانِ افْتَضَّ عُدْرَةَ السِّيَاسَةِ لَدَيْهِ، بَتَعَرُّضٍ بَعْضَ الْمَخْتَلَفَةِ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ يَعْضُضُهُ لِلْهَلَاكِ، وَيَتَسَبَّبُ إِلَيْهِ بِمَالِ الْأَثْرَاكِ، وَجَعَلَتْ أَكَانِيَتِهِ مَرَّةً وَأَقْصِيْدُهُ أُخْرَى، وَأَذْكُرُهُ أَنَّ الرَّكَابَ رُبَّمَا اسْتَنْزَلَ، وَالْوَالِيَّ رُبَّمَا عَزَلَ، ثُمَّ يَجْفُفُ رَبِيقَ الْخُجَلِ عَلَى لِسَانِ الْعُدْرِ، فَتَبْقَى الْحَزَازَةُ فِي الصَّدْرِ، وَمَا يَجْمَعُنِي وَالشَّيْخُ إِنْ كَانَ زَادَهُ قَوْلِي إِلَّا عَلَاؤًا فِي تَحْكِمِهِ، [وَوَغْلًا فِي تَهْكِمِهِ] وَجَعَلَ يَمْشِي الْجَمَزَى^(٧) فِي ظَلَمِهِ؛ [وَيَبْرَأَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ]، فَأَقُولُ - إِذَا رَأَيْتَ ذَلَّةَ السُّؤَالِ مِنِّي وَعِزَّةَ الرَّدِّ مِنْهُ لِي -:

قُلْ لِي مَتَى فَرَزْتُ سُرْعَةً مَا أَرَى يَا بَيِّذَقُ^(٨)

- (١) هَمَلَجَتِ الدَّابَّةُ: سَارَتْ سِرًّا حَسَنًا فِي سُرْعَةٍ.
- (١) وَرَمَ أَنْفُ فُلَانٍ: كُنَايَةٌ عَنْ إِظْهَارِهِ الْكِبَرِ.
- (٣) صَهْرَجُ الْحَوْضِ وَنَحْوُهُ: طَلَاهُ بِالصَّارُوجِ، وَهُوَ خَلِيطٌ يُسْتَعْمَلُ فِي طَلَاءِ الْجُدُرَانِ وَالْأَحْوَاضِ.
- (٤) الشُّفُوفُ: جَمْعُ شِفْتٍ، وَهُوَ الرَّقِيقُ مِنَ الثِّيَابِ.
- (٥) فَقَاعِيَّةٌ: ذَاتُ تَشْدُقٍ.
- (٦) الْقَدْعَةُ مِنَ الثِّيَابِ: الدَّرَاعَةُ الْقَصِيرَةُ لَا تَبْلُغُ السَّاقَيْنِ.
- (٧) الْجَمَزَى: سِرٌّ قَرِيبٌ مِنَ الْعُدُوِّ.
- (٨) الْفَرَزَانُ: قِطْعَةٌ فِي لَعِبَةِ الشُّطْرَنْجِ (الْوَزِيرِ) لَهَا أَهْمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَيُقَالُ لَهُ: «الْفَرَزُ»، وَفَرَزَنُ: صَارَ فَرَزَانًا. وَالْبَيِّذَقُ: قِطْعَةٌ أُخْرَى هَيْئَةً الشَّانِ، وَاللَّفْظَانِ أَعْجَمِيَانِ.

وما أضيع وقتاً فيه أضعته، وزماناً بذكره قطعته، هلم إلى الشيخ وشرعته، فقد نكأ القلب بقرحه، وكيف أصفُ حالاً لا يقرع الدهر مروّة حاله، ولا يتقصّ عروّة إجلاله؛ فما أولاني بأن أذكره مُجَمَّلاً، وأتركه مفضّلاً، والسلام.

رسالة أخرى من البديع لبعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف:

فهمت ما ذكرت - أطال الله بقاءك - من أمر فلان أنه ولي الأشراف، فإن يصدق الطير يكن إشرافاً على الهلاك، بأيدي الأتراك، فلا تحزنك ولايته فالحبل لا يبرم إلا للقتل، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يُرَبَّن إلا للقتل، ولا يركب نفاقه فأرخص ما يكون النقط إذا غلا [وأسفل ما يكون الأرنب إذا علا]، وكأني به وقد شنّ عليه جران العود، شنّ المطر الجود، وقيد له مركب الفجار، من مربط النجار، وإنما جرّ له الحبل، ليُصْفَع كما صُفِع من قبل، ومستعود تلك الحالة إحالة، وينقلب ذلك الحبل حباله، فلا يحسد الذئب على الإلهية يُعْطَاها طعمة، ولا يحسب الحبّ يُثَرُّ للعصفور نعمة، [وهبه ولى إمارة البحرين أليس مرجعه ذلك العقل، ومصيره ذلك الفضل، ومنصبه ذلك الأصل. وعصارته ذلك النسل، وقعيدته تلك الأهل]، وقوله ذلك القول، وفعله ذلك الفعل، فكان ماذا؟ أليس [ما] قد سلب أكثر مما أُوتى، وما عدم أوفر مما غنم! مالك تنظر إلى ظاهره، وتعمى عن باطنه؟ أكان يعجبك أن تكون قعيدته في بيتك، وبغلته من تحتك، أم كان يسرك أن تكون أخلاقه في إهابك، وبوابه على بابك، أم كنت تودّ أن تكون وجعاًؤه^(١) في إزارك، وغلمانه في دارك، أم كنت ترضى أن تكون في مربطك أفراسه، وعليك لباسه، ورأسك رأسه؟ جعلت فداك! ما عندك خير مما عنده، فاشكر الله وحده على ما آتاك، واحمده على ما أعطاك، ثم أنشد:

إن الغنيّ هو الراضي بعيشته لا من يظّل على الأقدار مكتئباً

[في البخل]

بين سهل بن هارون والحسن بن سهل

ألّف سهل بن هارون كتاباً^(٢) يمدح فيه البخل ويدمّ الجود؛ ليظهر قدرته على البلاغة،

(١) الوجعاء: الذُّبُر.

(٢) أنظر كتاب «البخل» للجاحظ، ففيه رسالة سهل بن هارون في البخل، وكان وجهها إلى بني =

وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فَوَقَّعَ عليه: لقد مدحت ما ذمَّه الله، وحسنت ما قبح الله، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معنك، وقد جعلنا نوالك عليه قبول قولك فيه.

وكان الحسن من كرماء الناس وعقلائهم. سئل أبو العيناء عنه، فقال: كأنما خلف آدم في ولده، فهو ينفع عيلتهم، ويسد خلَّتهم^(١)، ولقد رفع الله للدنيا من شأنها، إذ جعله من سُكَّانها.

أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر:

وَكَأَنَّ أَدَمَ كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ أَوْصَاكَ وَهُوَ يَجُودُ بِالْحَوْبَاءِ^(٢)
بَيْنَهُ أَنْ تَرَعَاهُمْ فَرَعَيْتُهُمْ وَكَفَيْتَ أَدَمَ عَيْلَةَ الْإِبْنَاءِ

وأخذ أبو الطيب المتنبّي آخر كلام أبي العيناء فقال: ^(٣)

قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ دُنْيَا أَنْتَ سَاكِئُهَا وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا^(٤)

وقيل للحسن بن سهل: لم قيل: قال الأول، وقال الحكيم؟ قال: لأنه كلام قد مرَّ على الأسماع قَبْلَنَا، فلو كان زِلَالاً لما نُقِلَ إلينا مُسْتَحْسَنًا.

ومن أمثال البخلاء، واحتجاجهم، وحكمهم

أبو الأسود الدؤلي: لا تُجَاوِدِ الله؛ فإنه أجود وأمجّد، ولو شاء أن يوسّع على خَلْقِهِ حتى لا يكون فيهم محتاج فعل. وقال: لو أطعنا المساكين في إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالاً منهم.

وقال الكندي: قول «لا» يدفع البلاء، وقول «نعم» يزيل النعم. وقال: سماع الغناء بِرَمَامٍ حَادٌّ؛ لأن المرأة يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت. وقال لابنه: يا بني، كن مع الناس كالملاعب بالقمار، إنما غَرَضُهُ أَخْذُ مَتَاعِهِمْ، وَحِفْظُ مَتَاعِهِ.

= عَمَهُ مِنْ آلِ رَاهِيُونَ حِينَ ذُفِّرُوا مَذْهَبُهُ فِي الْبَخْلِ، وَعَابُوهُ عَلَيْهِ.

(١) الْعَيْلَةُ: الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ، وَكَذَلِكَ الْخَلَّةُ.

(٢) الْحَوْبَاءُ: النَّفْسُ.

(٣) الْمُتَنَبِّي، الْدِيوان: ٣٣٨/١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الأنطاكي.

(٤) فِي الدِّيوان: «قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِئُهَا».

وقال [غيره]: مَنْعُ الجميعِ أَرْضَى للجميع. إذا قبح السؤال حسن المنع.

وقال عليُّ بن الجهم: مَنْ وَهَبَ فِي عَمَلِهِ فَهُوَ مَخْذُوعٌ، وَمَنْ وَهَبَ بَعْدَ الْعَزْلِ فَهُوَ أَحْمَقُ، وَمَنْ وَهَبَ مِنْ جَوَائِزِ سُلْطَانِهِ أَوْ مِيرَاثٍ لَمْ يَتَعَبْ فِيهِ فَهُوَ مَخْذُولٌ، وَمَنْ وَهَبَ مِنْ كَيْسِهِ وَمَا اسْتَفَادَ بِحِيلَتِهِ فَهُوَ الْمَطْبُوعُ عَلَى قَلْبِهِ، الْمَخْتُومُ عَلَى سَمْعِهِ وَيَصْرَهُ.

ومن إنشاداتهم:

لَا تَجِدُ بِالْعَطَاءِ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَيْسَ فِي مَنْعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلٌ

وقال كثير:

إِذَا الْمَالُ لَمْ يُوجِبْ عَلَيْكَ عَطَاءً حَقِيقَةً تَقْوَى أَوْ صَدِيقٌ تُرَافِقُهُ
مَنْعَتٌ، وَيَعْضُ الْمَنْعُ حَزْمٌ وَقُوَّةٌ وَلَمْ يَفْتَلِكْ الْمَالُ إِلَّا حَقَائِقُهُ^(١)

ابن المعتز: ^(٢)

يَا رَبَّ جُودٍ جَرَّ فَقْرَ امْرِئٍ فَقَامَ لِلنَّاسِ مَقَامَ الذَّلِيلِ
فَاشْدُدْ عُرَا مَالِكَ وَاسْتَبِقْهُ فَالْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ الْبَخِيلِ^(٣)

وكتب بعضُ البخلاء يصفُ بخيلاً: حضرت - أعزك الله - مائدةً فلانٍ للقدر المجلوب، والحين المتاح^(٤)، والشقاء الغالب، فرأيت أواني تروق العيون محاسنها، ويونق النفوس ظاهرها وباطنها، وتزهى اللحظات ببدائع غرائبها، وتستوفي الشهوات بلطائف عجائبها، مكللة بأحسن من حلى الحسان ووجوهها وزهر الرياض ونورها؛ كأن الشمس حلت بساحتها، والبدر يغرف من جوانبها فمددت يداً عننتها الشراة، وغلبها القدر الغالب، وجرها الطمع الكاذب، وإذا له مع كسر كل رغيغ لحظة نُكْر، ومع كل لُقمة نظرة شزر، وفيما بين ذلك حرق قائمة، يصلى بها من حضره من الغلمان والحشم، [وقام بين يديه من الولدان] والخدم، ومع ذلك فترة المغشى عليه من الموت؛ فلما وضعت الحرب أوزارها

(١) لم يفتلك المال: لم يأخذه منك بسرعة. والحقائق: جمع حقيقة، والمراد بها هنا مصارف المال، التي يحق صرفه فيها، مثل الإعانة على مكرمة، أو سد حاجة، أو تنفيس كربة.

(٢) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٨٥.

(٣) يقول: رب كرم أدى بالإنسان إلى الفقر وأذله، فاحتفظ بمالك، فخير لك أن يقال إنك بخيل من أن تطلب من البخيل عطاءً.

(٤) الحين: الهلاك. والمتاح: المقدّر، المهيأ.

برفع الخِوَان، وتخلت عنه سماديرُ الغشيان^(١)، بسط لسانَ جَهْلِهِ، ونصر ما كان من بخله، ونظر إلى مؤاَكِلِهِ، نظر المسترقَّ له بأكلته، المالك لِخَيْطِ رَقَبَتِهِ! يظُنُّ أنه أولى من والديه بنسبته، وأحقُّ بماله، من وَلَدِهِ وعياله، يرى ذلك [فضلاً، وحقاً لازماً، وأمرأً واجباً] نزل به الكتابُ والسنة، واتَّفَقَ عليه قُضَاةُ الأُمَّةِ، فإن دفعه رد حكم القضاة عليه، وإن سَمَحَ به فغير محمود عليه.

فقر لابن المعتز وغيره في الصديق والصدق

إنما سُمِّيَ الصديقُ صديقاً لصدقه فيما يدَّعيه لك، وسُمِّيَ العدو عدواً لِعَدْوِهِ عليك إذا ظفر بك. علامةُ الصديق إذا أراد القطيعةَ أن يؤخر الجواب، ولا يتدَّى بالكتاب. لا يفسدك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوبُ الصديق أُنْمَحَ السرورُ به، وتسَلَطَتِ التهم عليه. من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأُنس أثمرت مودتهُ نداماً. نُصَحَ الصديق تأديباً، ونصحُ العدو تأنيب. ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد، ما جُمِشَ^(٢) الودَّ بمثل العتاب.

تَرَكُ العتابِ - إذا استحقَّ أخُ مِنْكَ العتابَ - ذَرِيعَةُ الهَجَرِ

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى صديق له من الحبس: نحن في الصحبة كالنَّسْرَيْنِ^(٣)، لكني واقع، وعلى الطائر أن يغشى أخاه ويراجع. من قَلَّ صِدْقُهُ قد صَدِيقُهُ. من صدقت لهجته ظهرت حُجَّتُهُ. الصادق بين المهابة والمحبة. من عُرِفَ بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يَجْزُ صِدْقُهُ، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتل العقول.

[كتاب الحسن بن وهب إلى أبي تمام يصف بلاغته]

وكتب الحسن بن وهب إلى أبي تمام الطائي: أنت حفظك الله تَحْتَذِي من البيان في النظام، مثل ما نقصد نحن في الشتر من الإقهام، والفضلُ لك - أعزك الله - إذ كنت تأبه في غاية الاقتدار، على غاية الاقتصاد، في منظوم الأشعار، فتحل معتقده، وتربط متشرده،

(١) السمادير: شيء يترأى للسكران بسبب ضعف بصره الناشئ عن السكر، وهو أيضاً ما يغشى المرء من دوار أو نَعَاس.

(٢) يقال: جَمَشَ نبات الأرض جَمَشاً: حصده، وجَمَشَ رأسه: حَلَقَهُ.

(٣) النسران: نجمان في السماء، يقال لأحدهما: النسر الواقع، ويقال للآخر: النسر الطائر.

وتتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه في قيوده، ثم لا تأتي به مهملاً فيستهم، ولا مشتركاً فيلبس، ولا متحداً فيطول، ولا متكلفاً فيحول؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال؛ فلا أعدمنا الله هداياك وارده، وفوائدك وافدة، وهي طويلة. وفي هذه الرسالة يقول أبو تمام، وقد أرى أنه قال ذلك في غيرها: ^(١)

[لَقَدْ جَلَى كِتَابُكَ كُلَّ بَثٍّ
فَضَضْتُ خِتَامَهُ قَبْلَ جَتِّ لِي
وَكَانَ أَغَضُّ فِي عَيْنِي وَأَنْدَى
وَأَحْسَنَ مَوْعِياً مَنِي وَعِنْدِي
كَتَبْتَ بِهِ بِلَا لَفْظٍ كَرِيهٍ
وَضُمَّنَ صَدْرُهُ مَا لَمْ تُضْمَنْ
فَإِنْ تَكُ مِنْ هَدَايَاكَ الصَّفَايَا
لَيْنٌ غَرَبَتْهَا فِي الْأَرْضِ بِكُراً

جَوٍّ، وَأَصَابَ شَاكِلَةَ الرَّمِيِّ ^(٢)
غَرَابُثُهُ عَنِ الْخَبْرِ الْجَلِيِّ ^(٣)
عَلَى كَيْدِي مِنَ الزَّهْرِ الْجَنِيِّ
مِنَ الْبُشْرِ أَنْتَ بَعْدَ النِّعِيِّ
عَلَى أُذُنٍ، وَلَا لَفْظٍ قَمِيٍّ ^(٤)
صُدُورُ الْغَايَاتِ مِنَ الْحَلِيِّ
فَرُبَّ هَدِيَّةٍ لَكَ كَالْهَدِيِّ ^(٥)
لَقَدْ زُقْتُ إِلَى سَمْعٍ كَفِيِّ

وقال البحرني في الحسن بن وهب: ^(٦)

وَإِذَا تَأَلَّفَ فِي النَّدِيِّ كَلَامُهُ أَلْ
وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ
بِالْلفظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ
حِكْمٌ فَسَائِحُهَا خِلَالُ بَنَانِهِ

حَمْصُقُولُ خِلَتْ لِسَانُهُ مِنْ عَضِيهِ ^(٧)
بَرَقَتْ مَصَابِيحُ الدِّجَا فِي كُتْبِهِ
مِنَا، وَيَبْدُ نَيْلُهُ فِي قُرْبِهِ
مُذْفَقٌ وَقَلِيلُهَا مِنْ قَلْبِهِ ^(٨)

(١) أبو تمام، الديوان: ١٩٠/٢.

(٢) جَلَى: كشف. الْبَثُّ: الحزن. الْجَوِيُّ: المتناول الوقت. شَاكِلَةُ: خاصرة. الرَّمِيُّ: الرميّ بالسهم.

(٣) تَبَلَّجَتْ: ظهرت.

(٤) في الديوان: «وَلَا حِظٌّ قَمِيٍّ». القمي: مخففة من القمي: الدليل.

(٥) الصفايا: المنتخبة. يقول: إن كانت هذه الرسالة من هداياك المختارة، فَرُبَّ هَدِيَّةٍ لَكَ فِي حُسْنِهَا كَالْعُرُوسِ الَّتِي تُهْدَى.

(٦) البحرني، الديوان: ٣٣٥/٢.

(٧) خِلَتْ: ظننت. والعضب: السيف القاطع، ومن عادتهم تشبيه اللسان بالسيف.

(٨) سَائِحٌ: اسم فاعل من ساح الماء ونحوه سباحاً وسبحاناً: سال وجرى. والقلب: البر.

كالروضِ مُؤْتَلَقٍ بِحُمْرَةِ وَرْدِهِ وَأَنْتِ زَهْرَتِهِ وَخُضْرَةُ عُشْبِهِ ^(١)
 أَوْ كَالْبُرُودِ تُخَيَّرْتُ لِمَنْوَجٍ مِنْ خَالِهِ أَوْ وَشْيِهِ أَوْ عَصْبِهِ ^(٢)
 وَكَأَنَّهَا وَالسَّمْعُ مَعْقُودٌ بِهَا وَجْهَ الْمُحِبِّ بَدَا لِعَيْنِ مُحِبِّهِ ^(٣)

أنشد بعضُ الكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلبياً، فاستعادها حتى فهمها، ثم قال: لو سمع الأوائل هذا ما فَضَّلُوا عليه شعراً.

وقال بعض الكتاب:

وَرَسَالَةٍ أَلْفَاظُهَا فِي النِّظْمِ كَالدَّرِّ الشَّيْرِ ^(٤)
 جَاءَتْ إِلَيْكَ كَأَنَّهَا الـ تَوَفَّقُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ
 بَارِقٌ مِنْ شَكْوَى وَأَخْ مِنْ مِثْلِ حَيَاةٍ فِي سُرُورِ
 لَوْ وَاجَهَتْ أَعْمَى لِأَصْدٍ بَحَّ وَهَوَّ ذُو طَرْفٍ بِصِيرِ
 فَكَأَنَّهَا أَمَلٌ سَرَى مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ فِي السُّرُورِ
 أَوْ كَالْفَقِيدِ إِذَا أَتَتْ لِقُدُومِهِ بُشْرَى الْبَشِيرِ
 أَوْ كَالْمَنَامِ لِسَاهِرٍ أَوْ كَالْأَمَانِ لِمُسْتَجِيرِ
 كُتِبَتْ بِحَبْرِ كَالْتَوَى أَوْ كَفَرِ نُعْمَى مِنْ كَفُورِ
 فَكَأَنَّهَا هُوَ بَاطِلٌ مَا بَيْنَ حَقٍّ مُسْتَشِيرِ

وقال أحمد بن أبي العباس بن ثوابة:

فِي كُلِّ يَوْمٍ صُدُورُ الْكُتُبِ صَادِرَةٌ مِنْ رَأْيِهِ وَنَدَى كَفَيْهِ عَنْ مِثْلِ
 عَنْ خَطِّ أَقْلَامِهِ يَجْرِي الْقَضَاءُ عَلَى كُلِّ الْخِلَاقِ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ ^(٥)
 كَأَن أَسْطَرَّةً فِي بَطْنِ مُهْرَقِهِ نَوَّرَ يَضَاحُكَ دَمْعَ الْوَكَافِ الْخَضَلِ ^(٦)

(١) في الديوان: «كالروضِ مُؤْتَلَقاً بِحُمْرَةِ نَوْرِهِ»، و«بياضِ زهرته».

(٢) الخال: الثوب الناعم. الوشي: أصله نقش الثوب، وسمي به نوع من الثياب. والعصب: ضرب من برود اليمن، يُصْنَعُ غَزْلُهُ ثُمَّ يُنْسَجُ.

(٣) في الديوان: «شخص الحبيب بدا لعين محبه».

(٤) الشير: المنشور.

(٥) البيض: السيوف، والأسل: الرماح.

(٦) المهرق: الصحيفة يكتب فيها. والواكف: المطر الغزير. والخضل: الندى.

لُعَابُهُ عِلَلٌ وَالصَّدْرُ يَنْفُثُهَا وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِ النِّفْعُ لِلْعِلَلِ
كَالنَّارِ تُعْطِيكَ مِنْ نُورٍ وَمِنْ حَرِّقٍ وَالْدَهْرُ يُعْطِيكَ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ جَدَلٍ^(١)

وقال آخر:

مِدَادٌ مِثْلُ خَافِيَةِ الْغَرَابِ وَرَقٌّ مِثْلُ رَقَرَاكِ الْغَرَابِ^(٢)
وَأَقْلَامٌ كَأَرْوَاحِ الْجَوَارِي وَأَلْفَاظٌ كَأَيَّامِ الشَّبَابِ

[مثل من بلاغة عمرو بن مسعدة]

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون، وفي يده كتاب، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه بصره ويصوبه، فالتفت إليّ وقد لحظني في أثناء قراءته الكتاب، فقال: أراك مُفَكِّرًا فيما تراه مني! فقلت: نعم، وَفَى اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ المخاوف! قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكنني قرأت كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة، فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه:

كتابي إلى أمير المؤمنين وَمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَجْنَادِ وَالْقَوَادِ فِي الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ عَلَى أَحْسَنِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ طَاعَةٌ جُنْدٍ تَأَخَّرَتْ أَعْطِيَاتُهُمْ، واختلت أحوالهم! ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه [المسألة في الإخبار]، وإعفائه سلطانه من الإكثار. ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر.

وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي:

أَعْنِي عَلَى بَارِقٍ نَاصِبٍ خَفِيَ كَوَحْيِكَ بِالْحَاجِبِ^(٣)
كَأَنَّ تَأَلُّفَهُ فِي السَّمَاءِ يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبٍ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذْكَارُهَا يُهَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَحْنُ لَأَوْطَانِهِ وَيَبْكِي عَلَى عَصْرِهِ الزَّاهِبِ
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى مُطَالَعَةُ الْأَمَلِ الْكَاذِبِ

(١) الجدل: السرور.

(٢) المداد: الحبر. الرق: جلد رقيق يكتب فيه، أو الصحيفة البيضاء.

(٣) الناصب: المتعب، ويقال: عيش ناصب: فيه كد وجهد.

وَصِدْقُ الرِّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ
عَرِيضُ الْفِنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَاءِ
بَنَى الْمَلِكُ طَوْدَ لَهُ بَيْتُهُ
هُوَ الْمُرْتَجَى لِضُرُوفِ الزَّمَانِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ
بِأَدَمِ الرِّكَابِ وَوَشْيِ الثِّيَابِ
نُؤْمِلُهُ لِجِسَامِ الْأُمُورِ
خَصِيبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ
يُرْوَى الْقَنَا مِنْ نُحُورِ الْعِدَا
إِلَيْكَ تَبَدَّتْ بِأَكْوَارِهَا
كَأَنَّ نَعَاماً تَمَادَى بِنَا
يَرُدُّنَ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَجَى
وَلَلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ جَابِرٍ
يُسَاقِي الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى
وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَهُ بِالْعَطَا
وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا
كَسَبَتِ الثَّنَاءَ، وَكَسَبْتُ الثَّنَا
يَقِينُكَ يَجْلُو سُورَ الدُّجَى
وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة.

- (١) الفناء: الساحة في الدار أو بجانبها.
(٢) آدم الركاب: جلودها، الواحد: أديم. الطَّرْفُ: الكريم من الناس والخيال ونحوها. والكاعب: الجارية التي نهد ثديها.
(٣) كارب: اسم فاعل من كرب فلاناً الغمُّ والأمرُ والعبء: اشتد عليه وثقل.
(٤) الأكوار: جمع كور، وهو الرجل بأداته. والحراجيج: جمع حرجوج، وهي السمينة الطويلة من النوق، أو الشديدة الضامرة. واللاحب: الواضح. والمهممة: الفلاة الواسعة.

[الكلام الجيد الطبع، والكلام المصنوع]

قلت: والكلامُ الجيد الطبع مقبول في السمع، قريبُ المَثَال، بعيد المَثَال، أنيق الديباجة، [رقيق الزجاجة]، يدنو من فَهْم سامِعِه، كدَنُوهُ من وهم صانعه، والمصنوع مُتَقَف الكعوب، معتدلُ الأنبوب، يطرُد ماءَ البديع على جَنَبَاتِه، ويجول رَوْنَقُ الحسن في صفحاته، كما يجول السَّحَرُ في الطَّرْفِ الكحيل، والأثرُ في السيف الصَّقيل، وحمل الصانع شعره على الإكراه في العمل وتفتيح المباني دون إصلاح المعاني يعني آثار صنعته، ويطفئ أنوار صيغته، ويخرجه إلى فسادِ التعسف، وَقُبْحُ التكلف؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجِسُه، وتنفضه وساوسُه، من غير إعمالِ النظر، وتلقيق الفكر، يخرجه إلى حَدِّ المشتهر الرث، وحيز الغث؛ وأَحْسَنُ ما أُجري إليه، وأَعْوَلُ عليه، التوسطُ بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة.

وقد قال أعرابي للحسن البصري: علمني ديناً وسيطاً، لا ساقطاً سقوطاً، ولا ذاهباً فروطاً، قال الحسن: أحسنت، خيرُ الأمور أوساطها. والبحثري عن هذا القوس يتزع، وإلى هذا النحو يرجع.

قد تمّ - بعون الله تعالى وتوفيقه - الجزء الثالث من كتاب «زهر الآداب، وثمر الألباب» لأبي إسحاق الحصري، ويليهِ - إن شاء الله تعالى - الجزء الرابع مفتحاً بقول المؤلف «ومن الشعر الذي يجري مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفى» نسأله سبحانه أن يوفق إلى إكماله.

فهرس المحتويات

٥	نبد من ألقاظ بلقاء أهل العصر
٨	نبد من مفردات الأبيات في فرائد المدح
٩	في مجالس الخلفاء والملوك والحكماء والأمراء
٩	بين الموصللي والهادي
١٠	بين الإسكندر ودارا بن دارا
١٠	حكيم يصف أحزم الملوك
١١	أنوشروان يبين سياسة الدولة
١١	واصل بن عطاء يصف أخلاق السفلة
١١	ما يبلغ أقصى درجات الفضل
١١	أحزم الرأي
١٢	حكيم يصف خلال الفضل
١٢	بزرجمهر يصف
١٢	وصية معاوية لزياد
١٢	ومن كلام بلقاء أهل العصر في ذكر السلطان
١٢	للمصاحب
١٢	للمصابي
١٣	للخوارزمي
١٣	للبيستي
١٣	لابن العميد
١٥	لأبي الطيب المتنبي
١٥	بين ابن ميادة وعبد الواحد بن سليمان
١٦	لعوف القوافي يمدح طلحة الزهري
٦	للقطامي يمدح عبد الواحد بن سليمان
١٧	نسب عبد الواحد
١٧	منزلة شعر القطامي

١٨	نغم الألفاظ ونغم الألحان
١٨	بين مخارق وأبي العتاهية
١٨	إسحاق الموصلي يصف جارية للمعتصم
١٨	ويصف المجيد من المغنين
١٩	من ترجمة إسحاق الموصلي
٢٢	استطرد في ذكر جمال الذوائب
٢٢	لابن المعتز
٢٢	لابن النطاح
٢٢	للمتني
٢٣	لابن الرومي
٢٣	لمحمد بن مطران
٢٤	وحدة القصيدة واتساقها
٢٨	السر في الابتداء بالنسب
٢٩	موازنة بين أبي تمام والبحري
٤٠	أثر الغناء والجمال
٤١	عكاشة بن عبد الصمد البصري
٤٢	من وصف القيان
٤٢	لابن الرومي
٤٢	لكشاجم
٤٤	لأبي الحسن بن يونس
٤٤	من ترجمة أبي الحسن بن يونس
٤٥	لابن المعتز في المرأة
٤٥	لكشاجم يصف امرأة
٤٦	ومن ألفاظ أهل العصر في مدح الغناء
٤٦	الأقلام
٤٦	من أخ إلى أخيه وقد أهده أقلاماً
٤٧	من عيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم
٤٨	جواب إسحاق بن إبراهيم
٤٨	لمنصور بن عمار يصف القلم
٤٨	للتجيري في وصف القلم
٥٠	من أخبار التجيري
٥٠	لحمدان الدمشقي يصف قلماً

- ٥٠ وصف القلم الصالح للكتابة
- ٥١ من ترجمة العنابي وأدبه وأخباره
- ٥٧ من آداب آل وهب
- ٦٠ ألفاظ لأهل العصر في ذم الكتاب والكُتّاب والنثر والشعر
- ٦١ وصف الكلام
- ٦١ وصف كلام العرب لعنة بن أبي سفيان
- ٦٢ الناشء يصف شعره
- ٦٢ للناشء في الشعر
- ٦٣ للمؤلف في الشعر
- ٦٤ للخليل بن أحمد في الشعراء
- ٦٤ بين أعرابي وفارسي
- ٦٤ لعمارة بن عقيل وللجاحظ
- ٦٥ لبشار وقد مدح المهدي فلم يجزه
- ٦٥ خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل
- ٦٦ بين العجاج وعبد الملك بن مروان
- ٦٦ المقامة القريضية من مقامات البديع يصف الشعراء
- ٦٨ المقامة الغيلانية من مقامات البديع
- ٧١ ففر في الشعر
- ٧٣ الأحنف بن قيس
- ٧٤ نسب الأحنف
- ٧٥ كلام للأحنف في مجلس معاوية
- ٧٥ صفة الأحنف
- ٧٥ ذكر للنبي فاستغفر له
- ٧٥ من أوصاف الأحنف
- ٧٦ جارية لآل المهلب تنظر إلى الأحنف
- ٧٦ الأحنف يفد على معاوية
- ٧٦ كلامه لمعاوية وقد أراد البيعة ليزيد
- ٧٧ ابن الرومي يذكر حق الشاعر على الكرام
- ٧٨ وفاة الأحنف ورثاء امرأة له
- ٧٩ منصور النمرى
- ٧٩ المعتصم ومحمد بن وهيب الشاعر
- ٨٠ منصور النمرى والعنابي

- ٨١ تقديم الرشيد للنمري وأسبابه
- ٨٢ النمري رافضي
- ٨٣ ابنا المعذل
- ٨٣ أحمد بن المعذل
- ٨٤ بين أحمد وأخيه
- ٨٤ أخذ أحمد بن المعذل للمصلحة
- ٨٥ القطامي يهجو امرأة من محارب
- ٨٧ أم عبد الصمد بن المعذل
- ٨٧ لأبي حكيمة في الرقيق
- ٨٨ لأبي شراعة
- ٨٨ لابن المعذل في إبراهيم بن رباح
- ٨٨ صفات عبد الصمد بن المعذل
- ٩٠ من شعر راشد بن إسحاق بن راشد
- ٩١ عبد الملك بن صالح
- ٩٢ مدح الحقد وذمه
- ٩٢ عبد الملك يمدح الحقد
- ٩٣ لابن الرومي
- ٩٥ بين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد
- ٩٥ رجع إلى عبد الملك بن صالح
- ٩٥ من أخبار عبد الملك بن صالح
- ٩٦ بين الرشيد وعبد الملك وكانا يتسايران
- ٩٦ اعتذار عبد الملك وقد ارتج عليه
- ٩٦ بين يدي الرشيد بعد حبسه
- ٩٧ في مقام الخوف
- ٩٧ بين الرشيد والحسن بن عمران
- ٩٧ بين الرشيد ويزيد بن مزيد
- ٩٨ من الرثاء
- ٩٨ لمسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد
- ٩٨ لمحمد بن أبي عطية يرثي أخاه
- ٩٩ لأعرابي يرثي أعرابياً
- ٩٩ لابن المعتز
- ١٠٠ للبحثري في الحسن بن وهب

- ١٠١ قطر الندى والخليفة المعتضد
 ١٠٢ رجع إلى الرثاء
 ١٠٢ لابن المعتز يرثي ابن ثوابه
 ١٠٣ أيام الشباب
 ١٠٣ لرجل من بني كلاب
 ١٠٤ لأبي حية النميري
 ١٠٤ لابن بسام
 ١٠٤ من ترجمة ابن بسام وأخباره
 ١٠٥ مع الخلفاء
 ١٠٥ بين المأمون وأحمد بن أبي خالد
 ١٠٥ المأمون ومحمد بن داود في حسن الخط
 ١٠٦ من رافة المأمون بعماله
 ١٠٧ بين يزيد بن معاوية وجميل بن أوس
 ١٠٧ مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر
 ١٠٨ جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار في ذكر السلطان
 ١٠٨ ومن كلام أهل العصر وغيرهم في هذا النحو
 ١٠٩ وصف كاتبة
 ١٠٩ وصف غلام كاتب
 ١١٠ من بديع الزمان إلى ابن العميد
 ١١١ بين البديع وأبي القاسم الهمداني
 ١١١ من مقامات بديع الزمان الهمداني
 ١١٢ وصف فص وخاتم
 ١١٢ لأبي الفتح كشاجم
 ١١٣ لبعض المحدثين
 ١١٣ للبحري
 ١١٣ لأبي الفتح كشاجم
 ١١٤ مفاضلة بين الكلام والصمت
 ١١٤ الحنين إلى الأوطان
 ١١٥ ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن
 ١١٥ لابن الرومي في تعليل الحنين إلى الوطن
 ١١٦ وله يشاق إلى بغداد
 ١١٧ لبشار بن برد في حب الوطن

- لبعض الأعراب ١١٨
- لرجاء بن هارون العكي ١١٨
- للإيادي ١١٨
- لأعرابي ١١٨
- لابن ميادة ١١٩
- لأعرابي ١١٩
- ابن الرومي يهجو سليمان بن عبد الله بن طاهر ١٢٠
- ألفاظ لأهل العصر، في وصف الأمكنة والأزمنة ١٢١
- ولهم في ضد ذلك ١٢١
- ولهم في صفات الحصون والقلاع ١٢٢
- ولهم في صفات القصور والدور ١٢٢
- من رسائل الميكالي وشعره ١٢٣
- من شعر الميكالي في تجنيس القوافي ١٢٥
- له في وصف كتاب ورده ١٢٦
- له في وصف الشمع ١٢٧
- لكشاجم في وصف الشمع ١٢٨
- لابن الرومي يذكر متلونا ١٢٨
- في وصف أبي الفضل الميكالي ١٢٩
- ابن أبي دواد بين يدي الواثق ١٣١
- من صفة ابن أبي دُواد، وأخباره ١٣١
- بين أبي العيناء وابن أبي دواد ١٣٢
- قطعة من شعر الأعراب في الغزل ١٣٣
- زيارة طيف الخيال ١٣٥
- عقال بن شبة بين يدي المنصور ١٤٠
- زهير وهرم بن سنان ١٤١
- فضل الشعر ١٤٤
- بعض الأخبار عن أبي تمام ١٤٥
- استنجاز أعرابي موعدة ١٤٦
- معاوية بن يسار ١٤٦
- ألفاظ لأهل العصر، في ذكر الاستطالة والكبر ١٤٨
- من بديع الزمان يشكو الحيري القاضي ١٥٢
- ومن مفردات الأبيات في المعاييب والمقاييب ١٥٦

- ١٥٧ قولهم في اللحن وتعلم العربية
- ١٥٨ لوعة الشوق
- ١٦١ بنو عذرة
- ١٦١ وصف الحسان
- ١٦٢ وصف الهوى، وأمره
- ١٦٤ بعض ما جاء في العفاف
- ١٦٦ ألفاظ لأهل العصر، في محاسن النساء
- ١٦٧ ولهم في محاسن الغلمان والمعذرين
- ١٦٨ ولهم في نقيض ذلك، في ذم خروج اللحية
- ١٦٩ من رسائل البديع ومقاماته
- ١٦٩ من رسالة لمن طلب وداده
- ١٧١ المقامة الأسدية من إنشاء البديع
- ١٧٤ لأبي فراس الحمداني يتغزل
- ١٧٤ لابن المعتز في الغزل
- ١٧٥ لأبي نواس في وصف يوم شرب
- ١٧٧ لأبي العباس الناشيء
- ١٧٧ لأبي خراش
- ١٧٨ أبو خراش يرثي أخاه عروة
- ١٧٩ لابن الرومي
- ١٧٩ لأبي نواس
- ١٨٠ وصف الدمن والأطلال
- ١٨٠ لابن وهيب
- ١٨٠ للأخطل
- ١٨١ لأبي صخر
- ١٨١ لمزاحم العقيلي
- ١٨١ لابن وهيب
- ١٨٢ ومن ألفاظ أهل العصر، في صفة الديار الخالية
- ١٨٢ للمتنبي
- ١٨٣ لعلي بن جبلة
- ١٨٣ للحسين بن الضحاك
- ١٨٣ للمتنبي
- ١٨٤ طول الليل

- ١٨٤ لابن الرومي
- ١٨٤ لبشار
- ١٨٧ أيهما أوصف لطول الليل؟
- ١٨٨ للطرماح
- ١٨٨ لابن بسام
- ١٨٩ لعلي بن الخليل
- ١٨٩ ألفاظ لأهل العصر في طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر
- ١٩٠ ولهم فيما يتصل بضد ذلك من ذكر [إقبال] الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب
- ١٩١ ولهم في ذكر النوم والنعاس
- ١٩١ وفي انتصاف الليل وتناهيه، وانتشار النور، وأقول النجوم
- ١٩٤ أخو الصفاء قريب
- ١٩٧ وصف النجوم
- ١٩٧ لابن هانيء الأندلسي
- ١٩٨ لابن طباطبا العلوي
- ١٩٨ لعلي بن محمد العلوي
- ١٩٩ لتميم بن المَعزّ
- ٢٠٠ من وصف الشراب والكؤوس والثقة في الليل
- ٢٠٣ من المختار من شعر تميم بن المعزّ
- ٢٠٦ عوذ إلى وصف النجوم رجع ما انقطع
- ٢٠٦ للصاحب بن عباد
- ٢٠٧ لأبي علي الحاتمي
- ٢٠٧ للبحثري
- ٢٠٨ للميكالي
- ٢٠٨ لرجل من بني الحارث بن كعب
- ٢٠٩ أجمل ما قال العرب
- ٢١١ ومن ألفاظ أهل العصر في طلوع الشمس وغروبها
- ٢١١ ومتوع النهار وانتصافه، وأبتهائه، وانتهائه
- ٢١١ المقامة الكوفية
- ٢١٣ من رسائل البديع
- ٢١٣ من البديع إلى بعض إخوانه
- ٢١٣ رسالة أخرى من البديع إلى صديق!
- ٢١٣ لأبي الفضل الميكالي

- ٢١٤ من البديع إلى أخيه
- ٢١٤ من ابن العميد لبعض إخوانه
- ٢١٤ جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار
- ٢١٥ رثاء المعتضد، وتمزيته
- ٢١٧ تمزيته في جاريته دريدة
- ٢١٨ من شعر ابن المعتز
- ٢١٩ أبو شجاع
- ٢٢٠ الموفق العباسي
- ٢٢٢ صاحب الزنج
- ٢٢٨ وفد الشام بين يدي المتصور
- ٢٢٩ بعض ما قيل في العفو
- ٢٢٩ تميم بن جميل والمعتصم
- ٢٣١ من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر
- ٢٣١ الخليفة المعتصم
- ٢٣٢ المعتصم يكتب لملك الروم
- ٢٣٢ بين الحجاج وقطري بن الفجاءة
- ٢٣٢ كعب بن معاذ الأشعري عند الحجاج ووصفه بني المهلب بن أبي صفرة
- ٢٣٣ بشر بن مالك عند الحجاج
- ٢٣٣ يصف أبناء المهلب أيضاً
- ٢٣٣ أبو الصقر وصاعد بن مخلد
- ٢٣٣ أبو العيناء وابن ثوبة
- ٢٣٤ من مكارم أبي الصقر
- ٢٣٤ أبو الصقر وأبو العيناء
- ٢٣٤ كتاب من أبي العيناء إلى أبي الصقر
- ٢٣٥ أبو العيناء يذم ابن الخصيب
- ٢٣٥ أبو بكر سيويه وأهل مصر
- ٢٣٧ رجع إلى أبي العيناء
- ٢٣٨ كلمات لأبي العيناء
- ٢٣٨ مما قيل في الرثاء
- ٢٣٨ لأشجع بن عمرو السلمي
- ٢٣٩ للحسين بن مطير في معن بن زائدة
- ٢٤٠ لعبد الصمد بن المعذل في عمرو بن سعيد

- للخنساء في أخيها صخر ٢٤٠
- لجنوب في أخيها عمرو ٢٤٠
- لأبي عبيد الله العتيبي يرثي ابنه ٢٤٢
- لخلف بن خليفة الأقطع ٢٤٣
- لأبي عطاء السندي ٢٤٣
- لأعرابي ٢٤٣
- أم الهيثم السدوسية ٢٤٤
- أبو العيلاء يعزي ٢٤٤
- لأعرابي مات بنوه بالطاعون ٢٤٤
- لمسلم بن الوليد ٢٤٥
- ومن ألفاظ أهل العصر في التعازي وما يتعلق بمعانيها من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب ٢٤٥
- ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذم الدنيا ٢٤٨
- من مقامات بدیع الزمان الهمداني ٢٥٠
- المقامة الأهوازية ٢٥٠
- من رسائل بدیع الزمان الهمداني ٢٥١
- من البديع لأبي القاسم الكرخي ٢٥١
- كتاب آخر من البديع إلى أبي القاسم ٢٥٢
- كتاب منه إلى رئيس هراة ٢٥٣
- كتاب من الصابي لبعض إخوانه ٢٥٤
- لابن الرومي ٢٥٤
- بين أبي العتاهية وابنه ٢٥٥
- فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص ٢٥٥
- الرأي والهوى ٢٥٩
- من البدائنه في مجالس الخلفاء ٢٦٠
- أحوال السفاح ٢٦٠
- لمعن بن أومس ٢٦١
- من رسائل أبي الفضل بن العميد ٢٦٣
- من ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري ٢٦٣
- حسن التأني للأموه ٢٦٨
- فقر في ذكر المشورة ٢٦٨
- تأريخ الكتب والرسائل ٢٦٩
- فقر وأمثال، يتداولها العمال ٢٧٠

٢٧١	من ترجمة منصور الفقيه، وأخباره
٢٧٣	تغير الحال، بكثرة الأموال
٢٧٣	من بديع الزمان لابن المرزيان
٢٧٥	رسالة أخرى من البديع لبعض إخوانه
٢٧٥	في البخل
٢٧٥	بين سهل بن هارون والحسن بن سهل
٢٧٦	ومن أمثال البخلاء، واحتجاجهم، وحكمهم
٢٧٨	فقر لابن المعتمر وغيره في الصديق والصدق
٢٧٨	كتاب الحسن بن وهب إلى أبي تمام بصف بلاغته
٢٨١	مثل من بلاغة عمرو بن مسعدة
٢٨٣	الكلام الجيد الطبع، والكلام المصنوع